

بعض كتب المطبعة الكاثوليكية

كتب مدرسية عربية

القواعد الجلية في علم العربية تأليف الاب جبرائيل اده اليسوعي طبعة جديدة
مصححة مع حواشٍ وهو جزءان

بحث الطالب للسيد جرمانوس فرحات مع حواشٍ عليه لمصحح المعلم سعيد
الخوري الشرتوني

مراقبة الطلاب في مبادي علم الحساب
مسائل مقتطفة في علم الحساب

جداول الافعال

الالفاظ الكتابية لعبد الرحمان الصمداني اعني بضبطه وتهدية احد الابهاء اليسوعيين
مدرس البيان في كلية القديس يوسف

الشهاب الثاقب في صناعة الكتاب انشاء المعلم سعيد الخوري الشرتوني معلم اللغة
وآداب الانشاء في كلية القديس يوسف اقترحه عليه احد الابهاء اليسوعيين
لطائف الاقوال في امثال وقصص مقتطفة افادة للمدارس للاب بوناونتورا
جيرودو اليسوعي

دفاتر لتعليم الخط العربي على طريقة مستحدثة

معرض الخطوط العربية وضع لتمرين احداث المدارس على قراءة ماورد لهم
من اصناف الكتابات ومطالعة عويص الخطوط ومستفلق الرسائل
هدية الاحباب في علم الحساب تأليف ميخائيل اصاف اللبناني

مائة حكاية تأليف كريستوفوروس شعيد معربة بقلم ميخائيل بن فرنسيس المسابكي
مجاني الادب في حدايق العرب جمع احد الابهاء اليسوعيين مدرس البيان في كلية
القديس يوسف سبعة اجزاء

مراقبة المجاني لجامع مجاني الادب جزءان

مختصر الجغرافية تأليف جريد للاب كسافاريوس ابوجي اليسوعي

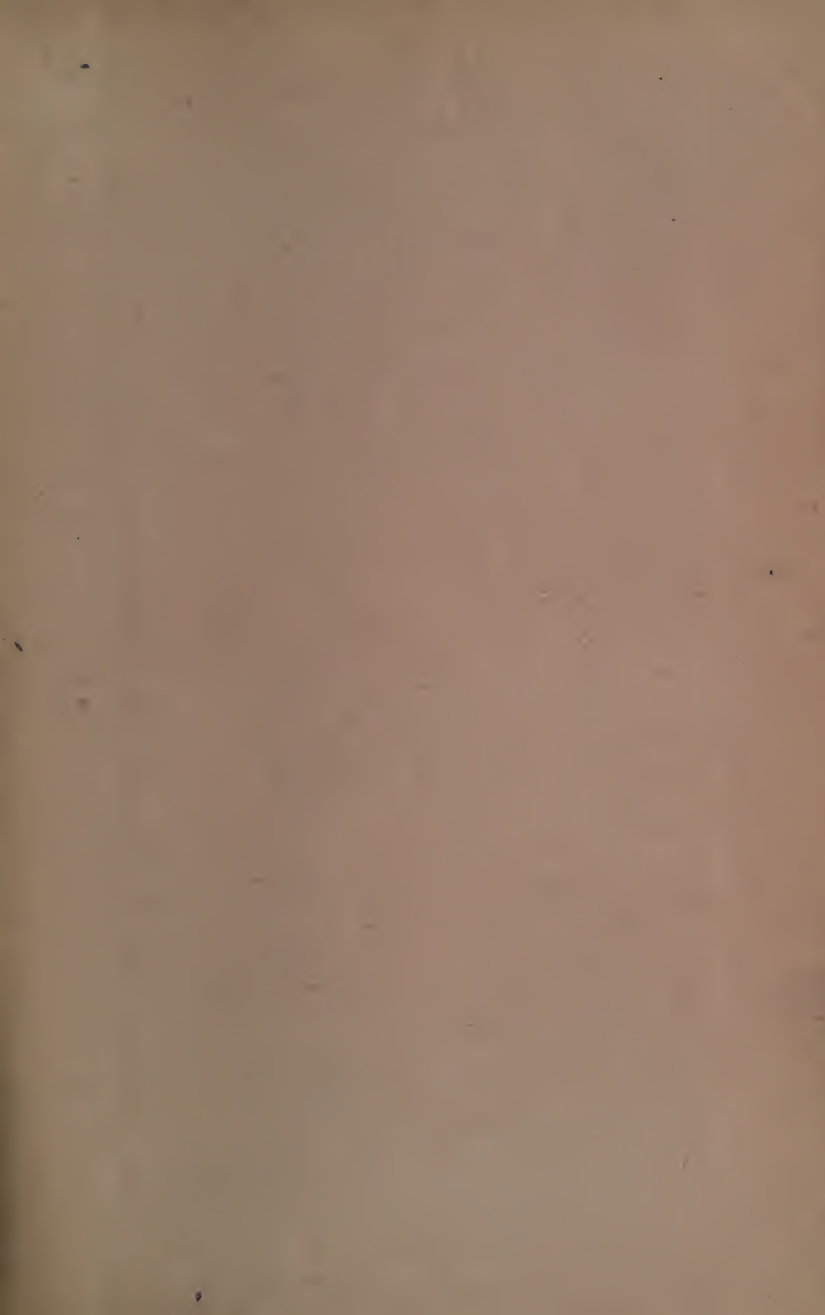
ديوان ابي العتاهية اعني بجمعه وضبطه احد الابهاء اليسوعيين

مختصر في الصرف لشرح جدول الافعال تأليف احد الابهاء اليسوعيين

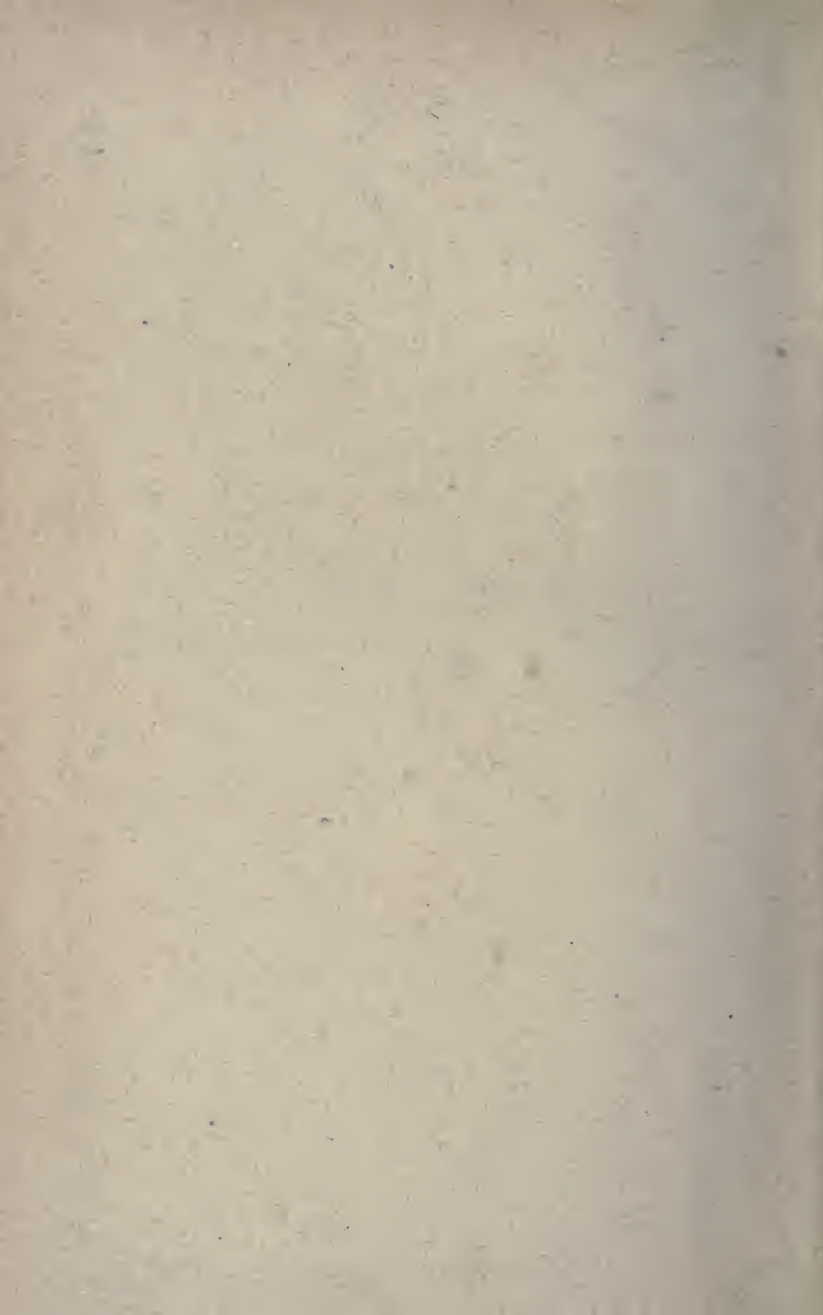
تقارن على كتاب القواعد الجلية في علم العربية تأليف المعلم رشيد الشرتوني

فقه اللغة لابي منصور الثعالبي اعني بجمعه وضبطه احد الابهاء اليسوعيين مدرس

البيان في كلية القديس يوسف







وجه	وجه
البحث الثالث عشر في البدية	البحث السادس في الاقتضاء
٣٨٠ والارتجال	٣٥٤ والاستنجاز
البحث الرابع عشر في اداب	البحث السابع في العتاب
٣٨٥ الشعر	البحث الثامن في الوعيد
البحث الخامس عشر في عمل الشعر	والانذار
٣٩٠ وشخذ القرينة	٣٦٢
البحث السادس عشر في المقاطع	البحث التاسع في الهجاء
٤٠١ والمطالع	٣٦٣
البحث السابع عشر في المبتدا او	البحث العاشر في الاعتذار
٤٠٤ الخروج والنهاية	٣٦٨
	البحث الحادي عشر في سيرورة
	الشعر والحظوة في المدح
	٣٧٢
	البحث الثاني عشر في ما اشكل
	من المدح والهجاء
	٣٧٦



وجه

البحث الثامن في اسطقات الاقاول

٢٨٤

الشعرية

البحث التاسع في صناعة الاشعار

٢٩٤

القصية

البحث العاشر في كيفية التخلص الى

٢٩٥

ما يراد محاكاة

البحث الحادي عشر في انواع

٢٩٦

الحاكة غير المقبولة

الفصل الثاني في معرفة الشعراء

٣٠٠

البحث الاول في القدماء من

٣٠٠

الشعراء

البحث الثاني في المغلّين من

٣١٢

الشعراء

البحث الثالث في المغلّين من

٣١٤

الشعراء

الفصل الثالث في فنون الشعر

٣٢١

البحث الاول في المطبوع

٣٢١

والمصنوع

البحث الثاني في اقسام الشعر

٣٢٧

البحث الثالث في صناعة المديح

٣٢٩

البحث الرابع في الافتخار

٣٤٣

البحث الخامس في الرثاء

٣٤٧

وجه

البحث الرابع في خطب الوعاظ

٢١٦

البحث الخامس في غاية الوعظ

٢٢١

البحث السادس في فوائد الوعظ

٢٢٣

وجعل كثيرين من الخطباء في

٢٢٣

هذا الفن

٢٢٣

البحث السابع في الخطب عند

٢٣١

العرب

٢٤٠

القسم الثاني في علم الشعر

٢٤٠

الفصل الاول في تعريف الشعر

٢٤٠

وانواعه وفوائده

٢٤٠

البحث الاول في تحديد الشعر

٢٤٠

البحث الثاني في صناعة الشعر وانواع

٢٤٣

الاشعار

٢٤٣

البحث الثالث في المديح والهجو

٢٤٧

البحث الرابع في العلل المولدة

٢٤٩

للشعر

٢٤٩

البحث الخامس في وزن الشعر

٢٥٣

ولحنه

٢٥٣

البحث السادس في صناعة المديح

٢٥٨

واجزاها

٢٥٨

البحث السابع في اجزاء صناعة

٢٦٦

المديح من جهة الكمية

وجه

١٦٢

والسعادة

البحث الثامن في انه ينبغي للخطيب

المشير ان يعرف الاشياء النافعة

وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة

الخير مع بعضها ١٧٢

البحث التاسع في اشارة الخيور وفي

شروط تفضيل بعضها على بعض

والاسباب الموجبة لذلك ١٨١

البحث العاشر في ان الخطيب المشوري

ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات

الاربعة ١٩٤

البحث الحادي عشر في ما ينبغي

للخطيب ان يعرفه في النوع التثني

وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذم

وتصرف الخطيب فيهما وفي انواع

الامور الفاضلة والناقصة ١٩٨

الفصل العاشر في انواع الخطب ومن

برع فيها ٢١١

البحث الاول في خطب التهانى ٢١١

البحث الثاني في خطب التقليد ٢١٢

البحث الثالث في الارتجال والبديهة

واشارات الخطيب ٢١٤

وجه

البحث الاول في خواص تعبير

الخطيب ١٢٤

البحث الثاني في بلاغة كلام العرب

وكلام العجم ١٢٦

الفصل التاسع في اجناس الخطابة

الثلاثة ١٣٧

البحث الاول في تقسيم الخطب الى

ثلاثة اجناس ١٣٧

البحث الثاني في غايات الاجناس

الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها ١٣٩

البحث الثالث في مقدمات الجنس

المشوري ١٤٢

البحث الرابع في خمسة امور يدور

عليها البحث في النوع المشوري وفي

القياسات المختلفة بها ١٤٥

البحث الخامس في السبب الذي من

اجله يشير الخطيب وهو سعادة

السامع وفي ماهية السعادة وانواع

الخير التي من مجموعها تتولد

السعادة ١٥٠

البحث السادس في الفرق بين الخير

والسعادة ١٦١

البحث السابع في اقسام الخير

وجه

البحث الاول في مبادئ الخطابة
والافتتاحات ٨٩

البحث الثاني في القضية والقياس ٩٠

البحث الثالث في القياس واقسامه
وانواعه ٩٢

البحث الرابع في ملحقات القياس ٩٥

البحث الخامس في القياسات المستعملة
في الخطابة واخصها القياس الاضاري
والتمثيل ٩٧

البحث السادس في مقدمات القياسات
الخطبية ١٠٢

الفصل السابع في التنفيذ ١٠٨

البحث الاول في المناظرة
والجدال ١٠٨

البحث الثاني في آداب
المناظرة ١١١

البحث الثالث في الجوابات على
الحصم ١١٤

البحث الرابع في المغالطة ١١٥

البحث الخامس في مقاطيع
الكلام ١١٩

الفصل الثامن في التعبير ١٢٤

وجه

الفصل الرابع في آداب الخطابة ٤٢

البحث الاول في آداب كلام
الخطيب ٤٢

البحث الثاني في خصال الخطيب ٤٦

البحث الثالث في طباع الناس على
اختلاف اطوار الحياة ٤٩

البحث الرابع في سياسة الخطيب مع
الجمهور ومواخاة طباعهم ٥٢

الفصل الخامس في الاخلاق
والاهواء ٥٩

البحث الاول في تعريف
الاخلاق ٥٩

البحث الثاني في الاخلاق الحسنة ٦٢

البحث الثالث في الاخلاق
الرديئة ٦٩

البحث الرابع في بعض الاخلاق التي
تكون في بعض الناس فضيلة وفي
بعضهم رذيلة ٧٤

البحث الخامس في الارتياض بمكارم
الاخلاق ٧٩

الفصل السادس في تنسيق الخطابة
وبيان القضية والقياس ٨٩

فهرس

المقالات

وجه

١٢

الجديرة بالخطيب

البحث الثاني في وسائل الاقتناع التي

٢٥

يتخذها الخطيب البليغ

الفصل الثالث في الاقاويل

٢٨

المقنعة

البحث الاول في ان الخطيب لا بد له

للاقتناع من معرفة القياس وعلم

٢٨

المنطق

البحث الثاني في الطريق اي الدليل

٣٠

وتقسيمه

البحث الثالث في المواضع

البحث الرابع في التعريف والحد

٣٣

والرسم

البحث الخامس في الكلي

٣٧

والجزئي

البحث السادس في الجنس والنوع

البحث السابع في تعريف العلّة

٤١

والمعلول

وجه

القسم الاول في علم الخطابة ١

الفصل الاول في تعريف الخطابة

واقسامها ومنافعها ١

البحث الاول في تحديد الخطابة وما

تشتمل عليه بوجه الاجمال ١

البحث الثاني في تعريف الخطابة

وموضوعها ٣

البحث الثالث في المناسبة الموجودة

بين الجدل والخطابة ٤

البحث الرابع في ان الخطابة تتحرّى

للتصديق أكثر منها للتأثير ٥

البحث الخامس في فوائد علم

الخطابة ٧

البحث السادس في ان الخطابة صناعة

اصلها في طبع الانسان ١١

الفصل الثاني في بلاغة الخطيب ١٢

البحث الاول في تعريف البلاغة

وَبَجَرِ أَبُو الْمِنْسِكِ الْحِضْمُ الَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُكَّابٌ
يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو الْمِنْسِكِ وَهَذِهِ غَايَةُ التَّصْنُعِ وَالتَّكْلِيفِ. وَمِنْ
الْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ الْقَصِيدَةَ فِيقْطَعُهَا وَالنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ
وَلَهَا مُشْتَبِهَةٌ وَيَبْقَى الْكَلَامُ مَنْشُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَدَّدْ جَفَلَهُ خَاتَمَةٌ
كُلُّ ذَلِكَ رَغْبَةٌ فِي اخْتِذِ الْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةً أَمْرِي الْقَيْسِ كَيْفَ
خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ السَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ الْمَطَرِ :

كَانَ السَّبَاعُ فِيهِ غَرَقٌ غُدِيَّةٌ بِأَرْجَانِهِ الْقُضْوَى عَنَابِيشُ عُصْلٍ
فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ
وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ الْخُذَّاقُ مِنَ الشُّعْرَاءِ خَتَمَ الْقَصِيدَةَ بِالْدُّعَاءِ
لَأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الضَّعْفِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذَلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ
مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ يَذْكُرُ الْخَيْلَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ
فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلٍ
فَإِنَّ هَذَا يُشَبِّهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَابِحُ الْأَمِيرَ
فَيَقُولُ « لَا صَبَّحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ » وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ
« إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا » وَيَأْسِيهِ فَيَقُولُ « لَا مَسَّى اللَّهُ الْأَمِيرَ
بِنِعْمَةٍ » ثُمَّ يَقُولُ « إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرِ مِنْهَا » وَتَحْوُ هَذَا فَلَا يَدْعُو
لَهُ حَتَّى يَدْعُو عَلَيْهِ وَمِثْلُ هَذَا قَبِيحٌ لَأَسِيًّا مِنْ مِثْلِ أَبِي الطَّيِّبِ



وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ النَّاقَةِ وَالْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى
تَرَلْتُ بِفَنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَ ذَلِكَ . وَأَمَّا الْإِنْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةٌ
الْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي الْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا
لَا يُمَكِّنُ الزِّيَادَةَ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَحْسَنُ مِنْهُ . وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ
الشَّعْرِ مُفْتَحًا لَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ أَرَى أَبُو
الطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةٍ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الثَّلَاثَةِ إِلَّا أَنَّهُ
رُبَّمَا عَقَّدَ أَوَائِلَ الْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَإِغْرَابًا عَلَى النَّاسِ كَقَوْلِهِ أَوَّلُ
قَصِيدَةٍ :

وَقَالُوا كَمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ بِأَنْ تُسْعِدَا وَالْدَمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِحُهُ
فَإِنَّ هَذَا يَحْتَاجُ الْأَضْمَعِيَّ إِلَى أَنْ يُقَسِّرَ مَعْنَاهُ . وَيَقَعُ لَهُ فِي
الخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ أَوَّلِي بِهِ وَأَشْعَرُ لَهُ وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ
الْإِغْرَابِ فِي بَابِ التَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِالْفَتْحِ الْبَارِدِ وَالتَّشْنِيعِ الْمُتَبَكِّفِ
نَحَرَ قَوْلِهِ :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَعْلُ ثِيْرًا وَأَبْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعَا
فَهَذَا مِنَ الْبَشَاعَةِ وَمِنَ الشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَحْتَقِي عَلَى أَحَدٍ . وَمَا
أُظْهِرَهُ سَرَقَ هَذَا أَلْعَنَى الشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ أوردَهَا أَبُو
الْعَنَبَسِ الصَّمِيرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ قَزَعَمَ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَجُلًا
نَامَ فَجَرَهُ النَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ أَبُو الطَّيِّبِ مَكَانَ الرَّجُلِ
جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا الْإِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ . وَقَالَ أَيْضًا :
أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجُ سَاجِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

يَقَعُ مِنْ هَذَا النَّوعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ النَّسِيبِ مِنْ مَدْحِ
مَنْ يُرِيدُ الشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ الْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا
كَانَ فِيهِ مِنَ النَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ
أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ الَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذَلِكَ فِي وَسْطِ النَّسِيبِ
مِنْ قَصِيدَةٍ :

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى

مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ

مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوَدَادِ وَلَا غَدْتُ

نَفْسِي عَلَى الْفِ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ :

بِحُكْمِ بْنِ أَهْلِيكُمْ بِنِ شَبَابَةٍ حَجَدْتُ إِلَى جَنْبِ السَّمَاءِ مُقِيمٌ

وَيَسْتَسَى هَذَا النَّوعُ الْإِلَامَ. وَكَانَتْ الْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هَذِهِ

الْمَذَاهِبَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاعِهِمْ مِنْ نَفْتِ

الْإِلْبِلِ وَذِكْرِ الْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعَا وَوَعَدَ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ

فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ أَلْسِدَةً أَتَيْدَاءَ لِلْكَلَامِ الَّذِي يَقْصِدُونَهُ

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ الشَّاعِرِ إِلَى الْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْقَطِعًا

بِقَوْلِهِ : دَعَا وَوَعَدَ عَنْ ذَا وَخَوَّ ذَاكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَانْقِطَاعًا. وَكَانَ

الْجُثْرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ :

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمْتُ مِنْ أَلْمِ أَهْوَى لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلٌ

إِنَّ الرِّعْيَةَ لَمْ تَرَلْ فِي سِيرَةِ مَحْمُودَةٍ مَذْ سَاسَهَا أَلْتَوَكَّلُ

فَلَفْظَةُ الشَّكْوَى تُحْمَلُ عَنْهُ كَمَا حُمِلَتْ عَنْ أَبِي نُوَّاسٍ
وَأَوَّلَى الشَّعْرِ بَانَ يُسَى تَخَاصُّ مَا تَخَلَّصَ فِيهِ الشَّاعِرُ عَنْ مَعْنَى
إِلَى مَعْنَى ثُمَّ عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ وَأَخَذَ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ
فِيهِ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذَّنْبِيَّيْنِ آخِرَ نَسِيبٍ قَصِيدَةٍ اعْتَذَرَ بِهَا إِلَى
النُّعْمَانِ :

فَكَفَفْتُ مَنِيَّ عَذْرَةً فَرَدَدْتُهَا

عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ

عَلَى حِينَ عَانَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبِيِّ

وَقُلْتُ أَلَّا أَخْضَعُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ

ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَى الْأَعْتِدَارِ فَقَالَ :

وَلَكِنَّ هُمَا دُونَ ذَلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ الشَّغَافِ تَبَتَّغِيهِ الْأَصَابِعُ

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ آتَانِي وَدُونِي رَأَيْسُ قَالِضُوْاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِنْدَ مَا سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ فَقَالَ :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْئِلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا أَلَمٌ نَاقِعٌ

يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّامِّ سَلِيمُهَا حَلِيَّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَا قَعُ

فَوَصَفَ الْحَيَّةَ وَالسَّلِيمَ الَّذِي شَبَّهَ نَفْسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ

مِنَ الَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

آتَانِي أَبْنَتُ اللَّغْنِ أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ أَلَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا السَّمَاعُ

ثُمَّ أَطْرَدَ لَهُ الْقَوْلُ مَا شَاءَ مِنْ تَخَلُّصٍ إِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى أَنْقَضَتْ

الْقَصِيدَةَ وَهُوَ مَا اشْرَتْ إِلَيْهِ غَيْرُ خَافٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ

وَكَثُرَ النَّاسُ اسْتِعْمَالًا لِهَذَا الْقَوْلِ أَبُو الطَّيِّبِ فَإِنَّهُ مَا يَكَادُ
يَسُدُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قُبِحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:
هَذَا فَانْظُرِي أَوْ قُطِّعِي لِي تَرِي حُرْقًا

مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَالَا
عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي

إِلَى أَلَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا
فَقَدْ تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْأَمِيرُ لَهُ قَوَادًا وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ:
سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هُوَ أَنَا لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
فِي شَيْءٍ لِأَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اتَّبَعَ ذَلِكَ ذِكْرَ
الْمَاءِ وَالسَّحَابَةِ فَقَالَ:

أَمِيرُ رَأَيْتُ الْمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينًا النَّفْسَ بِالضَّمِّ مُوقِنًا
وَكَاثَهُ أَشَارَ إِلَى أَنَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِالْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ
وَيُجْزَلُ عَطِيَّتُهُ فَيَتَرَوُّجُهَا أَوْ يَتَسَرَّاهَا. وَأَبُو الطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ
وَالشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اتَّبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوِّ لِعَنَاهُ فِي
الْقِيَادَةِ فَقَالَ:

أَيَقُنْتُ أَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمَحِ مُعْقِلًا
فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَشْفَعُ فَإِنْ أُجِيبَ إِلَى مُسَاعَدَةِ أَبِي الطَّيِّبِ
فَذَلِكَ وَالْأَرَجُ رَجَعَ إِلَى الْقَهْرِ وَالَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ أَبِي نُوَّاسٍ قَوْلُهُ:
أَحِبُّ الَّذِي فِي الْبَدْرِ مِنْهُ مِثَابُهُ

وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلٌ

عَلَيْهِ جَوْرًا بَيِّنًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو نَمَامٍ فَحْمَ
الْإِبْتِدَاءِ لَهُ رَوْعَةٌ وَعَلَيْهِ أُبْهَةٌ كَقَوْلِهِ :

الْحَقُّ أَنْبَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارُ فَحَذَارُ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ
وَقَوْلِهِ أَيْضًا :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

فِي حَدِيثِ الْحَدِّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رُبُّعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومٍ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ

وَجَهَارَةُ الْإِبْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بَشْرِ الْأَمْدِيِّ يُفَضِّلُ ابْتِدَاءَاتِ
الْبُخَّارِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمَوَازِنَةِ وَالتَّرْجِيمِ بَيْنَ
الطَّائِفِينَ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُخَّارِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهِ وَمِنْ جَيْدِ ابْتِدَائِهِ
قَوْلُهُ :

عَارَضْنَا أَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبُّ حَتَّى آضَاءُ الْأَتْقَوَانِ الْأَشْنَبُ
وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنِكَ آتِي لَا أَسْلُو » وَقَوْلُهُ « نَرَى عَنْدهُمْ
عِلْمًا بِشَجْوِي وَآدَمِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عَنْدهُمْ شَيْءٌ بِالْإِسْطِرَاقِ
وَلَيْسَ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَذْحٍ أَوْ
غَيْرِهِ بِطُفٍّ تَحْيِيلٍ ثُمَّ تَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ
الْبُخَّارِيِّ :

سُقِيتَ رُبَّاكَ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبَلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومًا
وَلَوْ أَنَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ أَلْمَنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرَاهِيمَا

أَعَزَّ شَعْرَكَ الْأَطْلَالَ وَالْمَذِلَّ الْفَقْرَ
 فَقَدْ طَالَ مَا إِنْ رَأَيْتَ نَعْتُكَ الْخُمْرَا
 دَعَانِي إِلَى نَعْتِ الطَّلُولِ مُسَلَّطُ
 يَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَسْرَا
 فَسَمِعَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَآءَةً

وَأَنْ كُنْتَ قَدْ جَسَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَغَرَا
 فَجَاءَ هُوَ بَانَ وَصَفَ الْأَطْلَالَ وَالْفَقْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ
 الْإِمَامِ وَالْأَفْهَمُ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَإِنْ فِي اللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وَلَوْعِهِ
 بِالشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ «لِسَانُ
 الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفُؤَادِ» وَمِنْ عُيُوبِ هَذَا أَلْبَابِ أَنْ يَكُونَ النَّسِيبُ
 كَثِيرًا وَالْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَضَعُ بَعْضُ أَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ الْإِبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ
 بَاقِيَ الْقَصِيدَةِ وَكَثَرَتْهُمْ فَعَلًا لِذَلِكَ الْبُحْثِيُّ كَانَ يَضَعُ الْإِبْتِدَاءَ
 سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكَلِمًا تَمَادَى قَوِي كَلَامُهُ وَأَنَّهُ مِنْ جَيْدِ
 الْإِبْتِدَاءِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَغَالِبٌ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ أَنْ
 الْقَاضِي الْجُرْجَانِي فَضَلَ بِجُودَةِ الْإِسْتِهْلَالِ وَهُوَ الْإِبْتِدَاءُ عَلَى أَبِي
 تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَّلَهُمَا بِالْخُرُوجِ وَالْحَاقِمَةِ وَلَسْتُ أَرَى
 لِذَلِكَ وَجْهًا إِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَإِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا إِبْتِدَاءً
 جَيْدًا بِإِبْتِدَاءِ لَارَبِّي وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَأَمَّا الْحَاقِمِيُّ فَإِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ أَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى الْأَيْلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ التَّهَيُّبِ بِذِكْرِ
الْحَيْلِ وَتَعَاطِي الشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ
مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

وَيَوْمَ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَثَلُهُ

أَرَأَيْتَ فِيهِ الشَّمْسُ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذُنِي أَعَزُّ كَأَنَّهُ

مَنْ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكَبُ
وَلَيْسَ مِنْ عَادَةٍ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ
قِلَّةً فَالْوَاجِبُ اجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةٌ لَاسِيَمًا إِذَا كَانَ
الْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدٍ الْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرُ
النَّاقَةِ وَالْفَلَاةِ

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَفْهَمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذَلِكَ عِنْدَهُمْ
هُوَ الْوُثْبُ وَالْبَثْرُ وَالْقَطْعُ وَالْكُسْعُ وَالْإِقْتِصَابُ كُلُّ ذَلِكَ يُقَالُ
وَالْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ بَثْرَاءً كَالْخُطْبَةِ الْبَثْرَاءُ
وَالْقَطْعَاءُ وَهِيَ الَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الْخُطْبِ
كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالْتَّسِيبُ الْمَقْدَمُ » فَأَنْكَرُوا
الْتَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هَذَا الْبَابَ وَفَتَحَ هَذَا الْمَغْنَى أَبُو
نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكُ لَيْلِي وَلَا تَطْرُبْ إِلَى هَيْدٍ » وَقَوْلُهُ عِنْدَ
الْحَاجَتِي فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ابْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنْ
الْأَقْدَمَاءِ وَالْأَخْدَثِينَ :

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِزُرْدِهِ سَفَوَاءُ تَزْدِي بِنَسِيمِ وَحْدِهِ
تَقْدَحُ قَيْسُ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ
إِلَّا أَنْ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هَذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ أَنَّهُ قَصَدَ الْمَدُوحَ
رَاجِلًا إِمَّا إِخْبَارًا بِالْصِدْقِ وَإِمَّا تَعَاطِي صَعْلَكَةٍ . قَالَ أَبُو نُوَّاسٍ
لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

إِلَيْكَ أَبَا الْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا أَمْتَطَيْنَا الْخَضْرَمِيَّ الْمُلْسَنَا
قَلَائِصُ لَمْ تَعْرِفْ حَيِّثَا عَلَى طَلَا

وَلَمْ تَذَرِ مَا قَرَعُ الْفَنِيْقِ وَلَا أَلْهَنَا
فَذَكَرَ أَنَّ قَلَائِصَهُمُ الَّتِي أَمْتَطَوْا إِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِالْتِعَالِ
وَأَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ الْغَزْرِ وَاتَّبَعَهُ أَبُو الطَّيِّبِ فَقَالَ :
لَا نَأْقِي تَحْمِلُ الرَّدِيفَ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدَهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا
وَقَالَ كَرَّةٌ أُخْرَى فِي مِثْلِ ذَلِكَ يَنْشَكِي :

وَمَنْعَهُ جُبُثُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجُزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدُّلُلُ
وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ فَإِنَّ أَبَا نُوَّاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ لَكِنْ أَرَادَ أَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصْدُهُ فِي حَاجَتِهِ
مُحْتَذِيًا تَعْلِيهِ لَكَانَ أَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ الْخَضْرَمِيُّ مِنَ الْجُلُودِ
مُخْصُوصًا بِهِ الْمَسَافِرُ دُونَ الْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ الْكَلَامِ أَنَّ مَقْصِدَ
الشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الطَّيِّبِ الْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

الرَّيْحُ وَلَا تَحْضُوها إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمَكِّنُ
أَنْ يَعْيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْحَيْلِ وَأَحْسَنُ مَا اسْتَعْمَلَهُ الْمُؤَلَّدُونَ
الْمُحْدَثُونَ مَا نَأْسَبُ قَوْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ :

سَقَى اللَّهُ قَضْرًا بِالرُّصَاقَةِ شَاقِي بِأَعْلَاهُ قَضْرِي الدِّيَارِ رُصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ الدَّرِّ قُمِعَتْ يَوَاقِيتُ نُحْمَرًا فَاسْتَبَاحَ عَمَّافِي
وَكَانَتْ دَوَابُّهُمْ الْإِبِلَ يَكْثُرَتْهَا وَعَدَمَ غَيْرَهَا وَصَبَرَهَا عَلَى
الْتِّعَابِ وَقِلَّةِ الْمَاءِ وَالْعَلْفِ فَلِهَذَا أَيْضًا حَضُّوْهَا بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ
يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِالْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ
الْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى أَمْرًا الْقَيْسَ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ
الْبَرِيدِ وَالْفَرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ الْإِبِلِ لِلْعَادَةِ الَّتِي
جَرَتْ عَلَى السَّيِّئِينَ فَقَالَ يَصِفُ رَجُلُهُ إِلَى قَيْصَرَ :

إِذَا قُلْتُ رَوْحًا أَرَنْ فُرَانِقٌ

عَلَى هَزَجٍ وَاهِي الْأَبَاجِلِ ابْتَرَا
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ الذَّنَابِي مُعَاوِدِ
بَرِيدَ السَّرَى بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْرِ بَرَبَرَا
إِذَا رُغِمَتْهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كَلَيْمَهَا

مَشَى الْهَيْدَتَى فِي دَقِّهِ ثُمَّ فَرَفَرَا
كَانَتْ الْحَيْلُ الْبَرَبَرِيَّةُ تُهْلَبُ أَذْنَابُهَا كَالْغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاجِلَهَا
فِي خِدْمَةِ الْبَرِيدِ وَلَيَعْلَمَنَّ أَنَّهُمَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ابْنُ مِيَادَةَ فِي ابْنِ
هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا :

الَّذِي لَا أَشْكُ أَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَضَعَ ذَلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا
 عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ. وَلِلشُّعْرَاءِ مَذَاهِبُ فِي افْتِتَاحِ الْقَصَائِدِ
 بِالنَّسِيبِ إِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ الْقُلُوبِ وَاسْتِدْعَاءُ الْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا
 فِي الطَّبَاعِ مِنْ حُبِّ الْغَزْلِ وَالْمِيلِ إِلَى الْهَوَى فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ
 إِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ أَهْلِ الْبَلَادَةِ ذِكْرُ
 الرَّحِيلِ وَالْإِتِّقَالِ وَتَوَقُّعُ الْبَيْنِ وَالْإِشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ الطُّلُولِ
 وَالْحُمُولِ وَالْإِبِلِ وَلَمْعُ الْبَرْقِ وَمَرَّ النَّسِيمِ وَذِكْرُ أَلْيَاسِهِ الَّتِي يَلْتَقُونَ
 عَلَيْهَا وَالرِّيَاضِ الَّتِي مِنْ خَزَامَى وَأُفْحَوَانِ وَبَهَارِ وَعَرَارٍ وَمَا أَشْبَهَ
 مِنْ زَهْرِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَهْلُ الْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي الصُّدُودِ
 وَالْهَجْرَانِ وَالرُّقْبَاءِ وَمَنْعَةِ الْحَرَسِ وَالْأَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ الشَّرَابِ
 وَالنَّدَامَى وَالنَّسْرِينَ وَالنَّيْلُوفِ وَمَا شَاكَ ذَلِكَ مِنَ النَّوَائِرِ الْبَلَدِيَّةِ
 وَالرِّيَاحِينَ الْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ الْتَفَاحِ وَاللَّحْمَةِ بِهِ وَدَسِّ الْكُثْبِ
 وَمَا شَاكَ ذَلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْقَرِدُونَ بِهِ

وَالْعَادَةُ أَنْ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ الْمَفَاوِزِ وَمَا أَنْصَى مِنْ
 الرِّكَائِبِ وَمَا تَجَسَّمْ مِنْ هَوْلِ اللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ النَّهَارِ وَهَجِيرِهِ
 وَقِلَّةِ الْمَاءِ وَغُورِهِ. ثُمَّ يُخْرِجُ إِلَى مَدْحِ الْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ
 الْقَصْدِ وَدِمَامَ الْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ الْمَكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا أَصْحَابَ
 خِيَامٍ يَلْتَقُونَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرٍ فَلِذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ
 أَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَأَنِّيَّةِ الْحَاضِرَةِ
 فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ الْحَضَرِيِّ الدِّيَارِ إِلَّا مَجَازًا لِأَنَّ الْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

وَالشَّرَابِ فَرُفَعًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَرْحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِقِيَّةِ
يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهَذَا شَأْنُ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ أَكْثَرُ
النَّاسِ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ الْعُمُرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمَكِّنُ
فَقَالُوا : عِشْ أَبَدًا وَاسْلَمْ مَدَى الدَّهْرِ وَأَبْقِ بَقَاءَ الزَّمَانِ . وَأَعْرَضَ
النُّقَادُ فِي ذَلِكَ وَاخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَتَّخِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ
أَبِي نُوَّاسٍ :

يَا أَمِينَ اللَّهِ عِشْ أَبَدًا دُمَ عَلَى الْآيَامِ وَالزَّمَنِ
أَنْتَ تَبْقَى وَالْفَنَاءُ لَنَا فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنْ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلُهُ فَإِذَا خَرَجَ الْكَلَامُ عَنْ حَدِّ الْإِمْكَانِ فَأَتَمَّا
يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ الْعَاقِبَةِ لَا غَيْرُ ذَلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوَّاسٍ
الَّذِي أَسَاءَ فِيهِ آدَبُهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ أَنْ بَغَضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنِي
دَارًا اسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَأَنْتَقَلَ إِلَيْهَا . فَصَنَعَ أَبُو نُوَّاسٍ لِذَلِكَ
الْحَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يمدحُهَا وَيَقُولُ أَوْلَهَا :

أَرْبَعَ إِلَيَّ إِنْ الْخُشُوعَ لَبَادٍ عَلَيْكَ وَإِيَّيَ لَمْ أَخُحْكَ وَدَادِي
وَحْتَمَهَا أَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا قُدِّمْتُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي
قَطِيرٍ الْبَرْمَكِيِّ وَأَشْمَارٍ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ إِلَيْنَا أَنْفُسًا يَا أَبَا
نُوَّاسٍ فَمَا كَانَتْ إِلَّا مُدِيدَةً حَتَّى أَوْقَعَ بِهِمُ الرِّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمُ
الطَّيْرَةُ . وَزَعَمَ أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ قَصَدَ التَّشَارُفَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ
مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ جَيْدِ شِعْرِهِ

ذَلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يَمَازِحُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي الشَّاعِرُ بِهِذِهِ
الْأَشْيَاءَ إِمَامًا مِنْ عَقْلَةٍ فِي الطَّبَعِ أَوْ مِنْ اسْتِغْرَاقٍ فِي الصَّنْعَةِ
وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِالْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ الْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ.
وَالْفُطْنُ الْحَازِقُ يَخْتَارُ لِلْأَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ
الْمُحَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مُحَابَبَهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ
وَيَتَّقِدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ
قَالَ لِأَحَدِ الشُّعْرَاءِ وَقَدْ أوردَ بَيْنَا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِدَ أَحَدٌ لِكَرَمٍ
لَكُنْتُ مُخْلِداً بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هَذَا . فَقَالَ الْمَلِكُ : إِنَّ
الْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَامُنَّ مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ أَنَّ الْمُلُوكَ تَكَرَّرَ مَا يُسَكِّدُ عَيْنَهَا
وَيُعِصُّ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِيهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ

وَمِنْ الْمَشْهُورِ أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُثَنِّرِ أَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَقَّةً
الْأَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنِ كَثِيرِ الشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَإِلَيْهِ
أَضِيفَتْ قَتِيلَ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ . فَذُلَّ قَاسِرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
فَأَحْضَرَا وَجَاسَ لِلدَّيَّةِ . فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعَبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ :
أَتَعْرِفُ آيَةَ اللَّعْنِ مَا تَقُولُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ . قَالَ : وَمَا تَقُولُ . قَالَ
تَقُولُ :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
عَطَفَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ قَتُّوْا وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ
مَنْ رَأَى فَلْيُؤْطِنْ نَفْسَهُ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَى قَرْطِ الزُّوَالِ
كَأَنَّهُ قَصْدٌ مَوْعِظَةٌ فَغَضَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَاسَرَ بِالطَّعَامِ

فَدَهَشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذَلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَاخُذٍ بِمَا قِيلَ
وَلَا هُوَ بِمَا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْنًا. وَلَا يَلْزِمُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنْ الْحَوَاطَةَ
وَالْتَحْفُظَ مِنَ النُّجْمَةِ الْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَالتَّفْرِيطُ أَرَذَلُ وَاجْتَبَتْ .
وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنشَدَهُ « أَتَضْحَوُ أَمْ فُؤَادُكَ
غَيْرُ صَاحِي » فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : بَلْ فُؤَادُكَ يَا ابْنَ الْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ
يَسْتَنْقِلُ هَذِهِ الْمَوَاجِهَةَ وَالْأَفَقَّ عُلِمَ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ
وَمِنْ هَذِهِ النُّجْمَةِ بَعَيْنُهَا عَابُوا عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ
لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطَبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا :
كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا

وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
فَالْعَيْبُ مِنْ بَابِ التَّادِبِ وَحُسْنِ السِّيَاسَةِ لَا زِمَ لِأَبِي الطَّيِّبِ
فِي هَذَا الْإِتِّدَاءِ لَا سِيَّمَا وَهَذَا النَّوعُ أَغْنَى جُودَةً الْإِتِّدَاءِ مِنْ
أَجْلِ مُحَاسِنِ أَبِي الطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَا ثَرَّ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ الشَّعْرُ .
وَدَخَلَ ذُو الرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَاسْتَنَشَدَهُ شَيْئًا مِنْ
شِعْرِهِ فَأَنشَدَهُ « مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا أَلَمَّا يَنْسَكِبُ » وَكَانَ بَعَيْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ رِيْشَةً فَهِيَ تَدْمَعُ قَتَوَهُمْ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ :
وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هَذَا وَمَقَّتُهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ
أَبْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي النُّجْمِ وَقَدْ أَنشَدَهُ فِي أَرْجُوزَةٍ :

صَفَوَاءَ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلْ فَكَأَنَّمَا فِي الْأَفَقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ
وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَاصْرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ الْعَادَةِ لِأَزْمٍ وَمَعَ ذَلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاسَى خَطُوهَا » فَقَصَرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانِي خَطُوهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ الشُّعْرَاءِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ النَّاقَةَ بِالظَّلِيمِ وَالْحِمَارِ وَالثَّوْرِ بَعْدَ الْكَلَالِ غُلُوبًا وَمُبَالَغَةً فِي الْوُضْفِ . هَذَا هُوَ الْجَيِّدُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَاسْتَفْرَعَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدْعُونَ التَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ الزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْنَعِي الْقُلُلَ » وَالثَّوْرُ لَا يَرْنَعِي قُلُلَ الْحِمَالِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْوَعْلُ لِأَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَالثَّوْرُ فِي السُّهُولِ وَمَوَاضِعِ الرِّمَالِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِالنَّبَاتِ أَعَالِيهِ قَرَبًا أَنْ يَكُونَ الْقُلُلُ نَبَاتًا بَعِيْنَهُ أَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُكِنُّ وَمَا سَمِعْتُ

بِهَا

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ الْمَضْرَاعَ الثَّانِي مِنْ الْأَوَّلِ إِذَا أَبْتَدَأَ شِعْرًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي النَّسِيبِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ بِذَلِكَ عَلَى وَلِهِ وَشِدَّةِ حَالِ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

جَلًّا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّبْرِيجُ أَغْذَاءُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَغْنِ الشَّيْخُ
فَهَذَا اعْتِدَارُ مَنْ اعْتَدَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا فِي الرِّثَاءِ
وَالْتَّجْعِ لَكَانَ مَوْضِعُهُ أَيْضًا وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْعَظَائِمِ مِنَ الْأُمُورِ
وَالْتَّوَازِلِ الشَّدِيدَةِ . وَلِيُخْتَرَسَ بِمَا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ
فَلَنْ أَبَا تَمَّامٍ أَمْتَدَحَ أَبَا دَلْفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَأَفْتَحَ
قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبٍ » وَكَانَتْ فِيهِ
خُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ .

أَبْنِ عَلِيٍّ الْخَزَاعِيِّ وَرَدَّ خِمَصَ قَقْصَدَ دَارَ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ رَغْبَانَ
 دِيكَ الْحِنْ فَصَمَّ نَفْسَهُ عَنْهُ خَوْفًا مِنْ قَوَارِصِهِ فَقَالَ : مَا لَهُ
 يَسْتَرُ وَهُوَ أَشْعَرُ الْحِنْ وَالْإِنْسِ أَلَيْسَ الْقَائِلَ :
 بِهَا غَيْرُ مَعْدُولٍ قَدًا وَحَارَهَا وَهَلْ بَعْشَيَاتِ الْعُبُوقِ أَبْتَكَارَهَا
 فَظَهَرَ إِلَيْهِ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ . ثُمَّ تَنَاشَدَا فَأَنشَدَ دِيكَُ
 الْحِنْ أَبْتِدَاءَ قَصِيدَةٍ :

كَانَهَا مَا كَانَهُ خَلَلُ الْحَلَّةِ وَقَفُ الْهُلُوكِ أَنْ بَعَمَا
 فَقَالَ لَهُ دِغِيلٌ : أَسَكْتَ فَوَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُكَ تُتِمُّ الْبَيْتَ إِلَّا وَقَدْ
 غُشِيَ عَلَيْكَ أَوْ تَشَكَّيْتَ دِمَاغَكَ وَلَكَانُكَ فِي جَهَمٍ تُحَاطِبُ
 الزُّبَانِيَّةَ أَوْ تُحَبِّطُكَ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . وَإِنَّمَا أَرَادَ الدِّيكُ أَنْ
 يَهْوَلَ عَلَيْهِ وَيَقْرَعَ سَمْعَهُ عَسَى أَنْ يُزَجِّجَهُ أَوْ يَرُوعَهُ فَسَمِعَ مِنْهُ مَا
 كَرِهَ . وَلَعَمْرِي مَا ظَلَمَهُ دِغِيلٌ وَلَقَدْ أَبْعَدَ مَسَافَةَ الْكَلَامِ وَخَافَ
 الْعَادَةَ وَهَذَا بَيْتٌ قَبِيحٌ مِنْ جِهَاتٍ مِنْهَا إِضْطَارٌّ مَا لَمْ يُذَكَّرْ قَبْلُ وَلَا
 جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ فَيُعَذَّرُ وَلَا كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فَيُشْهَرُ مَعَ إِحَالَةِ
 التَّشْبِيهِ عَلَى تَشْبِيهِ ثَقُلَ تَجَانُّسُهُ الَّذِي هُوَ حَشْوٌ فَارِغٌ لَوْ طُرِحَ مِنْ
 الْبَيْتِ كَانَ أَحْزَمَ وَاسْتَدْعَى قَافِيَةَ لَا لَشَيْءٍ إِلَّا لِفَسَادِ الْمَعْنَى وَاسْتِحْكَالَةِ
 التَّشْبِيهِ مَا الَّذِي يُرِيدُ بُعَاثِهِ فِي تَشْبِيهِ الْوَقْفِ وَهُوَ السَّوَارُ وَلَمْ
 كَانَ وَقَفُ الْهُلُوكِ خَاصَّةً . وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّبَايَ
 يَصِفُ نَاقَتَهُ فِي أَوَّلِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ :
 كَانَهَا حِينَ تَنَاضَى خَطُوهَا أَجَشُّ مَوْشِي الشَّوَى يَرْغَى أَثْقَلَ

قَوْلُ الْقَطَامِيِّ « إِنَّا مُحْيُوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ النَّابِغَةِ :
 كَلَيْلِي لَهْمَ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ
 وَقَوْلُهُ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِالْجُمُومَيْنِ سَاهِرًا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِينًا وَظَاهِرًا
 هَذَا بَعْضُ مَا اخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا اخْتِيرَ فِي الرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ
 ابْنِ حَجْرٍ :

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا
 وَمِمَّا اخْتِيرَ لِلتَّحْدِيثِ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبِي طَلَلٌ بِالْخُزْعِ
 أَنْ يَتَكَلَّمَ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ أَيْدَاءَ قَالَهُ مُحَدِّثٌ . وَقَوْلُ أَبِي
 نُوَّاسٍ :

لَمَنْ دِمْنٌ تَرْدَادُ طِيبَ نَسِيمٍ
 عَلَى طُولِ مَا أَقَوْتُ وَحُسْنِ رُسُومٍ
 وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ الْكَرَى بَيْنَ الْجُفُونِ حَمِيلٌ عَمَى عَلَيْهِ بُكَاءُ عَلَيْكَ طَوِيلٌ
 وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتِكَ رَيْنِحَانَهَا الْعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا انْسِفَارُ
 وَقَوْلُهُ :

دَعِ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ اغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
 وَمِمَّا أَشَبَّ ذَلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ التَّعْقِيدِ
 فِي الْإِبْتِدَاءِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ أَلْيٍّ وَدَلِيلُ أَلْفَهَةٍ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِغِيلَ

مَقَاطِعَ كَلَامِي. وَإِذَا جُعِلَ الْقَطْعُ وَالْمَطْعُ مُضَدَّيْنِ بِمَعْنَى الْقَطْعِ
وَالطَّلُوعِ كَانَتْ الطَّاءُ وَاللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُريدُ مَوْضِعُ الْقَطْعِ
وَالطَّلُوعِ كُسِرَتْ اللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدأ أو الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ الْحَذَاقِ بِصِنَاعَةِ الشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ أَسْمُكَ وَأَشْهَرَ
فَقَالَ لِأَيِّ أَقَلَّتْ الْحَقُّ وَأَصَبَتْ مَقَاعِدَ الْكَلَامِ وَقَرِطَتْ نُصَّتَ
الْأَغْرَاضِ بِحُرِّ الْقَوَائِمِ وَالْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَذْحِ وَالْهَجَاءِ
وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ الْإِفْتِاحِ دَاعِيَةُ الْإِنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ النَّجَاحِ
وَلَطَافَةُ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَذْحِ سَبَبُ ارْتِيَاحِ الْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةُ الْكَلَامِ
أَبْقَى فِي السَّمْعِ وَالصَّقِّ بِالنَّفْسِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ
وَأِنْ قُبِحَتْ قُبِحَ وَالْأَعْمَالُ بِجَوَائِمِهَا. وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ أَبْتِدَاءَ
شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يُقْرَعُ السَّمْعُ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ
أَوَّلِ وَهْلَةٍ. وَقَدْ اخْتَارَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْإِبْتِدَاءَاتِ سَاذَكَرُ هُمَا مَا
أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ تَحْوِ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ « قِفَا نَبْكَ مِنْ
ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَثَلٍ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ أَبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ
وَقَفَ وَاسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَاسْتَبَكَى وَذَكَرَ الْحَيْبَ وَالْمَثَلَ فِي
مِضْرَاعٍ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ « أَلَا عِمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي » وَمِثْلُهُ

وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ السَّيِّدِ عَنْ
 هَذَا فَقَالَ: الْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الْآيَاتِ وَالْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا. قَالَ وَمَعْنَى
 قَوْلِهِمْ: حَسَنُ الْمَقَاطِعِ جَيْدُ الْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعُ الْبَيْتِ وَهُوَ
 الْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهَذَا هُوَ حُسْنُهُ. وَالْمَطْلَعُ
 هُوَ أَوَّلُ الْبَيْتِ وَجُودُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَالْتَصْدِيرِ
 وَمَا شَاكَاهُ. وَرَوَى الْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةٍ كَانَ يَقُولُ: النَّاسُ
 مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْإِبْدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ
 بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَبِمَذْحِ صَاحِبِهِ. وَحَظُّ جُودَةِ الْقَافِيَةِ وَإِنْ
 كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصِيدَةِ. حَكَاهُ
 الْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْطَعُ آخِرُ الْبَيْتِ أَوْ الْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِالْبَيْتِ
 الْيَقِينُ لِذِكْرِ حَظِّ الْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعِتَابِيِّ مَا الْبَلَاغَةُ. فَقَالَ:
 كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ
 وَلَا اسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِغٌ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ الْإِعَادَةَ وَالْحُبْسَةَ فَمَا
 الْإِسْتِعَانَةُ فَقَالَ: أَمَّا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ
 يَا هَذَا أَسْمَعْ مِنِّي وَأَسْتَمِعْ إِلَيَّ وَأَفْهَمْ وَالسَّتِ تَفْهَمْ هَذَا كُلُّهُ
 عَيٌّْ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْعِتَابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْمَقَاطِعَ أَوَاخِرَ الْفُصُولِ. وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ الْجَاحِظُ عَنِ الْمَأْمُونِ إِنَّهُ
 قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتُضْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

وَهُوَ الْعَرُوضُ أَيْضًا . وَالْوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : الْمَقَاطِعُ مُنْقَطِعُ الْآيَاتِ وَهِيَ الْقَوَافِي وَالْمَطَالِعُ
أَوَائِلُ الْآيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَأْلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ
التَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ الْأَجْزَاءِ فِي الْبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ
أَوْ شَبِيهِهِ بِهِ أَوْ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ فِي التَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهَذِهِ
الْعِبَارَةِ إِلَى الْمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ الْبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنْ
الشَّعْرِ الْمُرْصَعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ الْأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ
مَعْدَانَ فِي مَرَثِيَّةِ لَهَا :

فَعَلُ الْجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ الْجَلِيلِ وَإِذَا مَطَاءُ الْجَزِيلِ الَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ
فَالسَّجْعُ فِي هَذَا الْبَيْتِ اللَّامُ الْمَطْرُدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ
وَأَخِرُ الْأَجْزَاءِ الَّتِي هِيَ الْمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ الْإِيَاءِ الَّتِي قَبْلَ اللَّامِ .
اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ السَّجْعُ هُوَ الْإِيَاءُ الْمُلْتَزِمَةُ فَحَيْثُ نَجِدُ عَلَى أَنَا لَا نَعْلَمُ
حَرْفَ السَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ وَمِثْلُ هَذَا
فِي أَنْوَاعِ الْأَعَارِضِ كَثِيرٌ

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْمَقْطَعَ وَالْمَطْلَعَ أَوَّلُ الْقَصِيدَةِ
وَأَخِرُهَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ النُّقَادِ
إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ الْمَقَاطِعِ حَمِيدَةُ الْمَطَالِعِ . وَلَا
يَقُولُونَ الْمَقْطَعَ وَالْمَطْلَعَ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ الْقَصِيدَةَ
إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا
عَلَى مَا قَدِّمْتُ مِنْ ذِكْرِ أَبْدَآتِ الْآيَاتِ أَوِ الْآفِسَةِ وَأَنْتَهَائِهَا

الْأَدَبِ : حَسَبُ الشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ أَنْ يَجْمَعَ خَاطِرُهُ بَعْدَ أَنْ
يُخْلِجِي قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ الْإِنْفِعَالِ وَيَدْعَ الْأَمْتِلَاءَ مِنَ الطَّعَامِ
وَالشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ . وَأَفْضَلُ مَا اسْتَعَانَ بِهِ الشَّاعِرُ غِنَى
أَوْ فَضْلُ طَمَعٍ . وَالْفَقْرُ آفَةُ الشِّعْرِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاعِرَ إِذَا صَنَعَ
الْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنَى وَوُسْعَةٍ نَفَحَهَا وَأَمِنَ النَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ
وَإِذَا كَانَ مَعَ ذَلِكَ طَمَعٌ غِنَى قَوَّى أَنْبِعَاطَهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتْ
الرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نَهَايَتِهَا مُحْكَمَةً . وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ
الْكَلَامِ وَأَخَذَ مَا أَمَكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرِهِ وَلَمْ يَتَدَبَّعْ فِي بُلُوغِ
مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَفْسِهِ لِمَا يَحْفَرُهُ مِنَ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ فَجَاءَ
دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ أَشْعَارِهِ وَرَبَّمَا قَصَرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ
مَنْ تَحَمَّى الْحَاجَةَ خَاطِرُهُ وَتَبَعَتْ قَرِيحَتُهُ فَيَجُودُ فَإِذَا أَوْسَعَ أَنْفَ
وَصَعِبَ عَلَيْهِ عَمَلُ الْآيَاتِ الْيَسِيرَةِ فَضَلًا عَنِ الْكَثِيرَةِ وَالْعَادَةِ
فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ فِي الْمَقَاطِعِ وَالْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ :
هِيَ الْفُضُولُ وَالْوُضُولُ بَعْضُهُمَا . فَأَلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الْفُضُولِ وَالْمَطَالِعُ
أَوَائِلُ الْوُضُولِ . وَالْفُضُولُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

الخاصّة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء
ولا تحقّق عن الألفاء فانت اليلّغ التأم فإن كانت الميزلة
الأولى لا تؤاتيك ولا تغتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك
في أول تكلفك وتحذ اللفظة لم تقع موقعها ولم تسمح إلى
قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها واللقاية لم تحل من
مركزها في نصيبها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها
نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اعتصاب مكانها والذول في
غير أوطانها فإنك إذا لم تتعاط قرض الشغل الموزون ولم تكلف
اختيار الكلام المشور لم يعبك بترك ذلك أحد. فإن أنت
تكلفتهما ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لشأنك بصيراً بما
عليك ولك عابك من أنت أقل منه عيباً وراى من هو دونك
أنه فوقك. فإن أنت أثبتت بأن تكلف القول وتعاطى
الصنعة ولم تسمح لك الطباع فلا تعجل ولا تفجر ودعه يياض
يؤمك وسواد ليلك وعادته عند نشاطك وفراغ بالك فربما لا تقدم
الإجابة والمؤاتاة إن كان هناك طبيعة أو جرّيت في الصنعة على
عرف فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير
طول إهمال فالميزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى
أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك

إلا أن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بحجزها
عند الرهبة كما تجود به مع الشهوة والحبّة. وقال بعض أهل

وَاخْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمَ مِنْ فَاجِسِ الْخَطَايَا وَاخْلَبَ بِكُلِّ
عَيْنٍ وَغَرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنَى بَدِيعٍ

وَأَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمَكَ الْأَطْوَلَ
بِالْكَدِ وَالْجَاهِدَةِ وَبِالتَّكْلُفِ وَالْمُعَانَدَةِ وَمِمَّا أَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئَكَ
أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ حَقِيقَةً عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا كَمَا خَرَجَ مِنْ
يَتْبُوعِهِ وَنَجَّمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعَّرَ فَإِنْ التَّوَعَّرَ يُسَلِّمُكَ إِلَى
التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هَرَّ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ الْقَاطِئَكَ . وَمَنْ
أَرَاغَ مَعْنَى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ
الْلَفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقَّقَهَا أَنْ يَصُونَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا وَيُهْجِرُهَا
وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ أَجْلِهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ يُلْتَمَسَ إِظْهَارُهَا
وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا وَكُنْ فِي إِحْدَى ثَلَاثِ
مَنَازِلَ فَإِنَّ أَوَّلَ الثَّلَاثِ أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا أَوْ فَحْمًا
سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . إِمَّا عِنْدَ
الْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . أَوْ لِلْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ
قَصَدْتَ وَالْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرَفُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْخَاصَّةِ
فَكَذَلِكَ لَيْسَ يَتَصَعَّمُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْعَامَّةِ وَإِنَّمَا مَدَارُ
الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَإِخْرَازِ الْمُنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَعَ
مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ الْمَقَالِ . وَكَذَلِكَ الْلَفْظُ الْعَامِّيُّ وَالْخَاصِّيُّ
فَإِنْ أَمَكَنَّكَ أَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ
مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى أَنْ تُفْهَمَ الْعَامَّةُ مَعَانِي

أَبْرَ وَسَلَفِ الْحَمْرِ وَلَحْمِ الضَّانِ وَالْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ .
 فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ الْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ
 أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
 لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . يَتَسَوَّاهُ بِمَا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامٍ مَخْلُوقٍ .
 وَقِيلَ : مَقْشُودُ الشَّعْرِ الْعِتَابُ . وَذُكِرَ عَنْ أَبِي الطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا
 تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَضَعُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَّالًا كَمَا
 بِي فَلَيْكَ التَّبَرُّجُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَضَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضُ التَّوَقُّفِ
 رَجَعَ بِالنَّشَادِ مِنْ أَوَّلِ الْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ انْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا :
 الْحِيلَةُ لِكَلَالِ الْقَرِيحَةِ أَنْتِظَارُ الْحَمَامِ . وَهَذَا عِنْدِي أَنْجَعُ الْأَقْوَالِ
 وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَزِينِيُّ : لَا
 تَكْذِبُوا الْقُلُوبَ وَلَا تُهْمَلُوهَا وَخَيْرُ الْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ الْحَمَامِ
 وَأَشْحَذُوا الْقُلُوبَ بِالْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ إِصَابَةِ الْحِكْمَةِ إِذَا
 امْتَحَنَتْ بِبَعْضِ الْأَسْتِفْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ آدَمَنْ قَرَعَ الْبَابَ وَصَلَ .
 وَقَالَ الْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شَعْرُهُ مَعَ الْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ .
 وَقَالُوا يُرِيدُ الْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ الْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكَ الْجَزْ : مَا
 أَصْنَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَبِمَا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بَشَرُ بْنُ
 الْمُغْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا الْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِ الْكَلَامِ وَالْفَصَاحَةِ يَقُولُ
 فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً فَرَاغَكَ وَفَرَاغَ بَالِكَ وَاجَابَتَهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ
 قَلِيلَ تِلْكَ السَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ

خَاطِرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ الشَّعْرِ
مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَلَاثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ تَحْوِ ذَاكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذَلِكَ
الْمَوْضِعَ إِلَّا اتَّحَلَ عَلَيْهِ نَظْمُ آيَاتِهِ وَذَلِكَ عِيٌّ فِي الصَّنْعَةِ شَدِيدٌ
وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَصِيرُ مُحْضُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضِيقًا
عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ الْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ الشَّعْرُ
تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ الشَّعْرِ جَمَعَ مِنَ الْقَوَا فِي مَا
يَضِلُّ لِدَلَالَةِ الْوِزْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمِلَهَا وَشَرِيفَهَا . وَمَا
سَاعَدَ هَائِلُهُ وَوَافَقَهَا وَأَطْرَحَ مَا سِوَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ
يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظْرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا التَّخَيُّرَ فِي حِينِ الْعَمَلِ .
هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ حُذَاقُ الْقَوْمِ .

وَمِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ الْبَيْتُ عَفْوًا أَنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ
فَتَحَنَّنَ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذَلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ
وَأَخَفُ لِبَالِهِ . وَآخِرُ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ
مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذَلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدْلُّ عَلَى الْقَدْرِ وَأَظْهَرُ
لِلْكَلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى الشَّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ الْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ الْحَمَامِ .
وَقِيلَ : إِنَّ الطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالشَّرَابَ الطَّيِّبَ وَسَمَاعَ الْغِنَاءِ يُرَوِّقُ
الطَّبْعَ وَيَصْفِي الزَّجَاجَ وَيُعِينُ عَلَى الشَّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشُ
مُعَارَضَةَ الْقُرْآنِ عَكَفَ فَصْحَاؤُهُمُ الَّذِينَ تَعَاطَوْا ذَلِكَ عَلَى لُبَابِ

حِكَايَةِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ
الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ أَنَا أَلَمْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ

بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ
وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ
فِي الرِّمَاءِ وَيَقُولُ: أَنَا أَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ آيَاتِهِ لَهُ
مَشْهُورَةٌ:

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي أَلَمْتُ وَالِدَهُ خَالِدٌ

فَحِينِي مِثْلُ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهُ
وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يَنْصَبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعْلَقَ الْأَنْجَارُ بِالصُّدُورِ
وَذَلِكَ هُوَ التَّصْدِيرُ فِي الشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا إِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ
كُحَيْبٍ وَنُظْرَائِهِ وَالصَّوَابُ أَنْ لَا يَضْنَعَ الشَّاعِرُ بَيْنًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ
غَيْرَ أَنِّي لَا أَحْذُرُ ذَلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَسَّةَ بَلْ أَضْعُ
الْقَسِمَ الْأَوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ أَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ
مِنَ الْقَوَائِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَبْنِي عَلَيْهِ الْقَسِمَ الثَّانِي أَفْعَلُ ذَلِكَ فِيهِ
كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ أَرِ ذَلِكَ يَجُلُّ عَلَيَّ
وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يَغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِمِ الْأَوَّلِ
إِلَّا فِي التَّنْذَرَةِ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ اسْتَقْبَالِ الْمُفْرِطِ

وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَسْتَقِي إِلَيْهِ بَيْتٌ وَأَثَانٌ وَخَاطِرُهُ فِي
غَيْرِهِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ بِآيَاتٍ وَلِثَوَّةٍ طَبْعِهِ وَأَنْبِعَثِ

وَهُوَ عَلَيْهِ فِي التَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِدُخُولِ الظُّلْمَةِ
 فِيهِ عَلَى الضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ الضِّيَاءِ بِالسَّحْرِ عَلَى الظُّلْمَةِ وَلِإِنَّ النَّفْسَ
 فِيهِ كَالَةِ مُرِيضَةٍ مِنْ تَعَبِ النَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوَّتِهَا مِنْ
 التَّوَمِّ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَالسَّحْرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَضَعَهُ . فَأَمَّا لِمَنْ
 أَرَادَ الْحِفْظَ وَالِدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَاللَّيْلُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ
 أَمْدَقُ الْقَائِلِينَ : إِنَّ نَاسِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا . وَهَذَا
 الْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ
 نَفْسَهُ عَلَى الْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ . حَكَى ذَلِكَ عَنْهُ بَعْضُ
 أَصْحَابِهِ قَالَ : اسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَرِ عَنِّي فَأَذِنَ لِي
 فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِالْمَاءِ يَتَقَلَّبُ عَيْنًا
 وَشِمَالًا فَقُلْتُ : لَقَدْ بَلَغَ بِكَ الْحِرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا . قَالَ : لَا وَلَكِنْ غَيْرُهُ .
 فَكَثَّ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ : الْآنَ الْآنَ
 أَرَدْتُ . ثُمَّ اسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرِي مَا
 كُنْتُ فِيهِ مِنْذُ الْآنَ . قُلْتُ : كَلَّا . قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :
 « كَالِدَهْرٍ فِيهِ شِرَاسَةٌ وَلَيَانٌ » زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمُكِّنَ اللَّهُ مِنْهُ
 فَعَمِلْتُ :

شَرِسْتُ بَلْ لَنْتَ بَلْ فَأَنْتَ ذَاكَ نَدَى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ
 وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هَذَا الْحَاكِي لَتَمَّ هَذَا الْبَيْتُ بِمَا كَانَ
 دَاخِلَ الْبَيْتِ لِإِنَّ الْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَالتَّعْمَلُ بَيْنُ . عَلَى أَنَّ مِثْلَ

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الصُّحَى

وَأَسْيَافُنَا يَنْقُطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا
وَأَنْظَرَهُ سَنَةً قَضَى حَقًّا وَطَالَتْ لَبْلَبُهُ لَمْ يَضْعَ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ
قُرْبَ الصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابُ فَنَادَى : أَخَاكُمْ
أَخَاكُمْ يَا بَنِي لَيْنَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ
نَاقَتِهِ فَأَثَالَتْ عَلَيْهِ الْقَوَارِي وَجَاءَ بِالْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ انْجَزَتْ
الشُّعْرَاءُ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشَّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ
الَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّيِ الْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ اللَّيْلِ وَقَبْلُ الْغَدَاءِ وَمِنْهَا
يَوْمٌ شَرِبَ الدَّوَاءَ وَمِنْهَا الْخُلُوةُ فِي الْجَنَسِ . فَلِهَذَا الْأَسْبَابِ
تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ الشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ الْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ
وَقَدْ سَأَلَهُ الْبُخَيْرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صِنْعَةِ الشَّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هَذَا
لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشْكُ أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ أَقْنَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا
رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ الْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ الْفَلَسَفَةِ اسْتِئْلَاقُ الْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ
وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقَقَّلَ الْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَارَكَةِ الْعَمَلِ
بِالْأَسْحَارِ عِنْدَ الْمُبُوبِ مِنَ النَّوْمِ لِكُونَ النَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ
حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ اللَّهِ أَوْ الْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ
جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشَاءً أُخْرَى وَلِإِنَّ السَّحَرَ الطَّفُ هَوَاءٌ وَارَقٌ
نَسِيًّا وَاعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعِشِيُّ كَالسَّحَرِ

أَحْسَنُهُ . وَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ : مَا أَسْتُدْعِي شَارِدُ الشَّعْرِ بِمِثْلِ الْمَاءِ
 الْجَارِي وَالشَّرَفِ الْعَالِي وَالْمَكَانِ الْخَالِي . وَقِيلَ الْخَالِي يَعْنِي الرُّوضَ
 وَحَدَّثَنَا بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِنْ أَهْلِ الْمَهْدِيَّةِ وَقَدْ مَرَرْنَا بِمَوْضِعٍ
 بِهَا يُعْرَفُ بِالْكِنْدِيَّةِ وَهُوَ أَشْرَفُهَا أَرْضًا وَهَوَاءً . قَالَ : جِئْتُ هَذَا
 الْمَوْضِعَ مَرَّةً فَإِذَا عَبْدُ الْكَرِيمِ عَلَى سَطْحٍ هُنَاكَ قَدْ كَشَفَ الدُّنْيَا .
 فَقُلْتُ : أَبَا مُحَمَّدٍ . قَالَ : نَعَمْ . فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا . قَالَ : الْقَمْحُ
 خَاطِرِي وَأَجَلُو نَاطِرِي قُلْتُ : فَهَلْ نَتَجَّ لَكَ شَيْءٌ . قَالَ : مَا تَقْرُبُهُ
 عَيْنِي وَعَيْنُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَنْشَدَ شِعْرًا يَدْخُلُ مُسَامَ الْقُلُوبِ
 رَقَّةً . قُلْتُ : هَذَا اخْتِيارٌ مِنْكَ اخْتَرَعْتَهُ . قَالَ : بَلْ يَرَأِي
 الْأَضْمَعِيُّ

وَقَالُوا كَانَ جَرِيرٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُؤَيِّدَ قَصِيدَةً صَنَعَهَا أَيْلًا يُشْعِلُ
 سَرَاجًا وَيَعْتَزِلُ أَهْلَهُ وَرَبَّمَا عَلَا السَّطْحَ وَخَدَهُ وَغَطَّى رَأْسَهُ رَغْبَةً فِي
 الْخُلُوةِ فِي نَفْسِهِ . فَحُكِّي أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَخْرَجَ
 بِهَا بَنِي مُنِيرٍ

وَرُوي أَنَّ الْفَرَزْدَقَ كَانَ إِذَا عَصَتْ عَلَيْهِ صَنْعَةُ الشَّعْرِ رَكِبَ
 نَاقَةً وَطَافَ وَخَدَهُ مُنْفِرِدًا فِي شِعَابِ الْجِبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ
 وَالْأَمَاكِينِ الْخَالِيَةِ فَيُعْطِيهِ الْكَلَامُ قِيَادَهُ . حُكِّي ذَلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ
 الْفَلَائِيَّةِ :
 عُرِفَتْ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْرِفُ

وَذَكَرَ أَنَّ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَخْرَجَ بِأَنْبِيَاءِ حَسَّانَ بْنِ

ثَابِتٍ :

فَتَسَحَّدُ الْقَرَائِحَ وَتُنَبِّهُ الْخَوَاطِرَ وَتُلِينُ عَرِيكَةَ الْكَلَامِ وَتُسَهِّلُ
طَرِيقَ الْمَعْنَى لِكُلِّ أَمْرٍ يُحْسِبُ تَذْيِيرَ طَبْعِهِ وَإِطْرَادَ عَادَتِهِ .
وَسَيَأْتِي ذَلِكَ فِي أَقَاوِيلِ الْعُلَمَاءِ بِمَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ هِدَايَةٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

قَالَ بَكْرُ بْنُ النَّطَّاحِ الْخَفِيُّ: الشِّعْرُ مِثْلُ عَيْنِ الْمَاءِ إِنْ تَرَكْتَهَا
نَضَبَتْ وَإِنْ اسْتَهْتَهَتْهَا هَتَّتْ . وَلَيْسَ مُرَادُ بَكْرٍ أَنْ تُسْتَهْتَهَتْ بِالْعَمَلِ
وَحَدَهُ لِأَنَّا نَجِدُ الشَّاعِرَ تَكِلُ قَرِيحَتُهُ مَعَ كَثْرَةِ الْعَمَلِ مِرَارًا وَتَنْزِفَ
مَادَّتُهُ وَتَقْدُ مَعَانِيهِ فَإِذَا جَمَّ طَبْعُهُ أَيَّامًا وَرَبَّمَا زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ
صَنَعَ الشِّعْرَ جَاءَ بِكُلِّ آيَةٍ وَآتَمَّ بِكُلِّ قَافِيَةٍ مُارِدَةٍ وَقَفَّحَ لَهُ
مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَافِ مَا لَوْ رَامَهُ مِنْ قَبْلِ لَأَسْتَغْلِقَ عَلَيْهِ وَأُبْهِمَ
دُونَهُ . لَكِنْ بِالْمَذَاكِرَةِ مَرَّةً فَإِنَّهَا تَفْشَحُ زِنَادَ الْخَاطِرِ وَتُفَجِّرُ عِيُونَ
الْمَعَانِي وَتُوقِظُ أَبْصَارَ الْفَنَنِ وَبِمُطَالَعَةِ الْأَشْعَارِ كَرَّةً فَإِنَّهَا تَبْعَثُ
الْجَسَدَ وَتُولِدُ الشَّهْوَةَ . وَسُئِلَ ذُو الرُّمَّةُ كَيْفَ تَفْعَلُ إِذَا أَنْقَلَّ
دُونَكَ الشِّعْرُ . فَقَالَ: كَيْفَ يَنْقَلُ دُونِي وَعِنْدِي مَفَاتِحُهُ . قِيلَ لَهُ:
وَعَنْهُ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ . قَالَ: الْخُلُوءُ بِذِكْرِ الْأَحْبَابِ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ إِذَا
أَنْفَتَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ الْقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ الْبَابِ وَحَطَّ رِجْلُهُ فِي
الرِّكَابِ عَلَى أَنَّ ذَا الرُّمَّةَ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ الْمَدَحِ وَالنَّجْمَاءِ وَإِنَّمَا
كَانَ وَاصِفَ أَطْلَالٍ وَنَادِبَ أَطْلَانٍ وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ طَبَقَةِ
الْفُحُولِ . وَقِيلَ لِكَثِيرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ الشِّعْرَ إِذَا عَسَرَ عَلَيْكَ . قَالَ:
أَطُوفُ فِي الرِّيَاضِ الْمُسَبَّحَةِ فَيُسَهِّلُ عَلَيَّ صَعْبُهُ وَيُسْرِعُ إِلَيَّ

وَهُوَ فُحْلٌ مُضَرٌّ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ السَّاعَةُ وَقَلْعُ ضَرْسٍ مِنْ
 أَضْرَاسِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ فَإِذَا تَقَادَى ذَلِكَ
 عَلَى الشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ أَصْفَى كَمَا يُقَالُ أَصْفَتِ الدَّجَاجَةُ إِذَا
 أَنْقَطَعَ يَنْضُهَا وَكَذَلِكَ يُقَالُ لَهُ أَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِلْحَافِرِ أَلْبَرِ
 إِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ الْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَجْبَلَ . وَأُفْحِمَ
 الشَّاعِرُ عَلَى أَفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحِمَ الصَّيِّ إِذَا أَنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ
 شِدَّةِ الْبُكَاءِ . فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ أَهْتَزَّ فَهُوَ
 مُهْتَزٌّ . وَقَدْ قِيلَ فِي الدُّيَّانِيِّ إِنَّهُ كَانَ شَعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ الْعُيُوبِ
 لِأَنَّهُ قَالَهُ كَثِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يَهْتَزَّ وَكَثُرَ مَا جَاءَ الْإِهْتَارُ
 فِي صِفَةِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شَعْرِ النَّابِغَةِ
 إِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَهَذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ أَكْثَرِ
 النَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤْنٌ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ
 قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ أَخْلَى الشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ أَخْلَى الرَّامِي إِذَا
 لَمْ يُصِبْ مَعْنَى

وَيُحْكِي عَنْ الْبُخْتَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : فَارَضْتُ عَلَيَّ بَنَ الْجَهْمِيِّ فِي
 الشَّعْرِ وَذَكَرَ أَشْجَعَ السَّلَاجِي فَقَالَ : إِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ أَفْهَمْهَا وَأَيْنْتُ
 أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا أَنْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شَعْرِ
 أَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ الْأَيَّاتُ مَعْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ
 رَائِعٌ

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا الشَّعْرَ

يُعرفُ بديًّا . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ : شَرُّ الشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ .
وَكَانَ الْخَطِيئَةُ يَقُولُ : خَيْرُ الشِّعْرِ الْخَوَلِيُّ الْحَكَّاءُ . أَخَذَ فِي ذَلِكَ
بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى وَأَوْسٍ وَطُفَيْلٍ . وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ
كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًّا عَلَى شِعْرِهِ وَإِنَّ
فَضِيحَةَ ظَاهِرَةَ كَانَتْ غَنِيًّا عَنْهَا . وَكَانَ فِي الْبُخْتَرِيِّ إِعْجَابٌ شَدِيدٌ إِذَا
أَنْشَدَ يَقُولُ : مَا لَكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مَا أَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ . فَأَنْشَدَ
الْمُتَوَكِّلُ يَوْمَ مَا قَصِيدَتُهُ :

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ تَبَسُّمٌ وَبِأَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمُ
وَأَبُو الْعَبَّاسِ الصَّمِيرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَأَى إِعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ
وَقَالَ :

مَنْ أَبِي سَلَحٍ تَلْتَمِمْ وَبِأَيِّ كَفٍّ تَلْتَظِمُ
فَوَلَّى وَهُوَ غَضَبُكَ . فَقَالَ : وَعَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْهَزِمُ . فَضَحِكَ
الْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَأَعْطَى الصَّمِيرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشمذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَإِنْ كَانَ فَخْلًا حَازِقًا مُبَرِّزًا مُقَدِّمًا مِنْ قَتَرَةٍ
تَعْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ إِمَّا لِشُغْلٍ طَرَأَ أَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ أَوْ
نُبُوِّ طَعْمٍ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ ذَلِكَ الْخِينِ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ

مَقَامٍ مَقَالٌ . وَشِعْرُ الشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرَادِهِ وَأُمُورِ ذَاتِهِ مِنْ مَدَحٍ
وَعَزْلِ وَمُكَاتَبَةٍ وَجُودٍ وَخَرِيَّةٍ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي
قَصَائِدِ الْخَلِّ أَلَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ السِّمَاطِينَ . يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ
عَفْوُ كَلَامِهِ وَمَا لَا يَتَكَلَّفُ لَهُ وَلَا أَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ
فِي هَذِهِ إِلَّا مَا كَانَ مُحْكَمًا مُعَاوَدًا فِيهِ النَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَّ
فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلِقَ . وَشِعْرُهُ لِلْأَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ
وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْقَضَاةِ وَالْفُقَهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ
وَالْمُتَأَخِّرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي الزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَأَخُّرُهُ إِذَا أَجَادَ
كَمَا لَا يَنْفَعُ الْمُتَقَدِّمُ تَقَدُّمُهُ إِذَا قَصَرَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ السَّبْقِ
فَعَلَيْهِ دَرَكُ التَّقْصِيرِ كَمَا أَنَّ لِلْمُتَأَخِّرِ فَضْلَ الْإِجَادَةِ وَالزِّيَادَةِ . وَلَا
يَكُونُ الشَّاعِرُ حَازِقًا مُجُودًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعِيدَ فِيهِ نَظْرَهُ
فَيُسْقِطَ رَدِيَّهُ وَيُثَبِّتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونُ بِالرَّكِيكِ مُطَرِّحًا لَهُ رَاغِبًا
عَنْهُ . فَإِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامَ أَلْفِ رَدِيٍّ . وَقَالَ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ وَهُوَ
أَوَّلُ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ اخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ الشُّعْرَاءِ وَالْمُقَدَّمُ
عَلَيْهِمْ :

أَذُودُ الْقَوَائِي عَنِّي ذِيَادَا ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا
فَلَمَّا كَثُرْنَ وَعَنَيْنَهُ تَحْيَرٌ مِنْهُنَّ سِتًّا حِيَادَا
فَاعْزَلُ مَرْجَانَهَا جَانِبًا وَأَخْذُ مِنْ دُرِّهَا الْمُسْتَجَادَا
وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا نُوَّاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هَذَا الْفِعْلَ وَيُبْقِي الْجَيْدَ
وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ مَا سَهْلٌ وَمِنْ الْمَغْنَى مَا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا

أَخِذَا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَفْنِي الْمَوْلَدُ عَنْ تَصْفَحِ أَشْعَارِ
 الْمَوْلَدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ اللَّفْظِ وَقُرْبِ الْأَخْذِ وَإِشَارَاتِ الْمُحَمِّ
 وَوُجُوهِ الْبَدِيعِ الَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ
 فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَحُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَأَقْنِسَانٌ . لَا عَلَى أَنْ
 تَكُونَ عُدَّةُ الشَّاعِرِ مُطَالَعَةً مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هَذَا دُونَ مَا
 قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْمِلَّةِ وَفَضْلِ الْقُوَّةِ مَا
 يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةٌ مِنْ تَبَعِ فَيْحَارِيَّةٍ . وَإِذَا آعَاتُهُ فَصَاحَةُ الْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ
 الْمُتَأَخِّرِ أَشَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعْدَ مَرَامِهِ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ الْغَرَضِ وَسَعَى
 أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سَهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْفِعًا يَمْنُ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنْ
 التَّحْدِيثِ لَقَصَرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلِيَجْعَلَ طَلَبُهُ أَوَّلًا لِلْسَّلَامَةِ فَإِذَا
 صَحَّتْ لَهُ طَلَبُ التَّجْوِيدِ جِينْدٍ وَلِيَرْغَبَ فِي الْحَلَاوَةِ وَالطَّلَاوَةِ رَغْبَةً
 فِي الْجَزَالَةِ وَالْفَحَامَةِ . وَلِيَجْتَنِبَ السُّوقِيَّ الْقَرِيبَ وَالْوَحْشِيَّ الْغَرِيبَ
 حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذُلُولًا وَلَا مَعَابَا
 وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ بَعْدَ الْحِدِّ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ وَفِيهِ
 وَخَدُهُ الْكِفَايَةُ حُسْنُ التَّلَاقِي وَالسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ الْقَوْلِ فَإِنْ
 نَسَبَ ذَلِكَ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقْلَ
 وَأَوْجَعَ وَلَتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةُ أَغْرَاضِ الْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ
 لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذَلِكَ هُوَ سِرُّ صِبَاةِ
 الشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ الَّذِي تَفَاوَتَ النَّاسُ فِيهِ تَفَاضُلًا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

وَهُوَ مَائِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيُضْعِفَ آتِيَهُ كَأَلْفَعِدٍ يَحْدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى
 الْشُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ الْآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُوْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ عَنْ النَّحْلِ
 مِنَ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ : هُوَ الرَّأْوِيَّةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَحْلَلَ . قَالَ
 يُؤْنَسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيْدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةً
 جَيْدٍ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُوْبَةُ فِي
 صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا رَوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرًا
 وَاسْتَنْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِالسَّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ
 الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرَوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ
 الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَارِي وَتَدَوَّرَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْقَاظُ . وَأَوَّلُ ذَلِكَ
 أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوُ يُضْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ
 وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ
 الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَلِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَنْحِ أَوْ ذَمِّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ
 عَلَى فَضْلِهِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ يَرَوِي لِلْخَطِيبَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْخَطِيبَةُ
 رَأْوِيَّةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرُ رَأْوِيَّةَ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ وَطِفِيلُ الْغَنَوِيِّ جَمِيعًا .
 وَقَدْ تَرَلَّ أَعَشَى بَنِي قَيْسٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيْ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي
 بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنشَدَهُ قَدَّمَ . وَأَنشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَيْدُ
 ابْنِ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذَلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كَثِيرُ رَأْوِيَّةٍ
 جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ التَّمَرِيُّ وَأَسْمُهُ الْهَيْمُ بْنُ الرَّبِيعِ
 وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًا بِالْفَرَزْدَقِ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلَيْكِنْ مَعَ ذَلِكَ شَرِيفَ النَّفْسِ لَطِيفَ الْحَسِّ عَرُوفَ
 أَهْمَةِ نَظِيفِ الْبُزَّةِ أَيْنِفًا لَتَهَابَهُ الْعَامَّةُ وَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةِ الْخَاصَّةِ فَلَا
 تَجِبُهُ أَنْبَارُهُمْ سَمَحَ الْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي فَتْنٍ:
 وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللُّومِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى الْجُلِّ الرِّجَالِ وَيَنْجُلُ
 وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ الطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَلُومٌ مَنْ بَجَلَتْ يَدَاهُ وَاعْتَدَى لِلْجُلِّ جَرِيًا سَاءَ ذَلِكَ صَنِيعًا
 وَالشَّاعِرُ مَاخُذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرَمَةٍ لَا تَسَاعِ
 الشَّعْرِ وَأَحْتِمَالُهُ كُلُّ مَا يُحْمَلُ مِنْ تَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفَقْهِ وَجَبَرٍ وَحِسَابِ
 وَفَرِيضَةٍ وَاحْتِيَاجِ أَكْثَرِ هَذِهِ الْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكَيِّفٌ
 بِذَاتِهِ مُسْتَعْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدُ الْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدُ الْأَثَارِ وَصَاحِبُهُ
 الَّذِي يَذُمُّ وَيُحْمَدُ وَيَنْجُو وَيَعْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي النَّاسُ مِنْ مُحَاسِنِ
 الْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَاخُذٌ. وَلِيَأْخُذَ
 نَفْسَهُ بِحِفْظِ الشَّعْرِ وَالْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ النَّسَبِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ
 ذَلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ الْأَثَارِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ
 بَعْضَ أَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا الشَّاعِرَ مِنَ
 الْمَطْبُوعِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ أَصْحَابَهُ بِرَوَايَةِ الشَّعْرِ وَمَعْرِفَةِ الْأَخْبَارِ
 وَالتَّلَمُّدَةِ لَكِنْ فَوْقَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ
 يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ الْمَقَاصِدَ وَسَهَّلَ عَلَيْهِ مَاخُذُ
 اللَّفْظِ وَلَمْ يَضُقْ بِهِ الْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رَاوِيَةً
 ضَلَّ وَاهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ الْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ الْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هَذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَقَةِ
بَعْضِ الصَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ الْمُتَوَكِّلِ إِذْ آتَاهُ رَسُولُ
إِسْحَاقَ بْنِ إسماعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:
أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ الْقَلِيلِ
بِرَأْسِ إِسْحَاقَ بْنِ إسماعِيلَ

فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ الْقُطُوبُ هَذَا الْجَوْهَرُ لَا يَضِيعُ . وَأَشْتَقُّ الْبَدِيَّةَ
مِنْ بَدَءِ بَعْنَى بَدَأْتُ أَبْدَلْتُ الْهَمْزَةَ هَاءً كَمَا أَبْدَلْتُ فِي أَشْيَاءَ
كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا . فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَّ وَلِهَذَا تَفَعَّلَ كَذَا
بَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ . وَالْأَرْجَالُ مَاخُوذٌ مِنَ السُّهُولَةِ
وَالْإِنْصَابِ . وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبْطًا مُسْتَرَسِلًا
غَيْرَ جَعْدٍ . وَقِيلَ هُوَ مِنْ أَرْجَالِ الْبُيُوتِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ
غَيْرِ حَبْلِ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

حِكْمٌ
مِنْ حِكْمِ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلُوَ الشَّمَائِلِ حَسَنَ الْأَخْلَاقِ
طَلَقَ الْوَجْهَ بَعِيدَ الْقَوْرِ مَأْمُونِ الْجَانِبِ سَهْلَ النَّاحِيَةِ وَطَيَّ
الْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَا يُحِبُّهُ إِلَى النَّاسِ وَيُرِيئُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

وَهَذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ
وَقَرِطٍ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةٍ حَمِيَّةٍ لَمَا آتَى بِهِ فَوْقَ هَذَا وَكَذَلِكَ عَبْدُ
يَاغُوثَ بْنِ صَلَاةٍ إِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ أَمْعَشَرَ تَيْمٍ أَطْلَقُوا مِنْ لِسَانِيَا
أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ قَبْلَعَنَ نُدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ الْهَجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ
لِسُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا
قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَلَنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرِبُونِي بِمَالِيَا
وَهَذِهِ سَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ لَمَّا
أَيَقَنَ بِأَلَمَاتِهِ :

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عَرْضِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَأَسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَأَيْنَ هُوَلَاءِ مِنْ عُيَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ
الصَّنَاعَةِ وَمُقَدِّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ إِذْ يَقُولُ لَهُ الثُّغَمَانُ يَوْمَ
بُؤْسِهِ : أَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ . قَالَ : أَنْشِدْنِي
قَوْلَكَ أَفْقَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ . فَقَالَ :

أَفْقَرَ مِنْ أَهْلِهِ عُيَيْدُ فَالْيَوْمَ لَا يُنْدِي وَلَا يُعِيدُ

سَرِيْعًا إِنْ حَضَرَتْ آلُهُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ بَطِيٍّ وَلَا مُتَرَاخٍ فَإِنْ أَطَالَ
حَتَّى يُفْرِطَ أَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَعُدْ بَدِيْهًا .

وَقَالُوا أَجْتَمَعَ الشُّعْرَاءُ بِبَابِ الرَّشِيدِ فَادَّعَى لَهُمْ وَقَالَ : مَنْ
يُحِبُّ هَذَا الْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ . قَالُوا : مَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ :
أَلْمَلِكُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . فَقَالَ الْحَمَّازُ : وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْحَبِّ إِذَا مَا
حَبِيْبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ . فَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَأَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَأَمَرَ
لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ . وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيْهِةِ
وَالْأَرْجِيَالِ إِلَّا أَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جَدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي
سَعَةٍ مِنَ الْفَنَدِ إِذْ كَانَتْ الْبَدِيْهِةُ كَمَا قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِيهَا :
نَارُ الرُّوِيَّةِ نَارٌ جَدُّ نُضِجَةٍ وَلِلْبَدِيْهِةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِجِ
وَقَدْ يُفْضِلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لَكِنَّ عَاجِلَهَا يُمِضِي مَعَ الرِّيحِ
وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

وَأَلْقَوْلُ بَعْدَ الْفِكْرِ يُؤْمِنُ رَيْفُهُ شَتَانٌ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيْهِةٍ
وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي الرُّوِيَّةِ وَالْبَدِيْهِةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ
الْأَنْسِ وَالْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَاشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيْزَتِهِ كَهَدِيَّةِ ابْنِ
أَحْسَرَمِ الْعُذْرِيِّ وَطَرَقَةِ ابْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ وَمُرَّةِ ابْنِ مُحْكَانَ
السَّغْدِيِّ إِذْ يَقُولُ وَقَدْ أَمَرَ مُضْعَبُ بْنُ الرُّبَيْزِ رَجُلًا مِنْ بَنِي
أَسَدٍ بِقَتْلِهِ :

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقَتَّلُونِي تُحَارِبُوا تَمِيمًا إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانَ أَسْمَعَلَتْ
وَأَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيْبَةٌ يَبَاكِ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتْ

رَمَاكُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ أَكُولٍ لِحَيَاتِ الْبِلَادِ شَرْبُ
 فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمْ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبٍ
 ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَيْهِ : وَاللَّهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ
 رَأَيْتَ فَأَعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَخَلَفَ : إِنْ كُنْتُ إِلَّا مَارِحًا . وَسَمِعَتْ جَمَاعَةٌ
 مِنَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : كَانَ مُسْلِمٌ بْنُ الْوَلِيدِ نَظِيرَ أَبِي نُوَّاسٍ فِي
 وَقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي أَشْيَاءٍ إِلَّا أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ
 قَهَرَ بِالْبَدِيَّةِ وَالْأَرْجَحَالِ مَعَ تَقْبُضِ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَإِظْهَارِ تَوْفِيقِهِ
 وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِئُهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ أَبُو
 الْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ أَقْدَرَ النَّاسِ عَلَى أَرْجَحَالٍ وَبَدِيَّةٍ لِقُرْبِ مَأْخِذِهِ
 وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَأَجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِيهِمْ أَبُو نُوَّاسٍ فَشَرِبَ أَحَدُهُمْ مَاءً
 ثُمَّ قَالَ أَجِزُونَا : بَرْدَ الْمَاءِ وَطَابًا . فَكُلُّهُمْ تَلَعَّمُ حَتَّى طَلَعَ أَبُو
 الْعَتَاهِيَةِ . قَالَ : فِيمَ أَنْتُمْ فَأَنْشُدُوهُ . فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ : حَبْذَا الْمَاءِ
 شَرَابًا . فَأَتَى بِالْقَسِيمِ شَيْئًا بِصَاحِبِهِ . وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَنْوَزَ الْقَوْمَ لَا
 وَزْنَ الْكَلَامِ . وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ الدُّيُوكِ . فَقَالَ لِرَفِيقِهِ :
 هَلْ رَأَيْتَ الصُّبْحَ لَاحًا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ : وَسَمِعْتَ الدَّيْكَ صَاحًا .
 قَالَ نَعَمْ . قَالَ :

إِنَّمَا بَكَى عَلَى الْمَلَةِ تَرَى بِالْدُّنْيَا وَنَاحَا

فَاسْتَقِظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ أَنَّهُ شِعْرُ فِرَوَاهُ . فَاجْرَى هَذَا الْحَجْرَى
 فَهُوَ الْأَرْجَحَالُ . وَأَمَّا الْبَدِيَّةُ فَبَعْدَ أَنْ يُفَكِّرَ الشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتَسِبَ

فَإِنْ يَكُ سَيْفُ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ
 لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْهَا غَيْرُ شَاهِدِ
 فَسَيْفُ بَيْتِي عَبَسَ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
 نَبَا يَدَيَّ وَرَقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
 كَذَلِكَ سُيُوفُ الْهِنْدِ تَتَّبِعُ ظُلُمَاتُهَا
 وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ الْقَلَائِدِ
 وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ السَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ
 إِلَى عَرَقِ دُونَ الشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ
 ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكُهُمْ
 إِذَا شَغَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ
 وَأَعْظَمُ أَرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ بَيْنَ يَدَيَّ غَمْرٍ
 ابْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَالْخُطْبَةِ . وَكَذَلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ
 الْأَبْرَصِ . وَقِيلَ : أَفْضَلُ الْبَدِيَّةِ بَدِيَّةُ آمِنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعٍ
 خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ الْبَدِيَّةِ . وَكَانَ أَبُو
 نُؤَاسٍ قَوِيَّ الْبَدِيَّةِ وَالْأَرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرَوِي إِلَّا فَلْتَةً .
 وَيُرْوَى أَنَّ الْخُطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يَمَازُحُهُ وَهُوَ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ :
 وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافِعٍ فِي الشَّعْرِ وَلَكِنَّكَ لَا تَحْطُبُ . فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ
 يَقُولُ مُرْتَجِلًا :

مَتَحَتَّكُمْ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي أَلَا فَخَذُوا مِنْ نَاصِحِ بَصِيبِ

وَأَنشَدَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ :

وَأَيَّ لَظْلَامٍ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ

عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ الدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبٍ الدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ

غَرِيبٍ بَعِيدِ الدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَقْرٌ

يَظُنُّهُ السَّمِيعُ هَجَا تَفْسُهُ بِظُلْمِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا

مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلَمُ الْنَاقَةَ فَيُخْرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ

هَذَا هُوَ الْأَشْعَثُ وَالْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

الْبَدِیْهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَسَّسِينَ يَعْلَمُ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ فِي

بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ الْإِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ الْبَدِیْهَةَ

فِيهَا الْفِكْرُ وَالْتَّأَيُّدُ . وَالْإِرْتِجَالُ مَا كَانَ أَنَّهُمَا وَتَدَقُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ

فِيهِ قَائِلُهُ كَالَّذِي صَنَعَ الْقَرَزْدُقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ

الْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ الرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبَسَ سَيْفًا

كَهُمَا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ الْقَرَزْدُقُ إِرْتِجَالًا

فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبَسَ بِأَبْوِ سَيْفٍ وَرَقَاءِ بْنِ

زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

تَفَرَّقَتْ غَنِيَّ يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذِّبَّ وَالضَّبْعَا
 قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا اجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشَغَلَ كُلُّهُمَا الْآخَرَ
 وَإِذَا تَفَرَّقَا أَدَايَا وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهُ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ الذِّبُّ
 الْأَخْبَاءَ عَبَثًا وَاسْكَلَ الضَّبْعُ الْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ
 لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي :

يَصْدُ الشَّاعِرُ الثُّنَيَّانُ عَنِّي صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ الْهَجَانِ
 وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ الثُّنَيَّانَ وَلَا يَغْلِبُ الْفَحْلُ لَكِنْ أَرَادَ التَّصْغِيرَ
 بِالَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنَيَّانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرُ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي يَحْيَى قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانٍ
 أَرَادَ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عَيْنَانِهِ لَا يُسْبِقُ مُتَمَهِّلًا . وَمِمَّا يُدْخِلُ بِهِ وَيَدْمُ
 قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ مَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ الطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا
 لَا أَصْلَ لَهَا . قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا :
 لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرِو غَيْرَ قَاتِلِهِ لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبَدِ
 لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَاكِ بِهِ مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ الْبَلَدِ
 فَهَذَا أَمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ الرَّاعِي الثَّمِيرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ
 الرَّقَاعِ الْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتُ مِنْ أَحَدٍ تُهْجَى هَجْوُكُمْ
 يَا ابْنَ الرَّقَاعِ وَلَكِنْ لَسْتُ مِنْ أَحَدٍ
 تَأْتِي قُضَاعُهُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسْبًا
 وَأَبْنَا زَرَارٍ فَانْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ

وَيُرَوَّى أَنَّ أَبَا زَيْنَبٍ قَالَ: إِنْ دَعَا لَكَ قَائِمًا أَرَادَ أَنْ يُعَافِيَ مِنْ
الْجِيُوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ السَّكَّابُ فَتُخَصَّبَ أَرْضُهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ:
لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجِيُوشُ فَهِيَ تَتَجَبَّبُ دِيَارَكَ لِإِلْعَافِهِمْ
بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مُحَلَّتِهِ بِأَنْ تَذْرُسَهَا الْأَمْطَارُ . وَقَالَ
غَيْرُهُ: إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مُحَلَّتِكَ السَّكَّابُ فَاخْصَبْتَ وَلَا مَاشِيَةَ
لَكَ فِيهَا فَذَلِكَ أَشَدُّ لِهَمِّكَ وَعَمِّكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ
الْآخَرِ:

وَحِفَاءً أَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ قَسَرَتْ وَسَاءَتْ كُلُّ مَاشٍ وَمُضْرِمٍ
أَيُّ سَرَتْ كُلُّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلُّ قَقِيرَةٍ . وَأَنشَدَ أَبُو عَبْدِ
اللَّهِ أَيْضًا:

إِنِّي عَلَى كُلِّ إِيسَارٍ وَغَسْرَةٍ أَدْعُو خَيْثًا كَمَا تُدْعَى ابْنَةُ الْجَبَلِ
وَرَوَى الْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّادِ وَهُوَ ابْنَةُ
الْجَبَلِ وَقِيلَ ابْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُتَحَدِّرَةُ مِنْ أَغْلَاهُ . وَزَادَ أَبُو
زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ:

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلُ بِجَانِبِهِ عَارِي الْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلٍ
فَهَذَا مَدْحٌ لَا مُحَالَةٌ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِ:
كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجِبَالَا
وَرَوَاهُ قَوْمُ بَنِي سُلَيْمٍ قَمْنٌ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ
الْإِجَابَةِ وَمَنْ دَمَّ نَسَبُهُمْ إِلَى الثَّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجِبَالِ . وَمِنْ
الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ:

قَفَرَةٌ يَعْنِي الدِّثْبَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ
أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي . وَمِنْ أَنَا شَيْدِهِمْ :

أَبُوكَ الَّذِي نَبِئْتُ يُحْسِبُ حَيْلَهُ غَدَاةَ النَّدَى حَتَّى يَخْفَ لَهَا أَلْبَقْلُ
قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ الصَّيْفِ الْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أُصُولِ
بَقْلٍ قَدْ يَبَسَ فَذَلِكَ الْأَخْضَرُ هُوَ النَّشْرُ وَهُوَ الْغَيْرُ فَتَأْكُلُهُ
الْأَبِلُ فَيَأْخُذُهَا السَّهَامُ وَلَا سَهَامَ فِي الْحَيْلِ فَعَابَهُ بِالْجَهْلِ بِالْحَيْلِ .
قَالَ الْأَضْمَعِيُّ : هَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحُهُ بِمَعْرِفَةِ الْحَيْلِ لِأَنَّ
النَّشْرَ مُؤَذٍ لِكُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَمَّ سَهَامٌ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ
قُبَّةٍ فِي رِثَاءِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذَكَرِ آلِ الرَّسُولِ :

أَوَّلِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ الْقَتْلَى بِهَا حِينَ سَلَّتْ
قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُعْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ الْقَتْلَى بِهَا كَمَا
تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ . وَقَالَ
آخَرُونَ : أَرَادَ لَمْ يَسْلُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا الْقَتْلَى كَمَا
تَقُولُ : لَمْ أَلْقَ وَلَمْ أَحْسِنْ إِلَيْكَ أَيَّ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ
وَأَلْقَوَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَضْدَادِ وَيُنَادُونَ قَوْلَ الْآخِرِ :
هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبُهُ دَعِ الْكَلْبَ يَنْجِ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَاجِحٌ
وَيُرْوَى :

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبُهُ
وَأَشَدُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ :

فَجَنَيْتَ الْخُيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ

يُرَدُّ ذَلِكَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةَ وَمَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ أُعْطِيَ مِائَةَ أَلْفِ
 دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ إِلَّا بِالْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ
 ذَوِي الْيُتُوتَاتِ وَالْمَعْرُوفِينَ فِي الْكُسْبِ وَالشَّعْرِ . وَكَانَ أَبُو نُؤَاسٍ
 مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ لِكِنَّهُ كَانَ مُتَلِفًا سَخَاً وَكَانَ
 يَتَسَاجَلُ فِي الْإِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ أَخْنَفَ . وَكَانَ الْبَجْثِيُّ مِلْيَا
 قَدْ قَاضَى كَسْبُهُ مِنَ الشَّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوَكِبٍ مِنْ عِيْدِهِ .
 وَأَمَّا أَبُو تَمَّامٍ فَمَا وَفَى حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ لِأَنَّهُ تَبَدَّلَ
 وَجَابَ الْأَرْضَ وَكَذَلِكَ أَبُو الطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشي)

أَنْشَدَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ الْخَوَّيُّ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ
 الْحُسَيْنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَمْدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ
 تَمِيمٍ :

تَضَيَّفَنِي وَهَذَا فَقُلْتُ أَسَاقِي إِلَى الزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ الْأَصَابِعُ
 وَلَمْ تَلَقَ لِلْسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَرَّةٍ مِنْ الْأَرْضِ إِلَّا وَهُوَ عَرِيَانُ جَائِعُ
 لَمْ يُرَدْ أَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ إِلَى الزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ
 لِكِنَّهُ وَصَفَ ذُبًّا لِقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : أَتَسْبِقُنِي أَنْتَ إِلَى الْأَكْلِ
 أَيُّ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ إِذَا أَصَابِعِي إِذَا لَمْ أَرَمِكَ فَأَقْتُلَكَ وَأَكُلْ
 لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى الْمَثَلِ : لَمْ تَلَقَ لِلْسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَقَتْ مَعَهُ فَضْلُهُمْ وَالْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ
وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ بْنُ سَيَّارٍ الْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِمَجْمَعٍ مُجْزِلٍ كَانَتْهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذَا كَانَ فِي النَّاسِ دَارِمٌ
فَتَكَلَّمْتُ تَمِيمٌ وَأَفْتَحَرْتُ لِمَكَانِ هَذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ
قَدَرًا فِي قَيْسٍ قَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَخْطَى بِالْمَذْحِ مِنْ تَمِيمٍ .
وَالْأَوَايِدُ مِنَ الشِّعْرِ الْآيَاتُ السَّائِرَةُ كَالْأَنْشَالِ وَكَثُرُ مَا
تُسْتَعْمَلُ الْأَوَايِدُ فِي الْهَجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِأَبْدَةٍ فَتَكُونُ الْأَبْدَةُ
هَهُنَا الدَّاهِيَةَ . قَالَ الْجَاحِظُ : الْأَوَايِدُ الدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَايِدُ الشِّعْرِ
حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : الْأَوَايِدُ الْإِبِلُ الَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا
يُقَدَّرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْعَقْرِ . وَالْأَوَايِدُ الطَّيْرُ الَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً .
وَالْأَوَايِدُ الْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ آيَاتُ الشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ الْجَاحِظُ
كَانَتْ الْمَعَانِي السَّائِرَةُ كَالْإِبِلِ السَّارِدَةِ الْمُتَوَحَّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ
الْمُقِيمَةِ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَقَامَةِ الطَّيْرِ الَّتِي لَيْسَتْ
بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ الشُّعْرَاءِ وَأَمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ
كَالْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ النَّاسِ . وَأَمَّا الْمُجَدِّدُونَ فِي الْكَسْبِ
بِالشِّعْرِ وَأَخْطَوَةٌ عِنْدَ الْمُلُوكِ فَفَنَّهُمْ مُسْلِمُ الْحَلِيسِ مَاتَ عَنْ مِائَةِ
أَلْفٍ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرِكْ وَارِثًا وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ مَنَعَ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا مُسْلِمُ بْنُ عَمْرِو أَذَلَّ الْخِرْصُ أَنْسَاقَ الرِّجَالِ
وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيَلِي مِنْ هَذَا الرَّجُلِ جَمْعُ
الْقَطَايِرِ مِنَ الذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرُونَ مِنَ الْخِرْصِ . وَلَمْ

عِنْدَ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِالْإِسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا
وَنَزَلَتْ مَازِلَهَا الْخُتَارَ لَهَا . وَأَحْيَا اللَّهُ بِهِ لَبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ
يَشْبُهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ يَمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدٍ وَلَمْ يَدَعْ لِبَنِي مَعْنَى
فِي الْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَلَاءِ يَمْدُو حَا وَفِيهِ يَقُولُ
بِشَارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي أَلْتَمَّهِمْ
إِذَا أَيْقَطَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا فَنَبَهُ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ ثُمَّ
فَتَى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بِدَمٍ
وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

إِنَّ الْأَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّا قَطَعْتُ إِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالًا
قَالَ أَبُو عُيَيْدَةَ : لَمْ يَدَّخْ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كَلْبٍ غَيْرُ
الْخَطِيئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا الْجَاوِرُ فِي كَلْبٍ يُنْقَضَى فِي الْحَوَارِ وَلَا مُضَاعِ
وَكَانَتْ قَيْسُ تَقْتَحِرُ عَلَى تَيْمٍ لِأَنَّ شُعْرَاءَ تَيْمٍ تَضْرِبُ الْمَثَلَ
بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَأَقَامَتْ تَيْمٌ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى
قَالَ لَيْدُ بْنُ رَيْعَةَ :

أَبْنِي كَلْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَفَرٌ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا الْأَجْنَابِ
قَتَلُوا ابْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ أَطْوَأَ دُونَهُ حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَابِهِ
يَرَعُونَ مُتَحَرِّقَ اللَّدِيدِ كَانَهُمْ فِي الْغَزَى أَسْرَةً حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ الْحَدِيدِ عَلَيْهِمْ كَبَنِي زُرَّارَةَ أَوْ بَنِي عَتَّابِ

عَمْرُو وَكَانُوا مَوَالِي عَامِرِ بْنِ صَعَصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمُ الدِّيَّاتِ وَالنَّوَائِبَ
وَنَحْوُ مُحَارِبِ بْنِ خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غِيلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبِ
وَمِنْ وَلَدِ طَاهِجَةَ بْنِ إِلْيَاسِ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلُ ابْنِ عَبْدِ مَنَاءَ
وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّبُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَسْتَهَاتِ الْعَرَبُ بِهِمْ وَأَنْطَبَعَ الْهَجَاءُ
فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاءَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ ذُرَّادَةَ وَآرَادَ أَنْ
يَسْتَمْلِكَهُمْ مَلِكُ رِقٍ بِسِجْلٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْذِرَهُ وَأَحْطَطَتْ وَهُمْ وَلَدُ
الْحَارِثِ بْنِ عَمْرُو بْنِ تَيْمٍ وَسَيِّىَ الْحِطِّ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّوهُ بِالْحِمْلِ
الْحِطِّ وَهُوَ الَّذِي أَنْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَالٍ يَسْتَوِيْلُهُ . فَأَمَّا السَّلُولُ فَقَدْ
قَالَ فِيهِمْ أَبُو زَيْدٍ الْكِلَابِيُّ : كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعَصَعَةَ لَمْ يُخَالَفُوا فِي
أَمْرِ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ هِيَ الَّتِي
شَامَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ : أَغْدَةُ كَغْدَةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سُلُوكِيَّةِ .
قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَمَا
يَصْنَعُ يَقُولُ السَّمَوَالِ بْنِ عَادِيَاءَ :

وَأَنَا لَقَوْمٌ لَا تَرَى الْقَتْلَ سَبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَالسَّمَوَالِ فِي زَمَانِ أَمْرِى الْقَيْسِ وَبَيْنَ أَمْرِى الْقَيْسِ
وَمَبْعَثِ الرَّسُولِ مِئَةً وَارْبَعٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً . قَالَ الْحَاجِظُ لَمْ يُدْخِ
قَبِيلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ خَزُومٌ . قَالَ وَكَانَ عَبْدُ
الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَخْطَا فِي الشَّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ . وَمَا
أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ
الرَّجُلُ مُمَدِّحًا . قُلْتُ أَنَا : أَمَّا هَذِهِ النِّعَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا اللَّهُ مُضَاعَفَةً

يُكَالُ عَذْرَتُ الدَّابَّةِ أَيَّ جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنْ الشِّرَادِ
فَعَنَى أَعْتَدَرَ الرَّجُلُ أَحْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْعُقُوبَةِ أَوِ الْعَتَبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ الْأَمْرُ وَأَحْتَجَزَ أَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ
عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيورة الشعر والخطوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ الْأَعَشَى أَسِيرَ النَّاسِ شِعْرًا وَأَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ
يُنْسِي أَصْحَابُهُ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ وَأَمْرُوهُ الْقَيْسُ
وَكَانَ جَرِيرٌ بِأَقْعَةٍ سَائِرِ الشَّعْرِ مُظْفَرًا. قَالَ الْأَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَأَنَا
وَاللَّهِ أَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرِ أَنَّهُ رَزِقَ مِنْ سَيُورَةِ الشَّعْرِ مَا لَمْ أُرْزَقْهُ
وَقَدْ قُلْتُ بَيِّنًا لَا أَحْسَبُ أَحَدًا قَالَ أَهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ إِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهَجِيَتْ فَحَطَّ
الشَّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُؤَافَقَةِ الْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى الْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ
يُؤَافِقِ الْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ الرِّيَّةِ. فَمِنَ الَّذِينَ لَمْ يُنْجِ فِيهِمْ هِجَاءُ
إِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثَرَةٍ مَا قِيلَ فِيهِمْ يَتِيمُ بْنُ مَرَّةٍ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ
وَأَسَدُ بْنُ خَزِيمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْيَمَنِ. فَأَمَّا مَنْ شُتُّوا بِالْهِجَاءِ
وَمُرُّوا كُلُّ مُمَرَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفَضْلِ أَحْيَاءُ مِنْ قَيْسِ
نَحْوِ غَيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ أَصْرٍ بْنِ سَعْدٍ بْنِ قَيْسِ بْنِ غِيلَانَ وَأَسْمُ غَيٍّ

بِهَذَا الْمَثَلِ مِنَ النَّهَارِ . وَفِي هَذَا الْأَعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ
 مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ قَوْلُ
 الْقُرْآنِ : إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 فَانْفُذُوا . وَوَجَدَ الْفَضْلُ بْنُ يُحْيَى عَلَى أَبِي الْهَوَلِ الْحَمِيرِيِّ قَدْ خَلَّ
 إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ الْفَضْلِ ثَوْبًا مِنْ أَلْيَلِي

وَرِيعَادُهُ عِنْدِي الَّذِي مَا لَهُ رَدُّ

فَجَذَّ بِالرَّحَى لَا أَبْغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ الْكِتَابِ فِي تَحْرِيرِ الْحِطَابِ : لَا

أَحْتَمِلُ وَاللَّهِ قَوْلَكَ (وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو

الْهَوَلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصْرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمِيْزِي وَأَفْعَلْ لِي مَا أَنْتَ

أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي اسْتِثْقَائِ الْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ تَكُونَ مِنْ

الْخَوِ كَمَا تَكُ مَحْوَتِ آثَارِ الْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ أَعْتَذَرْتَ الْمُنَازِلُ إِذَا

دَرَسْتَ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ابْنِ خُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتِ فَقَدْ جَعَلْتَ

أَطْلَالُ الْفِكَ بِالْوَدَّكَاءِ تَعَذَّرُ

وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَلِ تَقْطَاعِ كَمَا تَكُ قَطَعْتَ الرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ

فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ أَعْتَذَرْتَ أَلِيَّاهُ إِذَا أُنْقَطَعَتْ :

وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَجْرِ وَالْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

قَسَمَ قَدَمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَفَّتَنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَهُ كَذِي الْعَرِ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ
فَإِنْ كُنْتُ لَا ذُو الضُّغْنِ عَيِّي مُكَدِّبُ

وَلَا حَلْفِي عَلَى الْبَرَاءَةِ نَافِعُ
وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مُحَالَةَ وَاقِعُ
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ الْمُتَتَايَ عَنْكَ وَاسِعُ
وَقَدْ عَلِقَ بِهَذَا الْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ سَلَمُ الْخَاسِرُ
يَعْتَذِرُ إِلَى الْمُهْدِي :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَتَجْتَنِبُ
وَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَالْدَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرْبُ
وَقَالَ عُيَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنْتِي أَفُوتُكَ إِنْ الرَّأْيَ مِنِّي لَعَارِبُ
وَالِي هَذِهِ النَّاجِيَةِ أَشَارَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلَكِنَّكَ الدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيَّةٌ فَاَعْنِكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ
غَيْرَ أَنَّهُ حَرَفَ الْكَلَامَ عَنْ مَوَانِعِهِ وَأَخْتَارَ الْعُلَمَاءُ بِهَذَا الشَّانِ
قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِأَمْرِي حَاقِلَتُهُ عَنْكَ مَهْرَبُ وَلَوْ رَفَعْتُهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ
بَلَى هَارِبُ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظِلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ النَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ الضُّبْحِ
وَإِظْهُهُ أَقْتَدَى بِقَوْلِ الْأَنْصَارِيِّ فِي بَيْتِ النَّابِغَةِ : لَيْسَ اللَّيْلُ أَوَّلِي

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ أَبَا جَعْفَرٍ دَعَا بَتُّ عَلَى نَارِهَا
وَأَنْ تَأْذَيْتَ فَيَارُبَّمَا تَأَذَّتِ الْعَيْنُ بِأَسْفَارِهَا
وَأَجَلُ مَا وَقَعَ فِي الْأَعْتِدَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ الْعَرَبِ قَصَائِدُ النَّابِغَةِ
الثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ « يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ بِالسَّنَدِ » يَقُولُ فِيهَا:
فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ تَمْسُحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ وَالسَّعْدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّئٍ مِمَّا أَتَيْتَ بِهِ إِذَا فَلَا رَفَعْتَ سَوْطِي إِلَى يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرَعًا عَلَى الْكِدِ
أَنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ
وَالثَّانِيَةُ (أَرَسَمَا جَدِيدًا مِنْ سَعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا
مِنْ مَذْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُخْتَجًا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَيْنٍ كُنْتُ قَدْ بُلِغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لُمْلِغُكَ الْوَأَشِي آغَشُ وَأَكْذَبُ
وَلَكِنِّي كُنْتُ أَمْرًا لِي جَانِبُ مِنْ أَلَارِضِ فِيهِ مُسْتَرَادُ وَمَذْهَبُ
مُلُوكُ وَإِخْوَانُ إِذَا مَا آتَيْتُهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفَعَلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ أَصْطَنَعْتُهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ أَذْنُبُوا
فَلَا تَتْرُكْنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنِّي إِلَى النَّاسِ مَطْلَبِي بِهِ الْقَارُ أَخْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَاكِبُ
وَالثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُصَيٍّ مِنْ فَرَتْنَا فَالْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَتَّبِعِي لِلشَّاعِرِ أَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ أَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنْ
اضْطَرَّهَ الْقَدَرُ إِلَى ذَلِكَ وَأَوْقَعَهُ فِيهِ الْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا
وَلْيَقْصِدْ مَقْصِدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ مِنْ
بَابِ الْإِخْتِجَاجِ وَأَقَامَةِ الدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُلُوكِ وَذَوِي السُّلْطَانِ
وَحَقُّهُ أَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدْرَجًا فِي التَّضَرُّعِ وَالْدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ
الْمُلُوكِ وَاعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ الْمَالِقِ وَالْحَاسِدِ فَأَمَّا
مَعَ الْأَخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَقَدْ أَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَضْبَهَائِيُّ
حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ أَسَأْتُ فَبِالْنُّعْمَى الَّتِي سَلَفَتْ إِلَّا مَنْنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْهَدْيِ لِلْمَأْمُونِ مِنْ آيَاتٍ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَاتَّبِعْهَا جَهْدُ الْإِلَیَّةِ مِنْ مُقَرَّرٍ خَاضِعٍ
مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْعَوَاةُ تُبَدِّلُنِي أَسْبَابَهَا إِلَّا بِنِیَّةٍ طَائِعٍ
وَقَدْ سَلَكَ أَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَأَقَامَةَ الدَّلِيلِ بَعْدَ
ارْتِكَابِ الْجُنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنْ جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدٍ
نَحَوْتُ هَذَا النَّحْوَ فَقُلْتُ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ حَازِمٌ وَلَكِنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهِ الْهَزَامُ

وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ الرُّومِيِّ :

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَصَرَ بِهِ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيُثْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُّ الْقَرْنَ بِاللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

أَخَذَ مَعْنَى الْبَيْتِ الْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ الْخَارِجِيِّ وَقَدْ قَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مُبَارَرَتِكُمْ فَقَالَ : مَا أَعْرِفُ وَجُوهَهُمْ وَلَكِنْ أَعْرِفُ أَقْفَاءَهُمْ . وَأَجُودُ فِي الْهَجَاءِ أَنْ يُسَلِّبَ الْإِنْسَانُ الْفَضَائِلَ النَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَأَمَّا مَا كَانَ فِي الْخَلْقَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ أَلْعَابٍ فَإِنَّ الْهَجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقْدَمُ وَقَدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجُوعًا أَبْتَةً وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَمَاتِ مِنَ الْمَقْصِ وَالْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ الْهَجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ النَّابِغَةُ الْجَعْفَرِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَأَوْسًا لِنَبْتِدِرُ بَابًا مِنَ الْهَجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِمَّا إِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبُهُ فَلَمَّا قَالَ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تُبْنِي سَرَائِيلُ عَامِرٍ مِنَ اللَّوْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ النَّابِغَةُ : هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي كُنَّا نَبْتِدِرُهُ . وَالَّذِي أَرَاهُ عَلَى

كُلِّ حَالٍ أَنَّ أَشَدَّ الْهَجَاءِ مَا أَصَابَ الْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى النُّكْتَةِ وَهُوَ

كَمَا قَالَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ بِعَيْنِهِ



إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ التَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا التَّصْرِيحُ فَذَلِكَ .
 وَلِهَذَا أَلَعَلَّ اخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَّاسٍ وَكَذَلِكَ هِجَاءُ أَبِي الطَّيِّبِ فِيهِ
 اخْتِلَافٌ لِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِ الْمُتَهَجِّوِينَ فَمِنْ التَّفْضِيلِ فِي الْهِجَاءِ قَوْلُ
 رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّقِّي :

لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَزِيدُ سُلَيْمٍ وَالْأَعَزُّ بْنُ حَاتِمٍ
 فَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيِّ إِنْ تَلَّافُ مَالِهِ وَهُمْ الْفَتَى الْعَبْسِيُّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
 فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّامُ إِنِّي هَجَوْتُهُ وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ
 وَمِنْ الْإِخْتِصَارِ وَالْإِسْتِحْفَافِ قَوْلُ زِيَادِ الْأَنْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جُرْمٍ فَإِنَّمَا يُقَالُ لَشَيْخِ الصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرٍ
 قَنْ أَنْتُمْ أَنَا نَسِيًا مَنْ أَنْتُمْ وَرَيْحُكُمْ مِنْ أَيِّ رِيحِ الْأَعَاصِرِ
 أَنْتُمْ أَوْلَى جِئْتُمْ مَعَ الرِّيحِ وَالِدَبَا فَطَارَ وَهَذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرٍ
 قَضَى اللَّهُ خَلْقَ النَّاسِ ثُمَّ خَلَقْتُمْ بَقِيَّةَ خَلْقِ اللَّهِ آخِرَ آخِرٍ
 فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بَيْنَ كَانَ قَبْلَكُمْ

وَلَمْ تُذَكِّرُوا إِلَّا مَدَقَّ الْحَوَافِرِ
 أَخَذَ مِنْهُ الطَّرِمَاحُ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقْتَ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَايَا وَضَبَّةٌ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ الْقَبَائِلِ
 وَمِنْ الْإِخْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :
 وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
 وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَيْدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا الْعَيْدُ
 وَمِنْ مَلِيحِ التَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَقَّانَ :

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَنْحَشْتُمْ عَلَى الرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هَذَا وَلَكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ النَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي الْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي النَّابِغَةُ سَفِيهَا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِـي . وَرَوِي أَنْ شَاعِرًا مَدَحَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِمَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : أَتَرُونِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتُ ابْنَ قَاطِمَةَ وَلَا ابْنَ عَلِيٍّ . وَلَكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتُ كَالرُّسُولِ وَلَسْتُ كَعَلِيٍّ فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُحْمَدًا فِي الْكُتُبِ مُحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ . فَقَالَ الشَّاعِرُ : أَنْتَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِالْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حُمْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ الْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَالْحَسَنُ الْجَمِيلُ
وَجَمِيعُ الشُّعْرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ الْهَجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرَكَ الْفُحْشَ أَصَوَّبَ
إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ
فَحَافِلُوا . وَأَنَا أَرَى التَّغْرِيزَ أَهْجَى مِنَ التَّضْرِيحِ لَا تِسَاعَ الظَّنِّ فِي
التَّغْرِيزِ وَشِدَّةَ قَلْقِ النَّفْسِ بِهِ وَالتَّبَحُّثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ
فَإِذَا كَانَ الْهَجْوُ تَضْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ النَّفْسُ عِلْمًا وَقَلَّتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ
وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ فِي نَفْسِ لِنَسَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْزِضُ . وَهَذَا الْمَذْهَبُ
الصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمَهْجُوُّ ذَا قَدَرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَنِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تسمية هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصارية

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كُفْبًا بَأْتَتْ وَلَا كِلَابًا
وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْخُطْبَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ
هَاجَاهُ الزَّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدْعُ الْهَاجَاءَ الْمُقْدِعَ. قَالَ: وَمَا الْهَاجَاءُ الْمُقْدِعُ.
قَالَ: الْمُقْدِعُ أَنْ تَقُولَ هُوَلَاءُ أَفْضَلُ مِنْ هُوَلَاءُ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي
شَعْرًا عَلَى مَذْحٍ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ الشَّعْرِ لَكِنِّي حَبَانِي هُوَلَاءُ قَدْ خُتِمُ
وَحَرَمَنِي هُوَلَاءُ فَذَكَرْتُ جِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنْلِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا
وَصَرَفْتُ مَذْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهَدَ
فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ الْهَمْزُورَةَ وَهِيَ أَحَبُّ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا
قَالَ خَلْفُ الْآخَرِ: أَشَدُّ الْهَاجَاءِ أَعْفُهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى:
مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ الْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا
الْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قُرِبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهَّلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلوُّهُ
بِالْقَلْبِ وَلِصُوقِهِ بِالنَّفْسِ فَأَمَّا الْقَذْفُ وَالْفَحْشُ فَبَابٌ مُحْضٌ وَلَيْسَ
لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ الْوِزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ
الْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ الْخُذَّاقِ مِنَ الْعُلَمَاءِ
وَفُرْسَانِ الْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشْكِكِهِ وَتَهْزِيلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا
يَعْلَمُ:

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي أَقَوْمُ آلِ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءِ
فَإِنَّ هَذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ الْهَاجَاءِ وَأَمْضِهِ. وَلَمَّا قَدِمَ النَّابِغَةُ بَعْدَ
وَقْعَةِ حُسَّاءَ سَأَلَ بَنِي دُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ الطَّقِيلِ وَمَا قَالَ

وَعِنْدِي الدُّهُيمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالُهَا فَتَضَحَّجَ لَمْ تَعْدَمِ مِنَ الْحِنْ حَدِيَا
 شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمَبْرَدِ رُومِي لِضَائِهِ وَشَبَّهَ الْقَصِيدَةَ الَّتِي لَوْ شَاءَ
 هِجَاءُ هُمْ بِهَا بِالدُّهُيمِ وَهُوَ الدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ الدُّهُيمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ
 زَبَانَ الثَّعْلَبِيِّ الَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا الْحَيَّ
 فَضْرَبَ بِهَا الْمَثْلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لَبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مِنْهُمْ
 مَعَ الْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ :

أَبْنِي حَنِيفَةَ حَكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضِبَا
 قَوْلُهُ حَكِمُوا أَيُّ كُفُّوا. وَقَالَ لَتِيمُ الرَّبَّابِ رَهْطُ عَمْرِو بْنِ جَلَا:
 يَا تَيْمَ تَيْمَ عَارِي لَا آبَا لَكُمْ لَا يُفَيْسُكُمْ فِي سَوَةِ عَمْرٍ
 وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هَذَا الْبَابِ :

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ لَوْ تَرَكَ الْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا
 كُلُّ لَهٍ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ وَأَفَةُ النَّحْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ : خَيْرُ الْهَجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ
 الْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَتَّبِعُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ :
 لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ التَّفَاخُرِ لَمْ تَرِنْ مِثْقَالَا
 وَقَوْلِ الْآخَرِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَحَبِّبًا

أَنَّ الصُّدُودَ هُوَ الْفِرَاقُ الْأَوَّلُ

حَسْبُ الْأَحِبَّةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ رَبُّ الْمُنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

إِلَّا أَنْ أَبْنَ مُحَمَّدٍ قَدْ قَنَّ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا أَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ:

لَيْنٌ سَبَقْتُ أَنَا وَلَيْنٌ سَبَقْتَ أَنْتَ وَلَا سَبَقْتُ فَلَهُ بِذَلِكَ فَضْلٌ بَيْنُ
الرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا أَحْسَنَ إِيجَازَ الَّذِي قَالَ:

الْعَمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ أَنْ يُحَقِّقَ بِالْعِقَابِ

وَقَالَ أَبُو الْمُحَدِّثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ الْعُقَلَاءُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَذَوُو الْحِزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِالْهَجَاءِ
وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ الْأَحْدُوثَةِ وَلَا يُمِضُونَ الْقَوْلَ إِلَّا ضَرُورَةً حِينَ
لَا يَحْسُنُ السُّكُوتُ. قَالَ أَبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَحَيَّرَ آيَاتِ الْكِتَابِ هَجَائِيَا
أَعْفُوا كَمَا يَعْفُو الْكَرِيمُ فَإِنِّي أَرَى الشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
أَغْمِضُ بَيْنَ الْحَمِّ وَالْجِلْدِ غَمَضَةً عِبْرَدِ رُومِي يَقْطُ النَّوَاصِيَا
فَأَمَّا سُرَاقَاتُ الْهَجَاءِ فَلَنْهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ اللَّئَامُ تَهَادِيَا

وَأَنِّي لَا ظَرِيَّ كُلَّ خَلٍّ صَحْبَتُهُ وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بَغَيْرِ حَيَاءٍ
وَمِنْ مَلِيحٍ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا
لَهُ :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ
لَمْ أَبْكُ مِنْ زَمَنٍ ذَمَّتْ ضُرُوفُهُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَّتْ مُدَّةً
وَأَلْمَتُونِ إِلَى الْإِخَاءِ عَصَابَةً
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْنِيَّةِ وَالرَّدَى
فَلَيْنَ سَبَقْتُ لَتَشْكَبَنَّ بِحَسْرَةٍ
وَتُنْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ
وَلَيْنَ سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لِيَمْضِينَ
وَلِيَذْهَبَنَّ بِنَهَاءِ كُلِّ مُرُوءَةٍ
وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا
وَدُّ بَدَا لَذَوِي الْإِخَاءِ كَمَا لَهُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ
وَالِي هُنَا أَوْمًا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
فُتِفَرِقُ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعَمْرُ
وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدَتْ أَلْبَيْتَ الْأَخِيرَ :
وَصَلِيًّا نَصْلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
يَا قَانِ أَلْقَامَ فِيهَا قَلِيلُ
وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

إِذَا رَأَيْتَ نِيوبَ اللَّيْلِ بَارِزَةً فَلَا تَطُنَّ أَنْ اللَّيْلِ مُبَسِّمٌ
 فَهَذَا الْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ الْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْوَاجِبِ
 وَالسِّيَاسَةِ غَايَةً فِي الْقُنْجِ وَالرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَضَ يَقُومُ يَنْتَقِصُونَهُ
 عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَيَعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَالْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى
 سَيْفِ الدَّوْلَةِ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ آيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ
 مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمٌّ
 وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَلِكَ مَعْرِفَةً إِنْ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذِمٌّ
 كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْنًا فَيُخْزِرَكُمْ وَاللَّهُ يَكْرَهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
 مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرِّ فِي

أَنَا الْثُرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
 وَلَيْسَ هَذَا عِتَابًا لِكَيْفِهِ سَبَابٌ وَيَسَبِّبُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ كَذَلِكَ
 يُقْتَلُ بَعْدَ أَنْصَرَفِهِ مِنْ مَجْلِسِ انْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ الْأَكْفَاءِ
 وَأَهْلِ الْمَوَدَّاتِ مِنَ الظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ الصَّوَلِيِّ
 يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :
 وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
 وَكُنْتُ أَذَمُّ إِلَيْكَ الزَّمَانِ فَاصْبَحْتُ فِيكَ أَذَمُّ الزَّمَانَا
 وَكُنْتُ أَعْدَدُكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا
 وَهَذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ الْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ الْعِتَابِ
 قَوْلُ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ :

تُرْدُ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ هَوَامِلُ مَجْدِ الْقَوْمِ وَهِيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّتْهَا لِحَايُهَا تَكُونُ وَهَذَا حُسْنُهَا وَهِيَ عَاطِلُ
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ لِأَيِّ الصَّغِيرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :
عَذْرُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءً تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَجْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحًا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذَلِكَ أَنِّي ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ النَّدَى فَتَصَخَّصَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سَأَمْدَحُ بَعْضَ الْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِذَا أَطْرَدَ الْإِقْيَاسُ أَنْ يَتَسَحَّحَا
فَهَذَا هُوَ الَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةٌ وَلَا يُجَادَى سَبْقًا عَلَى أَنْ
الْبُخْتَرِيُّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ الْمَغْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :
غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهُوَ مُنْعِمٌ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقَمُ
وَمَا بَجَلُ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ بِالنَّدَى وَلَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ
فَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ
وَكَانَ كَثِيرَ الْحَامِلِ ظَاهِرَ الْكِبَرِ وَالْأَنْفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِعَنْ يَقُولُ
إِسْنِيفِ الدَّوْلَةِ :

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فَيْكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكْمُ
أَعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٌ أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمَةٌ وَرَمَ
وَمَا أَنْتَفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ إِذَا أَسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ
وَفِيهَا يَقُولُ :

فَهَذَا أَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ الْقَوَافِي كَأَنَّهُ طِعَانٌ بِأَطْرَافِ الْقَنَا الْمُتَكَسِّرِ
وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هَذَا النُّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا الْقَاضِي
جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُحَايِلًا لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصْنَعًا
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْمَذْحَ فِيكَ فَرِيضَةً عَلَيَّ إِذَا كَانَ الْمَدِيحُ تَطَوُّعًا
فَقُمْتُ بِمَا لَا يَجْنِي عَنْكَ مَكَانُهُ مِنْ الْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ بِمَا تَوَسَّعًا
إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَاللَّهِ مَا طَوَّلْتُ بِاللَّوْمِ فِيكُمْ لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعًا
أَلُوذُ بِاِكْتِسَافِ الرَّجَاءِ وَآتَّقِي شَمَاتَ الْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا
وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَامٍ قَوْلُهُ لِابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزَّيَّاتِ :
تَقَطَّعْتَ الْأَنْسَابُ إِنْ لَمْ تُعْرِزْهَا

قُوَى أَوْ يَصِلَهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاعْمَلْ
سِوَى مَطْلَبٍ يَنْضَى الرَّجَاءُ بِطُولِهِ
وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ الْجَفُونِ الْوَسَائِلُ
وَقَدْ تَأَلَّفُ الْعَيْنُ الدُّجَى وَهُوَ قَيْدُهَا

وَيُرْجَى شِفَاءُ السَّمِّ وَالسَّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَأَنَّ الْمَعَالِي يُسَدَّرُ بِهَاوُهَا وَشَيْكَا كَمَا قَدْ تُسَدَّرُ الْمَازِلُ
مَخْتَكُهَا تَشْفِي الْجَوَى وَهُوَ لَا عِجْ وَتَبَعْتُ أَشْجَانَ الْفَتَى وَهُوَ ذَاهِلُ

وَالْإِسْتِثْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ الْإِخْتِجَاجُ وَالْإِتِّصَافُ . وَقَدْ يَغْرِضُ
فِيهِ أَلَمٌ وَالْإِخْفَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرُكُهُ الْإِعْتِدَارُ وَالْإِعْزَافُ . وَأَحْسَنُ
الْأَنَاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ الْأَشْرَافِ شَيْخُ الصَّنَاعَةِ وَسَيِّدُ الْجَمَاعَةِ أَبُو
عِبَادَةَ الْبُخَّارِيُّ الَّذِي يَقُولُ :

يُرِيْبُنِي الشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ وَأَكْثِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيَا
وَأَضْرَهُ أَنْ أَمْلَأَ عَلَى سَبِيلِ اعْتِدَارٍ فَأَلْقَى شُعُوبَا
أُكْذِبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتُ م وَمَا كُنْتُ أَهْدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ أَذْمُ الزَّمَانَ وَأَشْكُو الْخُطُوبَا
وَلَا بَدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَهِي عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا
أَيُضِجُ وَرَدِي فِي سَاحَتِكَ م طَرَقًا وَمَرَعَايَ مَحَلًّا جَدِيَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ يُشَقِّقُ فِيهِ الْوَدَاعُ الْجُيُوبَا
وَالَّذِي يَقُولُ :

وَأَعِيدَ إِنْ نَازَعْتَهُ اللَّحْظَ رَدَّهُ كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ الْقَوْلَ جَجَمَا
ثَنَاهُ الْعِدَا عَنِّي فَأَضْبَحَ مُعْرِضًا وَأَوْهَمَهُ الْوَأَشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ رَبَاهُ وَطَلَقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعَشَرٌ وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أَعِيدُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ

تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمِ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا
أَلَسْتُ أَلُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ الْأَنْجَمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجَمَا

الْعَتَاهِيَةَ لِعَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ. وَأَبْنُ الْمَعْتَرِ يُسَمِّي هَذَا النَّوعَ مَرْحًا
يُرَادُ بِهِ الْجِدُّ وَهُوَ:

أَمَّا بَت عَلَيْنَا جُودَكَ أَلَعَيْنُ يَا عَمْرُ
سَمَرْقِيكَ بِالْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا
فَقَحْنُ لَهَا نَبْغِي السَّمَائِمَ وَالنُّشْرَ
فَإِنْ لَمْ تُتَفِقْ مِنْهَا رَقِيئَاكَ بِالسُّوَرِ
وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي الْإِسْتِطَاءِ:

أَحْسَنْتُ فِي تَأْخِيرِهَا مِنْهُ لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَةً
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَةٌ
وَجَهْتُ الْفِرْدَوْسَ يُدْعَى بِهَا آجَلَةٌ لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَةٌ
لَكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نَيْتِي أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَةٌ
وَالْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ الْإِقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ
الْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَالْإِقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ
إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَأِنْ كَانَ حَيَاةُ الْمَوَدَّةِ وَشَاهِدُ الْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ
الْحَدِيقَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْقَطِيعَةِ وَالْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَائِمَةً
الْأُلْفَةِ وَقَيْدُ الشُّجْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَسَنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ
طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَالنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَفَنُهُ مَا يُمَارِجُهُ الْإِسْتِغْطَافُ

إِذَا أَتَىٰ عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّاءُ
فَأَنْتَ تَرَىٰ هَذَا الْإِقْتِضَاءَ كَيْفَ يَلِينُ الصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ الْقَطْرَ
وَيَحْطُ الْعَصَمَ إِلَى السَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ الْآخَرِ:
لَا شُكْرَ لَكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ إِنْ أَهْتَمَّ مَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ
وَلَا أَلُومُكَ إِنْ لَمْ يُنْمِضِهِ قَدَرٌ فَالْشَّيْءُ بِالْقَدَرِ الْخَتْمُ مَصْرُوفُ
فَأَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدٍ بْنِ يَزِيدَ الْأَمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرْخَانَ
إِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ أُرْجِيكَ لَمَّا أَخَشَى مِنَ الدَّهْرِ
فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكَدِ مِ أَنْبَايَ إِلَى الْفَقْرِ
أَرْضَى لِي بِأَنْ أَرْضَى بِتَقْصِيرِكَ فِي أَمْرِي
وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمرِي
فَهُوَ الْعِتَابُ الْخَضُّ وَالتَّوْبِخُ الَّذِي دُونَهُ الْجُلْدُ بِالسَّوْطِ بَلْ
بِالسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي الْعِتَابِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ بَعْدَ الْيَأْسِ
الْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْأَمْرِ الْمُهْمِ وَفِي يَدَيَّ بَقَايَا أَمْنِي النَّفْسِ فِيهَا الْأَمَانِيَا
فَسَاوَفَتْ فِي الْأَيَّامِ حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ

أَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا
وَكُنْتُ كَأَنِّي نَازِفُ الْبُيُوتِ طَالِيَا لِإِحْمَامِهَا أَوْ يَرْجِعُ أَمْلَاءُ صَافِيَا
فَلَا هُوَ أَبْقَى مَا أَصَابَ لِنَفْسِهِ وَلَا هِيَ آعْطَتْهُ الَّذِي كَانَ رَاجِيَا
وَمِنْ أَمْلَحَ مَا رَأَيْتُ فِي الْإِقْتِضَاءِ وَالْإِسْتِطَاءِ قَوْلُ أَبِي

أَجَلٌ قَدَرَكِ أَنْ تُسَمِّيَ مُوَبَّةً وَمَنْ يَصْفُكَ فَقَدْ سَمَّاكَ لِلْعَرَبِ
وَرِثَاءَ الْأَطْفَالِ أَنْ يَذْكُرَ خَائِلَهُمْ وَمَا كَانَتْ الْفِرَاسَةُ تُعْطِيهِ
فِيهِمْ مَنْ تَحَنَّنَ لِمَصَابِيهِمْ وَتَفَجَّعَ بِهِمْ كَالَّذِي صَنَعَ أَبُو تَمَّامٍ فِي ابْنِي
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسْبُ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ مَدْحُهُ شَرِيفًا وَأَقْتِضَاؤُهُ لَطِيفًا
وَهَجَاؤُهُ إِنْ هَجَا عَنِيْفًا فَإِنَّ الْأَقْتِضَاءَ الْحَسَنَ رُبَّمَا كَانَ سَبَبَ الْمَنْعِ
وَالْجُرْمَانِ وَدَاعِيَةِ الْقَطِيعَةِ وَالْهَجْرَانِ. وَقَوْمٌ يُدْرِجُونَ الْعِتَابَ فِي
الْأَقْتِضَاءِ وَالْأَقْتِضَاءِ بِالْعِتَابِ وَأَنَا أَرَى غَيْرَ هَذَا الْمَذْهَبِ أَضَوْبَ
فَالْأَقْتِضَاءُ طَلَبُ حَاجَةٍ وَبَابُ التَّلَطُّفِ فِيهِ أَجُودُ فَإِنْ بَلَغَ الْأَمْرُ
الْعِتَابَ فَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ الْإِبْقَاءِ عَلَى الْمَوَدَّةِ وَالْمُرَاعَاةِ وَفِيهِ تَوْبِيخٌ
وَمُضَادَّةٌ لَا يَجُوزُ مَعَهَا بَعْدُ أَقْتِضَاءُ إِلَّا أَنْ النَّاسَ قَدْ خَلَطُوا هَذَيْنِ
وَسَاوَا بَيْنَهُمَا. فَمَنْ أَحْسَنَ الْأَقْتِضَاءَ عَلَى مَا تَحْيَرُوهُ وَتَحَوْتُ إِلَيْهِ
قَوْلُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ:

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي	حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ أَحْيَا
وَعِلْمُكَ بِالْحُقُوقِ وَأَنْتَ قَزَعٌ	لَهُ الْحَسَبُ الْمُهَذَّبُ وَالسَّنَاءُ
خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ	عَنِ الْخَلْقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

لَنْ يَجْبُرَ اللَّهُ أُمَّةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَارُونَ
وَمِنْ جَيْدٍ مَا رُئِيَ بِهِ النِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي الْقَلْبِ وَآثَارَهُ
لِلْحُزْنِ قَوْلُ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ هَذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :
أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ الْمُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ
يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنْ سَجَلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجَلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
وَأَنْ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لِحْدُهُ

لَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
وَمَنْ أَشْجَى الشَّعْرِ رِثَاءَ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :
فَهَبْنِي عَدِمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَتِي جَلِيدٌ قَمْنٌ بِالصَّبْرِ لِابْنِ ثَمَانٍ
فَهَذِهِ الطَّرِيقُ هِيَ الَّتِي يَجْرِي حُدَاقُ الشُّعْرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ
فِي الرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ الْمَرْثِيَّةُ مِنْ نِسَاءِ الْمَلِكِ وَبَنَاتِ
الْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ الشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُجَافِي عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ
إِلَى أَرْفَعِ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلَهَا حُفَاةً كَانَ الْمُرَوِّ مِنْ زِفْرِ الرِّيَالِ
وَقَوْلِهِ لِأَخْتِ سَيْفِ الدَّوَلَةِ :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً يَهْمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

اللَّهُ عَلَى مَا أُعْطِيَ وَأَصِيرَ عَلَى مَا رُزِيَ فَقَدَتْ خَلِيقَةَ اللَّهِ وَأُعْطِيَ
خِلَافَةَ اللَّهِ فَفَارَقَتْ جَلِيلًا وَأُعْطِيَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةَ نَحْبَهُ
وَوَلَّيْتَ الرِّئَاسَةَ وَأُعْطِيَ السِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ اللَّهُ مَوَارِدَ السُّرُورِ
وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ الْأُمُورِ :

فَأَصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ

فَأَشْكُرْ جِبَاءَ الَّذِي بِأَمْلِكِ أَضْفَاكَ
لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي الْأَيَّامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ
فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ الْقَوْلِ وَعَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ جَرَى الشُّعْرَاءُ بَعْدَهُ
قَالَ أَبُو نُوَّاسٍ يُعْزِي الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَيُهْنِيهِ بِالْأَمِينِ :
تَعَزَّ أَبَا الْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَانَ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهْنٌ مَسَاوِ مَرَّةٍ وَمَحَاسِنُ
وَفِي الْحَيِّ بِأَمْلَيْتِ الَّذِي غَيَّبَ اللَّيْثُ

فَلَا أَمْلِكُ مَغْبُونٌ وَلَا أَلْمُوتُ غَابِنُ
وَيُرَوَّى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ. وَاتَّبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي أَوَّلَهَا
(مَا لِلدَّمْعِ رُومٌ كُلُّ مَرَامٍ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَارِثِ بَعْدَ الْمَعْتَصِمِ صَرْفٌ
فِيهَا الْكَلَامُ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَخْتَجَّ وَأَنْسَهَبَ وَتَقَدَّمَ
فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هَذِهِ النَّاحِيَةَ مِنَ الشُّعْرَاءِ. وَأَرَادَ ابْنُ الزَّيَّاتِ
جُبَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّقْصِيرَ فَاقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَأَصْطَفَقْتُ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالْثَرْبِ وَالطَّيْنِ
إِذْ هَبَ فَنِعْمَ الْمَعِينُ كُنْتَ عَلَى الدُّمِ نِيًا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ

الطَّيِّبُ وَهُوَ فُحْلٌ مُجَوَّدٌ إِذْ ذَكَرَ الْخُدُّونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أَمْ سَيْفُ
الدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَنِ بِالْجَمَالِ
وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهَذِهِ الْعُجُوزُ يَصِفُ جَمَاهَا وَقَالَ الصَّاحِبُ بْنُ
عَبَّادٍ : هَذِهِ أَسْتِعَارَةٌ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ الصَّاحِبُ
بِالْأَسْتِعَارَةِ الْحَنُوطَ فَقَدْ وَاللَّهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ
أَسْتِعَارَةَ الْكَفَنِ لِحِمَالِ الْعُجُوزِ فَقَدْ اعْتَرَضَ فِي مَوْضِعٍ اعْتَرَضَ
إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَا يَنْحَقُ كُلُّ رِثَةٍ وَيُعْنِي كُلُّ
إِسَاءَةٍ . قَالَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : وَلَقَدْ مَرَزْتُ عَلَى مَرِثَةٍ لَهُ فِي
أَمْرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ الْحُسْنِ عَلَى سُوءِ آدَبِ النَّفْسِ
وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطَبُ مَلِكًا فِي آتِهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ الْغَيْرِ فَوْقَكَ مُسَبِّطٌ وَمُلْكُ عَلِيٍّ آيُنِكَ فِي كَمَالٍ
وَلَعَلَّ لَفْظَ الْأَسْبِطَارِ فِي رِثَائِي الْتِسَاءَ مِنَ الْخِذْلَانِ الصَّفِيقِ
الرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ
قَصِيدَةٍ هَجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا فُضَاءٌ
وَمِنْ أَضْعَابِ الرِّثَاءِ أَيْضًا جُمْعُ تَغْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ
قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ اجْتَمَعَ النَّاسُ بِبَابِ يَرِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى
الْجُمْعِ بَيْنَ التَّغْزِيَةِ وَالتَّهْنِئَةِ حَتَّى آتَى عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ هَمَامٍ السَّالُوبِيُّ
فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى الرِّزْيَةِ . وَبَارَكَ لَكَ
فِي الْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى الرِّعْيَةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَاشْكُرْ

وَأَسْمَاهُ الدَّعْجَاءُ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُتَعَارِفَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَرِئَةٌ أَوْ لَهَا تَشْيِبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ
أَلَوَاجِبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ
الْأَخْذَ فِي الرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ النَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ
مِنَ الْحُسْرَةِ وَالْإِهْتِمَامِ بِالْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغْزَلُ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ
بِسَنَةِ وَحِينَ أَخَذَ بَثْرَهُ وَأَذْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنْ الْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ فِي تَأْيِينِ قَيْسِ بْنِ
عَاصِمٍ أَلِنَقَرِي:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَ حَمَاهُ
وَيَقُولَ الْكُمَيْتُ فِي تَأْيِينِ النَّبِيِّ هَذَا الْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ
قَوْلِ فَاطِمَةَ:

اغْبَرَ أَفَاقُ السَّمَاءِ وَكَوَّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْقَضْرَانِ
وَالنِّسَاءُ أَشْجَى النَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَاعًا عَلَى
هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْعَزِيمَةِ
فَأَنْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةٍ بِنْتِ مُرَّةٍ تُرِثِي زَوْجَهَا كُتَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ
أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَشْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ التَّحْقِيقَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُشِيرُ
إِلَّا شُجَانٌ وَيَقْدَحُ شَرَرَ التَّيْرَانِ وَذَلِكَ:

يَا ابْنَةَ الْأَقْوَامِ إِنْ نُكِّتِ فَلَا تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسَالِي
وَمِنْ أَشَدِّ الرِّثَاءِ صُعُوبَةُ عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَرِثِي طِفْلًا أَوْ أَمْرَأَةً
لِضِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ الصِّفَاتِ. أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

وَمِنْ عَادَةِ الْقَدَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا الْأَمْثَالَ فِي الْمَرَاثِي بِالْمُلُوكِ
الْأَعَزَّةِ وَالْأَئِمِّ السَّالِفَةِ وَيَالُوْعُولِ الْمُنْتَعَةِ فِي قُلُلِ الْحِبَالِ وَالْأَسْوَدِ
الْحَادِرَةِ فِي الْغِيَاضِ وَحَرِّ الْوَحْشِ الْمُنْتَصِرَةِ بَيْنَ الْقِفَارِ وَالنُّسُورِ
وَالْعُقْبَانِ وَالْحَيَاتِ لِبَاسِهَا وَطُولِ أَعْمَارِهَا وَذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ
مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَحُلُو مِنْهُ. فَأَمَّا الْمُحَدِّثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هَذِهِ
الطَّرِيقَةِ آمِيلٌ وَمَذْهَبُهُمْ فِي الرِّثَاءِ أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هَذَا وَقَبْلَهُ وَرَبَّمَا
جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ أَقْتِدَاءُ بِهِمْ وَآخِذَا يُسْتَنَّهُمْ كَالَّذِي صَنَعَ
أَبُو نَوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا الْوَلِيدِ الْأَعْرَابِيِّ وَخَلْفًا لِأَخِيهِ وَمَرَاثِيهِ
فِيهَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتُ

وَكَمَا صَنَعَ ابْنُ الْمُغْتَرِّ يَرِثِي أَبَاهُ بِالْقَصِيدَةِ اللَّامِيَّةِ الْمُقَيَّدَةِ
فِي الرَّمْلِ أَوْهَا :

رُبَّ حَتَفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْأَمَلِ وَحَيَاةِ الزَّمَانِ ظِلٌّ مُسْتَقِلٌ
وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْ لَا أَشْهَادُ هَذِهِ الْقَضَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيقَةُ التَّطْوِيلِ
لَا ثَبَتَهَا بِهَذَا الْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ الشُّعْرَاءِ أَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ
الرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي الْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ. قَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ
وَكَانَ عَلَامَةً لَا أَعْرِفُ مَرِثَةً فِي أَوْهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةً دُرَيْدِ بْنِ
الْصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ خَالِدٍ :

أَرِثَ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَفَتْ كُلَّ سَوْعِدٍ
وَحَكَى الْحَاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْأَخْوَلِ
أَنَّ الْقَصِيدَةَ الَّتِي لِأَبِي قُحَاقَةَ أَعَشَى بِأَهْلَةٍ إِنَّمَا هِيَ لِابْنَةِ الْمُنَشِّرِ

أَحْسَنَ بْنَ مَطِيرٍ رَأَيْتُ مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِابْنِ أَبِي حَفْصَةَ:
فَيَا قَبْرَ مَعْنَ أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ

مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعًا
وَيَا قَبْرَ مَعْنَ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ

وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبُرُّ وَالْجَرُّ مُتَرَعًا
بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ

وَلَوْ كَانَ حَيًّا عِشْتَ حَتَّى تَصَدَّعًا
فَتَى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ

كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
وَمِمَّا قَصَرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَانِهِ مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي
يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ عَظِلَتْ لَهُ فِجَاجُ سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْشَغَرَ الشَّعْرُ
وَقَدْ آجَادَ أَيْضًا فِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي رَأَى بِهَا أَذْرِيسَ بْنَ بَذْرِ
يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ الْجُودِ حَلْفَ سَرِيرِهِ بِأَنْكَسَفِ بِالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَطْلُعُ
وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ الْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ الرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكَ الْخِنْ
وَهُوَ أَشْهُرُ فِي هَذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدْ أَنْفَرَدَ بِهَا قَالَ
فِي عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدْ اسْتَوَى النَّاسُ وَمَاتَ الْكَمَالُ وَصَاحَ صَرْفُ الدَّهْرِ آيِنَ الرِّجَالِ
هَذَا أَبُو الْقَلِيمِ فِي نَعِيشِهِ قَوْمُوا أَنْظَرُوا كَيْفَ تَسِيرُ الْحِبَالُ

البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيْسَ بَيْنَ الرِّثَاءِ وَالْمَدْحِ فَرْقٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِالرِّثَاءِ شَيْءٌ
يُدْلُ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ مِثْلُ كَانَ أَوْ عَدِمْنَا كُنَيْتَ وَكُنَيْتَ
أَوْ مَا شَاكَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مِثْلٌ. وَسَبِيلُ الرِّثَاءِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ
التَّعْجُمِ بَيْنَ الْحُسْرَةِ مَخْلُوطًا بِالتَّهْلُفِ وَالْأَسْفِ وَالْإِسْتِعْظَامِ إِنْ
كَانَ أَلْمِيتُ مَلِكًا أَوْ رَيْسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ فِي حِضْنِ بْنِ
حَذِيقَةَ :

يَقُولُونَ حِضْنٌ ثُمَّ تَأْتِي نَفْسُهُمْ وَكَيْفَ بِحِضْنٍ وَالْحِبَالُ تُجُوحُ
وَلَمْ تَلْفُظِ أَلْمُوتِ الْقُبُورِ وَلَمْ تُزَلْ تُجُومُ السَّمَاءُ وَالْأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُهُ فَظَلَّ بَذِي الْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ
فَهَذَا وَمَا شَاكَهُ رِثَاءُ أَلْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ الْحِلَّةِ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ
أَبُو الْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ : (مَاتَ الْخَلِيفَةُ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ النَّاسُ
رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا : أَنْعَاهُ إِلَى الْخِنْ وَالْإِنْسِ ثُمَّ قَالَ :
(فَكَأَنِّي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانَ) يُرِيدُ إِنِّي مُجَاهَرِّتِي بِهِذَا
الْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِالْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ
يُنْكِرُ عَلَيَّ ذَلِكَ وَيَسْتَفْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهَذَا مَعْنَى جَيْدٌ غَرِيبٌ فِي
لَفْظِ رَدِّي غَيْرِ مُعَرَّبٍ عَمَّا فِي النَّفْسِ . وَمِنْ أَفْضَلِ الرِّثَاءِ قَوْلُ

يَفْخَرُ بِوَلَايَةِ مَنْ خَزِيمَةُ بْنُ خَازِمٍ النَّهْشَلِيَّ :

إِذَا مُضِرُّ الْحَمْرَاءِ كَانَتْ أَرْوَمِي وَقَامَ بِبُضْرِي خَازِمٌ وَأَبْنُ خَازِمٍ
عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَاخٍ وَتَنَاوَلْتُ يَدَايَ الْكُرْيَا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ
وَمِنْ قَوْلِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمْ وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أَنْتُمْ دَعَائِمُ هَذَا الْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ قَبْلُ الْخَيْلُ لِإِبْرَامَ وَتَوَكَّيْدِ
الْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَرَمَتْهُ أَرَمَتْ وَأَلَوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ الْمَرَاوِدِ
سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَاذِبَهُ فِي يَوْمٍ ذِي قَارِ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعِدِ
فَهَذَا هُوَ الْفَخْرُ الْحَلَالُ غَيْرُ الْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا الْمُنْتَحَلِ .
وَعَابَ الْأَضْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعَسِّرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ
أَسِيرًا :

فَظَلَ الْيُحَالِسُ الْمَذَقَاتِ فِيْنَا يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَيْيْقُ
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُحَالِسُ الْقَلِيلُ الْمَذُوقِ
مِنَ اللَّبَنِ إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةِ أَفْخَرٍ فِيهَا شَاعِرُ
قَصِيدَةِ السَّمَوَالِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ الْمَادِحِ
وَأَنْوَاعَ الْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنْكَرَ الْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ :
مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي بَلْ بِنَفْسِي فُحِرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَدَّتْ عَجَلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ وَلَكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عَجَلُ
قَالَ وَهَذَا مَعْنَى سُوءِ يَغْضُ مِنْ حَسَبِ الْمَدْحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ
سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ الْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ الْمَدْحُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَالْآبَاءَ
تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلِّ مِنْهُمْ فِي الْفَخْرِ حَظًّا وَفِي الْمَدْحِ
نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِلَتِ الْحَقَائِقُ كَانَ النَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ
الْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ الْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ
مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَمَا نَقَّلَ مَالَهُ قَادًا رُعْيًا وَحُرْتُ ثَبَتَ
وَأَزْدَادَ وَإِنْ أَهْلٌ وَضُيْعَ هَلَكَ وَكَذَلِكَ شَرَفُ الْوَالِدِ يَعُمُّ الْقَبِيلَةَ
وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ الْقِسْمُ الْأَوْفَرُ وَالْحَظُّ الْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ : وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْأَخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا
نَاسَبَ قَوْلَ الْمُتَوَكِّلِ اللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَبْنَا كُرَّمَتْ يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَكَلُّ
نَبِينِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا
وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَبْنَى سَيِّدَ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحُ الْمُهْدَبُ
فَمَا سَوَدَّتْنِي عَامِرٌ عَنْ وَرَاثَةٍ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأَمٍّ وَلَا أَبٍ
وَمِنْ الْفَخْرِ مَا قَالَ الْمُؤَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمُؤَصِّلِي-

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ قَوْكَ دَارِمًا وَالشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ الْآبَصَارُ
وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ابْنِ مِيَادَةَ:

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غِيلَانَ أَقْسَمَتْ

عَلَى الشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا
وَأَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحَدَّثٌ عَنْهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بَرْدٍ:
إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضَرِّيَةً

هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا (١)
إِذَا مَا أَعْرَفْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمًا
وَمِنْ جَيْدِ الْإِفْتِحَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ:

وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِمَّا يَعِشُ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلُ
وَنَحْنُ وَصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِأَسْ شَدِيدٍ فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ
وَأَنَا نَلْتَلُو فِي الْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ قَتَاةٌ بِعَقْدٍ أَوْ سِحَابٍ قَرَنُفَلِ
يَعْنِي قَوْلَ الْقُرْآنِ: سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ. وَبِسَبَبِ
هَذَا الشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ الرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ: كَيْفَ تَفْتَحِرُ عَلَى
مُضَرٍّ وَمِنْهُمْ النَّبِيُّ. فَهَذَا الْإِفْتِحَارُ بِالشَّجَاعَةِ خَاصَّةً. وَمِنْ أَفْخَرِ
بِالْكَثَرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ:

مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا وَلَا تَغِيْبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا
وَقَدْ أَنْكَرَ قَدَامَةُ أَنْ يُمدَحَ الْإِنْسَانُ بِأَبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ
مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَأَبَائِهِمْ. وَالَّذِي

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسه)

الِافْتِخَارُ هُوَ الْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنْ الشَّاعِرَ يُخْصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ
فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي الْمَدْحِ حُسْنٌ فِي الْإِفْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبِحَ فِيهِ قَبِيحٌ
فِي الْإِفْتِخَارِ فَهِنَّ آيَاتُ الْإِفْتِخَارِ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يُحْيَى بْنِ ثَعْلَبٍ : أَفَحَرُّ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ قَوْلُ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ النَّاسُ مِنَّا حِينَ تَمْلِكُهُمْ كَانُوا عَيْدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا
وَقَالَ دِغِيلُ أَفَحَرُّ الشَّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَيَبِئْسَ بَذْرٌ إِذَا يَرُدُّ وَجُوهَهُمْ جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا وَمُحَمَّدٌ
وَقَالَ الْحَاكِمِيُّ : قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْ مَا نَأْتِي النَّاسَ وَقَفُوا
قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَيْمٍ وَجَدْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابَا
وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ إِذَا عَدَّتْ مَعَدُّ قَدِيمِهَا مَكَانَ النَّوَاصِي مِنْ وَجْهِهِ السَّوَابِقِ
وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ لَجَرِيرٍ :

وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَقَاءُ لَوْ فَعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي اللَّائِبَاتِ وَأَجَلُوا
 فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فَمَا سِغَتْ أَحْسَنَ
 مِنْهُ فَقَالَ يُحْيَى يَقُولُهُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هَذَا الْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ
 فَكَانَ قَوْلُهُ أَسْرًا إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ الْفَوَائِدِ ثُمَّ أَلْفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ
 يَا شَرَّاجِيلُ أَنْشِدْنِي أَحْجُودَ مَا قَالَهُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ
 فَأَنْشَدَنِي:

نَعَمْ أَلْمَسَاخُ لِزَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ الْأَزْمَانِ
 مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَقًّا إِلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانَ
 إِنْ عُدَّ أَيَّامُ الْإِقَاءِ فَلَنَمَّا يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدَى وَيَوْمُ طَمَانٍ
 يَكْسُو الْأَسْرَةَ وَالْمَنَابِرَ بِهَجَّةٍ وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانٍ
 تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهَهُ فِي الْحَرْبِ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْأَلْوَانِ
 نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا الْوَلِيدِ إِذَا بَدَأَ رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالرِّمَاحِ دَوَانِ
 فَقَالَ يُحْيَى أَنْتَ لَا تَذَرِي جَيْدَ مَا مَدَحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجُودُ مِنْ
 هَذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَاشْكَلَا فَلَا تَخْنُ تَذَرِي أَيُّ يَوْمِهِ أَفْضَلُ
 أَيُّومُ نَدَاهُ الْعُمَرُ أَمْ يَوْمُ بَاسِهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغْرُ مُجْجَلُ
 وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَثْقُلُ الْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ
 ذَلِكَ دَأْبَ الْبُخْتَرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْ كَذَبْتُكَ أَرَبَيْتَ فِي الْغُلُوءِ
 نَقَلَهَا عَنْ يُحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانِ الصَّيِّ

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُغْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتِفُّ الْحُمُرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتِفُّ أَلْمَالُ نَائِلُهُ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غَدَوَةٌ فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ
يُعَدِّيَنَّهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يُلَمِّسُهُ وَاعْيَا فَمَا يَذَرِينَ أَيْنَ مَحَاتِلُهُ
فَاعْرَضَنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرْزِيًا جُمُوعٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ
وَقَوْلُ طُفَيْلٍ :

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَرْلَقْتَ بِنَا فَعَلْنَا فِي الْوَاطِئِينَ وَرَلَّتْ (١)
أَبَوَا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمْنًا تُلَاقِي الَّذِي لَأَقُوهُ مِمَّا لَمَلَّتْ
وَسَالَ الرَّشِيدُ الْفُضْلَ الضَّيِّيَّ : أَيَّ بَيْتٍ قَالَتْ الْعَرَبُ أَمَدَحُ
فَقَالَ :

أَغْرُ أَبْلَحُ تَأْتُمُّ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَالِمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ
قَالَ سَرَّاحِيلُ بْنُ مَعْنٍ بْنِ زَائِدَةَ : كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةٍ يَحْيَى
أَبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ الرَّشِيدِ وَعَدِيْلُهُ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي إِذَا
أَعْرَاجِي مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَاَنْشَدَهُ شِعْرًا
أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ
هَذَا الشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ الْلِقَاءِ كَأَنَّهُمْ جَارِهِمُ بَيْنَ السَّمَائِينَ مَتَرُلُ
بِهَائِلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَاوِلُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجَزَلُوا

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى الْإِنْصَافِ أَخْرَجُ مِنْهَا إِلَى
 الْمَكَابِرَةِ وَالْخِلَافِ وَأَبُو نُوَّاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ الْعُذْرُ
 وَالْتَوِيلُ وَالْأَقَا فِي صِفَةِ الْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذَكَرَ لَاسِيًّا عَلَى
 رِوَايَةٍ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسَالُ الْأَيَّامُ). وَمِنْ جَيِّدٍ مَا سَعِغْتُ لِتُحَدِّثَ
 وَأَظْنُهُ لِابْنِ الرُّومِيِّ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ
 مَنْ بَرَوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبِ أَبِي الْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا

لَمْ يُجْمَدِ الْأَجُودَانِ الْبَجْرُ وَالْمَطَرُ
 وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ

تَضَاءَلِ النَّيِّرَانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزَمَتُهُ

تَأَخَّرَ الْمَاضِيَانِ السَّيْفُ وَالْقَدَرُ
 مَنْ لَمْ يَبْتَ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ

لَمْ يَذِرْ مَا أُلْزِمَ عَجَانِ السَّيْفِ وَالْحَذَرُ
 يَبَالُ بِالظَّنِّ مَا يَغَيُّ الْعَيَانُ بِهِ

وَالشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ الْعَيْنُ وَالْآثَرُ
 كَأَنَّهُ وَزِمَامُ الدُّهْرِ فِي يَدِهِ

يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ
 قَالَ خَلْفُ الْآخِرِ: أَخْلَبُ الْمَدْحِ وَكَثُرَتْهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ

أَبِي سَلَمَى:

وَقَالَ دُعِيلُ بَلْ قَوْلُ أَبِي الطَّحَّانِ أَقْيَنِي

أَخْبَأَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى تَنَظَّمَ الْجَزَعُ صَاحِبُهُ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هَذَا الْبَيْتِ يَغْنِي بَيْتَ أَبِي الطَّحَّانِ قَوْمٌ

وَفِي بَيْتِ حَسَّانٍ فِي آلِ جَفَّةَ وَبَيْتِ النَّائِقَةِ :

يَا نَتِكَ شَسْشُ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكَبُ

وَبَيْتُ أَبِي الطَّحَّانِ أَشْعَرُهَا . قَالَ الْحَلِثِيُّ : بَلْ بَيْتُ ذَهْرٍ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُغْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وَحَكِي عَنْ عَلِيٍّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ : أَجْمَعَ أَهْلُ

الْعِلْمِ أَنَّ بَيْتِي أَبِي نُوَّاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي الْمَدِيحِ لِلْمَوْلَدِينَ وَهُمَا :

أَنْتَ الَّذِي تَأْخُذُ الْأَيْدِي بِحُجْرَتِهِ

إِذَا أَلْزَمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلِمًا

وَكَلَّتْ بِالْذَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ

مِنْ جُودِ كَيْفِكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكِي الْحَلِثِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى

قَالَ : سَمِعْتُ أَبْنَ الْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : أَمَدَحُ بَيْتَ قَالَهُ مُوَلَّدُ قَوْلِ

أَبِي نُوَّاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ ذَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى ذَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسَالُ الْأَجْدَاثُ مَا أَسْمِي مَا دَرَّتْ

وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَهُ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
 إِذَا رَفَعْتَ أَمْرًا فَلِلَّهِ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ الْأَقْوَامِ مُتَّعِ
 مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
 إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تَخْلَفْ أُنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرُ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ
 فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَهْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ
 وَأَشَدَّ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ شَمْسُ الصُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
 تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالصَّمَامَةُ الذَّكَرُ
 فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صَلَاتَهُ
 وَقَالُوا أَلَا حَضَرَتِ الْخَطِيئَةُ الْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا الْأَنْصَارَ أَنَّ
 أَخَاهُمْ أَمَدَحُ النَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:
 يُفْشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْقَبِيلِ
 قَالَ ثَعْلَبُ بَلْ قَوْلُ الْأَعَشَى:
 فَتَى لَوْ يُبَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا

أَوْ الْقَمَرَ الشَّارِي لَأَلْقَى الْقَالِدَا
 أَمَدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ
 أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَيْنِ بَطُونِ رَاحِ
 أَسِيرَ مَا قِيلَ فِي الْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ
 الْأَخْطَلِ:

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهَا وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ
تَصَرَّفَ فِي آيَاتِهِ هَذِهِ فِي أَصْنَافِ الْمَدِيحِ وَآتَى بِجَمَاعِ
الْوَصْفِ وَجُمْلَةِ الْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ الْاِقْتِصَادِ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ. وَمِثْلُهُ
قَوْلُ الشَّمَاخِ :

رَأَيْتُ عُرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو إِلَى الْخِزَارَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ
إِذَا مَا رَأَيْتُهُ رُفِعَتْ لِحْدِي تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِالْيَمِينِ
وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِيحٍ بِهِ الْمُلُوكُ وَكَثْرُهُ إِصَابَةُ لِلْفَرَضِ مَا
يُنَاسِبُ قَوْلَ ابْنِ هَرَمَةَ فِي الْمَنْصُورِ :

لَهُ لَحْظَاتٌ عَنْ حِفَافٍ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ
فَأَمَّا الَّذِي آمَنْتُ أَمْنَهُ الرَّدَى وَأَمَّا الَّذِي أَوْعَدْتَ بِالشَّكْلِ ثَاكِلُ
وَقَوْلُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ يُمَدِّحُ الْهَادِي :

يَضْطَرِبُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ إِذَا حَرَّكَ مُوسَى الْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرَ
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْحَزِينِ الْكِتَابِيِّ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ
ابْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا
فِي اللَّعِينِ الْمُنْقَرِي وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُتَمِّ بْنِ الْعَبَّاسِ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ :

فِي كَفِّهِ خَيْرُ دُرٍّ رِيحُهُ عَيْقُ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عَرْنِينِهِ شَمَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
وَأَجْتَمَعَ الشُّعْرَاءُ بِبَابِ الْمُتَعَصِّمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ
يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورِ النَّمِرِيِّ فِي الرَّشِيدِ :

وَحُكِّيَ عَنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ قَاتَلَهُمُ
 اللَّهُ رَبِّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيَنْغَصُونَ بِهِ عَلَيْنَا
 أَوْقَاتَ لَذَائِنَا يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذَلِكَ قَوْلُ
 أَبِي تَمَّامٍ :

فَلْيُطْلَعْ عَمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوَسٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبًا
 مَا الَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ الْمَوْتِ هَهُنَا إِلَّا أَنْكَدُ وَالْبَغَاضَةُ
 وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ بِمَدْحِ الرَّسُولِ :
 تَحْمِلُهُ النَّاقَةُ الْأَدَمَاءُ مُعْتَجِرًا بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَى لَيْلَةِ الظُّلَمِ
 وَفِي عِطَافِهِ أَوْ أَثْنَاءَ رَيْطِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ
 وَالْجَهَالِ يُرَوْنِ الْبَيْتَ لِأَبِي دُعَيْلٍ الْجَحْمِيِّ وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ
 الْحَجَّاجِ :

يَحْمِلُنَ كُلُّ سُودْدٍ وَفَخْرٍ يَحْمِلُنَ مَا نَذَرِي وَمَا لَا نَذَرِي
 قَالَ الْأَضْمَعِيُّ أَضْلُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ :

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللَّهُ مَ وَتَأْنٍ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ
 قَالَ وَلَمْ يُقَلِّ شَعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَعَانِي. قَالَ
 أَبُو الْعَبَّاسِ الْبُرْدُ : مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَحْمِلُ الْمَدْحَ فَيَكُونُ ذَلِكَ وَجْهًا
 حَسَنًا لِلْبُؤْسِ الْإِرَادَةِ مَعَ خُلُوقِهِ مِنَ الْإِطَاقَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْإِسْتِغَارِ
 وَدُخُولِهِ فِي الْإِخْتِصَارِ وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِ الْحُطَيْيَةِ :

تَرُورُ فَتَى يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَا لَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحَمَّدٍ
 كَسُوبٍ وَمِثْلَافٍ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ تَهَلَّلَ وَاهْتَرَّ أَهْتَزَّازَ الْمُهَدَّدِ

مُدِّحٌ بِهِ الْقَائِدُ الْجُودَ وَالشَّجَاعَةَ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ الْإِفْرَاطِ فِي التَّجَدُّعِ
وَسُرْعَةِ الْمَطَشِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ. وَيُمْدَحُ الْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ الْعَدْلَ
وَالْإِنصَافَ وَتَقْرِيبَ الْبَعِيدِ فِي الْحَقِّ وَتَبْعِيدَ الْقَرِيبِ فِي الْإِخْذِ
لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ وَالْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْفَتَى بِسَطِّ الْوَجْهِ
وَلَيْنِ الْجَانِبِ وَقِلَّةِ الْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ الْخُدُودِ وَاسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ
فَإِنْ زَادَ إِلَى ذَلِكَ وَذَكَرَ الْوَرَعَ وَالْتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ
الْأَنهَاءَ. وَصِفَاتُ الْقَاضِي كُلُّهَا لَا ثِقَّةٌ بِصَاحِبِ الْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ
دُونَ هَذِهِ الثَّلَاثِ الطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ أَلَمَلِكِ فَلَا أَرَى لِدَحِهِ وَجْهًا
فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذَلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِّحٌ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالْفَضْلِ فِي
صِمَائِهِ وَالْعَرَفَةِ بِطَرِيقَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا. وَكَثُرَ مَا يُعَوَّلُ عَلَى
الْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا قُدَّامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ
عَرَضِيَّةٍ أَوْ جَسَمِيَّةٍ كَالْجَمَالِ وَالْأَبْهَةِ وَبَسْطَةِ الْخُلُقِ وَسَعَةِ الدُّنْيَا
وَكثْرَةِ الْعَيْشِ كَانَ ذَلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَّامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ
جُمْلَةً وَلَيْسَ ذَلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: الْمَدْحُ
بِالْفَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَمَاذَا أَنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً
وَاحِدَةً قَدْ أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ
الْخُذَّاقُ أَنْ يُمدَّحَ الْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى
لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نَعَمَ الْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ عَابَهُ النَّاسُ غَيْرُ أَنَّكَ فَاِنِي

وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْأَرْبَعِ أَلْتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَسَطُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ
مَذْمُومَيْنِ وَمِنْ الْمَدِيحِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِ مَقَامَاتُ حِسَانٍ وَجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
وَأِنْ جِئْتَهُمُ الْفَيْتَ حَوْلَ يَوْمِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يَشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ
عَلَى مُكْثَرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَغْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْفَلَّاحِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ إِيَّيْكَ يَذْرُكُوهُمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلَيْسُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرِ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنَبِّئُ الْخَطِيئَ إِلَّا وَشِجْهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّحْلُ
وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِيَلَاتِهِ هَرَمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا
أَيْتُ بَعَثَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا
يَطْعَنُهُمْ مَا أَرْتَمُوا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ضَارِبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارِبُوا اعْتَمَقًا
لَوْ نَالَ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةِ أَفْقِ السَّمَاءِ لَنَاتَ كَفُّهُ الْأَفْقًا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ الشَّعْرِ فِي مَدْحِ الْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ
عَلَى مَا اخْتَارَهُ قِدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ الرُّودِيَّةِ وَسُرْعَةَ الْخَاطِرِ
بِالصَّوَابِ وَشِدَّةِ الْحَزْمِ وَقَلَّةِ الْعَفْلَةِ وَجُودَةِ النَّظَرِ لِلْحَافِيَةِ وَالْتِيَابَةِ عَنْهُ
فِي الْمَعْضَلَاتِ بِالرَّأْيِ أَوْ بِالذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُؤَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ قَامًا كَفَيْتُهُ وَإِمَامًا عَلَيْهِ بِالْكَفِيِّ تُشِيرُ
وَبَانَتْهُ مَحْمُودُ السَّيْرِ حَسَنُ السِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى
ذَلِكَ ذِكْرَ الْبَلَاغَةِ وَالْخَطِّ وَالْتَفَنُّ فِي الْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

الْأَرْبَعَةَ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجَهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ :
 (أَخِي ثِقَّةٌ) فَوَصَفَهُ بِالْوَفَاءِ وَالْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْفَضَائِلِ
 الَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يُحْدِثُ هَذَا لِلشُّعْرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ الْفَضَائِلِ الْأَرْبَعِ
 وَأَقْسَامَهَا وَكُلٌّ دَاخِلٌ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلُ أَنْ يَذْكُرُوا الْمَعْرِفَةَ وَالْحَيَاءَ
 وَالْيَكَانَ وَالسِّيَاسَةَ وَالصَّدَقَ بِالْحُجَّةِ وَالْعِلْمَ وَالْجِلْمَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا
 يَجْرِي هَذَا النُّجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الْعَقْلِ . وَكَذَكَرَهُمُ الْقَنَاعَةَ وَقَوْلَهُ
 الشَّرَّهَ وَطَهَارَةَ الْأَزَارِ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الْعِفَّةِ . وَكَذَكَرَهُمُ
 الْحِمَايَةَ وَالْأَخْذَ بِالنَّارِ وَالِدِفَاعَ عَنِ الْحَارِ وَالنِّسَايَةَ فِي الْعَدُوِّ وَقَتْلَ
 الْأَقْرَانِ وَالْمُهَابَةَ وَالسَّيْرَ فِي الْمُهَابَةِ وَالْقِفَارَ الْمَوْجِشَةَ وَمَا شَاكَلَ
 ذَلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الشَّجَاعَةِ . وَكَذَكَرَهُمُ السَّاحَةَ وَالتَّعَابُنَ وَالْإِنْظِلَامَ
 وَالتَّبَرُّعَ بِالنَّائِلِ وَاجَابَةَ السَّائِلِ وَقَرَى الْأَضْيَافَ وَمَا جَانَسَ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ الْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ
 مِنْ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ مَعَ الشَّجَاعَةِ الصَّبْرُ عَلَى أَلْمَلِمَاتِ وَنَوَازِلِ الْخُطُوبِ .
 وَعَنْ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ وَالسَّخَاءِ الْبِرُّ وَاجْتِازُ الْوَعْدِ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ . وَعَنْ
 تَرْكِيبِ الْعَقْلِ وَالْعِفَّةِ التَّزَدُّ وَالرَّغْبَةُ عَنِ الْمَسْئَلَةِ وَالْإِفْتِصَارُ عَلَى
 أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ الشَّجَاعَةِ مَعَ السَّخَاءِ
 الْإِتْلَافُ وَالْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذَلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ الشَّجَاعَةِ مَعَ
 الْعِفَّةِ إِنْكَارُ الْفَوَاحِشِ وَالْعَزِيمَةُ عَلَى الْحَرِيمِ . وَعَنْ السَّخَاءِ مَعَ الْعِفَّةِ
 الْإِسْعَافُ بِالْقُوَّةِ وَالْإِيْشَارُ عَلَى النَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

لَوْ كَانَ يَتَعَدُّ فَوْقَ النُّجْمِ مِنْ كَرَمٍ.

قَوْمٌ بِأَوْلِهِمْ أَوْ تَجِدُهُمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدُ الشُّعْرِ

لَوْ كَانَتْ فُضَائِلُ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقٍ مَا هُمْ

مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَلْبَابِ مِنْ

الْإِتِّفَاقِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ الْعَقْلُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَدَاةُ وَالشُّجَاعَةُ كَانَ

الْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهِذِهِ الْأَرْبَعَةُ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

أَخِي ثِقَّةٌ لَا يُتْلَفُ الْخَمْرَ مَالُهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتْلَفُ أُمَالُ نَائِلُهُ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِالْعِفَّةِ لِقَلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي اللَّذَاتِ وَأَنَّهُ لَا يَتَقَدُّ

فِيهَا مَالُهُ بِالسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي الثَّوَالِ وَاتِّجَارِهِ فِي ذَلِكَ عَنْ

اللَّذَاتِ وَذَلِكَ هُوَ الْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

أَرَادَ أَنْ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَرَادَ فِي وَصْفِ

السَّيِّئِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهْشُ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضْضٌ وَلَا تَكَرُّهُ لِفِعْلِهِ

ثُمَّ قَالَ :

وَمَنْ مِثْلُ حِضْنٍ فِي الْخُرُوبِ وَمِثْلُهُ

لِإِنْكَارِ ضَمِّهِ أَوْ لِأَمْرِ يُحَاوِلُهُ

وَيُرَوَّى أَوْ لِحُضْمِ يُجَادِلُهُ. فَأَتَى فِي هَذَا الْبَيْتِ بِالْوَصْفِ مِنْ

جَهَةِ الشُّجَاعَةِ وَالْعَقْلِ فَاسْتَوَى فِي ضُرُوبِ الْمَدْحِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ

فُضَائِلُ الْإِنْسَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهَذَا حَرَسِيًّا لَعَبِدَ الْمَلِكِ لَكَانَ قَصْرَ بِهِ.
وَأَجُودُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيضَ عَلَيْهِمْ.

رَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
وَيُرْوَى مِنْكَ. وَعَابُوا عَلَى الْأَخْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:
وَأَدَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ

مَذَقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ
قَالُوا لِأَنَّ الْمُلُوكَ لَا تُمَدَحُ بِمَا يَلْزِمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمَدَحُ بِهِ الْعَامَّةُ
وَأَنَّمَا تُمَدَحُ بِالْإِغْرَاقِ وَالْتَفْضُلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذَلِهِ. وَمِنْ هَذَا
النَّوعِ قَوْلُ كَثِيرٍ:

رَأَيْتُ ابْنَ كَيْلَى يَغْتَرِي ضَلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَيْءٍ مِنْ غَتِيٍّ وَمُضْرِمِ
مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدَ لَدَيْكَ تَجُذَّ بِهَا

يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمَ بِهَا تَتَظَلَّمُ
لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ الْخَلِيفَةِ وَالْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ
مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرَمٍ وَلَيْسَ بِكَ فَلَذَلِكَ حَسَنَ قَوْلِهِ:
هُوَ الْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيُظْلَمُ
يُرِيدُ أَنَّهُ يُسَالُ مَا لَيْسَ قَبْلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ الصَّوَلِيِّ أَنَّ
مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كَثِيرًا فِي الْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ
وَالْقَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

وَأَنْتَ ابْنُ بَطْحَاوَى قُرَيْشٍ وَإِنْ تَشَأْ

تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سُبُلَ ذِي حَذَرٍ غَمْرٍ

وَأَنْتَ ابْنُ سَوَّارٍ الْيَدَيْنِ إِلَى الْعَلَا

تَلَقَّتْ بِكَ الشَّمْسُ الْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ الْمَدُوحُ

مَلِكًا لَمْ يُبَالِ الشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْنَبَ وَذَلِكَ مُحَمَّدٌ

وَسِوَاهُ الْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَالْتَجَاوَزَ بِهِ خُطْبَتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى

تَجَاوَزَ بِهِ خُطْبَتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذَلِكَ لَا يَحِبُّ أَنْ يُقَصِّرَ

بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةً غَيْرِهِ فَيَصِفَ الْكَاتِبَ بِالشَّجَاعَةِ

وَالْقَاضِي بِالْحَيَمَةِ وَالْمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هَذَا لِشُعْرَاءَ وَقْتِنَا وَهُوَ

خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَضَحَّيَ قَرِينَتُهُ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ الرَّأْيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ

لَا يَجُوزُ أَنْ يُمدَحَ الْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَنْجُحُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الرُّؤْسَاءِ وَإِنْ كَانَ

فَضِيلَةً وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ النُّجَاشِيِّ فِي مَدْحِ الْمُعْتَرِ:

لَا الْعَدْلُ يَرُدُّعُهُ وَلَا مِثْلُ التَّعْنِيفِ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهُ

فَإِنَّهُ إِذَا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ:

وَمَنْ ذَا يُعْنِفُ الْخَلِيفَةَ عَنِ الْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ هَذَا بِالْإِنْجَاءِ أَوْ لِي

مِنْهُ بِالْمَدْحِ. وَعَيْبَ عَلَى الْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ

هَذَا الْبَيْتُ:

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ مِنْهُمْ

لَا بَيْضَ لَا عَارِي الْجَوَانِ وَلَا جَذْبَ

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الشِّعْرُ مَا اشْتَمَلَ عَلَى الْمَثَلِ
السَّائِرِ وَالْإِسْتِعَارَةِ الرَّائِعَةِ وَالتَّشْبِيهِ الْوَاقِعِ وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا
لِقَائِلُهُ فَضْلُ الْوِزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ الشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ الْإِفْصَاحِ
وَالْإِسَادَةِ بِذِكْرِ الْمَدْحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزَلَةً وَالْفَاظَةَ نَقِيَّةً
غَيْرَ مُبْتَدَأَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجْتَنِبَ مَعَ ذَلِكَ التَّقْصِيرَ وَالتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ
سَامَةً وَضَجْرًا وَرَبًّا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ جِرْمَانَهُ وَقَدْ
رَأَيْتَ عَمَلُ النُّجَاشِيِّ إِذَا مَدَحَ الْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ الْأَنْبِيَاءَ وَيُزِيرُ
وُجُوهُ الْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ الْكِتَابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ
حُكِيَ عَنْ عَمَّارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا
تُطِيلُوا أَلَمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ
الْفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أُمِّ الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:
يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ الَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى
أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيَّتَيْنِ يَعْلَقَانِ بِالرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ
يُعْطِكُمَا أَحَدٌ قَبْلِي فَقَعَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

أَيْضًا بِمَذْجِهِ الثَّمَاءُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ . وَأَلْبَيْتُ مِنَ
الشَّعْرِ كَأَلْبَيْتٍ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالشَّعْرِ قَرَارُهُ الطَّبَعُ وَسَمَكُهُ الرِّوَايَةُ
وَدَعَائِمُهُ الْقَلَمُ وَبَابُهُ الدَّرَبَةُ وَسَاكِنُهُ الْمَغْنَى وَلَا خَيْرَ فِي بَيْتٍ غَيْرِ
مَسْكُونٍ . وَصَارَتْ الْأَعَارِيزُ وَالْقَوَائِي كَالْمَوَازِينِ وَالْأَمْثَلَةِ لِلْأَبْنِيَةِ
أَوْ كَالْأَوَاحِي وَالْأَوْتَادِ لِلْأَخْيَةِ . وَأَمَّا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ مُحَاسِنِ
الشَّعْرِ فَلَا نَمَّا هُوَ زِينَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لَوْ لَمْ تَكُنْ لَا تُسْتَعْنَى عَنْهَا . قَالَ
الْقَاضِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ الْوَسَاطَةِ :
الشَّعْرُ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِ يَشْتَرِكُ فِيهِ الطَّبَعُ وَالرِّوَايَةُ وَالذِّكَاةُ
ثُمَّ تَكُونُ الدَّرَبَةُ مَادَّةً لَهُ وَقُوَّةً لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَسْبَابِهِ ثُمَّ
اجْتَمَعَتْ لَهُ هَذِهِ الْخِصَالُ فَهُوَ الْحُسْنُ الْمُبَرَّرُ وَيَقْدَرُ نَصِيْبُهُ مِنْهَا
تَكُونُ مَرْتَبَتُهُ مِنَ الْإِحْسَانِ . قَالَ وَلَسْتُ أَفْضَلُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَةِ
بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْمُحَدَّثِ وَالْجَاهِلِيِّ وَالْمُحَضَّرِ وَالْأَعْرَابِيِّ وَالْمَوْلَدِ إِلَّا
أَنِّي أَرَى حَاجَةَ الْمُحَدَّثِ إِلَى الرِّوَايَةِ أَمْسَ وَاجِدُهُ إِلَى كَثْرَةِ
الْحِفْظِ أَفْقَرُ فَإِذَا اسْتَكْشَفْتَ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ وَجَدْتَ سَبِيلَهَا وَالْعِلَّةَ
فِيهَا أَنَّ الْمَطْبُوعَ الَّذِي لَا يُمَكِّنُهُ تَنَاوُلُ الْفَاطِرِ الْعَرَبِ إِلَّا رِوَايَةً
وَلَا رِوَايَةً وَلَا طَرِيقَ إِلَى الرِّوَايَةِ إِلَّا السَّمْعُ وَمِلَاكُ السَّمْعِ
الْحِفْظُ . وَقَالَ دِعْبَلُ فِي كِتَابِهِ مَنْ أَرَادَ الْمَدِيحَ فَبِالرَّغْبَةِ وَمَنْ أَرَادَ
الْهَيْئَةَ فَبِالْبَغْضَاءِ وَمَنْ أَرَادَ التَّشْيِيبَ فَبِالشَّوْقِ وَالْعُشْقِ وَمَنْ أَرَادَ
الْمُعَاتَبَةَ فَبِالْإِسْتِيطَاءِ : فَقَسَمَ الشَّعْرَ كَهَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةَ وَكَانَ
الرَّثَاءُ عِنْدَهُ مِنْ بَابِ الْمَذْحِ عَلَى مَا قَدَّمْتُ . إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ الْعِتَابَ

يُصَدُّ عَنِ الْمَغْنَى فَيَذَرُكَ مَا نَجَا
وَيَذْهَبُ فِي التَّقْصِيرِ مِنْهُ تَعَاوُلُهُ
فَلَا تَكُ مَكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى الَّذِي
غُنِيَتْ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرِ تَرَاوُلُهُ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ الشِّعْرِ أَرْبَعَةُ الْمَدِيحُ وَالْهَجَاءُ
وَالْحِكْمَةُ وَاللَّهُوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذَلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ
فِي الْمَدِيحِ الْمَرَاتِي وَالْإِفْتِحَارُ وَالشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ الْهَجَاءِ الذَّمُّ
وَالْعِتَابُ وَالْأَسْتِظَاءُ وَمِنْ الْحِكْمَةِ الْأَمْثَالُ وَالزَّهْيْدُ وَالْمَوَاعِظُ
وَيَكُونُ مِنَ اللَّهِوِ الْقَزْلُ وَصِفَةُ الْخَمْرِ وَالْخَمُودُ. وَقَالَ قَوْمُ الشِّعْرِ
كُلُّهُ نَوْعَانِ مَذْحُ وَهَجَاءُ قَالِيَ الْمَذْحُ يَرْجِعُ إِلَى الرِّثَاءِ وَالْإِفْتِحَارُ وَالْتَشْيِيبُ
وَمَا تَعَلَّقَ بِذَلِكَ مِنْ مَحْمُودٍ أَلَوْصَفَ كَيْفَاتِ الْحَمُولِ وَالْأَثَارِ
وَالْتَشْيِيبَاتِ الْحِسَانِ وَكَذَلِكَ تَحْسِينُ الْخُلُقِ كَالْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ
وَالْمَوَاعِظِ وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآفَاقَةِ. وَالْهَجَاءُ ضِدُّ ذَلِكَ كُلُّهُ غَيْرَ أَنَّ
الْعِتَابَ حَالٌ مِنَ الْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ إِكْلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذَلِكَ
الْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَذْحٍ وَلَا هَجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ
حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى الْمُغْرَى الدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

أَصْحَابِهِمَا فِي السَّعْيِ وَفِي السَّهْفِ وَالتَّحْكِيكِ طَفِيلُ الْغَوِيِّ . وَقَدْ
 قِيلَ إِنَّ زُهَيْرًا أَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَدِّثًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ .
 وَمِنْهُمْ الْخَطِيبَةُ وَالنَّمِرُ بْنُ تَوَلِّبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ
 الْكَلْبِيِّ . وَكَانَ بَعْضُ الْخُذَّاقِ يَقُولُ : قُلْ مِنَ الشَّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا
 تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ الْأَصْمَعِيِّ . وَسَاحِلِي هَذَا
 أَلْبَابَ مِنْ كَلَامِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ بِحُلِيَّةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً
 وَاخْتِمَةً بِجَائِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةٌ رَانِقَةٌ لِأُوْفِي بِذَلِكَ بَعْضَ مَا صُمِنَتْ
 وَأَقْضِي بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ
 ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ أَهْلَهُ :

وَلِي كَيْدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ أَطَأُ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا آجَتْ
 تَمَنِّيْتُكُمْ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَعَصَبَةٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُبْدِيَ لَهَا مَا تَمَنَّتْ
 وَعَيْنٌ جَفَاهَا النَّوْمُ وَأَعْتَادَهَا الْبُكَاءُ إِذَا عَنْ ذِكْرِ الْقَيَرَوَانِ اسْتَهَلَّتْ
 فَلَوْ أَنَّ أَغْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ إِلَى الْوَطَنِ أَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ
 بَعْضَ السَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا آتَى بِهِ هَذَا الْوَلَدُ الْحَضْرِيُّ
 أَلْتَأَخَّرُ الْعَصْرَ . وَمَا أَنْحَطُ فِي هَذَا التَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا أَتَعَقُّ بِهَذَا
 الْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا الْحَدِيعَةَ مِمَّا نَظُنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلَكِنْ قَدْ
 رَأَيْتُ وَجْهَ الْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَالْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَإِيجَازِهِ
 إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَحْمَرُ السَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ :

مِنْ الْقَوْلِ مَا يَكْفِي الْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
 وَمِنْهُ الَّذِي لَا يَكْتَفِي الدَّهْرَ قَائِلُهُ

الْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتُهُ عَلَى ابْنِ الرُّومِيِّ
 قَوْلُهُ إِنَّ الْحَافِرَ الْوَأَبَ وَالْمُقَعَّبَ أَشْرَفُ فِي اللَّفْظِ مِنَ الْحَافِرِ الْآخَرِ .
 فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ إِلَى مَا قُلْتُهُ فِي أَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُحَالِفٍ لَهُ وَإِنْ كَانَ
 فِي الظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى مَا قَالَ
 وَإِنَّمَا هُوَ هَذَا مَعْرُوضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ . وَقَالَ الْجَاهِظُ : كَمَا لَا
 يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي
 أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَلْتَكَلَّمَ بِهِ بَدَوِيًّا أَعْرَابِيًّا فَإِنَّ
 الْوَحْشِيَّ مِنَ الْكَلَامِ يَفْهَمُهُ الْوَحْشِيُّ مِنَ النَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ
 السُّوقِيُّ رَطَانَةَ السُّوقِيِّ (قَالَ) وَأَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَاسْتَرْبُوهُ
 فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلَكِنَّكُمْ فِي الْأَدَبِ غُرَبَاءُ . وَعَنْ غَيْرِهِ أَنَّ
 رَجُلًا قَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ فِي مَجْلِسٍ قَدْ حَقَلَ وَارَادَ تَبْكِيتهُ لَمَّا أَنْشَدَهُ :
 يَا أَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ الشَّعْرِ مَا يُفْهَمُ . فَقَالَ لَهُ : وَأَنْتَ لِمَ لَا
 تَفْهَمُ مِنَ الشَّعْرِ مَا يُقَالُ فَقَضَّحَهُ . وَيُرْوَى أَنَّ هَذِهِ الْحِكَايَةَ
 كَانَتْ مَعَ أَبِي الْعَمِثِلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَاجَابَهُمَا . وَقَالَ بَعْضُ
 مَنْ نَظَرَ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ إِنَّمَا أَبُو تَمَّامٍ كَالْقَاضِي الْعَدْلِ
 يَضَعُ اللَّفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي الْمَعْنَى حَقَّهَ بَعْدَ طَوْلِ النَّظَرِ وَالْجُثْ
 عَنْ الْبَيِّنَةِ أَوْ كَالْفَقِيهِ الْوَرَعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ . وَأَبُو الطَّيِّبِ
 كَالشَّجَاعِ الْجَرِيِّ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ
 وَقَعَ . وَكَانَ الْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَالتَّابِغَةُ مِنْ عَيْدِ الشَّعْرِ يُرِيدُ
 أَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ إِصْلَاحَهُ وَيُسْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا . وَمِنْ

أَنشَدَتْهُ أَنَّ آخَرَ يُنْشِدُ مَعَكَ . وَمِثْلُهُ بَشَّارُ بْنُ بُزْدٍ تُنْشِدُ أَقْصَرَ شِعْرَهُ
عَرُوضًا وَالْيَنَةُ كَلَامًا فَتَجِدُهُ فِي نَفْسِكَ هَزَّةً وَجَلْبَةً مِنْ قُوَّةِ الطَّعْنِ .
إِنْ نَقَضَى كَلَامُ عَبْدِ اللَّهِ وَرَجَعْنَا إِلَى الْقَوْلِ فِي الطَّعْنِ وَالتَّضْيِيعِ .
فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ مُصْنِعًا فَإِنَّ جَيِّدَهُ مِنْ سَائِرِ شِعْرِهِ كَأَيِّ تَمَامٍ
فَصَارَ مَحْضُورًا مَعْرُوفًا بِأَعْيَانِهِ فَإِذَا كَانَ الطَّعْنُ غَالِبًا عَلَيْهِ لَمْ يَبَيِّنْ
جَيِّدَهُ كُلَّ الْبَيِّنَاتِ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْ قَرِيبٍ كَالْبُحْثَرِيِّ . وَمَنْ شَاكَهُ
وَقَدْ نَصَّ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي بَعْضِ تَسْطِيرَاتِهِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي
حَكِيمَةَ الشَّاعِرِ حِينَ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي الْفَرَسِ مِنْ قَصِيدَةٍ رَأَى
بِهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ ظَاهِرٍ :

فَلَهُ شَهَامَةٌ سُودِيْقِي بَاكِرٍ وَحَوَافِرُ حُفْرٍ وَرَأْسٌ صَتَعٌ
وَذَكَرَ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ (بِحَوَافِرِ حُفْرٍ وَصُلْبِ صُلْبٍ) فَخَفِلَ بِهِ وَاعْتَذَرَ
لَهُ وَخَرَجَ التَّحَارِيْجُ الْخِلْسَانُ وَذَكَرَ أَنَّ الْحَافِرَ الْوَأْبَ وَالْحَافِرَ الْمُقْعَبَ
وَمَحْوَهُمَا أَشْرَفُ فِي اللَّفْظِ مِنَ الْحَافِرِ الْأَخْفَرِ إِلَّا أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ
كَانَ يَطْلُبُ الْمَعْنَى وَلَا يُبَالِي بِاللَّفْظِ حَتَّى لَوْ تَمَّ لَهُ الْمَعْنَى بِلَفْظَةٍ
نَبْطِيَّةٍ لَأَتَى بِهَا . وَالَّذِي أَرَادَهُ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ أَبْصَرَ بِأَبِي تَمَّامٍ
وَعَبَّرَ بِهِ مِنْهُ وَأَنَّ التَّسْلِيمَ لَهُ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ أَخْزَمُ . غَيْرَ أَنِّي لَوْ شِئْتُ
أَنْ أَقُولَ وَلَسْتُ رَادًّا عَلَيْهِ وَلَا مُعْتَرِضًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّ الْمَعْنَى
الَّذِي أَرَادَهُ وَآشَارَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ أَبِي تَمَّامٍ إِنَّمَا هُوَ مَعْنَى الصَّنْعَةِ
مِثْلُ التَّطْيِيقِ وَالتَّجْنِيسِ وَمَا أَشَبَّهُمَا لَا مَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ
رُوحُهُ . وَأَمَّا اللَّفْظُ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُبَالِي بِهِ إِنَّمَا هُوَ فَصِيحٌ

أَنْظَفُ أَصْحَابِهِ شَعْرًا وَكَثْرُهُمْ بَدِيعًا وَافْتِنَانًا وَأَقْرَبُهُمْ قَوَائِي
 وَأَوْرَانًا وَلَا أَرَى وَرَاءَهُ غَايَةً لَطَائِلَهَا فِي هَذَا الْبَابِ. غَيْرَ أَنَّا لَا نَجِدُ
 الْمُبْتَدِئَ فِي طَلَبِ التَّصْنِيعِ وَمِنْ أَوَّلَةِ الْكَلَامِ أَكْثَرَ اتِّقَاعًا مِنْهُ
 بِطَالَةِ شَعْرِ حَبِيبٍ وَشَعْرِ مُسْلِمٍ بْنِ الْوَلِيدِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الْفَضِيلَةِ
 لِمُبْتَغِيهَا وَلَا نَهْمَا طَرَقَا إِلَى الصَّنْعَةِ وَمَعْرِفَتِهَا طَرِيقًا سَابِلَةً وَكَثَرًا مِنْهَا
 فِي أَشْعَارِهِمَا تَكْثِيرًا سَهْلًا عِنْدَ النَّاسِ وَحَسَرَهُمْ عَلَيْهَا عَلَى أَنَّ مُسْلِمًا
 أَسْهَلَ شَعْرًا مِنْ حَبِيبٍ وَأَقْلَّ تَكَلُّفًا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّفَ
 الْبَدِيعَ مِنَ الْمُؤَلَّدِينَ وَآخَذَ نَفْسَهُ بِالصَّنْعَةِ وَكَثُرَ مِنْهَا وَلَمْ يَكُنْ فِي
 الْأَشْعَارِ الْخُحْدَةُ قَبْلَ مُسْلِمٍ إِلَّا الْبُذُّ الْيَسِيرَةُ. وَهُوَ زُهَيْرُ الْمُؤَلَّدِينَ
 كَانَ يُبْطِئُ فِي صَنْعَتِهِ وَيُجَيِّدُهَا. وَقَالُوا: أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ الْبَدِيعَ
 مِنَ الْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرَيْدٍ وَهُوَ سَاقَةُ الْعَرَبِ وَآخِرُ مَنْ
 يُسْتَشْهَدُ بِشَعْرِهِ ثُمَّ اتَّبَعَهُمَا مُقْتَدِيًا بِهِمَا كُثُومُ بْنُ عَمْرِو الْعِتَابِيِّ
 وَمَنْصُورُ النَّخَرِيِّ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو نُوَاسٍ وَاتَّبَعَ هَؤُلَاءِ أَبُو
 تَمَّامٍ وَالْجُبُرِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَرِّ فَأَتَتْهُ عِلْمُ الْبَدِيعِ وَالصَّنْعَةُ وَخُتِمَ
 بِهِ. وَشَبَّهَ قَوْمٌ أَبَا نُوَاسٍ بِالنَّابِغَةِ لِمَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الْجَزَالَةِ مَعَ الرِّشَاقَةِ
 وَحُسْنِ الدِّيَابِجَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَدْحِ الْمُؤَلِّكِ. وَأَمَّا بَشَّارٌ فَقَدْ شَبَّهَهُ
 بِأَمْرِئِ الْقَيْسِ لِقَدَمِهِ عَلَى الْمُؤَلَّدِينَ وَآخِذِهِمْ عَنْهُ. وَمِنْ كَلَامِهِمْ:
 بَشَّارُ أَبُو الْمُحْدَثِينَ. وَسَمِعْنَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُولُ: إِنَّمَا سُمِّيَ
 الْأَعَشَى صَنَاجَةَ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ الصَّنِيعَ فِي شَعْرِهِ. قَالَ
 وَيُقَالُ بَلْ سُمِّيَ صَنَاجَةً لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَحِلْيَةِ شَعْرِهِ يُحِيلُ إِلَيْكَ إِذَا

وَبَسْطِ الْمَفْنَىٰ أَوْ إِبْرَازِهِ وَاتَّقَانِ بَيْتَةِ الشَّعْرِ وَاحْكَامِ الْقَافِيَةِ
وَتَلَاحُمِ الْكَلَامِ بَعْضُهُ يَبْغُضُ حَتَّىٰ عَدَا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ
الْخُطْبَةِ حَتَّىٰ نَسَقَهُ الْكَلَامُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ :

فَلَا وَآيِكَ مَا ظَلَمْتَ قُرَيْعُ بَانَ يَبْنُوا الْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَآيِكَ مَا ظَلَمْتَ قُرَيْعُ وَلَا عَنُفُوا بِذَلِكَ وَلَا آسَارُوا
فَإِنَّ الْجَارَ مِثْلَ الصَّنِيفِ يَغْدُو لَوُجْهِهِ وَإِنْ طَالَ الثَّوَاءُ
وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِجَبَلِ قَوْمِ آعَانَهُمْ عَلَى الْحَسَبِ الْآثَرَاءُ

وَأَسْتَظِرُّوْا مَا جَاءَ مِنَ الصَّنْعَةِ نَحْوَ الْبَيْتِ وَالْبَيْتَيْنِ فِي الْقَصِيدَةِ
بَيْنَ الْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شَعْرِ الرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ
وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ . وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ الطَّبَعِ
وَإِيْثَارِ الْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَنْجِيهِ الْبَيِّنَةُ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ
كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَّصَعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَالَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ
صَبِيبٍ وَالتَّجْزِئِي . وَغَيْرُهُمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ الصَّنْعَةَ وَيُؤَلِّعَانِ بِهَا . فَأَمَّا
حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزْنٍ وَنَوَةِ اللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ الْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ التَّصْنِيعِ
الْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي الْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ
وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ . وَأَمَّا التَّجْزِئِي فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي
الْكَلَامِ . يَسْلُكُ مِنْهُ دِمَاطَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ التَّصْنِيعِ وَقُرْبِ
الْمَأْخُذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ . وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ
وَلَا أَمْلَحَ تَصْنَعًا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ
تَقْطَرُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدِقَاقِ الشَّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ الشَّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَالْمَطْبُوعُ هُوَ الْأَصْلُ وَضَعَ عَلَيْهِ
أَوَّلًا وَعَلَيْهِ الدَّارُ وَالْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هَذَا الْأِسْمُ فَلَيْسَ
مُتَكَلِّفًا تَكَلَّفَ أَشْعَارُ الْمُؤَلِّدِينَ. لَكِنْ وَقَعَ فِي هَذَا النَّوعِ
الَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَضْدٍ وَلَا تَعْمَلُ لَكِنْ بِطَبَاعِ الْقَوْمِ
عُنُوا وَاسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا إِلَيْهِ بَعْضَ الْمِيلِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا وَجْهَ
اخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرُ الْحَوْلِيَّاتِ عَلَى التَّنْقِيجِ وَالتَّخْفِيفِ
يَضَعُ الْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظْرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ التَّعَقُّبِ بَعْدَ أَنْ
يَكُونَ قَدْ قَرَعَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ أَوْ لَيْلَةٍ. وَرَبَّمَا قَصَدَ إِقَامَةَ
نَشَاطِهِ قَبَاطًا عَمَلُهُ لِذَلِكَ. وَأَعْرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي أَغْطَافِ شِعْرِهَا بِأَنْ
تُجَسَّسَ أَوْ تُطَابِقَ أَوْ تُقَابِلَ فَتَتَرَكَ لَفْظَةً لِلْفَظَةِ أَوْ مَعْنَى لِمَعْنَى كَمَا
يَفْعَلُ الْمُخَدُّثُونَ وَلَكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ الْكَلَامِ أَوْ جَزَالَتِهِ

حَضْرًا. وَأَمَدُ عَصْرًا وَذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ أَوْ
 مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حَكَمَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا
 بِأَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو جَنِيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ
 زَكَرِيَّا حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْغَلَايِي حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ:
 دَخَلَ النَّابِغَةُ عَلَى الثُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَحِفُّ الْأَرْضُ إِنْ تَفْقِدَكَ يَوْمًا وَتَبْقَى مَا بَقِيََتْ بِهَا ثَقِيلًا
 فَنَظَرَ إِلَيْهِ الثُّعْمَانُ نَظَرَ غَضَبَانٍ. وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا
 فَقَالَ: أَضَلَّ اللَّهُ الْمَلِكَ إِنْ مَعَ هَذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لَا نَكَ مَوْضِعُ الْقِسْطِ مِنْهَا فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا
 فَضَحِكَ الثُّعْمَانُ وَأَمَرَ لَهَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ.
 فَإِنْ كَانَ الشَّاعِرُ مُحَاطِبًا مِنْ دُونِ الْمَلِكِ الْأَشْمِ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ
 رَاغِبًا فِي دِرْهِمٍ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَاسْتِفْجَانِ شِعْرِهِ
 وَتَحْقِيرِ أَمْرِهِ وَالْقَدَمَاءُ فِي هَذَا أَعْدَرُوا لِأَنَّهَا لُغَتُهُمْ



وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكَاً أَبُو أُمِّهِ حَيُّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ
هَذَا وَآمِثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزاً فِي الْأَعْرَابِ . فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي
الشَّعْرِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ . لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ الشَّنَجِ وَالْاضْطِرَابِ .
وَالشَّعْرُ إِذَا أَخْرَجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي قَاحِرِ الْمَسَاقِ . وَلَا قَامَ
فِي الْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ . وَلَا عَذِبَ فِي الْمَذَاقِ . فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ
الْحَذَاقِ . وَيَحْتَاجُ الشَّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبُقَ مَعْنَاهُ لَفْظُهُ . فَتَسْتَلِدُّ النَّفُوسُ
رَوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ . وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَالْمُتَكَلِّمِ . بَيَانُ مَا يُجَاوِزُهُ
لِلْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ . فَإِنْ تَكَلَّمَ بِقُلُوبٍ . مَجْتَهِدَةِ الْأَسْمَاعِ وَالْقُلُوبِ . وَلَمْ
يَقْصُلْ مِنْهُ الْفَرَضُ الْمَطْلُوبُ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي الْأَشْعَارِ
آمِثَالَ هَذَا كَقَوْلِهِ :

لَهَا مُقَلَّتَا آدَاءٍ طَلَّ خَيْبِلَهُ مِنْ الْوَحْشِ مَا يَنْفَكُ يَرْعَى عَرَارَهَا
قِيلَ لَهُ وَهَذَا أَيْضاً قَدْ أَحَالَ وَمِنْ تَكَلَّفٍ مِثْلَ هَذَا لَمْ
يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ الْكُلْفَةَ وَالْمَلَامَ . وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ . وَتَرَكَ
بَيَانَ الْكَلَامِ . وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ الْكَلَامُ وَالشَّعْرُ بِحُسْنِ الْعِبَارَةِ
وَالدِّيَّاجَةِ . وَرَوْنِ الْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَالزُّجَاجَةِ . وَإِلَّا
فَالْعَامِي مُعْرِضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ حَتَّى
لِلزُّنَجِ وَالْأَثَرِ وَالْثَرِكِ لِكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ السِّتْنُ عَنْ بُلُوغِ
مَارَامِهِ مِنْ أَرَبٍ . قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ . وَأَقْلَ مَا يَجِبُ عَلَى
الْمُتَكَلِّمِ الْبَيَانُ لِلْمُخَاطَبِ . وَإِلَّا كَانَ كَالْمُخَاطَبِ لِلَّيْلِ وَحَاطِطِهِ . يُخَاطَبُ
الْعَرَبِيَّ بِالْعَجِيَّةِ وَيُخَاطَبُ الْعَجَبِيُّ بِالْعَرِيَّةِ . وَصِنَاعَةُ الشَّعْرِ أَشَدُّ

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو السَّيْبَانِيُّ
 الثُّنْيَانُ الَّذِي يُسْتَنْتَى فَيُقَالُ مَا فِي الْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا
 فُلَانٌ فَقُلَانٌ أَلُسْتَنَّتِي هُوَ الْأَفْضَلُ الْأَشْعَرُ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ الثُّنْيَانُ
 الَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ الْخَاصِرُ فِي الْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ
 هُوَ الَّذِي يُسْتَنْتَى مِنَ الشُّعْرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ . وَقَالَ غَيْرُهُ الثُّنْيَانُ
 الضَّعِيفُ . وَقَالَ الْقَلْبِيُّ : الثُّنْيَانُ عِنْدِي الَّذِي يُسْتَنْتَى مِنَ الْقَوْمِ
 رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَالضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ
 وَالشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ الْقَلْبِيُّ) فِي الْقُصُورِ وَالْمَدُودِ . حَدَّثَنَا
 أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ قَالَ ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ الْأَصْمَعِيَّ قَدْ
 ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ . لَقِيتِ السَّعْلَةَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ
 طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ الشَّعْرَ فَبَرَكْتُ عَلَى صَدْرِهِ
 وَقَالَتْ أَنْتَ الَّذِي جُوعَ قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرُهُمْ قَالَ : نَعَمْ .
 قَالَتْ . فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ آيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ :
 إِذَا مَا تَرَعَرَعَ فِينَا الْعَلَا مُمْ قَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَ
 إِذَا لَمْ يَسُدَّ قَبْلَ شَدِّ قَدْ مَ لِكَ فِينَا الَّذِي لَا هُوَ
 وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْضَبَا نِ فَحِينَا أَقُولُ وَحِينَا هُوَ
 فَحَلَّتْ سَيْلَهُ وَقَالَتْ : أَوَّلَى لَكَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : يُقَالُ السَّعْلَةُ
 سَاحِرَةٌ الْحَنْ

(قَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو اسْحَاقَ الْبَطْلَيْوسِيُّ . وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ

الْفَرَزْدَقِ :

فَسَمَاهُ شُويعِرًا. وَقَالِيَةُ الْآفَاعِي دُوَيْيَةُ فَوْقَ الْخُنْفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ
وَزَعَمَ الْحَاقِمِيُّ أَنَّ النَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ مَنْ أَسْتَحْيِدَ
جَيْدُهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفَلَةِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
فِي الْهَجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ الْخَطِيبِيُّ:

الشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَمَةٌ وَالشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهُ
إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرَبَهُ فَيُخْجِمُهُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

الشُّعْرَاءُ قَاعَلَمَنَ أَرْبَعَهُ فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِنَفْعِهِ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسَطَ الْجَمْعَةِ وَشَاعِرٌ آخَرٌ لَا يُجْرَى مَعَهُ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمَرٌ فِي دَعَا

قَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا
يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ الدُّرَيْدِيِّ يُقَالُ:
أَنشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ الشُّعْرَاءِ أَيِ آيَاتِهِمُ الطَّنَانَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَقُولُ
آخَرُونَ: إِنَّ الْمُقَلَّدَ مِنَ الشِّعْرِ مَا كَانَ أَسْمُ الْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا
فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هَذَا أَلَيْتُ عُقْرُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَيِ أَجُودُ بَيْتٍ
فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هَذَا بَيْتُ طَنَّانٍ. اهـ. وَفِي الْمَقْصُورِ وَالْمَمْدُودِ
لِلْقَالِي: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي:

يَصْدُ الشَّاعِرُ الثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ الْهَجَانِ
قَالَ الثُّنْيَانُ الَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

الْجَاهِلِيَّةَ عَلَى إِبْلِ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ
وَالْإِسْلَامَ مُحْضَرًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُحْضَرًا حَتَّى يَكُونَ
إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسَلِّمْ (قَالَ) ابْنُ
رَشِيْقٍ : وَهَذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ النَّابِغَةَ الْجَعْدِيَّ وَلَيْسَ دَأْدَاءٌ وَقَعَ
عَلَيْهِمَا هَذَا الْإِسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ كِرَاعٌ فَقَدْ حَكَى : شَاعِرُ
مُحْضَرٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُجْتَمِعَةٍ مَأْخُودٌ مِنَ الْحَضَرَةِ وَهِيَ الْخُلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ
الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ وَقَالُوا : الشُّعْرَاءُ أَرْبَعَةٌ : شَاعِرُ خَنْزِيدٌ وَهُوَ
الَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةً الْجَيْدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ . وَسُئِلَ
رُؤْبَةُ عَنِ الْخُلُوفِ فَقَالَ : هُمْ الرُّوَاةُ . وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ الَّذِي لَا
رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَالْخَنْزِيدِ فِي شِعْرِهِ . وَشَاعِرٌ فَقَطٌّ وَهُوَ
فَوْقَ الرَّدِيِّ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ . قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :
يَا رَابِعَ الشُّعْرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي وَزَعَمْتَ إِنِّي مِنْهُمْ لَا أَنْطِقُ
وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَالْمُفْلِقُ
الَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِالْفَلَقِ وَهُوَ التَّجَبُّ وَقِيلَ الدَّاهِيَّةُ (قَالَ
الْأَصْمَعِيُّ) الشُّوَيْعِرُ خُرَانُ بْنُ أَبِي خُرَانَ سَمَاءُ بِذَلِكَ أَمْرٌ
الْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ الْغَزِيرِ الْمَعْرُوفِ بِالشُّوَيْعِرِ . قَالَ الْجَاهِظُ :
وَالشَّاعِرُ عَبْدُ بَالِيلٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ كَيْثٍ وَقِيلَ أَسْمُهُ رَيْعَةُ بْنُ
عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ . قَالَ الْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ
يُدْعَى الْمُفَوِّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي جَمَيْسٍ :
أَلَا تَنْهَى سَرَاةَ بَنِي جَمَيْسٍ شُوَيْعِرَهَا فَوَيْلِيَةَ الْأَفَاعِي

قَبِيحٌ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِمْ لَيْسَ النَّطُّ وَاحِدًا هَذَا مَذْهَبُ أَبِي عَمْرٍو
 وَأَصْحَابِهِ كَمَا لَا ضَمْعِي وَأَبْنِ الْأَعْرَابِيِّ أَغْنَى أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
 يَذْهَبُ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ هَذَا الْمَذْهَبُ وَيُقَدِّمُ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلَيْسَ
 ذَلِكَ لَشَيْءٍ إِلَّا لِحَاجَتِهِمْ فِي الشِّعْرِ إِلَى الشَّاهِدِ وَقَلَّةِ ثِقَتِهِمْ بِمَا يَأْتِي
 بِهِ الْمُؤَلَّدُونَ فَمَا أَتَى ابْنُ قُتَيْبَةَ فَقَالَ: لَمْ يَقْصِرِ اللَّهُ الشِّعْرَ وَالْعِلْمَ
 وَالْبَلَاغَةَ عَلَى زَمَنِ دُونَ زَمَنِ وَلَا خَصَّ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ بَلْ جَعَلَ
 ذَلِكَ مُشْتَرَكًا مَقْسُومًا بَيْنَ عِبَادِهِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَجَعَلَ كُلَّ قَدِيمٍ
 حَدِيثًا فِي عَصْرِهِ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي بَابٍ آخَرَ: طَبَقَاتُ
 الشُّعْرَاءِ أَرْبَعٌ جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ وَمُحَضَّرٌ وَهُوَ الَّذِي أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ
 وَإِسْلَامِيٌّ وَمُحَدَّثٌ ثُمَّ صَارَ الْمُحَدَّثُونَ طَبَقَاتٍ أُولَى وَثَانِيَّةٌ عَلَى
 التَّدْرِيجِ هَكَذَا فِي الْمُبْطُوطِ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا فَلْيَعْلَمْ الْمُتَأَخِّرُ مِقْدَارَ مَا
 بَقِيَ لَهُ مِنَ الشِّعْرِ مُتَصَفِّحًا أَشْعَارَ مَنْ قَبْلَهُ لِيَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ الْمُحَضَّرِ
 وَالْجَاهِلِيِّ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمُحَضَّرِ وَأَنَّ لِلْمُحَدَّثِ الْأَوَّلِ فَضْلًا
 عَمَّنْ بَعْدَهُ فِي الْمَثَلَةِ. فَفِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ مَنْ ذَهَبَ
 بِكُلِّ مَلَاخَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَسَبَقَ إِلَى كُلِّ طَلَاوَةٍ وَلَبَاقَةٍ (قَالَ أَبُو
 الْحَسَنِ الْأَخْفَشُ: يُقَالُ مَاءٌ خِضْرٌ إِذَا تَنَاهَى فِي الْكَثْرَةِ
 وَالسَّعَةِ لِمَنَّهُ سُمِّيَ الرَّجُلُ الَّذِي شَهِدَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ مُحَضَّرًا
 كَمَا أَنَّهُ اسْتَوْفَى الْأَمْرَيْنِ (قَالَ) وَيُقَالُ: أُذُنٌ مُحَضَّرَةٌ إِذَا
 كَانَتْ مَقْطُوعَةً فَكَأَنَّهُ انْقَطَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ
 (وَحَكَى) ابْنُ قُتَيْبَةَ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: أَسْلَمَ قَوْمٌ فِي

البحث الثالث

في المغلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

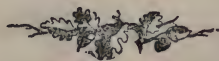
وَأَمَّا الْمُغْلَبُونَ فَمِنْهُمْ تَابِعَةُ بْنُ جَفْدَةَ وَمَعْنَى الْمُغْلَبِ الَّذِي لَا
رَالَ مَغْلُوبًا قَالَ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ :

فَالَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرِ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبِكَ مِثْلُ مُغْلَبٍ
يَعْنِي إِذَا قَدَّرَ لَمْ يُثِقْ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى الْجَعْدِيِّ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ
وَلَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ الْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى
الْأَخِيلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ مُسَافِرًا . وَالْمُغْلَبُونَ
الرِّبْرَقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ الْأَهِمِّ وَغَلَبَهُ الْفَيْلُ السَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ الْخُطَيْةُ
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ الْبَيْعُ مُغْلَبًا فِي الْخُطَبِ

قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ فِي بَابِ الْقُدَمَاءِ وَالْمُحْدَثِينَ :
كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ
كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسَنَ هَذَا الْمَوْلَدُ
حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ صَبِيانًا بِرَوَايَتِهِ يَعْنِي بِذَلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ
وَالْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مَوْلَدًا بِالْإِضَافَةِ إِلَى شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْخُضَرَمِينَ
وَكَانَ لَا يَعُدُّ الشُّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : جَلَسْتُ
إِلَيْهِ عَشْرَ حَجَجٍ قَمَا سَمِعْتُهُ يَخْتُمُ بَيْتَ إِسْلَامِي وَسُئِلَ عَنْ
الْمَوْلَدِينَ فَقَالَ : مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُمِعُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

فِي الْحِسَانِ طُرُوبُ) وَالثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)
وَأَمَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَشُهِرَ أَنَّهُ أَرْبَعُ قَوْلُهُ: (أَرْوَاحُ مُودِعٍ أَمْ
بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أَمْرِ مَعْبَدٍ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ
شَيْءٌ عَلَى الْمُنُونِ يَبَاقُ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ أَرِ مِثْلَ الْفَتَيَانِ فِي غَيْرِ أَلَا مَ يَامَ يَتَسَوْنَ مَا عَوَاقِبَهَا
وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: عَدِيُّ بْنُ الشُّعْرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي النُّجُومِ
يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْزِي مَعَهَا. هُوَ لَا أَشْعَارُهُمْ كَبِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ
فِي أَيْدِي النَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ الرُّوَاةِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا .
وَمِنَ الْمُقَلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحَصِينُ بْنُ الْحُكَّامِ الْفَرَسِيُّ
وَالْمُتَلَسِّسُ وَالْمُسَيَّبُ بْنُ عَالَسٍ كُلُّ أَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ
الْجُمْلَةِ وَيُرْوَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: أَتَفْقَهُوَانَّ أَشْعَرَ الْمُقَلِّينَ
فِي أَجَاهِلِيَّةٍ ثَلَاثَةٌ الْمُتَلَسِّسُ وَالْمُسَيَّبُ بْنُ عَالَسٍ وَحَصِينُ بْنُ الْحُكَّامِ
الْفَرَسِيُّ. وَأَمَّا أَصْحَابُ الْوَاحِدَةِ فَطَرَقَةُ أَوَّلُهُمْ وَبَنُومُ عَنَتُهُ وَالْحَرُثُ
ابْنُ جِلْزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُثُومٍ أَصْحَابُ الْأَهْلَقَاتِ الْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ
مَعْدِي كَرِبَ وَالْأَشْعَرُ بْنُ حَمْرَانَ الْجَعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ
وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَغْفَرٍ وَكَانَ أَمْرُوهُ الْقَلِيصُ مُقِلًّا كَثِيرَ الْمَعَانِي
وَالْتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيْفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



أَلْقَدِيمَ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يُحْسِنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ
طَوِيلَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ الْمَشَاهِيرُ مِنَ الشُّعْرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَشْرَفَ
بَنٍ أَنْ يُخْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ الْمُقَلِّينَ مَنْ وَسَّعَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ
فَقَنَّهُمْ طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ وَعَلَقَمَةُ الْفَحْلُ وَعَدِي
أَبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَّلَ النَّاسُ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَهِيَ الْمُلَقَّاةُ:
لِحَوَاةٍ أَطْلَالُ بِرُفْقَةٍ تَهْمَدُ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ الْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ
وَأَصَحُّ مَا فِي ذَلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدُ نَالَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَقَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا
فُحِغْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمًا
أَنشَدَهُ الْمُبَرَّدُ وَالْقَحْمُ الْمُسْتَأْهِمِي فِي السِّنِّ. وَعَبِيدُ قَلِيلُ الشُّعْرِ
فِي أَيْدِي النَّاسِ عَلَى قَدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمرِهِ يُقَالُ
إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثًا مِائَةً سَنَةً وَكَذَلِكَ أَبُو دُرَّادٍ. وَلِعَلَقَمَةُ الْفَحْلُ ثَلَاثُ
قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٍ أَحَدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبَتْ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ) وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَلَبْتُ قَلْبُ

الشَّيْءَ أَحْسَنَهُ وَيُلْغِي مَا لَا يُسْتَحْسِنُهُ فَلَيْسَ مَأْخُودًا بِهِ وَلَكِنَّ أَقْوَامًا
 أَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا أَنْفُسَهُمُ الْوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكْرِهِمُ الْخَامِلِ
 وَيُعْلُوا أَعْدَارَهُمُ السَّاقِطَةَ بِالطَّعْنِ عَلَى أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْقَدَحِ فِيهِمْ
 فَلَا يَزْدَادُونَ بِذَلِكَ إِلَّا ضَعْفًا وَلَا يَزْدَادُ الْآخِرُ إِلَّا رَتْفَاعًا. أَلَا تَرَى
 إِلَى ابْنِ الْمُغْتَرِّ قَدْ قُتِلَ أَسْوَأَ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ خَلْفٌ يَفْرُطُهُ
 وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِأَدْيِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ إِخْبَارِهِ
 وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ الْعُلُومِ إِلَّا رَفْعَةً وَعُلُوءًا وَلَا نَظَرَ إِلَى أَضْدَادِهِ
 كُلَّمَا أَزْدَادُوا فِي طَعْنِهِ وَتَقْرِيطِ أَنْفُسِهِمْ. وَاسْلَفُفُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا
 مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَالطَّعْنِ عَلَيْهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا
 أَشْعَارَهُمْ وَقَرَّطُوا أَدَائِهِمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقَاتًا فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ
 الْحُصْلُ الْمَوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي الْأَدَابِ إِلَى التَّشْنِيعِ بِأَمْرِ
 الَّذِينَ وَهَجَاءِ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَشَنَعَ بِهِ عَلَى
 آلِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْمُسْتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ
 أَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ إِلَى عَيْبِهِ وَآرَتَكَبُوا أَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ
 حَسَنَ الْعِلْمِ بِصِنَاعَةِ الْمَوْسِيقَى وَالْكَلَامِ عَلَى النِّعَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي
 ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَدَابِ كُتُبٌ مَشْهُورَةٌ وَمُرَاسِلَاتٌ جَرَتْ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ
 وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَارَةِ عَلَيْهِ وَآدْيِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِحِطِّ عُبَيْدِ
 اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً إِلَيْهِ بِحِطِّهِ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ إِلَى ابْنِ
 حَمْدُونَ فِي أَنَّهُ يُجُوزُ وَلَا يُنْكَرُ أَنْ يُغَيَّرَ الْإِنْسَانُ بَعْضُ نَعَمٍ الْغِلَاءِ

فَإِنَّ فِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي أُسْلُوبِ الْحَيِّدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ
 عَنْ مَدَى السَّابِقِينَ وَأَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ أَشْعَارِ أُمْلُوكِ فِي جِنْسِ
 مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ أَجَاهِلِيَّةٍ . فَلَيْسَ
 يُمَكِّنُ وَأَصِفًا لِصُبُوحٍ فِي مَجْلِسِ شَكْلِ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ
 وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ النُّورِ وَالْبَنَفْسِجِ وَالْأَرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ أَمْثَالِ
 ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ الْحَجَالِسِ وَقَاخِرِ الْفَرَشِ وَمُخْتَارِ
 آلَاتِ وَرَقَةِ الْحَدَمِ أَنْ يَغْدِلَ بِذَلِكَ عَمَّا يُشَبِّهُهُ مِنَ الْكَلَامِ .
 السَّبْطِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ إِلَى جَفَدِ الْكَلَامِ .
 وَوَحْشِيَّةٍ وَإِلَى وَصْفِ الْبَيْدِ وَالْمَهَامِهِ وَالظَّبَاءِ وَالظَّلِيمِ وَالنَّاقَةِ وَالْجَمَلِ
 وَالْدِيَارِ وَالْقِفَارِ وَالْمَنَازِلِ الْحَالِيَةِ الْمَهْجُورَةِ وَلَا إِذَا عَدَلَ عَنْ ذَلِكَ
 وَأَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا أَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ إِذَا أَحْسَنَ
 الْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي الْبَعْضِ وَقَصَرَ فِي الْيَسِيرِ وَيُنْسَبُ إِلَى التَّقْصِيرِ
 فِي الْجَمِيعِ لِشَرِّ الْمَقَابِحِ وَطَيِّهِ الْحَمَاسِينَ . فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا
 كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوْجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ أَنْ قَانِلًا أَرَادَ الطَّعْنَ عَلَى
 صُدُورِ الشُّعْرَاءِ لَقَدَّرَ أَيُّ أَنْ يَطْعَنَ عَلَى الْأَعَشَى وَهُوَ أَحَدُ مَنْ
 يُقَدِّمُهُ الْأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ الشُّعْرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطَحَّاهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ إِنْ يَأْمُرُهُمْ كُلٌّ لَيْلَةً بِقِتِّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَنْسُقُ
 وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ . وَإِنَّمَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مِنْ

وَكَانَ أَبُو عِينَةَ يَقُولُ: أَفْتَحَ الشَّعْرُ بِأَمْرِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِأَبْنِ
هَرَمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الشُّعْرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمَوْلَدٌ
فَاجَاهِلِيٌّ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ وَالْإِسْلَامِيُّ ذُو الرَّمَةِ وَالْمَوْلَدُ ابْنُ الْمُعْتَرِ
وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً التَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ
الشَّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ الثَّلَاثَةُ الْأَعَشَى وَالْأَخْطَلُ وَأَبُو
أَفْقَارِسٍ وَهَذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ الْخَزَرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ
بِالتَّصَرُّفِ وَقِيلَ التَّكْلِيفُ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ الثَّلَاثَةُ مُهَاهِلٌ وَأَبْنُ أَبِي
رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْأَخْنَفِ وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يُؤَيِّرُ الْأَنْفَقَةَ وَسُهُولَةَ
الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدِ فِي قَنْ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي
الْمَوْلَدِينَ أَشْهُرُ أَسْمَاءٍ مِنَ الْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَالتَّجْزِئَةِ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا
أَخْتَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسِينَ شَاعِرًا كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي
الِإِسْتِيفَارِ ابْنُ الرُّومِيِّ وَأَبْنُ الْمُعْتَرِ وَطَارَ أَسْمُ ابْنِ الْمُعْتَرِ حَتَّى صَارَ
كَالْحَسَنِ فِي الْمَوْلَدِينَ وَأَمْرِي الْقَيْسِ فِي الْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَدِّي
قَلَاءَ الدُّنْيَا وَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْأَغَانِي :

وَيَمْنُ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَاجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ
وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَآدَابًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا
وَتَصَرَّفًا فِي سَائِرِ الْأَدَابِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَرِ بِاللهِ
وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هَذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ
وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةٌ الْمُلُوكِيَّةُ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْمُحَدِّثِينَ

الْوُسْطَى وَقَدْ شَرَكْتَهُمْ ثَقِيفٌ فِي تَاجِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ الْأَزْدِ
 أَزْدَشْنُوَّةَ وَهُمْ بَنُو الْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ نَضْرِ بْنِ
 الْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا : أَفْصَحُ النَّاسِ عَلِيًّا نَعِيمٌ وَسُفْلَى قَيْسِ
 وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ : أَفْصَحُ النَّاسِ سَافِلَةُ الْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ السَّافِلَةِ يَعْنِي
 هَوَازِنَ وَاهْلُ الْعَالِيَةِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا
 وَلَفْتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ . وَقَوْمٌ يَرُونَ تَقْدِيمَةَ الشَّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
 بِأَمْرِ الْقَيْسِ وَفِي الْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي الْمُؤَلَّدِينَ
 بِالْحَسَنِ بْنِ هَانِيٍّ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ الْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ النَّاسِ
 وَاتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : خُتِمَ الشَّعْرُ
 بِذِي الرِّمَّةِ وَالرَّجَزُ بِرُوثَةِ بْنِ الْعُجَّاجِ . وَزَعَمَ يُوسُفُ : أَنَّ الْعُجَّاجَ
 لَيْسَ فِي شَعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ مَكَانَهُ
 غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ الشَّاعِرُ يَقُولُ
 مِنَ الرَّجَزِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ
 فَلَاحَرَ حَتَّى كَانَ الْعُجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدهُ وَشَبَّ فِيهِ وَذَكَرَ
 الدِّيَارَ وَاسْتَوْقَفَ الرِّكَابَ عَلَيْهَا وَاسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى
 السَّبَابِ وَوَصَفَ الرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ الشُّعْرَاءُ بِالْقَصِيدِ فَكَانَ فِي
 الرَّجَزِ كَأَمْرِ الْقَيْسِ فِي الشُّعْرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ
 شِعْرَ الرَّجَزِ الْأَغْلَبُ الْفُجَيْيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ الْبُجَيْيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ
 مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي الْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لَهُ
 لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَنَحْنُ نُحِبُّ الرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ .

لِزُهَيْرٍ وَالنَّابِغَةِ وَالْأَعَشَى فِي الْأَنْفُسِ . وَعُلَمَاءُ الْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ
 أَمْرًا الْقَيْسَ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ الْأَعَشَى وَأَهْلُ الْحِجَازِ
 وَالْبَادِيَةَ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَالنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ الْعَالِيَةِ لَا
 يَعْدِلُونَ بِالنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا .
 قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : قَالَ أَهْلُ النَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَخَصَفَهُمْ شِعْرًا
 وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سَخَفٍ وَاجْتَمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَلِيلٍ مِنْ
 الْأَنْطِقِ . وَأَمَّا النَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَخْتِجُ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةً شِعْرٍ
 وَأَكْثَرَهُمْ رَوْتًا كَلَامٍ وَأَجَزَهُمْ بَيِّنًا كَمَا أَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ
 فِيهِ تَكَلُّفٌ . وَزَعَمَ أَصْحَابُ الْأَعَشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبَهُمْ
 فِي فُنُونِ الشِّعْرِ وَأَكْثَرَهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَذْحًا وَهَجَاءً وَفَحْرًا
 وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي الْعُلَمَاءِ) الْأَعَشَى أَشْعَرُ الْأَرْبَعَةِ قِيلَ
 لَهُ : فَإِنَّ الْخَبَرَ عَنِ النَّبِيِّ إِنْ أَمْرًا الْقَيْسَ يَسِدُهُ لِيَاءُ الشِّعْرِ
 فَقَالَ : يَهَذَا الْخَبَرُ صَحَّ لِلْأَعَشَى مَا قُلْتُ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلٍ لِيَاءٍ
 إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَأَمْرُوهُ الْقَيْسَ حَامِلُ الْيَاءِ وَالْأَعَشَى الْأَمِيرُ
 (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ : أَرْجُلَا أُمِّ حَيٍّ
 قِيلَ بَلْ حَيٌّ قَالَ : أَشْعَرُ النَّاسِ حَيٌّ هَذِيلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ
 أَنْجَحِي وَأَشْعَرُ هَذِيلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرُ مُدَافِعٍ (وَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ)
 قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : أَفْضَحُ الشُّعْرَاءِ السَّنَاءُ وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ
 السَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ الْحَبَالُ الْمَطْلَةُ عَلَى تِهَامَةٍ مِمَّا يَلِي
 أَلْيَنَ فَأُولَئِهَا هَذِيلٌ وَهِيَ تَلِي الرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةٍ ثُمَّ عَلَيْهِ السَّرَاةُ

وَيُرْوِي شَعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الثَّقَادِ مَقَالَهُ الْخَطِيئَةِ (وَسَالَهُ
أَبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخْرَى) فَقَالَ الَّذِي يَقُولُ :
وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّمَّ يُشَمَّ

وَلَيْسَ الَّذِي يَقُولُ :

وَكُنْتَ بِمُسْتَبَقٍ آخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثِ آيِ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ
وَلَكِنَّ الضَّرَاعَةَ أَفْسَدَتْهُ كَمَا أَفْسَدَتْ جُرُولاَ وَاللَّهُ لَوْ لَا
وَلَوْ لَا لَكُنْتُ أَشْعَرَ الْمَاضِينَ . وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَلَا أَشْكُ آتِي أَشْعَرَهُمْ
(وَزَعَمَ) أَبْنُ أَبِي الْخَطَّابِ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو يَقُولُ أَشْعَرُ النَّاسِ : أَرْبَعَةٌ
أَمْرُوهُ الْقَلْبَسِ وَالنَّابِغَةُ وَطَرَقَةُ وَمَهْلَهُ وَقَالَ الْمَفْضَلُ : سُئِلَ الْفَرَزْدَقُ
فَقَالَ : أَمْرُوهُ الْقَلْبَسِ أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : النَّابِغَةُ أَشْعَرُ النَّاسِ
وَقَالَ الْأَخْطَلُ : الْأَعَشَى أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ أَبْنُ أَحْمَرَ : زَهْيُ أَشْعَرُ
النَّاسِ وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ : كَيْدُ أَشْعَرِ النَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شَيْلٍ :
طَرَقَةُ أَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ الْكُمَيْتُ : عَمْرُو بْنُ كُثُومٍ أَشْعَرُ النَّاسِ
وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ وَقِلَّةِ الْإِتِّفَاقِ . وَكَانَ أَبْنُ
أَبِي إِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدِّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ : أَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ
الْمُرْقَشُ الْأَكْبَرُ وَأَشْعَرُ الْإِسْلَامِيِّينَ كَثِيرٌ وَهَذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ
غَيْرُ أَنَّهُمْ مُجْبِعُونَ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَطَالَ أَلْدَحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ
مَرَّةً : مَنْ أَشْعَرُ الْعَرَبِ فَقَالَ : أَخُو تَيْمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدِ وَقِيلَ
أَوْسَ بْنَ حَجْرٍ . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ بَعْدَ أَمْرِ الْقَلْبَسِ مَا

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ الْجُعْفِيُّ) سَأَلَ عِكْرَمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ
جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ قَالَ: أَعَنَ الْجَاهِلِيَّةُ تَسْأَلُنِي أَمِ الْإِسْلَامُ.
قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِسْلَامَ فَإِذَا ذَكَرْتَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ
أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَأَلَا سَلَامٌ قَالَ:
أَلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ الشَّعْرِ قُلْتُ: وَالْأَخْطَلُ قَالَ: يُحْيِي مَدْحَ الْمُلُوكِ
وَيُصِيبُ صِفَةَ الْحَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكَتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي
بَحَرْتُ الشَّعْرَ بَحْرًا (وَسُئِلَ) أَلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ الْعَرَبِ
فَقَالَ بَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

تَوَى فِي مُحَدٍّ لَا بُدَّ مِنْهُ كَفَى بِالْمَوْتِ نَأْيًا وَاعْتِدَابًا
ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا قَالَ
بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بَلَى وَكُلُّ فَتَى سَيْبَلَى فَشَقِيَ الْحَيْبَ وَأَنْتَحَبَى أَنْتَحَبَا
فَاتَّفَقَا عَلَى بَشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكُتِبَ) الْحُجَّاجُ بْنُ
يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ الشُّعْرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَأَشْعَرِ شُعْرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ وَأَضْرَبُهُمْ
مَثَلًا طَرْفَةً. وَأَمَّا شُعْرَاءُ الْوَقْتِ فَأَلْفَرَزْدَقُ أَفْحَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ
وَالْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا الْخَطِيبَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ
أَبُو دُرَّادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْ مِنْ قَدْ رُزْتُهِ الْإِعْدَامُ
وَهُوَ كَانَ فَحَلًّا قَدِيمًا وَكَانَ أَمْرُوهُ الْقَيْسُ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَالْفَرَزْدَقُ وَالنَّابِغَةُ وَالْأَخْطَلُ وَالْأَعَشَى وَجَرِيرٌ
 وَكَانَ خَلْفَ الْأَحْمَرِ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ الْأَعَشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ابْنُ
 الْأَعْلَاءِ: مِثْلُهُ مِثْلُ الْبَازِي يَضْرِبُ كَثِيرَ الطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو
 الْخَطَّابِ الْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى
 الْأَضْمَعِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَرْبَعَةُ زُهَيْرٌ
 إِذَا رَغِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا
 كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكَثِيرٍ أَوْ لِنَصِيبٍ
 مِنْ أَشْعَرِ الْعَرَبِ فَقَالَ: أَمُرُّهُ أَلْقَيْسٍ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ
 وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ
 النَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْدَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَفْرًا.
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِمَجْمَعَةِ أَشْعَارِ
 الْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ السَّبْعِ الَّتِي تُسَمَّى السُّنْطَ أَمُرُّهُ
 أَلْقَيْسٍ وَزُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ وَالْأَعَشَى وَلَيْدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ)
 وَقَالَ الْمَفْضَلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي السَّبْعِ الَّتِي تُسَمَّى السُّنْطَ لِأَحَدٍ
 غَيْرِ هَؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطًا مِنْ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةُ
 وَالْحُرثُ بْنُ حِلِزَةَ وَأَثَبَتَا الْأَعَشَى وَالنَّابِغَةُ وَكَانَتِ الْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى
 الْمَذَهَبَاتِ وَذَلِكَ أَنَّهَا اخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ الشُّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي
 الْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ الذَّهَبِ وَعُلِقَتْ عَلَى الْكَعْبَةِ فَلِذَلِكَ يُقَالُ مُذَهَبَةٌ
 فَلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ
 وَقِيلَ بَلْ كَانَ الْمَلِكُ إِذَا اسْتَحْيَدَتْ قَصِيدَةً يَقُولُ: عَلِقُوا لَنَا هَذِهِ

قَالَ دَعِيْلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُرَاعِيُّ: وَلَا يَقُوْدُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ. قَالَ
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الشُّعَرَاءِ: أَمْرُوهُ
 الْقَيْسَ سَابِقَهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ الشَّعْرِ فَأَفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُوْرٍ أَصَحَّ
 بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنْ الْخَسْفِ وَهِيَ الْمُدُّ الَّتِي
 حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ. وَقَوْلُهُ أَفْتَقَرَ أَيَّ قَتَحَ وَهُوَ
 مِنْ أَفْقَرَ وَهُوَ فَمُ الْقَنَاقَةِ وَقَوْلُهُ: عَنْ مَعَانٍ عُوْرٍ يُرِيدُ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ
 مِنْ أَلْيَمِنَ وَأَنَّ أَهْلَ أَلْيَمِنَ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةٌ تَزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِي
 عُوْرًا فَكَانَ قَتَحَ أَمْرِي الْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ يَمَانِي
 النَّسَبِ تَزَارِي الدَّارِ وَالْمَنْشَأِ. وَفَصَلَهُ عَلَيَّ بِأَنَّ قَالَ: رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ
 نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ
 الْعُلَمَاءُ بِالشَّعْرِ) إِنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمَ الشُّعَرَاءُ لِأَنَّهُ قَالَ مَا
 لَمْ يَقُولُوا وَلَكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَأَسْتَحْسَنَهَا الشُّعَرَاءُ وَاتَّبَعُوهُ فِيهَا
 لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَفَ الْمَعَانِي وَمِنْ اسْتَوْقَفَ عَلَى الطُّوْلِ وَوَصَفَ
 النِّسَاءَ بِالطُّبَاءِ وَالْمَهْمَى وَالْبَيْضِ وَشَبَّهَ الْخَيْلَ بِالْعُقْبَانِ وَالْعِجْيَ وَفَرَّقَ
 بَيْنَ النَّسَبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْقَصِيْدَةِ وَقَرَّبَ مَا خَذَ الْكَلَامَ فَقَيَّدَ
 الْأَوَابِدَ وَأَجَادَ الْأَسْتِعَارَةَ وَالنَّشِيْهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ
 الْجُحْيِيُّ: إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْفَرَزْدَقَ مَنْ أَسْعُرَ النَّاسَ فَقَالَ ذُو
 الْقُرُوحِ (وَسُئِلَ كَيْدٌ): مَنْ أَسْعُرَ النَّاسَ فَقَالَ الْمَلِكُ الضَّلِيلُ
 قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: الْأَشَابُ الْقَتِيلُ قِيلَ: ثُمَّ مَنْ قَالَ: السَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ
 يَعْنِي نَفْسَهُ. وَكَانَ أَخَذَاقُ يَقُولُونَ: الْفُحُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

وَكَانَ رَأْيِي أَوْسٌ زُهَيْرٌ وَكَانَ أَوْسٌ زَوْجُ أُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شُبَّةَ)
 فِي طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ: لِلشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ أَوَّلُ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدْ اخْتَلَفَ
 فِي ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ وَأَدَّعَتِ الْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ إِشَاعِرَهَا أَنَّهُ الْأَوَّلُ وَلَمْ
 يَدْعُوا ذَلِكَ لِقَائِلِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يَسُونُ ذَلِكَ شِعْرًا فَأَدَّعَتِ
 أَلِيْمَانِيَةُ لِأَمْرِيءِ الْقَيْسِ وَبَنُو أَسَدِ الْعَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِلْمُهَلِّهِلِ
 وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمْصَةَ وَالْمُرْقَشُ الْأَكْبَرُ وَإِيَادُ لِأَيِّ دُوَادٍ (قَالَ)
 وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْأَفْوَهَ الْأَوْدِيَّ أَقْدَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ
 قَصَّدَ الْقَصِيدَ (قَالَ) وَهَؤُلَاءِ النَّفَرُ الْمُدَّعَى لَهُمُ التَّقَدُّمُ فِي الشُّعْرِ
 مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ أَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ الْهَجْرَةَ عِمَاةَ سَنَةٍ أَوْ نَحْوَهَا
 (وَقَالَ تَغْلِبُ فِي أَمَالِيهِ) قَالَ الْأَضْمَعِيُّ: أَوَّلُ مَنْ يُرَوَى لَهُ كَلِمَةٌ
 تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ الشُّعْرِ مُهَلِّهُلٌ ثُمَّ ذُوَيْبُ بْنُ كَعْبٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ
 تَيْمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْأَضْبَطُ بْنُ مُرَّاجٍ (قَالَ)
 وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ أَمْرُ الْقَيْسِ
 بَعْدَ هَؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) أَوَّلُ مَنْ
 قَالَ الشُّعْرَ ابْنُ حَذَامٍ (وَقَالَ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي الْعُمْدَةِ): الْمَشَاهِيرُ
 مِنَ الشُّعْرَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ
 أَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ
 فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تَفْضِلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَمًا
 يَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ إِلَّا مَا رَوَى عَنِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِ الْقَيْسِ
 أَنَّهُ أَشْعَرُ الشُّعْرَاءِ وَقَدْ نُهُمُ إِلَى النَّارِ يَعْنِي شُعْرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُشْرِكِينَ

وَقَالَ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ :

عُوجًا عَلَى طَلِّ الدِّيَارِ لَعَلَّنَا بَيْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حَذَامٍ
وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ الَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا
شِعْرًا غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ
قَصَدَ الْقَصَائِدَ وَذَكَرَ الْوَقَائِعَ الْمُهْلِلُ بْنُ رَيْعَةَ التَّغْلِي فِي قَتْلِ
أَخِيهِ كَلْبِيبٍ قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

وَمُهْلِلُ الشُّعْرَاءِ ذَلِكَ الْأَوَّلُ

وَزَعَمَتِ الْعَرَبُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ أَكْثَرُ
مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعْرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي رَيْعَةَ أَوَّلَهُمُ الْمُهْلِلُ وَهُوَ خَالَ
أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ وَالْمُرْقَشَانِ وَالْأَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ
الْأَضْعَرِ وَالْأَضْعَرُ عَمُّ طَرْقَةَ بْنِ الْعَبْدِ . وَأَسَمُ الْأَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدِ
وَأَسَمُ الْأَضْعَرِ عَمْرُو بْنُ حَزَلَةَ وَقِيلَ رَيْعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ
سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرْقَةُ بْنُ الْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمَّةَ وَالْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالَ
طَرْقَةَ . وَالْأَعْسَى وَالْمُسَيْبُ بْنُ عَلَسَ وَالْحَرْثُ بْنُ حِلْزَةَ . ثُمَّ
تَحَوَّلَ الشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَفَنَّهُمُ النَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى وَأَبْنَةُ
كَعْبٍ وَلَيْدٌ وَالْحُطَيْيَةُ وَالشَّيْخُ وَأَخُوهُ مُزَرَّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ
ثُمَّ آلُ إِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إِلَى الْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ أَوْسُ بْنُ
حُجْرٍ شَاعِرٌ مُضَرٌّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدِّمَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ النَّابِغَةُ
وَزُهَيْرٌ وَأَخْلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافِعٍ . وَكَانَ
الْأَضْمَعِيُّ يَقُولُ أَوْسُ أَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلَكِنْ النَّابِغَةُ طَاطَأَ مِنْهُ

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهري في علوم اللغة للعلامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ الشُّعْرَاءِ أَنْصَرُ بْنُ سَعْدٍ بْنُ قَيْسٍ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ
وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٌّ وَالطُّفَاوَةُ. وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْعِرُ بْنُ رَبِيعَةَ
أَبْنِ كَعْبٍ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :
وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِّينَ مِئِيًا
مِائَةً أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي وَازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِيًا
وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ الْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ
الْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ قَصَدْتُ قُوَهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامُ
وَمِنْهُمْ جَذِيعَةُ الْأَبْرَشِ وَجُلَيْمُ بْنُ صَعْبٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ بَكْرِ
أَبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ الْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلَّهٖ إِلَّا النَّحِيَّةُ

لَهُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهَذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا بِمَا
 ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هَذَا مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْمَشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ
 الشَّعْرِ وَالْخَاصَّةِ بِالْمَدِيحِ. أَعْنِي الْمَشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ
 لِلْجَمِيعِ. وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هَذَا مِنَ الْفُصُولِ الَّتِي بَيْنَ سَائِرِ
 أَصْنَافِ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ الْمَدِيحِ. فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ
 ذَلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْوَاصِلِ إِلَيْنَا
 إِلَّا بَعْضَ ذَلِكَ. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَمْ يَتَرَجَمْ عَلَى
 اَلتَّامِّ. وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ اَلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافِ كَثِيرٍ مِنْ
 الْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَّ بِاَلتَّكَلُّمِ فِي هَذِهِ كُلِّهَا فِي
 صَدْرِ كِتَابِهِ. وَالَّذِي نَقَصَ بِمَا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ اَلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ
 اَلْهَيْئَةِ لَكِنْ يُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ اَلْوُقُوفُ عَلَى ذَلِكَ بِقُرْبٍ مِنْ
 الْأَشْيَاءِ الَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ الْمَدِيحِ. إِذْ كَانَتْ اَلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ
 بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ
 هَاهُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ الْقَوَائِنِ الشَّعْرِيَّةِ بِالإِضَافَةِ
 إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هَذَا وَفِي كِتَابِ اَلْخَطَابَةِ زُرَّ يَسِيرُ كَمَا
 يَقُولُهُ أَبُو نَصْرِ. وَلَيْسَ يَحْتَقِ عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تُرْجِعُ تِلْكَ الْقَوَائِنُ
 إِلَى هَذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ بِمَا ذَكَرَ عَلَى
 غَيْرِ ذَلِكَ وَاللَّهُ اَلْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ



وَمُحَرِّقٍ عَنْهُ أَتْقَمِصُ تَحَالُهُ وَسَطَ الْيُوتِ مِنْ أَحْيَاءِ سَقِيَا
فَإِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا هِيَ أَضْدَادُ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذَلِكَ
الْعَادَةُ. وَالْمَوْضِعُ الْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْمُتَضَادِّينَ
بِالسَّوَاءِ مِثْلُ الصَّرِيمِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَالْقَرَّ وَالْجَلْدُ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَمَّا
قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ. وَالْمَوْضِعُ السَّادِسُ أَنْ يَتْرَكَ الْحَاكَاةَ الشَّعْرِيَّةَ
وَيَنْتَقِلَ إِلَى الْإِقْتَاعِ وَالْأَقَاوِيلِ التَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ الْقَوْلُ
هَجِينًا قَلِيلَ الْإِقْتَاعِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ يَعْذِرُ عَنْ
جُنَيْهِ :

وَمَا جَبُنْتُ خَلِيلِي وَلَكِنْ تَذَكَّرْتُ مَرَّابِطَهَا مِنْ بَرِّعِيصَ وَمَنِيرَا
وَقَدْ يَجْسُنُ هَذَا الصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ الْإِقْتَاعِ أَوْ صَادِقًا
مِثْلُ قَوْلِ الْآخَرِ يَعْذِرُ عَنِ الْفِرَارِ :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشَقَرٍ مُزِيدٍ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا أَقْتُلُ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَجَبَةُ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدٍ
فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي الْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ التَّغْيِيرَ
الَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذَلِكَ قَالَ الْقَائِلُ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَقَدْ حَسَنْتُمْ
كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ الْفَلَطِ سِتَّةَ
وَمَوَاضِعُ التَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ الْفَلَطِ الذَّائِقِ
وَالْتَّوْبِيخِ الْخَاصِي. أَتْنِي عَشْرَ مَوْضِعًا سِتَّةَ أَغَالِيطٍ وَسِتَّةَ تَوْبِيخَاتٍ
وَأَمِثَّةَ التَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذَا كَانَ شَعْرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ. وَإِنَّمَا آتَسَهُ بِذَلِكَ شِدَّةُ الشَّيْءِ وَانَّهُ لَمْ يُقْصَدْ
 بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يُجِبُّ أَنْ يُحَاكِيَ بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ
 أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ الْأَشْرَارِ بِالشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمَكِّنُ الْوُجُودِ
 فِي الْأَكْثَرِ لَا فِي الْأَقَلِّ أَوْ عَلَى التَّسَاوِي فَإِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ
 الْوُجُودِ هُوَ أَلَيُّ بِالْخَطَابَةِ مِنْهُ بِالشَّعْرِ. وَالْمَوْضِعُ الثَّلَاثِي مِنْ غَلَطِ
 الشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ الْمُحَاكَاةَ وَذَلِكَ مِثْلُ مَا يَعْزُضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ
 يَرِيدَ فِي الصُّورَةِ عَضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي
 هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ الرَّجُلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ الْحَيَوَانِ ذِي الْأَرْبَعِ وَالْيَدَيْنِ
 فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَتَّبِعِي أَنْ يَتَقَدَّمَ مِثَالُ هَذَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَقَرِيبٌ
 مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ الْفَرَسَ :

وَعَلَى أذُنِهِ أذنٌ ثَالِثٌ مِنْ سِنَانِ السَّمْهَرِيِّ الْأَزْرَقِ
 وَالْمَوْضِعُ الثَّلَاثُ أَنْ يُحَاكِيَ النَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ
 هَذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ التَّوْبِيخِ وَذَلِكَ أَنَّ الصِّدْقَ فِي هَذِهِ الْمُحَاكَاةِ
 يَكُونُ قَلِيلًا وَالْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبَّهَ مِنَ النَّاطِقِ صِفَةً
 مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ النَّاطِقِ وَقَدْ تَوَسَّسْتُ بِمِثْلِ هَذَا الْعَادَةِ مِثْلُ
 تَشْبِيهِ الْعَرَبِ النِّسَاءِ بِالطُّبَّاءِ وَبِقَرِّ الْوَحْشِ. وَالْمَوْضِعُ الرَّابِعُ أَنْ
 يُشَبَّهَ الشَّيْءُ بِشَيْءٍ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْعَرَبِ
 سَقِيمَةُ الْجَفُونِ فِي الْحَسَنَةِ الْغَاضَةِ النَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمْ مَرْضَى مِنَ الْكَرَمِ.

وَقَوْلُ الْآخَرِ :

مُكْرَ وَائِمَا قَالَ ذَلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ لَانَ لِلْأَمْرِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ
خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

يَهِيلُ وَيُذِرِي تَرْبَهَا وَيُشِيرُهُ إِثَارَةَ نَبَاتِ الْهَوَاجِرِ مُخْسِرِ
وَكَذَلِكَ تَشْبِيهُهُمُ الصَّبَّ بِالنُّونِ لِمَكَانِ السَّرَابِ الْمَوْجُودِ فِي
بِلَادِهِمْ وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ
(قَالَ) وَمَتَى طَالَ الْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي
أَنْ يُعْتَنَى فِي ذَلِكَ بِإِرَادِ الْأَلْفَاظِ الْبَيِّنَةِ الدَّلَالَةِ وَهِيَ الَّتِي تَدُلُّ
عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ
تَرْكِيبُهَا عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ النُّطْقِ . وَيُشَبِّهُ أَنْ
يَكُونَ هَذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَمُّ الْفَصَاحَةِ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْقَوْلُ ظَاهِرَ الصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ الصِّدْقَ
الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قَلَّةِ الْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ التَّغْيِيرِ وَالْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَالْعَلَطُ الَّذِي يَقَعُ فِي الشَّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ تَوْبِيحُهُ
فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ . أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بَغْيَرُ مُمَكِّنٍ بَلْ مُتَمَتِّعٍ وَمِثَالُ
هَذَا عِنْدِي قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَرِّ يَصِفُ الْقَمَرَ فِي تَنْقِصِهِ :
أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِصَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عُنْبَرٍ

(قَالَ) وَأَجْزَاءُ هَذَا النَّوعِ هِيَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الْعَفِيفَةِ
 مِنَ الْإِدَارَةِ وَالْأَسْتِدْلَالِ وَالْتَّزْكِيَةِ مِنْهُمَا. وَرَبَّمَا كَانَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا
 أَنْفِعَالِيًّا كَالْحَالِ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَصَنَائِعُ الشِّعْرِ وَأَحْكَامُهَا فِي
 التَّحْنِمْ وَالنِّعَاءِ أَخْكَامُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ. وَذَكَرَ فُرُوقًا بَيْنَ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 وَبَيْنَ صَنَائِعِ الشِّعْرِ الْآخَرِ عَنْهُمْ وَخَوَاصَّ تَخْتَصُّ بِهَا تِلْكَ الْأَشْعَارُ
 الْآخَرُ فِي الْأَوْزَانِ وَالْأَجْزَاءِ وَالْمُحَاكَاةِ وَالْقَدْرِ وَأَنَّ هَاهُنَا أَوْزَانًا
 هِيَ أَلْيَقُ بِبَعْضِ الْأَشْعَارِ مِنْ بَعْضٍ وَذَكَرَ مِنْ أَجَادٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ
 فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمَنْ لَمْ يُجِدْ وَآثَنِي فِي هَذَا كُلِّهِ عَلَى أُوْمَيْرُوشَ
 وَكُلُّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِمْ وَغَيْرُ مَوْجُودٍ مِثْلَهُ عِنْدَنَا إِمَّا لِأَنَّ ذَلِكَ الَّذِي
 ذَكَرَ غَيْرُ مُشْتَرَكٍ لِلْأَكْثَرِ مِنَ الْأُمَمِ وَإِمَّا أَنَّهُ عَرَضَ لِلْعَرَبِ فِي
 هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الطَّبَعِ وَهُوَ آيِنٌ فَلَنَّهُ مَا كَانَ لِيُثْبِتَ
 فِي كِتَابِهِ هَذَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِمْ بَلْ مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ لِلْأُمَمِ الطَّبِيعِيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التلخيص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّاعِرُ مِنَ الْكَلَامِ يَسِيرًا
 بِالإِضَافَةِ إِلَى الْكَلَامِ الْمُحَاكِي كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أُوْمَيْرُوشُ فَلَنَّهُ إِنَّمَا
 كَانَ يَفْعَلُ صَدْرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إِلَى مَا يُرِيدُ مُحَاكَاتَهُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يَأْتِيَ فِي ذَلِكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْتَدَ لَكِنْ مَا قَدْ أُعْتِيدَ فَإِنَّ غَيْرَ الْمُعْتَادِ

البحث الثامن

في صناعة الأشعار القصصية

(من الكتاب نفسه) ٤٢٣

(قَالَ) قَفِيًا قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَفِي الْأَشْيَاءِ الْمَشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ الْأَشْعَارِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كِفَايَةً . وَالْأَشْعَارُ الْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي الْأَجْزَاءِ الَّتِي هِيَ الْمَبْدَأُ وَالْوَسْطُ وَالنَّهَايَةُ سَبِيلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ . وَكَذَلِكَ فِي الْحِكَاكَةِ إِلَّا أَنَّ الْحِكَاكَةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمَنَةِ الْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ الْأَفْعَالُ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُحَاكِي فِي هَذِهِ كَيْفَ كَانَتْ أَحْوَالُ الْمُتَقَدِّمِ مَعَ أَحْوَالِ الْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تُثْقَلُ الدُّوَلُ وَالْمَمَالِكُ وَالْأَيَّامُ . وَحِكَاكَةُ هَذَا النَّوعِ مِنَ الوجودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْكُتُبِ الشَّرْعِيَّةِ . وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هَذَا الصَّنْفِ مِنْ شُعْرَانِهِمْ وَآثْنَى ثَنَاءً عَامًّا عَلَى أُوْمَيْرُوشَ . وَمِنْ جَيْدٍ مَا فِي هَذَا الْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ الْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفَرَ :

مَاذَا أَوْتَمَلُ بَعْدَ آلٍ مُحَرَّقِ	تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَرْضِ الْخُورْتَقِ وَالسَّيْدِ وَبَارِقِ	وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
تَرَلُّوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ	مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَّتِ الرِّيَّاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ	فَكَانَتْهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَارَى اللَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ	يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ إِخْصَاءُ أَنْوَاعِهَا الْأَخِيرَةِ عَسِيرًا جَدًّا وَلِذَلِكَ
 اقْتَصَرَ هُنَا عَلَى الْكَلِمَاتِ فَقَطْ. وَالْفَاضِلُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ أَنْ
 يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ أَبِينُ وَأَظْهَرُ وَأَشْبَهُ وَهَذَا لَا
 يُوجَدُ إِلَّا فِي النَّادِرِ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْأَبِينِ مِنْ
 هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَشْبَهُ هُوَ دَلِيلُ الْهَيَّاتَةِ. وَهَذَا الصِّنْفُ هُوَ الَّذِي
 يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ الْإِفْهَامِ فَعَلَ الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ أَغْنَى تَحْرِيكَ
 النَّفْسِ مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِبْدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ الشَّبهِ آفَادَ جُودَةِ
 الْخَيَالِ وَالْإِفْهَامِ مَعَ وَرَبَّمَا عَرَضَ مِنَ الْإِبْدَالِ الْمُنَاسِبِ قَلَّةُ فَهْمِ
 عِنْدَ الْفِدَامِ مِنَ السَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ
 الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ الْخَيْطُ الْحَقِيقِيُّ
 فَذَكَرْتُ مِنَ الْفَخْرِ. (قَالَ) وَالْأَسْمَاءُ الْمُرَكَّبَةُ تَضِلُّ لِلْوِزْنِ الَّذِي
 يُشْنَى فِيهِ عَلَى الْأَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ
 هِيَ قَلِيلَةٌ الْوُجُودِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمُ الْعَبَشِيُّ
 الْمُنْسُوبُ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَأَمَّا اللَّغَاتُ فَتَضِلُّ لِلشَّعْرِ الَّذِي يُذَكَّرُ فِيهِ
 أَمْرُ الْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ الشَّعْرِ عِنْدَهُمْ
 مَعْرُوفًا. وَأَمَّا الْأَسْمَاءُ الْمُنْقُولَةُ الْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِالشَّعَارِ الَّتِي تُقَالُ
 فِي الْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ وَالْقِصَصِ الْمَشْهُورَةِ



تَكُونُ بِالْمَوَازَنَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْإِبْدَالِ وَالْتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ الْقَوْلِ
عَنْ مَخْرَجِ الْعَادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالتَّقْدِيمِ
وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى
الْإِيجَابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْقَائِلِ إِلَى الْقَائِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ
الْأَنْوَاعِ الَّتِي تَسْمَى عِنْدَنَا مَجَازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَأَنَالَ
الْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ
الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: فَلَنْ مِنْ
أَجَلٍ بَيْنِهِ لَا بُؤَهُ مِنْ أَجَلِهِ وَالسَّنَةُ سَبَبُ الْإِنْسَانِ لَا الْإِنْسَانُ
سَبَبُ السَّنَةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيَمًا.
وَقَوْلِهِ: وَإِذْ أَبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. وَالزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَبَّتْ بِالذَّهْنِ
وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
وَمِثَالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقَائِلِ: مَا فَعَلَ أَحَدٌ
إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّابِغَةِ:
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ عِزَّ أَنْ سِيُوفَهُمْ بَيْنَ قُلُوبٍ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ
فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضَائِلَ لِيَنفِي الْعُيُوبَ وَاسْتَنْتَى مِنْهَا مَا لَيْسَ
بَعِيبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيرَاتِ اللَّذِيذَةِ
جَمْعُ الْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْحِصَامُ وَأَنْتَ الْحُضْمُ وَالْحَكَمُ

وَكُونُ الضِّدِّ سَبَبًا لِضِدِّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ
يَخْتَفِي عَلَيْكَ أَنْوَاعُهَا الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمُحْصُورَةُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ

الثَّانِي لِلأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ أَبُو الطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ التَّنَاسُبِ وَكَذَلِكَ مَا
قَالَهُ أَمْرُوهُ الْقَيْسِ (قَالَ) وَالْقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا أَيْ مُعَيَّرًا عَنْ
الْقَوْلِ الْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تَوَضَّعَ فِيهِ الْأَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي الْمَوَازِنَةِ
وَالِثِقَادِرِ وَبِالْأَسْمَاءِ الْغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّغْيِيرِ. وَقَدْ
يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ الشَّعْرِيَّ هُوَ الْمَفْسِيرُ أَنَّهُ إِذَا غَيَّرَ الْقَوْلُ
الْحَقِيقِيُّ سَمِيَّ شَعْرًا أَوْ قَوْلًا شَعْرِيًّا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ الشَّعْرِ مِثَالُ ذَلِكَ
قَوْلُ الْقَائِلِ:-

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
أَخَذَنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَغْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ
إِنَّمَا صَارَ شَعْرًا مِنْ قَبْلِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

أَخَذَنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَغْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ
بَدَلَ قَوْلِهِ نَحْدَثْنَا وَمَشِينَا وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شَعْرًا لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ هَذَا الْقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةٌ
الْعُنُقِ وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْآخَرِ:

يَا دَارُ أَيْنَ طِبَاوُكِ الْعُفْسُ قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا أُنْسُ
إِنَّمَا صَارَ شَعْرًا لِأَنَّهُ أَقَامَ الدَّارَ مُقَامَ النَّاطِقِ الْمُخَاطَبَتِهَا وَأَبْدَلَ
لَفْظَ النِّسَاءِ بِالطِّبَاءِ وَآتَى بِمُوَافَقَةِ الْإِنْسِ وَالْأُنْسِ فِي اللَّفْظِ وَأَنْتَ
إِذَا تَأَمَّلْتَ الْأَشْعَارَ الْحُرُوكَةَ وَجَدْتَهَا بِهَذِهِ الْحَالِ. وَمَا عَدَا هَذِهِ
التَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى الشَّعْرِيَّةِ إِلَّا الْوُزْنُ فَقَطْ وَالتَّغْيِيرَاتُ

وَهُوَ الْآخِرُ وَإِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْمُخْذُتُونَ بِالزُّومِ وَإِمَّا
 الْمَوَازِنَةُ فِي أَجْزَاءِ الْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى أَنْحَاءٍ أَرْبَعَةٌ أَحَدُهَا أَنْ يَأْتِيَ
 الشَّاعِرُ بِالشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَوْ يَأْتِيَ بِالْأَضْدَادِ مِثْلَ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَوْ يَأْتِيَ بِالشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ الْقَوْسِ
 وَالسَّهْمِ وَالْفَرَسِ وَالْحِجَامِ أَوْ يَأْتِيَ بِالْأَشْيَاءِ الْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ الْمَلِكِ
 وَالْإِلَهِ وَهَذِهِ الْمُنَاسِبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. وَفِي هَذَا الْبَابِ
 عِيبٌ عَلَى الْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ الدَّلُّ وَالسَّنْبُ

لِأَنَّ الدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهِ بِالسَّنْبِ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ
 فِي قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا لِلذِّدَّةِ وَلَمْ أَعْرِفْ كَأَعْبَادَاتِ خَلْجَالٍ
 وَلَمْ أَسْبِأِ الزُّنُقَ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِحَلِيلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ
 إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ التَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَغْنِي
 أَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ صَدْرُ الثَّانِي وَصَدْرُ الثَّانِي صَدْرُ
 الْأَوَّلِ وَمِثْلُ هَذَا قِيلَ فِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَأَقِفِ

كَأَنَّكَ فِي جَفَنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً

وَوَجْهَكَ وَصَاحَ وَتَغْرُكَ بِاسْمٍ

إِنَّ التَّنَاسُبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ

وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْكَارِمُ

وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَكُلُّ الْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ

ضَرَبُ الْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ الْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هَذَا أَعْنِي فِي كُلِّ

الَلْفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى الْأَسْمَاءُ الْمُشْتَرَكَةُ وَالشُّعْرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا

وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ اللَّفْظِ فَقَطِ الْأَسْمَاءُ الْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ

الْمَعْرِيِّ :

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا سَعَانٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

فَرَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالٌ

وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَقَطِ قَوْلُ حَبِيبِ :

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ :

أَقْلَبُ الطَّرْفَ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالْخَوْلِ

وَهَذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِثْلُ الضَّرْبِ وَالضَّرْبِ وَالْحَمْلِ

وَالْحَمْلِ وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ الْمَعْنَى

فَقَطِ الْأَسْمَاءُ الْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَر. وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي

بَعْضِ الْمَعْنَى فَقَطِ الْأَسْمَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ الَّتِي تَدُلُّ مِنْ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ

عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلُ الصَّارِمِ وَالذَّكَرِ. وَالْقَوَائِي عِنْدَ الْعَرَبِ

هِيَ مُوَافَقَةُ فِي الْقَدَارِ وَفِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَذَلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَمَعَادِلُهُ الْمَعَانِي بَعْضُهَا لِبَعْضٍ وَمَوَازِنُهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
 عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِكُلِّ جَمِيعِ الْأَلْفَافِ الَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ الْقَوْلِ الشِّعْرِيِّ
 وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ الشُّعْرَاءَ وَإِنْ اسْتَعْمَلُوا الْأَلْفَافَ الْحَقِيقِيَّةَ فِي الْمَوَاضِعِ
 الَّتِي يَهْزَأُ بِهَا فِي اسْتِعْمَالِهِمْ إِلَيْهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هَذَيْنِ
 الْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ الْمَوَازِنَةِ وَالْمُوَافَقَةِ فِي الْقَدَارِ وَلَكِنْ كَانَ
 هَذَا عَامًّا لِكُلِّ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الشِّعْرِ. وَأَمَّا الْأَشْعَارُ الَّتِي تَأْتِلِفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ
 الْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هَذَا الْمَعْنَى فِيهَا آيِنٌ وَمُوَافَقَةُ الْأَلْفَافِ الَّتِي ذَكَرَ فِي
 الْقَدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ الْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ
 مَعَ هَذَا فِي كُلِّ اللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَهُوَ الَّذِي يُعْرَفُ
 بِالْمُطَابَقَةِ وَالْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَالْمُوَافَقَةُ أَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ
 لَا يَخْلُو الْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى وَهَذَا مِثْلُ
 قَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئًا

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ الْيَحَادِ طَوِيلُ الْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي
 بَعْضِ اللَّفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى
 أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ اللَّفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ الْمَعْنَى
 فَقَطُّ أَوْ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَقَطُّ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ الْمَعْنَى
 فَقَطُّ أَوْ فِي بَعْضِ الْمَعْنَى فَهَذَا الْمُوَافَقَةُ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ
 وَبَعْضِ الْمَعْنَى الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَقَّةِ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ
 الْكَلْبِيِّ :

فِيهِ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُبْتَدَلَةِ وَمِنَ الْأَسْمَاءِ
 الْآخِرِ أَعْنِي الْمُنْقُولَةَ الْغَرِيبَةَ الْمَغْيَرَةَ وَاللُّغَوِيَّةَ لِأَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى
 الشَّعْرُ كُلُّهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْحَقِيقِيَّةِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ كَانَ رَمْزًا وَلَغْزًا
 وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْأَلْفَاظُ وَالرُّمُوزُ هِيَ الَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ
 الْغَرِيبَةِ أَعْنِي بِالْغَرِيبَةِ الْمُنْقُولَةَ الْمُسْتَعَارَةَ وَالْمُشْتَرَكَةَ وَاللُّغَوِيَّةَ. وَالرَّمْزُ
 وَاللَّغْزُ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمَكِّنُ أَوْ يَفْسُرُ
 اتِّصَالُ نِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يَطَابِقَ
 بِذَلِكَ أَحَدَ الْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ إِمَّا بِحَسَبِ الْأَلْفَاظِ الْمَشْهُورَةِ
 فَاتِّصَالُ تِلْكَ الْمَعَانِي بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرِ مُمَكِّنٍ وَإِمَّا بِحَسَبِ
 الْأَلْفَاظِ الْغَيْرِ الْمَشْهُورَةِ فَمَكِّنٌ وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي شَعْرِ ذِي الرُّمَّةِ
 مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ الْقَوْلِ الشَّعْرِيِّ الْعَفِيفِيِّ أَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا
 مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ الْآخِرِ وَأَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ
 حَيْثُ يُرِيدُ الْإِيضَاحَ يَأْتِي بِالْأَسْمَاءِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ التَّعْجِبَ
 وَالْإِلْدَاذَ يَأْتِي بِالصَّنْفِ الْآخِرِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَلِذَلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ
 بَيْنَ يُرِيدُ الْإِيضَاحَ فَيَأْتِي بِالْأَسْمَاءِ الْمَشْتَرَكَةِ أَوْ الْغَرِيبَةِ أَوْ الْأَلْسُنِ
 أَوْ الْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ أَيْضًا بَيْنَ يُرِيدُ التَّعْجِبَ وَالْإِلْدَاذَ فَيَأْتِي
 بِالْأَسْمَاءِ الْمُبْتَدَلَةِ وَكَانَ الشَّاعِرُ يُجِبُّ لَهُ أَلَّا يُقَرِّطَ فِي اسْتِعْمَالِ
 الْأَسْمَاءِ الْغَيْرِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ فَيَخْرُجَ إِلَى حَدِّ الرَّمْزِ وَلَا أَيْضًا يُقَرِّطَ
 فِي الْأَسْمَاءِ الْمُسْتَوَلِيَّةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ الشَّعْرِ إِلَى الْكَلَامِ
 الْمَتَعَارَفِ (قَالَ) وَأَمَّا مُوَافَقَةُ الْأَلْفَاظِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي الْمِقْدَارِ

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ أَنْ تُتْلَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ
وَرَبَّمَا اسْتَغْمَلُوا تَضَرُّعًا لَمْ يُسْتَغْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :
تَفَاوَحَ مِنْكَ الْغَالِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَأَمَّا الْفُقَارُ وَالْمُعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ . وَالْمُزَيِّنَةُ
هِيَ أَسْمَاءُ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا نَعْمًا وَقَدْ رَيْنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ
أَنَّهُ يَعْنِي بِالْفُقَارِ الْأَسْمَاءُ الْمُغْيِرَةُ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا وَالتُّنْقِصَانِ مِنْهَا
وَالْحَذْفِ أَوْ الْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذَلِكَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي يَغْسُرُ النُّطْقُ
بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ أَمُّ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مُحْدُوْدَةٍ
وَالْأَسْمُ الْمُعْقُولُ فَإِنَّهُ فِيهَا أَحْسَبُ الَّذِي سَمَاهُ الْمُخْتَلَفَ وَظَاهِرُ
كَلَامِهِ أَنَّهُ الْأَسْمُ الْمُحْدُوْفُ بِالتُّنْقِصَانِ مِثْلُ الْأَسْمَاءِ الْمُرَحَّةِ عِنْدَمَا
وَأَمَّا الْمُغْيِرَةُ فَهِيَ الْمُسْتَعَارَةُ الَّتِي تُسْتَعَارُ أَمَّا مِنَ الشَّيْءِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ
الْكُوكَبَ نَسْرًا وَرَامًا مِنَ الضَّيْدِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ الشَّمْسَ جَوْنَةً وَرَامًا
مِنَ اللَّزْمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ الشَّحْمَ نَدًا وَالْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَأَفْضَلُ
أَقُولُ فِي التَّفْهِيمِ إِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ الْمُبْتَدَلُ الَّذِي لَا يُخْفَى
عَلَى أَحَدٍ وَهَذِهِ الْأَقَاوِيلُ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَشْهُورَةِ
الْمُبْتَدَلَةِ وَهِيَ الَّتِي سَمَاهَا فِي مَا قَبْلُ الْحَقِيقَةُ وَتُسَمَّى الْمُسْتَوَلِيَّةُ
وَالْأَهْلِيَّةُ (قَالَ) وَذَلِكَ مِثْلُ شَعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ
عِنْدَهُمْ . وَيَبْغِي أَنْ تَتَقَدَّمَ مِنَ الْغَالِبِ عَلَى أَشْعَارِهِ هَذَا النَّوعُ مِنْ
الْأَلْفَاطِ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ (قَالَ) وَالْأَقَاوِيلُ الْعَفِيفَةُ الْمُدِيحَةُ

تَدُلُّ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي رُكِبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدٍ شَمْسٍ وَعَبْدٍ الْقَيْسِ
(قَالَ) وَكُلُّ اسْمٍ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي اللِّسَانِ
وَأَمَّا مَنْقُولٌ نَادِرُ الْأَسْتِعْمَالِ وَأَمَّا مُزَيَّنٌ وَأَمَّا مَعْمُولٌ وَأَمَّا مَعْقُولٌ
وَأَمَّا مُفَارِقٌ وَأَمَّا مُغَيَّرٌ. فَالْحَقِيقِيُّ هُوَ الْإِسْمُ الَّذِي يَكُونُ خَاصًّا
بِأَمَّةٍ أُمَّةٍ وَالْدَخِيلُ هُوَ الَّذِي يُكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيَدْخُلُهُ
الشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذَلِكَ مِثْلُ الْإِسْتَبْرَقِ وَالْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ الدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ. وَأَمَّا الْإِسْمُ النَّادِرُ
الْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ اسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنْ النَّوعِ إِلَى الْجِنْسِ مِثْلُ
تَسْمِيَةِ الْقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنَ الْجِنْسِ إِلَى النَّوعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ الثَّقَلَةِ
حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ الْخِيَانَةِ سَرِقَةً
وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنَسُوبٍ إِلَى
رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ الْأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي مِثْلُ مَا كَانَ يُسَمَّى بَعْضُ
الْقُدَمَاءِ الشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ الْعُمْرِ وَيُسَمَّى الْعَشِيَّةُ شَيْخُوخَةَ النَّهَارِ وَذَلِكَ
أَنَّ نِسْبَةَ الشَّيْخُوخَةِ إِلَى الْعُمْرِ نِسْبَةُ الْعَشِيَّةِ إِلَى النَّهَارِ وَأَمَّا
الْإِسْمُ الْمَعْمُولُ الْمُرْتَجَلُ فَهُوَ الْإِسْمُ الَّذِي يُخْتَرَعُ الشَّاعِرُ اخْتِرَاعًا
وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَعْمَلَهُ وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ
الْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الصَّنَائِعِ النَّاشِئَةِ وَكَثُرَ مَا فِي الصَّنَائِعِ
هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرَبَّمَا اسْتَعْمَلَهُ الْمُخَدَّثُونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ
عَلَى طَرِيقِ الْأَسْتِعَارَةِ أَعْنِي الْمَنْقُولَ إِلَى الصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي
الطَّيِّبِ:

لَمْ يَخْتِجْ فِي إِغْضَابِ النَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ وَإِنْ
كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سَمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكُونَ هَذَا الْقَوْلِ حَقًّا فَلِذَلِكَ لَا
يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذَا كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ
وَقَدْ تَهَيَّنُ الْقَوْلُ وَالْقَائِلُ إِذَا كَانَ بِالسَّمَتِ وَالْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ
يَكْتَفِي الشَّاعِرُ مِنْ هَذِهِ بِاسْتِعْمَالِ الْأَشْكَالِ الْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ
مِنْ أَصْنَافِ الْأَقَاوِيلِ وَذَلِكَ إِذَا اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ مَعَ الَّذِينَ
يَسْتَعْمِلُونَ الْأَخْذَ بِالْوُجُوهِ. وَاعْنِي بِأَشْكَالِ الْقَوْلِ شَكْلَ الْخَبَرِ
وَشَكْلَ السُّؤَالِ وَشَكْلَ الْأَمْرِ وَشَكْلَ التَّضَرُّعِ وَذَلِكَ أَنَّ
شَكْلَ الْخَبَرِ غَيْرُ شَكْلِ السَّأْلِ وَشَكْلُ الْأَمْرِ غَيْرُ شَكْلِ
الطَّلَابِ أَوْ التَّضَرُّعِ فَالشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ الْأَقَاوِيلِ عَنْ
سَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّ تِلْكَ إِذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهَيَّنُ
الْأَقَاوِيلَ الشَّعْرِيَّةَ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ الشَّعْرِ
وَأِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقات الاقاول الشعرية

21 (من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَالْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ أَمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ هُوَ
مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَأَمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ الَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ
تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

وَأَسْتَقِنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ الْأَقَاوِيلُ الْإِنْفَعَالِيَّةُ الْخُطْبِيَّةُ
وَضُرُوبُ الْإِنْفَعَالَاتِ الَّتِي تَفْعَلُهَا هَذِهِ الْأَقَاوِيلُ وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ
الْأَفْعَالُ أَحْصَى بِكِتَابِ الْخُطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ الشَّعْرِ. وَالْإِنْفَعَالَاتِ الَّتِي
تُثَبَّتُ بِالْقَوْلِ الْخُطْبِيِّ أَوِ الشَّعْرِيِّ هِيَ الْخَوْفُ وَالْغَضَبُ وَالرَّحْمَةُ وَالْتَعْظِيمُ
وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي عُدَّتْ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ
هَـ هُنَا أَقْوَا لَا تُوجِبُ هَذِهِ الْإِنْفَعَالَاتِ كَذَلِكَ هَـ هُنَا هَيْئَاتٌ وَأَشْكَالٌ
تَدُلُّ مِنَ الْمَتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُوجِبُ هَذِهِ الْإِنْفَعَالَاتِ
وَأَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لَوْ قُوعَ الْأَشْيَاءِ الْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَفْعَلُ لِذَلِكَ النَّاطِرُ لَهَا فَهَذِهِ
الْصُّورُ وَالْهَيْئَاتُ إِذَا يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي الشَّعْرِ إِنْ أُسْتُعْمِلَتْ مَعَ
الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفَعَالِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ وَذَلِكَ إِمَّا فِي التَّعْظِيمِ. وَإِمَّا فِي التَّصْغِيرِ
وَإِمَّا فِي الْأَشْيَاءِ الْخُزْنَةِ الْخَوْفَةِ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ هِيَ الَّتِي
تُسْتَعْمَلُ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفَعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا
تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ مَعَ الْأَقَاوِيلِ الْإِنْفَعَالِيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي الَّتِي
لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةُ التَّخْيِيلِ. وَإِنَّمَا الْأَقَاوِيلُ الْإِنْفَعَالِيَّةُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ
التَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ الْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ
فِيهَا هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تَخْتَبِرُ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ إِذَا تُسْتَعْمَلُ
فِي الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تَضَعُفُ أَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِاقْتِرَافِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ
بِهَا وَهِيَ الْأَقَاوِيلُ الشَّعْرِيَّةُ فَإِنَّ الْقَائِلَ مِنَ الْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرِ يَخْضَرُ الْمَلِكِ بْنِ أَهْلِ قُرُوبَةٍ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسَدَايَ الْيَهُودِيِّ:
إِنَّ الَّذِي شَرَّفَتْ مِنْ أَجْلِهِ يَزْعُمُ هَذَا إِنَّهُ كَذِبٌ

الْأَشْيَاءُ الْمَوْصُوفَةُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ التَّخْيِيلُ الْفَاضِلُ هُوَ الَّذِي لَا
 يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ الشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَيَنْ النَّاسِ مَنْ لَقَدْ اعْتَادَ أَوْ مَنْ
 فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ الْأَشْيَاءِ الْقَلِيلَةِ الْخَوَاصِّ فَهَؤُلَاءِ تَجُودُ
 أَشْعَارُهُمْ فِي الْمَقْطَعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي الْقَصَائِدِ وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ هُوَ
 عَلَى ضِدِّ هَؤُلَاءِ وَهُمْ الْمُقَصِّدُونَ كَمَا لَمْتَنِيَّ وَحَبِيبٌ وَهُمْ الَّذِينَ
 اعْتَادُوا الْقَوْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ الْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطْرَتِهِمْ مُعَدُّونَ
 لِمُحَاكَاتِهَا أَوْ اجْتَمَعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنْ التَّخْيِيلَاتِ وَالْعَالِي
 مَا يُنَاسِبُ الْأَوْزَانَ الطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ الْقَصِيرَةَ وَرَبَّمَا كَانَ
 الْوِزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرَبَّمَا كَانَ الْأَمْرُ
 بِالْعَكْسِ وَرَبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَآمِثَةٌ هَذِهِ بِمَا يَغُضُّ
 وَجُودُهَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذَا
 أَعَارِضُهُمْ قَلِيلَةُ الْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا قَوَامُ
 الْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ الْهَيْئَاتُ الَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ الشَّاعِرِ
 وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَكَثُرَ مَا تُوْجَدُ هَذِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمُسْتَعْمِلِينَ
 لَهَا فِي الْأَشْعَارِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ الَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ
 وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا الْأَشْعَارُ الَّتِي هِيَ
 أَجْزَاؤُهَا بِالْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هَذِهِ أَيْضًا فَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ
 الْأَفْعَالُ بِالْجُمْلَةِ هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الْأَقْوَالُ الَّتِي تُسَمَّى الْإِنْفِعَالِيَّةِ
 وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي إِذَا اسْتَعْمِلْتَ هَذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ. وَذَلِكَ
 أَنَّ هَذِهِ تُرَى الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يُقْصَدُ بِالْقَوْلِ تَثْبِيْثُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

حَتَّى أَغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيَاتِ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ حَتَّى تُنَاجِيَ بِأَحَدِ الْحَمُودِ
وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تَرْبِيهَا قَتَلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَالَسَ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَأَسْتَضْحَكْتُ ثُمَّ قَالَتْ كَأَلْمَغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عَجَلٍ إِذَا انْتَسَبَا
وَأَمَّا الْحُلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ :

دَعَا ذَا وَعَدَ الْقَوْلُ فِي هَرَمٍ
(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي
تَقْدَمُتْ أَحَدَهَا الْإِدَارَةُ . وَالثَّانِي الِاسْتِدْلَالُ . وَالثَّلَاثُ الْإِنْفِعَالُ
(قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هَذِهِ مُحْزَنَةٌ مُفْزَعَةٌ .
وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنْ اثْنَيْنِ مِنْهَا
وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ
الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ
فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يُجَيِّدُ الْقَوْلَ
فِي الْقَصَائِدِ الْمَطُولَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجَيِّدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ
الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تَسْمَى عِنْدَنَا الْمُقَطَّعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا
كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجَيِّدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِجَوَاصِهِ وَعَلَى كُنْهِهِ
وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثَرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

قُلْتُ لَهَا أَرْفَعُهَا إِلَيْكَ وَأَخِيهَا
 بِرُوحِكَ وَأَقْتَسُهُ لَهَا قُتَّةٌ قَدَرًا
 وَظَاهِرٌ لَهَا مِنْ يَابِسِ السَّخْتِ وَأَسْتَعِينَ

عَلَيْهَا الصَّبَا وَأَجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرًا
 وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ مِثْلُ
 الْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتِمَدُّونَ بِهِ وَالْمُتَسَيِّ أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ
 هَذَا الصِّنْفُ مِنَ التَّخْيِيلِ وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذَلِكَ يُحْكِي عَنْهُ
 أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ الْوَاقِعَ الَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ
 وَاجَادَةُ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّشْبِيهِ يَتَأْتِي بِأَنْ يَحْصُلَ لِلإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ
 أَلْعَانِي الَّتِي فِي الشَّيْءِ الَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبُ عَلَى تِلْكَ
 أَلْعَانِي الْأَجْزَاءَ الثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ الشَّعْرِ أَعْنِي التَّخْيِيلَ وَالْوِزْنَ
 وَالْحَنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ الْأَسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا
 أَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى كَثَرَتِهَا وَاخْتِلَافِ الْأَنْحَاءِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ
 يَفْتَنُهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ
 أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ شَبْهًا بِالرِّبَاطِ الْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي
 يُسَمَّى عِنْدَنَا الْأَسْتِطْرَادَ وَهُوَ رِبْطُ جُزْءِ النَّسَبِ وَبِالْجُمْلَةِ صَدْرُ
 الْقَصِيدَةِ بِالْجُزْءِ الْمَدِيحِيِّ. وَالْحُلُّ تَفْصِيلُ الْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخِرِ
 أَيِ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا. وَكَثُرَ مَا يُوجَدُ الرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ الْمُحَدِّثِينَ
 وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

عَامِي وَعَامُ أَلَيْسَ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَنْجُورَةٍ وَتَنُوقَةٍ صَيْجُودِ

الْإِرَادِيَّةُ وَكَثُرَ مَا يُوجَدُ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ فِي الْكِتَابِ
الْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَذْحِ الْأَفْعَالِ الْفَاضِلَةِ وَذَمِّ الْأَفْعَالِ الْغَيْرِ فَاضِلَةٍ
وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ. وَمِثَالُ الْإِدَارَةِ فِي الْمَذْحِ قَوْلُ
الْقُرْآنِ : ضَرَبَ اللَّهُ ثَلَاثًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ .
وَمِثَالُ الْإِسْتِدْلَالِ . قَوْلُهُ : كَيْثُلُ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَائِلٍ آيَةٌ .
(قَالَ) وَاجَادَةُ الْقَصَصِ الشَّعْرِيِّ وَالْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ التَّمَامِ
إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ الشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ الشَّيْءِ أَوْ الْقَضِيَّةِ
الْوَاقِعَةِ الَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرَى السَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مُحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ
إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هَذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْوَصْفِ
وَهَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شَعْرِ النُّحُولِ وَالْمُفْلِقِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ لَكِنْ إِنَّمَا
يُوجَدُ هَذَا النَّحْوُ مِنَ التَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا
فِيمَا الْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ التَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ فِي
النُّجُورِ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُو حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ
فَقَالَتْ سَبَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتَ تَرَى الشُّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهُ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْيِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ بِمَا الْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ التَّشْبِيهِ فَقَطْ
قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ يَصِفُ النَّارَ :

وَسَقَطَ كَمَعَيْنِ الدَّيْكَ عَاوَرْتُ ضَحْبَتِي
أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكُرَا

وَمِنْ آيٍ مَاءٍ كَانَ يَنْتَقِي جِيَادَهُ

وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَرْجٍ الدِّمَاءِ أَلْمَاهِلُ

وَقَوْلِهِ:

لَيْسَنَ الْوُشْيَ لَا مُتَجَبَّلَاتٍ وَلَكِنْ كَيْ يَصْنَّ بِهِ الْجَمَالَ

وَصَفَّرَنَ الْقَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلَكِنْ خَفَنَ فِي الشَّعْرِ الضَّلَالَ

وَهَاهُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ وَهُوَ إِقَامَةُ

الْجَمَادَاتِ مُقَامَ النَّاطِقِينَ فِي مُحَاطَبَتِهِمْ وَمَرَاجَعَتِهِمْ إِذَا كَانَتْ فِيهَا

أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى النُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَادِ لَمَّا رَأَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَانِ حِينَ رَأَيْتِي

فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ حَوَالِيكَ فِي أَمْنٍ وَخَفَضَ زَمَانٍ

فَقَالَ مَضَوْا وَأَسْتَدْعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْحَدَّائِنِ

وَمِنْ هَذَا أَلْبَابِ مُحَاطَبَتِهِمُ الدِّيَارِ وَالْأَظْلَالَ وَجَاوَبْتُهَا لَهُمْ

كَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبَتْهُ تُكَلِّمُنِي أَنْجَارُهُ وَمَلَأْبَهُ

وَقَوْلِ عَنَتَرَةَ:

أَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى تَكَلَّمَ كَالْأَصَمِّ الْأَنْجَمِ

يَا دَارَ عَبْلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلِّمِي وَعَمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةٍ وَأَسْلَمِي

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ يَمَّا يُشَبِّهُ هَذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ

هَذَا الْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ وَذَكَرَ أَنَّ أُوْمَيْرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ

كَثِيرًا (قَالَ) وَالْأَسْتِدْلَالُ الْقَاضِلُ وَالْإِدَارَةُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ

مُطَابَقَةِ التَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَيْئُهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَالنَّوْعُ الْخَامِسُ
هُوَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ السُّوفِسْطَائِيُّونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَهُوَ اَلْعُلُوُّ اَلْكَاذِبُ
وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَانْجَدِثِينَ مِثْلُ قَوْلِ النَّابِغَةِ :
تَقْدُ السَّلَوِيَّ اَلْمَضَاعَفَ تَسْجُهُ وَتَوَقَّدُ بِالصَّقَّاحِ نَارَ اَلْجَبَابِ
وَقَوْلِ الْآخَرِ :

فَاَوْلاَ الرِّيحُ اُسْمِعَ مَنْ يَخْجِرُ صَلِيلَ اَلْيَضْرِ تُقْرِعُ بِاَلذُّكُورِ
وَهَذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ اَبِي الطَّيِّبِ :
عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعْدَائِكَ اَلْقَمَرَانِ
وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ اَلْقَصِيدَةِ :
لَوْ اَلْفَلَكَ اَلدَّوَارُ اَبْغَضْتَ سَيَرَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ اَلدَّوَرَانِ
وَمِنْ هَذَا اَلْبَابِ قَوْلُ اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ :
مِنْ اَلْقَاصِرَاتِ اَلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ

مِنْ اَلدَّرِّ فَوْقَ اَلْاِتِّبِ مِنْهَا لَا ثَرَا
وَهَذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجَدُّ فِي
اَلْكِتَابِ اَلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْءٌ إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هَذَا اَلْجِنْسِ مِنْ
اَلْقَوْلِ أَعْنِي اَلشُّعْرَ مَثَلَةَ اَلْكَلَامِ اَلسُّوفِسْطَائِيِّ مِنْ اَلْبُرْهَانِ
وَلَكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ الشُّعْرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ
اَلْمُتَنَبِّ :

وَآتَى اَهْتَدَى هَذَا اَلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ
وَمَا سَكَنْتَ مُذْ سِرْتَ فِيهَا اَلْقَسَاطِلُ

أَبَى الصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهَيِّجُنِي مَمِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلٌ
 إِذَا مَا يَبَاضُ الصُّبْحُ آنَسْتُ غَوَاهُ يُكَادُنِي جَحْمٌ عَلَيَّ ثَقِيلٌ
 وَهَذَا النَّوعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا
 الْأَجَبَةُ بِالْدِّيَارِ وَالْأَظْلَالِ كَمَا قَالَ :

فَقَا تَبَكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَثَلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ مِنْ
 تَذَكُّرِ الْأَجَبَةِ بِالْخَيَالِ وَأَقَامَتِهِ مُقَامَ الْتَخَيُّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :
 وَإِنِّي لَا سَتَقْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ لَعَلَّ حَيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خَيَالِيَا
 وَآخِرُجُ مِنْ بَيْنِ الْيُبُوتِ لَعَلَّيْ أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا
 وَتَصَرَّفُ الْعَرَبُ وَالْمُحَدِّثِينَ فِي الْخَيَالِ مُتَقَفِّينَ وَانْحَاءِ اسْتِعْمَالِهِمْ
 لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذَلِكَ يُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الشَّعْرِيَّةِ الْخَاصَّةِ
 بِالنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الرِّثَاءِ كَمَا قَالَ النُّجَاشِيُّ :

خَلَا نَاطِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ قِيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقَدْ عَلَى فَقْدِ
 (قَالَ) وَأَمَّا النَّوعُ الرَّابِعُ مِنَ الْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذَكَّرَ أَنَّ
 شَخْصًا مَا شَبَّهَ بِشَخْصٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوعِ بَعَيْنِهِ وَهَذَا التَّشْبِيهُ لَا
 يَكُونُ إِلَّا فِي الْخَلْقِ أَوْ الْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ جَاءَ شَيْءٌ يُوسِفَ
 وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا

وَالْتَّصْرِيحُ بِالتَّشْبِيهِ خِلَافُ التَّشْبِيهِ فَإِنَّ التَّشْبِيهِ هُوَ إِيقَاعُ شَيْءٍ
 وَالتَّصْرِيحُ بِالتَّشْبِيهِ بَيْنَ أَشْيَيْنِ هُوَ تَحْقِيقُ لَوْجُودِ الشَّيْءِ وَهُوَ أَلْغَايَةُ فِي

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلَعَةِ الشَّمْسِ مَا يُفْنِيكَ عَنْ زَحَلٍ
وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوْسَطَ عِنْدَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ
تَهُونَ عَلَيْنَا فِي الْعَالَمِ نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلُ الْمَرْءُ
(قَالَ) وَالنَّوْعُ الثَّلَاثُ مِنَ الْأَخَاكَةِ هِيَ الْأَخَاكَةُ الَّتِي تَقَعُ
بِالتَّذَكُّرِ وَذَلِكَ أَنْ يُورِدَ الشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ
يَرَى الْإِنْسَانَ حَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيِّتًا أَوْ
يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ كَثِيرًا
مِثْلُ قَوْلِ مُتِمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ لَقَبْرِ نَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالِدَ كَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنْ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى دَعَوْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ
وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسِ الْجَنْبُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْحَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَيَّجَ آخِزَانَ الْفَوَادِ وَمَا يَذْرِي
دَعَا بِأَسْمٍ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا

أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ قَوْلُ الْحَسَنَاءِ :

يَذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَادِّكْرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ
وَقَوْلُ الْهَذَلِيِّ :

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ إِمْرِئِ الْقَيْسِ:

قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هَذِهِ أَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَيْءٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يُطْرَحَ وَهَذَا كَثِيرًا مَا يُوْجَدُ فِي أَشْعَارِ الْخُدَّاثِينَ وَبِجَاسَّةٍ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ اللَّامِ

فَإِنَّ أَلْمَاءَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَانْخَفُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ:

كُتِبَ الْمَوْتُ رَائِبًا وَحَلِيًّا

وَكَمَا أَنَّ الْبُعِيدَ الْوُجُودَ هَاهُنَا مُطْرَحٌ كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التَّشْبِيهُ بِالْحَسِيسِ الْوُجُودِ مُطْرَحًا أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ التَّشْبِيهُ بِالْأَشْيَاءِ الْفَاضِلَةِ. فَتَمَّالُ تَشْبِيهِ الشَّرِيفِ بِالْحَسِيسِ قَوْلُ الرَّاجِزِ:
وَالشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلْ فَكَانَهَا فِي الْأَفْقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ
وَكَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ الرُّومُ الشَّقِيُّونَ أَنَّهُمْ سَتَلَقَّاهُمْ يَوْمًا وَتَلَقَّى الدُّمُسْتَقَا

وَكَانُوا كَفَّارَ وَشَوْشَا حَلَفَ حَايِطِ وَكُنْتُ كَسَنُورٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الشِّعْرِ وَهِيَ الْأَشْعَارُ الَّتِي هِيَ فِي بَابِ

التَّضْدِيقِ وَالْإِقْتَاعِ أَدْخَلَ مِنْهَا فِي بَابِ التَّخْيِيلِ وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَى

الْمَثَالَاتِ الْخَطِيئَةِ مِنْهَا إِلَى الْحَاكَاةِ الشَّعْرِيَّةِ وَهَذَا الْجِنْسُ الَّذِي

ذَكَرَهُ مِنَ الشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ السَّكَلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالسَّكَلِ

أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ فِيهَا أَنْ تَكُونَ أَلْحَاكَاهُ لِأَشْيَاءٍ مَحْسُوسَةٍ بِأَشْيَاءٍ
 مَحْسُوسَةٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوقَعَ الشَّكُّ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتُوْهِمُ أَنَّهَا هِيَ
 لَا شَرَاكَهَا فِي أَحْوَالِ مَحْسُوسَةٍ وَذَلِكَ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ لِبَعْضِ
 صُورِ الْكَوَاكِبِ سَرَطَانًا وَلِبَعْضِهَا مُمَسِّكَ الْحَرْبَةِ لِأَنَّهَا مِنْ جِهَةِ
 الشَّكْلِ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أَنَّهَا هِيَ هِيَ. وَجُلُّ تَشْبِيهَاتِ
 الْعَرَبِ رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ. وَلِذَلِكَ كَانَتْ حُرُوفُ التَّشْبِيهِ عِنْدَهُمْ
 تَقْتَضِي الشَّكَّ وَكُلَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُتَوَهَّمَاتُ أَقْرَبَ إِلَى وَقُوعِ
 الشَّكِّ كَانَتْ أَتَمَّ تَشْبِيهًا وَكُلَّمَا كَانَتْ أَبْعَدَ مِنْ وَقُوعِ الشَّكِّ
 كَانَتْ أَنْقَصَ تَشْبِيهًا وَهَذِهِ هِيَ أَلْحَاكَاهُ الْبَعِيدَةُ وَيَنْبَغِي أَنْ
 تُطْرَحَ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَمْرِيءِ الْقَلَيْسِ فِي الْفَرَسِ :

كَأَنَّهَا هِرَاوَةٌ مِنْوَالٍ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

إِذَا أَقْبَلْتُ قُلْتُ دُبَاءَةً مِنْ الْخَضِرِ مَغْمُوسَةٌ فِي الْعُدُرِ
 وَإِنْ أَدْبَرْتُ قُلْتُ أَثْقِيَّةٌ مُلَمَّمَةٌ لَيْسَ فِيهَا أُزْرُ
 وَإِنْ كَانَ هَذَا أَقْرَبَ مِنَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ فِيهِ مُقَابَلَةً مَا. وَمِنْهَا
 أَنْ تَكُونَ أَلْحَاكَاهُ لِأُمُورٍ مَعْنَوِيَّةٍ بِأُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ إِذَا كَانَ لِتِلْكَ
 الْأُمُورِ أَفْعَالٌ مُنَاسِبَةٌ لِتِلْكَ الْمَعَانِي حَتَّى تُوْهِمَ أَنَّهَا هِيَ مِثْلُ
 قَوْلِهِمْ فِي الْمِنَّةِ إِنَّهَا طَوْقُ الْعَنْقِ وَفِي الْإِحْسَانِ قَيْدٌ كَمَا قَالَ أَبُو
 الطَّيِّبِ :

وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

هَذِهِ تَدْخُلُ فِي الْمَذْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ الْأَشْعَارِ
وَالْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِإِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْعَوَائِدِ الَّتِي وَقَعَ
الْمَذْحُ بِهَا كَالْحَالِ فِي خَوَاتِمِ الْخُطْبِ وَأَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ لَا يُورِدُ
فِي شِعْرِهِ مِنَ الْخُحَاكَاةِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْقَوْلِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ
الْخُحَاطِبُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغُلُوِّ وَالْخُرُوجِ
عَنْ طَرِيقَةِ الشِّعْرِ وَلَا إِلَى التَّقْصِيرِ (قَالَ) وَالتَّشْبِيهُ وَالْخُحَاكَاةُ هِيَ
مَدَامُحُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فِي غَايَةِ الْفَضِيلَةِ فَكَمَا أَنَّ الْمَصُورَ الْحَاقِظَ
يُصَوِّرُ الشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ حَتَّى أَنْتَهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ
الْغِيَابَ وَالْكَسَالَى مَعَ أَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ
يَكُونَ الشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاةِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى
يُحَاكِيَ الْأَخْلَاقَ وَأَحْوَالَ النَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذَلِكَ فِي شِعْرِ
لَاوَمِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِزَجَلٍ وَمِنْ هَذَا النَّحْوِ مِنْ
التَّخْيِيلِ أَعْنِي الَّذِي يُحَاكِي حَالَ النَّفْسِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ يَصِفُ
رَسُولَ الرُّومِ الْوَاصِلَ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

أَنَاكَ يَكَادُ الرَّأْسُ يَخْجُرُ عَنْقَهُ وَتَنْقُدُ تَحْتَ الدُّعْرِ مِنْهُ الْمَفَاصِلُ
يُقَرِّمُ تَقْرِيمُ السِّمَاطِينَ مَشِيَهُ إِلَيْكَ إِذَا مَا عَوَّجَتْهُ الْأَفَاكِلُ
(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يُلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَحَاكِيَاتِهِ
الْأَشْيَاءَ الَّتِي جَرَتْ الْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي التَّشْبِيهِ وَالْأَيْتَعَدَى فِي ذَلِكَ
طَرِيقَةُ الشِّعْرِ (قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْأَسْتِدْلَالِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى هَذَا
النَّحْوِ أَعْنِي الْخُحَاكَاةَ الْجَارِيَةَ تَجْرَى الْجُودَةَ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّاعِيِ

وَعَنْ مَعْرُوفِينَ ثُمَّ أَحْسَنَ الْأَسْتِدْلَالَ الَّذِي يَكُونُ فِي هَذِهِ
الْأَفْعَالِ (قَالَ) فَأَمَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ الْأُمُورِ الَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا
الْأَشْعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَوْلًا
كَافِيًا فَأَمَّا أَيُّ الْعَادَاتِ هِيَ الْعَادَاتُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُحَاكَى فِي
الْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ نَقُولَ فِيهَا فنَقُولُ إِنَّ الْعَادَاتِ الَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ
الْمَدْحِ الْحَيِّدِ أَعْنِي الَّذِي يَحْسُنُ مَوْعُظُهَا مِنَ السَّامِعِينَ أَرْبَعَةٌ أَحَدَاهَا
الْعَادَاتُ الَّتِي هِيَ خَيْرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَمْدُوحِ فَإِنَّ الَّذِي يُؤْتَرُ
فِي النَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ الْأَشْيَاءِ الْحَقِّ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَلِكَ الْمَمْدُوحِ
وَكُلُّ جِنْسٍ فِيهِ خَيْرٌ مَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ أَشْيَاءٌ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَالثَّانِيَةُ
أَنْ تَكُونَ الْعَادَاتُ مِنَ الَّتِي تَلِيْقُ بِالْمَمْدُوحِ وَتَضِلُّهُ وَذَلِكَ أَنْ
الْعَادَاتِ الَّتِي تَلِيْقُ بِالْمَرْأَةِ لَيْسَتْ تَلِيْقُ بِالرَّجُلِ. وَالثَّالِثَةُ أَنْ تَكُونَ
مِنَ الْعَادَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ
الشَّبهِ وَالْمُوَافَقَةِ. وَالرَّابِعَةُ أَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْأَطْرَافِ
وَأَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَوَائِدَ الرَّذَلَةَ لَيْسَ مِمَّا يُمدَحُ بِهَا
وَكَذَلِكَ الْعَوَائِدُ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِالْمَمْدُوحِ وَإِنْ كَانَتْ جَيَادًا وَكَذَلِكَ
الْعَوَائِدُ اللَّائِقَةُ إِذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ فِيهَا مِنَ الشَّبَاهَةِ
أَوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوَافَةً وَالْعَوَائِدُ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى الْخَلْقِ الْخَيْرِ
الْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذَلِكَ فِي
الْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهَذَيْنِ وَالْعَوَائِدُ الْجَيَادُ إِمَّا حَقِيقَةٌ
وَأَمَّا شَبِيهَةٌ بِالْحَقِيقَةِ وَإِمَّا مَشْهُورَةٌ أَوْ شَبِيهَةٌ بِالْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

الرَّحْمَةُ وَالْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ عَلَى ذَلِكَ إِذَا التَّمَسَّ أَيَّ
 الْأَشْيَاءِ هِيَ الصَّعْبَةُ مِنَ النَّوَائِبِ الَّتِي تُثَوِّبُ وَآيَ الْأَشْيَاءِ هِيَ
 الْأَشْيَاءُ الْيَسِيرَةُ أَلْهِيَّةُ الَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كِبَرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٌ
 وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِالْأَضْدِقَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
 مِنْ قَبْلِ الْإِرَادَةِ مِنَ الرِّزَايَا وَالْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِالْأَعْدَاءِ
 بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ
 مِنَ السُّوءِ بِالْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ السُّوءِ النَّازِلِ
 بِالصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذَلِكَ أَلَمْ فَلَيْسَ
 يَلْحَقُ مِثْلُ أَلَمْ الَّذِي يَلْحَقُ مِنَ السُّوءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ الْحَبِيبِ
 بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَمِثْلُ قَتْلِ الْإِخْوَةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ الْأَبَاءِ
 أَوْ الْأَبْنَاءِ أَوْ الْأَبَاءِ وَلِهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي
 أَنَبِيهِ فِي غَايَةِ الْأَقَاوِيلِ الْمَوْجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَالْخَوْفِ (قَالَ) وَالْمَذْحُ إِنَّمَا
 يَلْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالْأَفْعَالِ الْقَاضِيَةِ الَّتِي تَصُدُّ عَنْ إِرَادَةِ وَعِلْمٍ
 لِأَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةِ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ
 إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ
 لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا
 يَعْرِفُ فَالْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي
 بَابِ الْمَدِيحِ وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ
 حَيْثُذِي فِي الْأَكْثَرِ ذُوبَاتٍ أُدْخِلَ مِنْهُ فِي الشَّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ
 يُحَاكِيَ. وَأَمَّا الْأَفْعَالُ الَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَالْأَعْدَاءُ. وَأَمَّا عَدُوُّ الْعَدُوِّ أَوْ صَدِيقُ الصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذَكَّرُ لَا فِي الْمَذْحِ وَلَا فِي الذَّمِّ. إِذَا كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْخُرَاقَةُ الْخُفِيَّةُ الْخُزْنَةُ مَخْرُجًا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ الْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وَقُوعِ التَّصَدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْخُرَاقَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ مَخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ الْفِعْلَ الْمَقْصُودَ بِهَا وَذَلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ الْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهَذَا الَّذِي ذُكِرَ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِالْقَصَصِ الشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَادِلَ لِأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِالطَّبَعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ أَمَّا قَوْلِي بُرْهَانِي وَإِمَّا قَوْلِي لَيْسَ بُرْهَانِيَا. وَهَذَا الصَّنْفُ الْحَسِيسُ مِنَ النَّاسِ قَدْ عَدِمَ التَّحَرُّكُ عَنْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي الْمَدَائِحِ مُحَاكَاتَ أَشْيَاءٍ يُقْصَدُ بِهَا التَّعْجِبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُحِيقَةً وَلَا مُحْزَنَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلَّهَا كَثِيرًا فِي الْمَكْتُوباتِ الشَّرْعِيَّةِ إِذَا كَانَتْ مَدَائِحُ الْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هَذَا فِي السُّنَنِ الْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهَذَا الْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ الشُّعْرِ أَيُّ لَذَّةٍ اتَّفَقَتْ لَكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ الْإِلْتِذَاذِ بِتَحْقِيلِ الْفَضَائِلِ وَهِيَ اللَّذَّةُ الْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَفْعَلُ اللَّذَاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذَلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَلْحَقُ بِهَا الْإِلْتِذَاذُ بِمُحَاكَاتِهَا

بَيْنَ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ الْوَاجِبِ . وَالْخَوْفُ إِنَّمَا يَخْدُثُ عِنْدَ
 ذِكْرِ هَذِهِ مِنْ قَبْلِ تَحْيِيلِ وَقُوعِ الضَّارِّ بَيْنَ هُوَ ذَوْنُهُمْ أَغْنَى بِنَفْسِ
 السَّامِعِ . إِذَا كَانَ آخَرَى بِذَلِكَ وَالْحُزْنَ وَالرَّحْمَةَ إِنَّمَا تَخْدُثُ عِنْدَ هَذِهِ
 مِنْ قَبْلِ وَقُوعِهَا بَيْنَ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ الْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا
 يُوقِعُ فِي النَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَائِهَا وَلَا رَحْمَةً وَحُبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ
 يُرِيدُ أَنْ يَحْثَّ عَلَى الْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ
 الَّتِي تَبْعَثُ الْحُزْنَ وَالْخَوْفَ وَالرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذَلِكَ الْمَدَامِخُ الْحَسَنُ
 الْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ الشَّغْرِ هِيَ الْمَدَامِخُ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هَذَا التَّرَكِيبُ
 أَغْنَى ذِكْرَ الْفَضَائِلِ . وَالْأَشْيَاءُ الْخُزْنَةُ الْخُزْنَةُ وَالْمُرَقَّةُ (قَالَ) وَلِذَلِكَ
 يُخْطِئُ الَّذِينَ يُلَوِّمُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شَعْرِهِ هَذِهِ الْخُرَاقَاتِ
 وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ فِي الْمَدَامِخِ أَنَّ صِنَاعَةَ الْمَدَامِخِ
 الْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا الْمَغْضِبَاتُ وَالْمَغْضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبِّ
 شَدِيدٍ لِلِاتِّقَامِ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَذِكْرُ الرَّايَا وَالْمَصَائِبِ
 النَّازِلَةِ بِأَهْلِ الْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ قَوَاتِ
 الْفَضَائِلِ . فَأَمَّا مُحَاكَاةُ النَّقَائِصِ فِي الْمَدَامِخِ فَقَدْ يَدْخُلُهَا قَوْمٌ فِيهَا
 لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ الْإِدَارَةِ لَكِنَّ مُنَاسِبَةً دَمِ النَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ
 النِّجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ الْمَدَامِخِ . وَلِذَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَحْيِيلُهَا
 فِي الْمَدَامِخِ عَلَى الْقَصْدِ الْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قَبْلِ الْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ
 الشَّغْرُ الْمَدَامِخِيُّ تُذَكَّرُ فِيهِ النَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ
 الْأَعْدَاءِ الْمُبْغِضِينَ وَالْمَدَامِخِ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَعْمَالِ الْأَوْلِيَاءِ

أَخْرَجْنَا بِهَا. فَأَمَّا مِنْ أَيْ الْمَوَاضِعِ يُمَكِّنُ عَمَلُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ فَتَحْنُ
 مُخْبِرُونَ عَنْهَا بَعْدُ وَمُضِيفُونَ ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ (قَالَ) وَيَتَّبِعِي كَمَا
 قِيلَ أَنْ لَا يَكُونَ تَرْكِبُ الْمَدَائِحِ مِنْ مُحَاكَاةٍ بَسِيطَةٍ بَلْ مَخْلُوطَةٍ
 مِنْ أَنْوَاعِ الْإِسْتِدْلَالَاتِ وَأَنْوَاعِ الْإِدَارَةِ وَمِنْ الْمُحَاكَاةِ الَّتِي تُوجِبُ
 الْإِنْفِعَالَاتِ الْخَفِيفَةِ الْخَرَكَةَ الْمُرَقَّةَ لِلنَّفُوسِ وَذَلِكَ أَنَّهُ يُجِبُ أَنْ
 تَكُونَ الْمَدَائِحُ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الْحُثُّ عَلَى الْفَضَائِلِ مُرَكَّبَةً مِنْ
 مُحَاكَاةِ الْفَضَائِلِ وَمِنْ مُحَاكَاةِ أَشْيَاءَ مُحَوَّصَةٍ مُخْزَنَةٍ يُتَجَمَّعُ لَهَا وَهِيَ الشَّقَاوَةُ
 الَّتِي تَحْتَقُ مِنْ عَدَمِ الْفَضَائِلِ لَا بِاسْتِيْهَالٍ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ
 يَشْتَدُّ تَحْرُكُ النَّفْسِ لِقَبُولِ الْفَضَائِلِ فَإِنْ أُنْتَقَالَ الشَّاعِرُ مِنْ مُحَاكَاةِ
 فَضِيلَةٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَضِيلَةٍ أَوْ مِنْ مُحَاكَاةِ فَاضِلٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَاضِلٍ
 لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَمَّا يَحُثُّ الْإِنْسَانَ وَيُزَجِّجُهُ إِلَى فِعْلِ الْفَضَائِلِ إِذَا
 كَانَ لَيْسَ يُوجِبُ مَحَبَّةَ لَهَا زَائِدَةً وَلَا خَوْفًا. وَالْأَقَاوِيلُ الْمَدِيحِيَّةُ
 يُجِبُ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا هَذَانِ الْأَمْرَانِ وَذَلِكَ يَكُونُ إِذَا أُثْقِلَ مِنْ
 مُحَاكَاةِ الْفَضَائِلِ إِلَى مُحَاكَاةِ الشَّقَاوَةِ وَرَدَّاءَةِ الْبُخْتِ النَّازِلَةِ بِالْأَفَاضِلِ
 أَوْ أُثْقِلَ مِنْ هَذِهِ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ الْفَضَائِلِ فَلَنْ هَذِهِ الْمُحَاكَاةُ
 تُرَقُّ النَّفُوسَ وَتَدْعُجُهَا إِلَى قَبُولِ الْفَضَائِلِ وَأَنْتَ تَجِدُ أَكْثَرَ الْمُحَاكَاةِ
 الْوَاقِعَةِ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى هَذَا الْخَوِ الَّذِي ذُكِرَ إِذْ
 كَانَتْ تِلْكَ هِيَ أَقَاوِيلُ مَدِيحِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى الْعَمَلِ مِثْلُ مَا وَرَدَ
 مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تُسَمَّى
 مَوَاعِظَ (قَالَ) وَإِنَّمَا تَحْدُثُ الرَّحْمَةُ وَالرِّقَّةُ بِذِكْرِ حُدُوثِ الشَّقَاوَةِ

البحث السادس

Τραγῶδια

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَأَمَّا أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ مِنْ بَابِ الْكِيفِيَّةِ فَقَدْ
تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَأَمَّا أَجْزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ الْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي أَنْ تَتَكَلَّمَ
فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَجْزَاءَ خَاصَّةً بِأَشْعَارِهِمْ وَالَّذِي يُوجَدُ
مِنْهَا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . الْجُزْءُ الَّذِي يَجْرِي عَنْدهُمْ مَجْرَى
الصَّدْرِ فِي الْخُطْبَةِ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ الدِّيَارَ وَالْأَثَارَ
وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَالْجُزْءُ الثَّانِي الْمَدْحُ . وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ الَّذِي يَجْرِي مَجْرَى
الْحَاطَةِ فِي الْخُطْبَةِ وَهَذَا الْجُزْءُ أَكْثَرُ مَا هُوَ عَنْدهُمْ إِمَّا دُعَاءُ
لِلْمَمْدُوحِ وَإِمَّا فِي تَقْرِيزِ الشَّعْرِ الَّذِي قَالَهُ وَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ أَشْهُرُ
مِنْ هَذَا الْآخِرِ وَلِذَلِكَ يُسَمُّونَ الْإِتِّقَالَ مِنْ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ إِلَى
الثَّانِي أَسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اتَّوَا بِالْمَدِيحِ دُونَ صَدْرِ . مِثْلُ قَوْلِ أَبِي
تَمَّامٍ :

لَهَا عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعُودَا

وَلَا فَرَعٍ مِنْ تَعْدِيدِ أَجْزَاءِ الشَّعْرِ عَنْدهُمْ (قَالَ) فَأَمَّا أَجْزَاءُ
صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الْكِيفِيَّةِ وَالَّتِي مِنْ جِهَةِ الْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

أَوْ تَرَكْ بَلْ مِنْ جَهَةِ التَّخْيِيلِ قَطُّ أَغْنَى الْمَطَابَقَةَ . وَهَذَا النَّوعُ مِنْ
الْإِسْتِدْلَالِ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَشْعَارِ الْعَرَبِ أَغْنَى
الْإِسْتِدْلَالَ وَالْإِدَارَةَ فِي غَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:
كَمْ زَوْرَةٌ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةٍ

أَذْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ الذَّيْبِ
أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي

وَأَنْشَى وَيَاسُ الصُّبْحُ يُغْرِي بِي
فَإِنَّ أَلْبَيْتَ الْأَوَّلَ هُوَ اسْتِدْلَالٌ . وَالثَّانِي إِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ
هَذَانِ الْبَيْتَانِ صَنَفِي الْحِكَاةَ كَمَا فِي عَايَةٍ مِنَ الْحُسْنِ (قَالَ)
وَالْإِسْتِدْلَالُ الْإِنْسَانِي وَالْإِدَارَةُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي الطَّلَبِ
وَالْهَرَبِ وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ هُوَ الَّذِي يُشِيرُ فِي النَّفْسِ
الرَّحْمَةَ تَارَةً وَالْخَوْفَ تَارَةً وَهَذَا هُوَ الَّذِي نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ الْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَمِيلَةِ وَهَجْرِ الْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهَذَانِ
الْجُزْءَانِ اللَّذَانِ أَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَهَاهُنَا جُزْءُ
ثَلَاثٍ وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي يُؤَلِّدُ الْإِنْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَغْنَى انْفِعَالَاتِ
الْخَوْفِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ الْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا
النَّازِلَةِ بِالنَّاسِ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هِيَ الَّتِي تَبْعُثُ الرَّحْمَةَ وَالْخَوْفَ
وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْحَثِّ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ
الْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتُهَا فِي الْحَاكَاةِ
الْبَسِيطَةِ الْغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِنَّمَا تَكُونُ جُودَتُهَا فِي نَفْسِ
النَّشِيهِ وَالْحَاكَاةِ وَذَلِكَ أَنَّ الْحَالَ فِي النَّشِيهِ كَالْحَالَ فِي الْأَعْمَالِ
فَكَمَا أَنَّ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يُبَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ وَمِنْهَا مَا يُبَالُ
بِفِعْلِ مُرَكَّبٍ كَذَلِكَ الْأَنْزُ فِي الْحَاكَاةِ. وَالْحَاكَاةُ الْبَسِيطَةُ هِيَ
الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعِي التَّخْيِيلِ أَعْنِي النَّوْعَ الَّذِي يُسَمَّى
الْإِدَارَةَ أَوْ النَّوْعَ الَّذِي يُسَمَّى الْأَسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا الْحَاكَاةُ
الْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا الصِّفَانِ جَمِيعًا وَذَلِكَ إِمَّا بِأَنْ
يُبْتَدَأَ بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأُ
بِالْأَسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الْإِدَارَةِ وَالْإِعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْدَأَ
بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَثِيرٌ بَيْنَ أَنْ
يُبْدَأَ أَوَّلًا بِالْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْدَأَ بِالْأَسْتِدْلَالِ
ثُمَّ يُنْقَلُ إِلَى الْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَعْنِي بِالْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ
الْمَقْصُودِ مَذْحُهُ أَوَّلًا بِمَا يُنْفِرُ النَّفْسَ عَنْهُ ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى
مُحَاكَاةِ الْمَدْحِ نَفْسِهِ مَثَلًا إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ السَّعَادَةَ
وَأَهْلَهَا أَتَبَدَأُ أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ الشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ أُنْقَلُ إِلَى مُحَاكَاةِ
أَهْلِ السَّعَادَةِ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكَى بِهِ أَهْلَ الشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا
الْأَسْتِدْلَالَ فَهُوَ مُحَاكَاةُ الشَّيْءِ فَقَطْ (قَالَ) وَأَحْسَنُ الْأَسْتِدْلَالِ
مَا خُطِبَ بِالْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْأَسْتِدْلَالُ وَالْإِدَارَةُ فِي
الْأَشْيَاءِ الْغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي الْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةٍ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

وَالْحَاكَاةُ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ التَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ
وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ الْأُمُورَ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ
وَقَدْ يُحَاكِي الْأُمُورَ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمَكِّنَةُ الوجودِ وَهُوَ فِي
ذَلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ مِنْ قَبْلِ
أَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَنْعِي أَنْ تُوْجَدَ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ الْأَشْيَاءِ
الَّتِي هِيَ الْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي التَّخْيِيلِ الشَّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ
هَذِهِ الْخُرَافَاتِ الْخَفَرَةِ وَلَا أَيْضًا يَحْتَاجُ الشَّاعِرُ الْمُفْلِقُ أَنْ تَمَّ
مُحَاكَاتُهُ بِالْأُمُورِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَآخِذًا
بِالوجودِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ الْمَوْتُ هُونَ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَعْنِي
الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعْرَاءُ وَلَيْسُوا شُعْرَاءَ . وَأَمَّا الشُّعْرَاءُ بِالْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ
يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ اسْتِعْمَالَ شُعْرَاءِ
الزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا الشُّعْرَاءَ الْحَيِّدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا . وَقَدْ
يُضْطَرُّ الْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِاسْتِعْمَالِ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْ
عُمُودِ الشَّعْرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحْكَاكَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
لِلْأَشْيَاءِ الْكَامِلَةِ الَّتِي تُمَكِّنُ مُحَاكَاتَهَا عَلَى التَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءٍ نَاقِصَةٍ
تَعْسُرُ مُحَاكَاتَهَا بِالْقَوْلِ فَيَسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ
وَبِجَازَةِ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ الْإِعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ
لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تَمَرَّجَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ
بِالْمُحَاكَاتِ الشَّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَمَا تَبَيَّنَ بِاتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا
فِعْلٌ مُغْجِبٌ إِذَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِاتِّفَاقٍ مُغْجِبَةٍ

قَالَ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي الشِّعْرِ الَّذِي يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَمْرُ
الطَّبِيعِيُّ لِلْأَمْرِ الطَّبِيعِيِّ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ الْأَشْيَاءُ الْمُحَاكِمَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا
أَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ الْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ التَّحْرِيكِ إِلَى الْأَفْعَالِ
الْإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ الْأَفْعَالُ مُمَكِّنَةً كَانَ الْإِقْتَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ
وَقُوْعًا أَغْنَى التَّصَدِيقَ الشِّعْرِيَّ الَّذِي يُحْرِكُ النَّفْسَ إِلَى الطَّلَبِ
وَالْهَرَبِ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْغَيْرُ الْمَوْجُودَةُ فَلَيْسَ تَوْضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْمَاءٌ
فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلُّ ذَلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمُ الْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ
يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْبِقُونَ فِي مَذْجِهِ. وَهَذَا النَّحْوُ مِنْ
التَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنَفْعَةٌ غَيْرُ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ
ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمُخْتَرَعِ وَأَنْفِعَالَاتِهِ لِلْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ
يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ فَإِنَّ هَذَا النَّحْوَ مِنَ التَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ
جَمِيعَ الطَّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. وَمَنْ
جَدَّ مَا فِي هَذَا الْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الْحَثِّ عَلَى
الْفَضِيلَةِ قَوْلُ الْأَعَشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتَ عُيُونُ نَوَاطِرُ إِلَى صَوْدِ نَارٍ بِالْإِقْقَاعِ تُحْرِقُ
تُشَبُّ لِقَرُودَيْنِ يَضْطَلِبَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ الْأَنْدَى وَالْحَلَقُ
رَضِيعِي لِبَانِ ثَدْيِي أَمْ تَحَاكَلَا بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ
وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا
بِعَمَلِ الْخُرَافَاتِ وَالْأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ التَّشْبِيهِ

أَعْنِي أَنْ تَكُونَ إِنَّمَا تَفْعَلُ جَمِيعَ مَا تَفْعَلُهُ مِنْ أَجْلِ غَرَضٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ
 وَاحِدَةٍ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ التَّشْبِيهُ وَالْحَاكَاةُ
 لِوَاحِدٍ وَمَقْصُودًا بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ وَأَنْ يَكُونَ لِأَجْزَائِهِ عِظَمٌ مُحَدِّدٌ
 وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مَبْدَأٌ وَوَسْطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ الْوَسْطُ أَفْضَلَهَا
 فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وَجُودُهَا فِي التَّرْتِيبِ وَحُسْنِ النِّظَامِ إِذَا عَدِمَتْ
 تَرْتِيبَهَا لَمْ يُوجَدْ لَهَا الْفِعْلُ الْخَاصُّ بِهَا. (قَالَ) وَظَاهِرٌ أَيْضًا مِمَّا قِيلَ مِنْ
 مَقْصِدِ الْأَقْوَالِ لِلشَّعْرِيَّةِ أَنَّ الْحَاكَاةَ الَّتِي تَكُونُ بِالْأُمُورِ الْمُخْتَرَعَةِ
 الْكَاذِبَةُ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الشَّاعِرِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى أَمثَالًا وَقِصَصًا مِثْلُ مَا
 فِي كِتَابِ دِمْنَةٍ وَكَلِيمَةٍ. لَكِنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِي الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ أَوْ
 الْمُمْكِنَةِ الوجودِ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُقْصَدُ الْهَرَبُ عَنْهَا أَوْ طَلِبُهَا أَوْ
 مُطَابَقَةُ التَّشْبِيهِ لَهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي فُصُولِ الْحَاكَاةِ. وَأَمَّا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الْأَمْثَالَ وَالْقِصَصَ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ غَيْرُ عَمَلِ الشُّعْرَاءِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْمَلُونَ
 تِلْكَ الْأَمْثَالَ وَالْأَحَادِيثَ الْمُخْتَرَعَةَ بِكَلَامٍ مَوْزُونٍ. وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّيْهِمَا
 وَإِنْ كَانَا يَشْتَرِكَانِ فِي الْوِزْنِ فَاحَدُهُمَا يَتِمُّ لَهُ الْعَمَلُ الَّذِي قَصَدَهُ
 بِالْخُرَافَةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَوْزُونَةً وَهُوَ التَّعَقُّلُ الَّذِي يُسْتَفَادُ مِنَ الْأَحَادِيثِ
 الْمُخْتَرَعَةِ وَالشَّاعِرُ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ عَلَى التَّمَامِ مِنَ التَّخْيِيلِ إِلَّا
 بِالْوِزْنِ فَالْفَاعِلُ لِلْأَمْثَالِ الْمُخْتَرَعَةِ وَالْقِصَصِ إِنَّمَا يَخْتَرَعُ أَشْخَاصًا لَيْسَ
 لَهَا وَجُودٌ أَصْلًا وَيَضَعُ لَهَا أَسْمَاءً وَأَمَّا الشَّاعِرُ فَإِنَّمَا يَضَعُ أَسْمَاءً لِأَشْيَاءٍ
 مَوْجُودَةٍ وَرَبَّمَا تَكَلَّمُوا فِي الْكَلِمَاتِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ صِنَاعَةُ
 الشُّعْرِ أَقْرَبَ إِلَى الْفَلَسَفَةِ مِنْ صِنَاعَةِ اخْتِرَاعِ الْأَمْثَالِ وَهَذَا الَّذِي

الْعَادَةُ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ إِذَا كَانُوا إِنَّمَا يَفْتَمِدُونَ الصَّائِرَ فَقَطْ وَإِمَّا
 بِتَأْخِيلِ الْأَيَّامِ كَالْحَالِ عِنْدَنَا إِذَا كَانَ الْمُعْتَمِدُ فِي الْخُصُومَاتِ عِنْدَنَا
 إِنَّمَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الْمُفْقَعَةُ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذَلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ
 الْمَدِيحِ بِالْمُنَظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانٍ الْمُنَظَرَةِ
 بِسَاعَاتِ الْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ
 يَكُونَ لِصِنَاعَةِ الشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَالْحَالِ فِي الْأَقْدَارِ الطَّبِيعِيَّةِ
 لِلْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ الْمُتَكَوِّنَاتِ إِذَا لَمْ يَعْهَظْ
 فِي حَالِ الْكَوْنِ سُوهُ أُلْبِغَتْ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مُخْدُودٍ بِالطَّبْعِ
 كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْحَالُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي
 صِنْفِي الْمُحَاكَاةِ أَعْنِي الَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ الضِّدِّ إِلَى الضِّدِّ أَوْ
 يُحَاكِي فِيهَا الشَّيْءُ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا
 يُحَسِّنُ بِهِ قَوَامُ الشِّعْرِ أَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي
 تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ الْمَقْصُودِ بِالشِّعْرِ فَإِنَّ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ تَعْرِضُ
 لَهُ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ الْوَاحِدِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ
 كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ الشُّعْرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهَذَا بَلْ
 يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا
 عَدَا أُوْمِيْرُوشَ. وَأَنْتَ تَحْدُثُ هَذَا كَثِيرًا مَا يَعْْرِضُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ
 وَأَتَحَدَّثُثُ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ الْمَدْحِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ
 أَسْبَابِ الْمَدْحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ اسْتَعْلَوْا بِمُحَاكَاتِهِ وَأَضْرَبُوا
 عَنْ ذِكْرِ الْمَدْحِ وَبِالْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الصِّنَاعَةُ تَنْشَبُ بِالطَّبِيعَةِ

يَكُونُ الْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا أَيْ خِيَارًا فِي التَّرْكِيبِ وَالتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ
وَفِي الْقَدَارِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ
أَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ
وَسَطًا فِي الْقَدَارِ وَكَذَلِكَ يَجِبُ فِي الْجُمْلَةِ الْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ
بِقَدَرٍ مَحْدُودٍ لِأَنْ تَكُونَ بِأَيِّ عِظَمٍ اتَّفَقَ ذَلِكَ أَنَّ الْجُودَةَ فِي
الْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قَبْلِ شَيْئَيْنِ أَحَدُهُمَا التَّرْتِيبُ وَالثَّانِي الْقَدَارُ
وَلِهَذَا لَا يُقَالُ فِي الْحَيَوَانِ الصَّغِيرِ الْجُثَّةُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى اشْتِخَاصِ
نَوْعِهِ إِنَّهُ جَيِّدٌ. وَالْحَالُ فِي الْخَاطِبَةِ الشَّعْرِيَّةِ فِي ذَلِكَ كَالْحَالِ فِي
التَّعْلِيمِ الْبَرْهَانِيِّ أَعْنِي أَنَّ التَّعْلِيمَ إِنْ كَانَ قَصِيرَ الْمُدَّةِ لَمْ يَكُنْ
أَفْهَمُ جَيِّدًا وَلَا إِنْ كَانَ أَطْوَلَ بِمَا يَنْبَغِي لِأَنَّهُ يَلْحَقُ التَّعْلِيمَ فِي
ذَلِكَ النَّسِيَانُ وَالْحَالُ فِي ذَلِكَ كَالْحَالِ فِي النَّظَرِ إِلَى الْخُشُوسِ
أَعْنِي أَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْخُشُوسِ إِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا إِذَا كَانَ بَيْنَ
النَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا إِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جَدًّا وَلَا إِذَا
كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جَدًّا. وَالَّذِي يَعْزُضُ فِي التَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْزُضُ فِي
الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ
أَجْزَاءَ الْمَدِيحِ وَإِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ تُحَقِّظَ فِي ذِكْرِ
السَّامِعِينَ أَجْزَائُهَا فَيَعْزُضُ لَهُمْ إِذَا سَمِعُوا الْأَجْزَاءَ الْآخِرَةَ أَنْ
يَكُونُوا قَدْ نَسُوا الْأَوَّلَى وَأَمَّا الْأَقَاوِيلُ الْخُطِيبِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي
الْمُنَاطَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدَرٌ مَحْدُودٌ بِالطَّبَعِ. وَلِذَلِكَ أَحْتَاجَ النَّاسُ أَنْ
يُقَدِّرُوا زَمَانَ الْمُنَاطَرَةِ بَيْنَ الْخُصُومِ أَمَّا بِأَلَةِ الْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَلَاذَ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ وَمِمَّاذَا تَلْتِمُ وَكَمْ أَجْزَاؤُهَا
وَمَا هِيَ فَلْتَقُلْ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ الْأُمُورِ الَّتِي
يَتَقَوَّمُ بِهَا الشَّعْرُ . فَإِنَّ أَقُولَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ضَرْوِيٌّ فِي صِنَاعَةِ
الْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بَمَثَرَةِ الْمَبْدَأِ وَذَلِكَ أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي
تَتَقَوَّمُ مِنْهَا الصَّنَائِعُ صِنْفَانِ أُمُورٌ ضَرْوِيَّةٌ وَأُمُورٌ تَكُونُ بِهَا
أَتَمٌّ وَأَفْضَلُ فَنَقُولُ إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ الْمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً
إِغَايَاتٍ فَعَلِهَا آغِي أَنْ تَبْلُغَ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْخَلْكَاءِ الْغَايَةَ الَّتِي فِي
طِبَاعِهَا أَنْ تَبْلُغَهَا وَذَلِكَ يَكُونُ بِأَشْيَاءٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ
عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كَلَامًا وَكَامِلَةً وَالْأَكْلُ وَالْكَوْلُ هُوَ مَا
كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَالْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
مَعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ لَهَا مَبْدَأٌ وَالْآخِرُ هُوَ مَعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ لَهَا
آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَالْوَسَطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ
إِذَا كَانَ الْوَسَطُ فِي الْمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَإِنَّ الشُّجْعَانَ هُمُ الَّذِينَ
مَكَانُهُمْ فِي الْحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ الْجَبْنَاءِ وَالْمُتَهَوِّدِينَ وَهُوَ الْمَكَانُ
الْوَسَطُ وَكَذَلِكَ أَحَدُ الْفَاضِلِ فِي التَّرْكِيبِ هُوَ الْوَسَطُ وَهُوَ الَّذِي
يَتَرَكَّبُ مِنَ الْأَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ الْأَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ

إِنَّ الَّذِي يَحْتَ عَلَى الْعَادَةِ يَحْتَ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى الْهَرَبِ مِنْ
 شَيْءٍ وَالْقَوْلَ الَّذِي يَحْتَ عَلَى الْإِعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحْتَ عَلَى أَنَّ شَيْئًا
 مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَالْجُزْءُ
 الرَّابِعُ لِهَذِهِ الْأَجْزَاءِ أَغْنِي لِلتَّالِيِ لِلثَّلَاثِ هُوَ الْوِزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ أَنْ
 يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْعَرَضِ قُرْبَ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا
 آخَرَ. وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ فِي الْمُرْتَبَةِ هُوَ اللَّحْنُ وَهُوَ أَعْظَمُ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ
 تَأْثِيرًا وَأَفْعَلَهَا فِي النَّفْسِ. وَالْجُزْءُ السَّادِسُ هُوَ النَّظَرُ أَغْنِي الْإِخْتِجَاجَ
 لِصَوَابِ الْإِعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ الْعَمَلِ لَا يَقُولُ إِقْنَاعِي فَإِنَّ ذَلِكَ
 غَيْرُ مُسْلِمٍ. لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ بَلْ يَقُولُ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ الشَّعْرِ لَيْسَتْ
 مَبْنِيَّةً عَلَى الْإِخْتِجَاجِ وَالْمُطَافَةِ وَبِخَاصَّةِ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَلِذَلِكَ لَيْسَ
 يَسْتَعْمِلُ الْمَدِيحُ صِنَاعَةَ التَّفَاقُقِ وَالْأَخْذِ بِالْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا
 الْخَطَّابَةُ. (قَالَ) وَالصَّنَاعَةُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي تُعَرَفُ بِمَاذَا تُعْمَلُ
 الْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَمْ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ الْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ
 تُؤَقَّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ الصَّنَاعَةِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرَأْسُ مَا تَحْتَهَا



كُلِّ مُحَاكَاةٍ قَامًا أَنْ تُوْطَىٰ لِحَاكَاةٍ مُحَاكَاةٍ ضِدِّهِ ثُمَّ يُثَقَّلُ مِنْهُ إِلَىٰ
 مُحَاكَاةٍ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِالْإِدَارَةِ وَإِنَّمَا أَنْ يُحَاكِي
 الشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْزِضَ لِحَاكَاةٍ ضِدِّهِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ
 يُسَمَّوْهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ . وَالَّذِي يَتَذَلُّ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ مِثْلَ
 الْمَبْدِ وَالْأَسِّ هُوَ الْقَوْلُ الْخُرَافِيُّ الْمُحَاكِي . وَالْجُزْءُ الثَّانِي الْعَادَاتُ
 وَهُوَ الَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ الْمُحَاكَاةُ أَغْنَىٰ عَنْهُ الَّذِي يُحَاكِي
 وَإِنَّمَا كَانَتْ الْحِكَاةُ هِيَ الْعُمُودَ وَالْأَسَّ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِأَنَّ
 الْإِتِّدَادَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ الْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكِي
 بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ الْإِتِّدَادُ بِهِ وَالْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ . وَلِذَلِكَ
 لَا يَلْتَذُّ الْإِنْسَانُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ صُورِ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ
 بِمُحَاكَاةِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِالْأَصْبَاحِ وَالْأَلْوَانِ وَلِذَلِكَ أَسْتَعْمَلَ النَّاسُ
 صِنَاعَةَ الزَّرَاقَةِ وَالتَّصْوِيرِ . وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ الْمَدِيحِ أَغْنَىٰ الثَّانِي
 لِلثَّانِي هُوَ الْإِعْتِقَادُ وَهَذَا هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ
 كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا . وَذَلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ الْخَطَابَةُ مِنْ
 تَبْيِينِ أَنْ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنْ الْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ
 ذَلِكَ بِقَوْلٍ مُقْتَضٍ وَالشَّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهَذِهِ الْمُحَاكَاةُ هِيَ أَيْضًا
 مَوْجُودَةٌ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ . (قَالَ) وَقَدْ كَانَ الْأَقْدَمُونَ مِنْ
 وَاضِعِي السِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ تَمْكِينِ الْإِعْتِقَادَاتِ فِي الْأَنْفُسِ
 بِالْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ حَتَّىٰ شَعَرَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِالطَّرْقِ الْخَطِيئَةِ وَالْفَرْقِ
 بَيْنَ الْقَوْلِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي يُحْتَضَرُ عَلَىٰ الْإِعْتِقَادِ وَالَّذِي يُحْتَضَرُ عَلَىٰ الْعَادَةِ .

مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهَذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ
 فَأَلْقَصَاصُ وَالْخَدِثُونَ بِالْجُمْلَةِ هُمْ الَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ
 الْعَادَاتِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 سِتَّةَ : الْأَقَاوِيلُ الْخُرَافِيَّةُ وَالْعَادَاتُ وَالْوَزْنُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ
 وَاللَّحْنُ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شَعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهِ
 وَمُشَبَّهِ بِهِ وَالَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ أَلْحَاكَاهُ وَالْوَزْنُ وَاللَّحْنُ وَالَّذِي
 يُشَبَّهُ فِي الْمَذْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا: الْعَادَاتُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ أَغْنَى
 الْأَسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ الْإِعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ
 ضَرْبُورَةً سِتَّةَ. وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَادَاتُ وَالْإِعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ
 الْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ الْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةُ تَحَاكِي النَّاسِ أَنْفُسَهُمْ
 مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مُحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تَحَاكِيهِمْ مِنْ
 قَبْلِ عَادَاتِهِمْ الْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمْ الْحَسَنَةِ وَالْإِعْتِقَادَاتِهِمُ السَّعِيدَةِ تَشْمَلُ
 الْأَفْعَالَ وَالْخُلُقَ وَلِذَلِكَ جُعِلَتِ الْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ السِّتَةِ وَأُسْتَعْنِيَ
 بِذِكْرِهَا فِي التَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ الْأَفْعَالِ وَالْخُلُقِ. وَأَمَّا النَّظَرُ فَهُوَ بَابَةٌ
 صَوَابِ الْإِعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ الْإِخْتِجَاجِ لِصَوَابِ
 الْإِعْتِقَادِ الْمَدْحُوحِ بِهِ. وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا
 يُوجَدُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ الْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ
 الْأَشْيَاءَ أَعْنَى الْعَادَاتِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ وَالْأَسْتِدْلَالَ بِالثَّلَاثَةِ الْأَصْنَافِ
 مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَحَاكِي أَغْنَى الْقَوْلُ الْخَيْلَ وَالْوَزْنَ وَاللَّحْنَ (قَالَ)
 وَأَجْزَاءُ الْقَوْلِ الْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ تَأْهُوُّلِهَا جُزْءَانِ ذَلِكَ أَنَّ

أَلْمَعَانِي الشَّرِيفَةُ الَّتِي بِهَا يَكُونُ التَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْنَى تِلْكَ أَلْمَعَانِي
 الْحَنَ وَالْوَزْنَ أَلْمَلَامَيْنِ لِلشَّيْءِ الْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ الْحَنِّ فِي الشِّعْرِ
 هُوَ أَنَّهُ يُعَدُّ النَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ الشَّيْءِ الَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ
 الْحَنُّ هُوَ الَّذِي يُفِيدُ النَّفْسَ الْإِسْتِعْدَادَ الَّذِي بِهِ يُقْبَلُ الشَّيْءُ
 وَالْحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ الْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ النَّفْسَ هَذِهِ الْهَيْئَةُ
 فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّعْرِ الْحَنُّ الْمَلَامُ ذَلِكَ النَّوعُ مِنْ
 الشِّعْرِ بِنِعْمَتِهِ وَتَأْلِيْفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَا تُحْدِ الثَّغْمَ حَادَّةً ثَلَاثُ نَوْعًا
 مِنَ الْقَوْلِ غَيْرَ الَّذِي ثَلَاثُهُ الثَّغْمَاتُ الْإِقَالُ كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ
 نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ أَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ الْحَدِيثِ وَالْقَصَصِ الَّتِي
 تُكْمِلُ التَّخْيِيلَ الْمَوْجُودَ فِي الْأَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسَهَا مِنْ قَبْلِ
 هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَعْنِي الشَّيْءَ وَالْوَزْنَ وَالْحَنَ الَّتِي هِيَ اسْطِقْسَاتُ
 الْحَاكَاةِ هِيَ بِالْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُتَايَ وَعَادَةٍ
 كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَالثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ
 عَلَى اعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ أَيْسَ هَيْئَةٌ مِنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِالشَّيْءِ هَيْئَةٌ
 مِنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌ . فَالْقَاصُ وَالْحَدِيثُ فِي الْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ
 تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلُهُ هَيْئَةٌ مُحَقِّقٌ لِشَاكٍ وَهَيْئَةُ جَادٍ لَا هَازِلٍ
 وَالْقَصَصُ وَالْحَدِيثُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ الْقَاصُ وَالْحَدِيثُ وَهُوَ
 بِهَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ هُوَ الْخُرَاقَةُ الَّتِي تَكُونُ بِالشَّيْءِ وَالْحَاكَاةُ وَأَعْنِي
 بِالْخُرَاقَةِ تَرْكِيبَ الْأُمُورِ الَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ
 عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي الْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا اعْتِيدَ فِي الشِّعْرِ

البحث الرابع

في وزن الشعر وحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِجَادُ صِنَاعَةِ الْمِدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي الْأَعَارِضِ الطَّوِيلَةِ لَا فِي الْقَصِيرَةِ وَلِذَلِكَ رَفَضَ الْمُتَأَخِّرُونَ الْأَعَارِضَ الْقِصَارَ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ الشَّعْرِ. وَأَخَصُّ الْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ الْوَزْنُ الْبَسِيطُ الْقَعِيزُ مُرَكَّبٌ وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ الطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَالْحَدُّ الَّتِي لَهُمْ جَوْهَرُ صِنَاعَةِ الْمِدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ الْكَامِلِ الَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كَلِمَةً فِي الْأُمُورِ الْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ مِنْ الْأُمُورِ الْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةٌ تَنْفَعِلُ لَهَا النُّفُوسُ أَنْفَعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُؤَلَّدُ فِيهَا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْخَوْفِ وَذَلِكَ بِمَا يُحْيَلُ فِي الْفَاضِلِينَ مِنْ النَّفْيِ وَالنَّظَاقَةِ فَإِنَّ الْمُحَاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ الَّتِي تَلَزُمُ الْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذْ لَيْسَ يُمَكِّنُ فِيهَا أَنْ يُتَحْيَلَ. وَهَذِهِ الْمُحَاكَاةُ بِالْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا اللَّحْنُ وَالْوَزْنُ وَقَدْ تَوَجَّدَ مِنْ أَلْمُنَشِدِينَ أَحْوَالٌ أُخْرَى خَارِجَةٌ عَنِ الْوَزْنِ وَاللَّحْنِ تَجْعَلُ الْقَوْلَ أَمَّ مُحَاكَاةٍ وَهِيَ الْإِشَارَاتُ وَالْأَخْذُ بِالْوُجُوهِ الَّتِي قِيلَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ قَائِلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ الْمِدِيحِ الشَّعْرِيَّةِ فِي الْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُخَصَّى

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ الْهَجَاءِ وَلَا
 فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَائِعِ الْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَالْأَنْقَصُ مِنْ
 الْأَشْعَارِ وَالْأَقْصَرُ هِيَ الْمُتَقَدِّمَةُ بِالزَّمَانِ لِأَنَّ الطَّبَاعَ أَسْهَلُ وَقُوْعًا
 عَلَيْهَا أَوْلَا . وَالْأَقْصَرُ هِيَ الَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعِ أَقْلٍ وَالْأَنْقَصُ هِيَ
 الَّتِي تَكُونُ مِنْ تَعَمَّاتٍ أَقْلٍ أَيْضًا . (قَالَ) وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ
 الْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى الْفُؤُوسِ أَنَّ النَّاسَ عِنْدَ الْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَحِلُونَ
 مَصَارِيْعَ مِنْ هَذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذَلِكَ عِنْدَ الْخُرْجِ . يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ
 مِثْلَ قَوْلِ الْقَائِلِ : لَا لَا لَا يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ . وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هَذَا كَذَا
 مَا دَامَ بِهَا صَوْتُهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيْعُ مَوْزُونَةٍ
 ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِأَخْرَجَةٍ كَلِّحَالٍ
 فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ . (قَالَ) وَصِنَاعَةُ الْهَجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا التَّحَاكَاةُ
 بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ
 أَيْ مُرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ . (قَالَ) وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْأَسْتَهْزَاءَ
 يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ الْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ الْمُسْتَهْزِئِ
 هَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ أَغْنِي قَبَاحَةَ الْوَجْهِ وَهَيْئَةَ الْأَسْتِغْفَارِ وَقِلَّةَ
 الْأَكْتِرَابِ بِالْمُسْتَهْزَأِ بِهِ وَذَلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ الْغَاصِبِ أَغْنِي أَنْ
 فِيهِ قُبْحًا وَاهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ الْغَاصِبِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي
 يُغْصَبُ عَلَيْهِ



وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ الْفِطْرِ الْفَائِقَةِ فِي ذَلِكَ فَإِذَا تَنَشَّاتِ الْأَمَّةُ تَوَلَّدَتْ
فِيهِمْ صِنَاعَةُ الشَّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا أَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ
ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهَكَذَا إِلَى أَنْ تَكْمُلَ الصِّنَاعَاتُ
الشَّعْرِيَّةُ . وَتَكْمُلُ أَيْضًا أَصْنَافُهَا بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ
مِنَ النَّاسِ لِلِاتِّدَادِ أَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الشَّعْرِ . مِثَالُ
ذَلِكَ أَنَّ الْفُؤُسَ الَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِالطَّبْعِ هِيَ الَّتِي تُنَشِئُ
أَوَّلًا صِنَاعَةَ الْمَدِيحِ . أَعْنِي مَدِيحَ الْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ . وَالْفُؤُسُ الَّتِي هِيَ
أَخْسُ مِنْ هَذِهِ هِيَ الَّتِي تُنَشِئُ صِنَاعَةَ الْهَجَاءِ . أَعْنِي هَجَاءَ الْأَفْعَالِ
الْقَبِيحَةِ . وَإِنْ كَانَ قَدْ يُضْطَرُّ الَّذِي مَقْصَدُهُ الْهَجَاءُ لِلشَّرَارِ وَالشُّرُورِ
أَنْ يَمْدَحَ الْأَخْيَارَ وَالْأَفْعَالِ الْفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ الشُّرُورِ
أَكْثَرَ أَعْنِي إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَائِهَا الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةَ . فَهَذَا مَا فِي
هَذَا الْفَصْلِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ وَسَائِرُ
مَا يُذَكَّرُ فِيهِ فَكُلُّهُ أَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ أَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذَلِكَ
أَنَّهُ يَذَكَّرُ أَصْنَافَ الصِّنَاعَاتِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ
وَكَيْفَ كَانَ مَنَشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِالطَّبْعِ وَآيُ جُزْءٍ هُوَ الْمُتَقَدِّمُ
مِنْهَا فِي الْكَوْنِ عَلَى آيِ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ
الْهَجَاءِ الْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذَكَّرُ مَعَ هَذَا أَوَّلَ مَنْ أَبْتَدَأَ صِنَاعَةَ
صِنَاعَةٍ مِنْ تِلْكَ الصَّنَائِعِ الشَّعْرِيَّةِ الْمُتَعَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا
وَمَنْ كَمَلَهَا بَعْدُ . وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ يُثْنَى عَلَى أَوْمِيدُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا
وَيَعْرِفُ أَنَّهُ الَّذِي أَعْطَى مَبَادِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ . وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

يَلْتَذُّ بِالتَّشْبِيهِ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ أَحَسَّهَا وَبِالْحُكَاكَةِ لَهَا. وَالذَّلِيلُ عَلَى
 أَنَّ الْإِنْسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشْبِيهِ بِالطَّعِيعِ وَيَفْرَحُ هُوَ أَنَا تَلْتَذُّ وَنُسَرُّ
 بِحُكَاكَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تَلْتَذُّ بِإِحْسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتْ
 الْحُكَاكَةُ شَدِيدَةً أَلَا سَتَقْصَاءُ مِثْلُ مَا يَعْزُضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ
 مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَفْعَلُهَا الْمَهْرَةُ مِنَ الْمَصَوِّرِينَ وَلِهَذَا الْعِلَّةُ
 اسْتَعْمِلَ فِي التَّعْلِيمِ عِنْدَ الْإِنْفَهَامِ وَالنَّحَاطِبِ الْإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ
 مُعِينَةٌ عَلَى فَهْمِ الْأَمْرِ الَّذِي يُقْصَدُ تَفْهِيمُهُ لِمَكَانٍ مَا فِيهَا مِنْ
 الْأَلْذَاذِ الَّذِي هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْإِشَارَاتِ مِنْ قَبْلِ مَا فِيهَا مِنْ
 التَّخْيِيلِ فَتَكُونُ النَّفْسُ بِحَسَبِ التَّذَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قَبُولًا لَهُ . فَإِنَّ
 التَّعْلِيمَ لَيْسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلْفَيْلَسُوفِ فَقَطْ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ
 مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الْفَيْلَسُوفِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ التَّعْلِيمُ بِالطَّعِيعِ
 يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى إِنْسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَلِّمِ
 مِنَ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَلِّمِ وَالْإِشَارَاتُ لِمَا كَانَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشْبِيهَاتٌ
 لَا مَوْرِدَ قَدْ أُحْسِنَتْ فَبَيَّنَّ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ لِمَوَاضِعِ الْمُسَارَعَةِ إِلَى
 الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفْهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَلْذَاذِ لِمَوْضِعِ
 التَّخْيِيلِ الَّذِي فِيهَا . فَهَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ الْأُولَى الْمَوْلِدَةُ لِلشَّعْرِ . وَأَمَّا
 الْعِلَّةُ الثَّانِيَةُ فَالْتَّذَاذُ الْإِنْسَانِ أَيْضًا بِالطَّعِيعِ بِالْوَزْنِ وَالْأَلْحَانِ فَإِنَّ
 الْأَلْحَانَ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِوَزْنِ عِنْدَ الَّذِينَ فِي طَبَاعِهِمْ
 أَنْ يُذَكِّرُوا الْأَوْزَانَ وَالْأَلْحَانَ فَالْتَّذَاذُ النَّفْسِ بِالطَّعِيعِ بِالْحُكَاكَةِ
 وَالْأَلْحَانِ وَالْأَوْزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصَّعَاتِ الشَّرْعِيَّةِ

وَأَنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ الْفَخْرِ. وَأَمَّا الصَّنْفُ مِنَ الْأَشْعَارِ
الَّذِي الْمَقْصُودُ بِهِ الْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ
وَلِذَلِكَ يَصِفُونَ الْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتِ. وَأَمَّا الْيُونَانِيُّونَ
فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذَلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوجَّهٌ نَحْوَ الْفَضِيلَةِ
أَوْ الْكَفِّ عَنِ الرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ آدَبًا مِنَ الْأَدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً
مِنَ الْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ التَّشْبِيهَاتِ
ثَلَاثَةٌ أُصُولٍ وَأَنَّ فُضُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هَذِهِ الْفُضُولُ
الثَّلَاثَةُ وَالْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ. وَيُشَبِّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ الْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ
الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ التَّشْبِيهَاتِ وَلَا
فَضْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُضُولِ تِلْكَ الْأَصْنَافِ

البجث الثالث

في العلل المولدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشَبِّهُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَلُ الْمَوْلِدَةُ لِلشَّعْرِ بِالطَّبَعِ فِي
النَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا الْعِلَّةُ الْأُولَى فَوْجُودُ التَّشْبِيهِ وَالْمُحَاكَاةُ لِلنَّاسِ
بِالطَّبَعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَغْنِي أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ يُوْجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ
أَطْفَالٌ وَهَذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ
وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ هُوَ الَّذِي

الْفَضْلَانِ أَعْنِي التَّحْسِينَ وَالتَّقْبِيحَ وَهَذَانِ الْفَضْلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ
 لِلتَّشْبِيهِ وَالْحُكَاكَةِ الَّتِي تَكُونُ بِالْقَوْلِ لَا الْحُكَاكَةِ الَّتِي تَكُونُ
 بِالْوِزْنِ وَلَا الَّتِي تَكُونُ بِالْحَنِّ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِالْقَوْلِ قَصْلٌ
 ثَلَاثٌ وَهُوَ التَّشْبِيهُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ الْمُسَبَّحِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
 يُقْصَدَ فِي ذَلِكَ تَحْسِينٌ أَوْ تَقْبِيحٌ لَكِنْ نَفْسُ الْمُطَابَقَةِ وَهَذَا
 النَّوعُ مِنَ التَّشْبِيهِ هُوَ كَالْمَادَّةِ الْمَعْدَّةِ لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ إِلَى الطَّرَفَيْنِ
 أَعْنِي أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً إِلَى التَّحْسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً إِلَى التَّقْبِيحِ
 بِزِيَادَةٍ أَيْضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةً أَوْ مِيرُوشَ أَعْنِي أَنَّهُ
 كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهِاتِهِ بِالْمُطَابَقَةِ وَالزِّيَادَةِ الْحَسَنَةِ وَالْمَقْتَحَةِ. وَمِنْ
 الشُّعْرَاءِ مَنْ إِجَادَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِجَادَتُهُ
 فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ الْأَمْرَيْنِ مِثْلُ أَوْ مِيرُوشَ
 وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَؤُلَاءِ بِأَصْنَافٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ كَانُوا
 مَشْهُورِينَ فِي مُدَّتِهِمْ وَسَيَّاسَتِهِمْ بِاسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ
 هَذِهِ التَّشْبِيهِاتِ الثَّلَاثَةِ. وَأَنْتَ فَلَيْسَ يَغْسُرُ عَلَيْكَ وَجُودُ مِثَالَاتِ
 ذَلِكَ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ
 كَمَا يَقُولُ أَبُو نَضْرٍ فِي النَّهْرِ وَالْكَرْيَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ النَّوعَ الَّذِي
 يُسَمُّونَهُ اللَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى الْفُسُوقِ وَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَنَّبَهُ
 الْوَلَدَانُ وَيُودِدُوا مِنْ أَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحْثُ فِيهِ عَلَى الشُّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ.
 فَإِنَّهُ لَيْسَ يُحْثُ الْعَرَبُ فِي أَشْعَارِهَا مِنَ الْفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ
 الْفَضِيلَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ الْحَثِّ عَلَيْهِمَا

البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ الْمُحَاكُونَ وَالْمُسْتَهِنُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ
بِذَلِكَ أَنْ يُحْشُوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ الْأَفْعَالِ الْإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكْفُوا
عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةٌ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْصَدُ
مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِنَّمَا
هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هَذَيْنِ أَغْنِي الْفَضِيلَةَ وَالرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةٌ
أَنْ تَكُونَ الْفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكَى بِالْفَضَائِلِ وَالْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ
الرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِالرَّذَائِلِ وَالْأَرَذَلِينَ. وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ
إِنَّمَا تَكُونُ بِالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا
يُقْصَدُ بِهَا التَّحْسِينُ وَالتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هَذَا ضَرُورَةٌ أَنْ يَكُونَ
الْمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ أَغْنِي الْمَائِلِينَ بِالطَّعْنِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ.
وَالْمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هُوَلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى الرَّذِيلَةِ
وَعَنْ هَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ مِنَ النَّاسِ وَجَدَ الْمَدِيحُ وَالْمُجَبِّحُ. أَغْنِي مَدْحَ
الْفَضَائِلِ وَهَجْوَ الرَّذَائِلِ وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يُجِيدُ الْمَدْحَ وَلَا
يُجِيدُ الْمُجَبِّحَ وَبَعْضُهُمْ بِالْعَكْسِ أَغْنِي يُجِيدُ الْمُجَبِّحَ وَلَا يُجِيدُ الْمَدْحَ
فَلَإِنَّ بِالْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهِ وَحِكَايَةٍ هَذَانِ

الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَالْأُمُورُ الطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأَمْرِ الطَّبِيعِيِّ فَإِنَّ
أَشْعَارَ الْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا أَلْوَزْنُ فَقَطُّ وَإِمَّا أَلْوَزْنُ
وَالْحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَالْصَّنَاعَةُ الْحَقِيقَةُ الَّتِي
تَفْعَلُ فِعْلَ التَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ اللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ أَلْوَزْنٍ وَصِنَاعَةُ
عَمَلِ الْأَقَاوِيلِ الْحَاكِيَّةِ وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ الْمُنْطَقِيَّةُ الَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا
فِي هَذَا الْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الَّتِي تُسَمَّى
أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى الشَّعْرِيَّةِ إِلَّا أَلْوَزْنُ فَقَطُّ كَأَقَاوِيلِ
سُقْرَاطَ الْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُ قَلِيسَ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ الْأَمْرِ
فِي أَشْعَارِ أُوْمَيْرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا الْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذَلِكَ
لَيْسَ يَلْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هَذَيْنِ. وَأَمَّا
تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أُخْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا
وَكَذَلِكَ الْفَاعِلُ أَقَاوِيلُ مَوْزُونَةٌ بِالطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أُخْرَى أَنْ يُسَمَّى
مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذَلِكَ الْأَقَاوِيلُ الْحَقِيقَةُ الَّتِي
تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ
تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ
تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ الْحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ الصَّانِعِ
تَلْتَمِزُ الْحَاكَاةُ بِالْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَةً الْفِعْلِ



إِلَّا أَنْ الْكِنَايَاتِ أَكْثَرَ ذَلِكَ هِيَ إِبْدَالَاتٌ مِنْ لَوَاقِحِ
 الشَّيْءِ . وَالْإِسْتِعَادَةُ هِيَ إِبْدَالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ أَغْنِي إِذَا كَانَ شَيْءٌ
 نِسْبَتُهُ إِلَى الثَّانِي نِسْبَةُ الثَّلَاثِ إِلَى الرَّابِعِ فَإِبْدَالُ اسْمِ الثَّلَاثِ
 إِلَى الْأَوَّلِ وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ الْخَطَابَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 تَكُونُ الْإِبْدَالَاتُ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي فَهُوَ أَنْ يُبَدَلَ الشَّيْءُ مِثْلَ
 أَنْ تَقُولَ : الشَّمْسُ كَانَتْهَا فُلَانٌ أَوِ الشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ
 كَالشَّمْسِ وَلَا هُوَ الشَّمْسُ

وَالصِّنفُ الثَّلَاثُ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَذَيْنِ
 (قَالَ) وَكَمَا أَنَّ النَّاسَ بِالطَّبَعِ قَدْ يُخَيَّلُونَ وَيُمْكِنُ أَنْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
 بِالْأَفْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ
 وَالْأَصْوَاتِ وَذَلِكَ أَمَّا بِصِنَاعَةٍ وَمَلَكَهٌ تُوجَدُ لِلْمُحَاكِينَ وَإِمَّا مِنْ
 قَبْلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ . كَذَلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ الْمُحَاكَاةُ
 بِالْأَقَاوِيلِ بِالطَّبَعِ وَالتَّخْيِيلِ . وَالْمُحَاكَاةُ فِي الْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ تَكُونُ
 مِنْ قَبْلِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : مِنْ قَبْلِ النِّعَمِ الْمُتَّفِقَةِ وَمِنْ قَبْلِ الْوُزْنِ
 وَمِنْ قَبْلِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ . وَهَذِهِ قَدْ يُوْجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ
 صَاحِبِهِ مِثْلَ وُجُودِ النِّعَمِ فِي الْمُرَامِيرِ وَالْوُزْنِ فِي الرِّقْصِ وَالْمُحَاكَاةِ
 فِي اللَّفْظِ . أَغْنِي الْأَقَاوِيلَ الْمُخَيَّلَةَ الْغَيْرَ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجَمَّعَ هَذِهِ
 الثَّلَاثَةُ بِأَسْرَها مِثْلَ مَا يُوْجَدُ عِنْدَنَا فِي النَّوعِ الَّذِي يُسَمَّى
 الْمَوْشَحَاتِ وَالْأَزْجَالِ وَهِيَ الْأَشْعَارُ الَّتِي اسْتَبَطَهَا فِي هَذَا اللِّسَانِ
 أَهْلُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ إِذْ كَانَتْ الْأَشْعَارُ الطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جَمَعَتْ

الَّتِي يُعْطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى الْجُودَةِ أَنْ يَقُولَ أَوْ لَا مَا فِعْلُ كُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الشَّعْرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ الْأَقَاوِيلُ الشَّعْرِيَّةُ وَمِنْ
كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَأَيُّمَا هِيَ أَجْزَاؤُهَا الَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ أَصْنَافُ
الْأَغْرَاضِ الَّتِي تُقْصَدُ بِالْأَقَاوِيلِ الشَّعْرِيَّةِ . وَأَنْ يَجْعَلَ كَلَامُهُ مِنْ
الْأَوَائِلِ الَّتِي لَنَا بِالطَّبَعِ فِي هَذَا الْمَعْنَى . (قَالَ) فَكُلُّ شَعْرٍ وَكُلُّ قَوْلٍ
شَعْرِي فَهُوَ أَمَّا هِجَاءٌ وَأَمَّا مَدِيحٌ وَذَلِكَ بَيِّنٌ بِاسْتِقْرَاءِ الْأَشْعَارِ
وَبِمَخَاصِئِ أَشْعَارِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ أَعْنِي الْحَسَنَةَ
وَالْقَبِيحَةَ وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي الصَّنَائِعِ الْحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ الشَّعْرِ الَّتِي
هِيَ الضَّرْبُ بِالْعِيدَانِ وَالزَّمْرُ وَالرَّقْصُ أَعْنِي أَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِالطَّبَعِ
لِهَذَيْنِ الْعَرَضَيْنِ . وَالْأَقَاوِيلُ الشَّعْرِيَّةُ هِيَ الْأَقَاوِيلُ الْحَمِيلَةُ . وَأَصْنَافُ
التَّخْيِيلِ وَالتَّشْبِيهِ ثَلَاثَةٌ اِثْنَانِ بَسِيطَانِ وَثَلَاثُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا . أَمَّا
الْإِثْنَانِ الْبَسِيطَانِ فَاحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمَثُّلُهُ بِهِ وَذَلِكَ
يَكُونُ فِي لِسَانِ لِسَانٍ بِالْفَاطِ ظِ خَاصَّةً عِنْدَهُمْ مِثْلَ كَانَ وَآخَالُ
وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ
التَّشْبِيهِ . وَأَمَّا أَخَذُ التَّشْبِيهِ بِعَيْنِهِ بَدَلِ الشَّيْءِ وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى
الْإِبْدَالُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

هُوَ الْجَرُّ مِنْ أَيِّ الْمَوَاضِعِ جِئْتُ

وَيَبْنِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ فِي هَذَا الْقِسْمِ تَدْخُلُ الْأَنْوَاعُ الَّتِي

يُسَمَّىهَا أَهْلُ زَمَانِنَا اسْتِعَارَةً وَكِدَايَةً مِثْلَ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ

فِي الْبَلَاغَةِ وَأَنْفَسَاحِ خَطَوَاتِهِ وَلِعُوا بِهَذَا الْمُسْجَعِ يُفَقُّونَ بِهِ مَا
 نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْيِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ
 وَيَجْزُرُ وَنَهْ بِذَلِكَ الْقَدَرِ مِنَ التَّرْزِيكِ بِالْأَسْجَاعِ وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ
 وَيَعْمَلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ. وَكَثُرَ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي
 سَائِ الْخَاءِ كَلَامِهِمْ كِتَابُ الْمَشْرِقِ وَشِعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ
 لَيُخَيَّلُونَ بِالْإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي
 تَخْيِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرْجَحُونَ ذَلِكَ الْصِنْفَ مِنَ
 التَّخْيِيسِ وَيَدْعُونَ الْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بَنِيَّةَ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ
 التَّخْيِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ بِمَا قَدْ مَنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ
 وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ إِلَى الصَّوَابِ بِتَنَاهٍ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وأنواع الأشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

الْعَرَضُ فِي هَذَا الْقَوْلِ تَلْخِيسُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي
 الشِّعْرِ مِنَ الْقَوَائِنِ الْكُلِّيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذَا
 كَثُرَ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَائِنُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ
 تَكُونَ نِسْبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنْ
 الْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنْ قَصَدْنَا الْآنَ التَّكَلُّمَ فِي صِنَاعَةِ الشِّعْرِ
 وَفِي أَنْوَاعِ الْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْقَوَائِنُ

أَلْتَأَخَّرُونَ مِنَ الْكِتَابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَأَسْتَعْمَلُوهَا فِي الْحَخَاطَبَاتِ
 السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الْأَسْتِعْمَالَ فِي الْمُنْشُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا الْقَنْ الَّذِي
 ارْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا
 أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَصَارَتِ الْحَخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ عِنْدَ الْكِتَابِ
 الْغَفْلَ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ
 مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْيِيقِ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الْحَالِ
 مِنْ أَحْوَالِ الْمُخَاطَبِ وَالْمُخَاطَبِ. وَهَذَا الْقَنْ الْمُنْشُورُ الْمُقَفَّى أَدْخَلَ
 أَلْتَأَخَّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ الشَّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُذَرَّ الْحَخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ
 عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ الشَّعْرِ تُنَافِيهَا اللَّوْذِعِيَّةُ وَخَلَطُ الْجِدِّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابُ
 فِي الْأَوْصَافِ وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ التَّشْبِيهَاتِ وَالْإِسْتِعَارَاتِ
 حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذَلِكَ فِي الْخُطَابِ. وَالتَّحْمُودُ فِي الْحَخَاطَبَاتِ
 السُّلْطَانِيَّةِ الْمُرْسَلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ
 إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ الْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ
 لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ
 أَلْمَقَامَاتِ مُخْتَلَفَةً وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخْصُهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيْجَازٍ
 أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِبْثَاتٍ أَوْ تَضْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكَثَايَةٍ وَأَسْتِعَارَةٍ.
 وَأَمَّا أَجْرَاءُ الْحَخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي هُوَ عَلَى
 أَسَالِيبِ الشَّعْرِ قَدْ ذُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصْرِ إِلَّا أَسْتِيلَاءُ
 الْعُجْمَةِ عَلَى أَسْنَنِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي
 مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَهَجَرُوا عَنِ الْكَلَامِ الْمُرْسَلَ لِيُعَدَّ أَمْدِهِ

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءُ بَلْ يُرْسَلُ إِزْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْسِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا
غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطْبِ وَالْدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيهِمْ .
وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُنْشُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ
وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّمًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى
مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ
فِي الْآيَةِ الْآخَرَى بَعْدَهَا وَيُشْنَى مِنْ غَيْرِ الْإِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ
سَجَمًا أَوْ قَافِيَةً . وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقُرْآنِ : اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . وَقَالَ قَدْ
قَصَلْنَا الْآيَاتِ . وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاعِلُ إِذْ لَيْسَتْ أَنْجَاعًا
وَلَا الْتَرَمَ فِيهَا مَا يُلْتَرَمُ فِي السَّجْعِ . وَلَا هِيَ آيَضًا قَوَافٍ . وَأُطْلِقَ
اسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ . لِمَا دَكَرْنَاهُ وَأَخْتَصَّتْ
بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلَّةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثَّرْيَا . وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السَّجْعَ الْمَثَانِي .
وَأَنْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ
لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ
أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهَا وَلَا تَضِلُّهُ لِفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ
فِيهِ مِثْلُ النَّسِيبِ الْخُتَصِّ بِالشَّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالْدُّعَاءِ الْخُتَصِّ بِالْخُطْبِ
وَالْدُّعَاءِ الْخُتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمَثَاخِرُونَ
أَسَالِيبَ الشَّعْرِ وَمَوَازِيَهُ فِي الْمُنْشُورِ مِنْ كَثَرَةِ الْأَنْجَاعِ وَالْإِزَامِ .
الَّتَقْفِيَّةُ وَتَقْدِيمُ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمُنْشُورُ
إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشَّعْرِ وَفَتْهُ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الْوِزْنِ . وَاسْتَمَرَ

الْقِسْمُ الثَّانِي

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

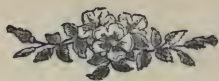
البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

إِعْلَمَ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فَنِ الشِّعْرِ
الْمَنْظُومِ وَهُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُتَقَيُّ وَمَعْنَاهُ الَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ
كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ . وَفَنِ النَّثْرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ
الْمَوْزُونِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبٍ فِي
الْكَلَامِ . فَأَمَّا الشِّعْرُ فَهُوَ الْمَذْحُ وَالْهَجَاءُ وَالرِّثَاءُ . وَأَمَّا النَّثْرُ فَهُوَ
الْكَلَامُ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ
وَيُسَمَّى سَجْعًا . وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا

عَشَقَ مَنْظَرَ وَجُودَةِ مُحَبَّرٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَجَزَالَهَ مَنْطِقٍ وَتَرَاهَةَ نَفْسٍ
وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاحَرَتْ الدُّنْيَا بِقَلِيلِ أَيَّامِهِمَا وَالْمَأْثُورِ مِنْ
خَصَائِصِهِمَا جَمِيعَ أَيَّامٍ مِنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنِ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِي
الصُّورِ وَيُبْعَثَ أَهْلُ الْقُبُورِ حَاشَا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ الْكَرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ
الصَّالِحِينَ لَمَّا بَاهَتِ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي الْفَخْرِ إِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ
كَانَا مَعَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمَا وَمَعْسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشْرَاقِهِمَا
وَكَمَالَ خِصَالِ الْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مُحَاسِنِ الْإِيمَانِ كَالنُّقْطَةِ فِي الْبَحْرِ
وَالْخُرْدَةِ فِي الْقَفْرِ



يَا طَلْحَ أَكْرَمُ مِنْ يَهَا حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدِ
مِنْكَ الْعَطَاءَ فَأَعْطَيْتَنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الشَّاهِدِ

فَيُقَالُ إِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: اخْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ
بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أَفَ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ
فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلَكِنْ أَبَيْتُ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثَمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ
أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَلَحْنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ
عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَالْفَاظِ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ
يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَجَسَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامُهُ بِحُشْرِ مِنْ أَلْكَلامِ
وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنَى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ
آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا
كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يُؤْزِرُ بِذَهْنِهِ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ
أَضْحَكَ الشَّكْلَى وَأَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَسَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ
كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشَّعْرِ
النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ الثَّمَامَةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ
سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ وَأَبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ
أَلْكَلامُ مُتَصَوِّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ الْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامَهُمَا
وَأَلْتَمَقَى مِنَ الْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَأَدْرَكْتُ طَبَقَةَ التَّكْلِيفِ
فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرُونَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تُسْتَكْمَلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ
مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا أَنْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لِلْبَابِ الْكَرَمِ

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفَدَّ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَجْبَانَ فَلَمْ
 يُوجَدْ فِي مَثَرِلِهِ فَأَقْتَضَبَ مِنْ نَاحِيَةِ اقْتِضَابٍ وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ
 فَقَالَ: أَنْظَرُوا إِلَى عَصَا تُقَوِّمُ مِنْ أَوْدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ
 بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ
 رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصَا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ
 فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ
 قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتِ صَلَاةُ الْعَصْرِ
 مَا تَسَخَّحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنَى فَحَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ
 بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ
 فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَجْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةُ.
 قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَتَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ
 مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَجْبَانُ: وَالْعَجْمِ وَالْجِنِّ
 وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رَوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ الْبَلِيغَةُ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا
 دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِكُمْ لِدَارِ
 مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَحْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ.
 وَآخِرُ جُورٍ مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبُكُمْ. قَبْلَ أَنْ تُخْرَجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا
 حَيِّتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ
 الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلَّهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخْلِفُوا كُلًّا
 يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شَعْرِهِ يَدْحُ طَلْحَةِ الْطَلْحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ
 عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَاعِي:

بِاللَّهِ قَسَمًا حَقًّا لَا أَمْنًا فِيهِ وَلَا حَاسِبًا إِنَّ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ
 مِنْ دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبَا لِلْأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ مِنْ
 الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ. وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادِ. آيْنَ الْأَبَاءُ
 وَالْأَجْدَادُ. وَآيْنَ الْمَرِيضُ وَالْعَوَاذُ. وَآيْنَ الْفَرَاغَةُ الشَّدَادُ. آيْنَ مَنْ
 بَنَى وَشَيْدَ. وَزَخَرَ وَبَجَدَ. وَغَرَّهَ أَلْمَالُ وَالْوَلَدُ. آيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى.
 وَجَمَعَ فَأَوْغَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ
 أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ أَجَالًا. طَحْنَهُمُ اللَّثَى يَكَلِّكَلِهِ. وَمَزَقَهُمْ
 بَتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بِأَلِيَّةٍ. وَيُؤَيِّسُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَّرَتْهَا الذِّتَابُ
 أَلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ الْمُعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي الْأَذَاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِ
 لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
 وَرَأَيْتُ قَوْمِي تَحْوَهَا تَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَاْبِرُ
 لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَايِرُ (١)
 أَيْقَنْتُ أَتَى لَا مَحَا لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

وَمَنْ أَشْهَرَ عِنْدَ الْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُقَرِّ بْنِ إِيَّاسٍ الْوَالِئِيُّ وَائِلُ
 بِأَهْلِهِ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ الْأَمْلُ فِي الْبَيَانِ. أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ
 وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى الْأَضْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا حَاطَبَ
 يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِيمُ

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتْ الْخَيْرَ م وَأُخْرَى حَوَتْ (١) فَهِنَّ قِفَارٌ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ النَّاطِرِ الَّذِي لَا يَحَارُ
وَالَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى اللَّهِ م نَفُوسًا لَهَا هُدًى وَأَعْتَبَارُ
فَقَالَ رَسُولُ الْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ اللَّهُ قُسا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُنْعَثَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةٌ وَحَدَهُ

وَمِنْ خُطْبِ قُسٍ الْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ قَالَ:
لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاطٍ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ النَّخْلَةِ وَالطَّائِفِ
كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْزَقٌ . وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ
مُوثِقٍ . فَقَالَ حِينَ خَطَبَ قَاطِنَبَ . وَرَغَبَ وَرَهَبَ . وَحَذَرَ وَأَنْذَرَ .
وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ أَسْمَعُوا وَعُوا . وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَأَنْتَفِعُوا .
إِنَّهُ مِنْ عَاشٍ مَاتَ . وَمَنْ مَاتَ فَاتَ . وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . مَطَرٌ
وَنَبَاتٌ . وَارْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ . وَأَبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ . وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ . وَجَمْعٌ
وَشَتَاتٌ . وَأَيَّاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ . لَيْلٌ مَوْضُوعٌ . وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ . وَجُجُومٌ
تَغُورُ . وَآرَاضٍ تُمُورُ . وَجُجُورٌ تُمُوجُ . وَتِجَارَةٌ تُرُوجُ . وَضُوءٌ وَظَلَامٌ . وَبِرٌّ
وَأَثَمٌ . وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ . وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ . أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ أَلْعِظَاتِ .
السَّيْرِ فِي أَلْفَلَوَاتٍ . وَالنَّظَرِ إِلَى مَحَلِّ الْأَمْوَاتِ . إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَيْرًا .
وَأَنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا . لَيْلٌ دَاجٍ . وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ . وَآرَاضٌ
ذَاتُ رِثَاجٍ . وَتِجَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ . مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا
يَرْجِعُونَ . أَرْضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا . أَمْ تُرْكُوا هُنَاكَ فَأَمَامُوا . أَقْسَمَ قُسٌ

الرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ الْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًا. قَالَ:
 كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرُهُ وَأَطْلَعُ خَبَرَهُ. كَانَ
 قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ الْعَرَبِ. صَحِيحُ النَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْءٍ حَسَنَةٍ
 يَتَّقِرُ الْقِفَارَ. وَلَا تَكُنْهُ دَارٌ. وَلَا يُقَرُّ قَرَارٌ. يَحْسَى فِي تَقَقُّرِهِ
 بَعْضَ الطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِالْوُحُوشِ وَالْهَوَامِّ. يَلْبَسُ الْمُسُوحَ. وَيَتَّبِعُ
 السَّيَّاحَ عَلَى مَنَاجِ الْمَسِيجِ. لَا يُغَيِّرُ الرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِالْوَحْدَانِيَّةِ.
 تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ الْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ الْأَهْوَالُ. وَتَتَّبَعُهُ الْأَبْدَالُ.
 أَدْرَكَ رَأْسَ الْخَوَارِيزِيِّينَ سَمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّاهُ مِنَ الْعَرَبِ.
 وَاعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي الْحَقِّبِ. وَآيَقَنَ بِالْبَغْتِ وَالْحِسَابِ. وَحَذَرَ سُوءِ
 الْمُنْقَلَبِ وَالْمَلَابِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِالْعَمَلِ قَبْلَ الْقَوْتِ.
 أَحْسَنُ الْأَلْفَازِ. الْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاطٍ. الْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ.
 وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذَبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَالْعَرَبُ بَيْنَ
 يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِالرَّبِّ الَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ الْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُؤَفِّقَنَّ
 كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ أَدِّكَارُ وَلِيكَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
 وَجِبَالُ شَوَاحِجِ رَاسِيكَاتٍ وَبِحَارِ مِيكَاهُنَّ غَرَارُ
 وَنَجْمٌ يَجْثُهَا قَمَرُ اللَّيْلِ (١) م وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
 ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ الْعُيُونَ وَارِ عَادَ شَدِيدُهُ فِي الْخَافِقِينَ مُثَارُ (٢)
 وَغَلَامٌ وَاشْمَطُ وَرَضِيعُ كُلُّهُمْ فِي الثَّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

تَجَرَّانَ خَطِيبُ الْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي
عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرْفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ
قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَضْلُ الْخُطَّابِ
وَالَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَضْلُ الْخُصُومَةِ وَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ
أَوَّلُ مَنْ قَالَ: أَلْبَيْتَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ
مَنْ أَتَكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصَا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ
فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ الْمُسْلِمِينَ وَرَأَاهُ يُعْكَازُ فَكَانَ
يَأْثُرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْبَعْثِ. بَلِغَ
الْأُنْطُقِ وَفِيهِ يَقُولُ الْأَعَشَى:

وَأَقْصَمُ مِنْ قُسٍّ وَآجَرَى مِنْ أَلَّذِي

بِذِي الْعَيْنِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرًا
وَكَانَ قُسٌّ يَفِيدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعْظِمُهُ فَقَالَ لَهُ
قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ الْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا
أَفْضَلُ الْعَقْلِ. قَالَ: وَقُوفُ الْمَرْءِ عِنْدَ عَلَيْهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ
الْأَدَبِ. قَالَ: اسْتِيقَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْمَرْوَةِ.
قَالَ: قَلَّةُ رَغْبَةِ الْمَرْءِ فِي إِخْلَافٍ وَعَدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ أَمَالٍ.
قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ الْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ أَجَارُودَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى
رَسُولِ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَاسْلَمَ سَأَلَهُ

اَلْبَلَاغَةِ وَفِي اَلْفَرَسِ خُطْبَاءٍ اِلَّا اَنْ كَلَامَ اَلْفَرَسِ وَكُلَّ مَعْنَى لَهُمْ
 فَانَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنْ اَجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ
 وَعَنْ طُولِ التَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ الْكُتُبِ وَحِكَايَةِ الثَّانِي عِلْمَ الْاَوَّلِ
 وَزِيَادَةِ الثَّلَاثِ فِي عِلْمِ الثَّانِي حَتَّى اجْتَمَعَتْ ثَمَارُ تِلْكَ اَلْفِكْرِ عِنْدَ
 آخِرِهِمْ . وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَاِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَارْتِجَالٌ وَكَانَهُ اِلْهَامٌ
 وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا اِجَالَةٌ فِكْرٍ وَلَا اسْتِعَانَةٌ
 وَانَّمَا هُوَ اَنْ يَصْرِفَ اَحَدُهُمْ وَهَمَّهُ اِلَى الْكَلَامِ . وَاِلَى زَجْرِ يَوْمِ
 الْخِصَامِ . اَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بَيْتٍ اَوْ يَخْدُو بِبَعِيرٍ اَوْ عِنْدَ الْمُنْقَارَةِ
 اَوْ اَلْمُنَاقَلَةِ اَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ . اَوْ حَرْبٍ قَاهُوَ اِلَّا اَنْ يَصْرِفَ وَهَمَّهُ اِلَى
 جُمْلَةِ الْمَذْهَبِ وَاِلَى الْعُمُودِ الَّذِي اِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ الْمَعَانِي اَرْسَالًا
 وَتَهَالٍ عَلَيْهِ اَلْاَلْفَاظُ اَمَثَالًا . ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرِسُهُ
 اَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا اَمِيَّيْنَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ
 وَكَانَ الْكَلَامُ اَحْيَدٌ عِنْدَهُمْ اَظْهَرَ وَاکْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ اَقْدَرُ وَلَهُ
 اَقْفَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ اَنْطَقَ وَمَكَانُهُ مِنَ الْبَيَانِ اَرْفَعُ
 وَخُطَاهُمْ لِلْكَلَامِ اَجْوَدُ وَالْكَلَامُ عَلَيْهِمْ اَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ اَيْسَرُ
 مِنْ اَنْ يَفْتَقِرُوا اِلَى تَحْفِظٍ وَيَحْتَاجُوا اِلَى تَدْرِيسٍ . وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ
 عِلْمَ غَيْرِهِ وَاتَّخَذَى عَلَى كَلَامٍ مِنْ قَبْلِهِ فَمَا يَحْفَظُونَ اِلَّا مَا عَلِقَ
 بِقُلُوبِهِمْ وَالتَّحَمُّ بِصُدُورِهِمْ وَاتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا قَصْدٍ
 وَلَا تَحْفِظٍ وَلَا طَلَبٍ . وَاِنَّ هَذَا الَّذِي فِي اَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)
 وَمِنْ اَشْتَهَرَ فِي اَلْخُطَابَةِ اَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الْاِيَادِي اُسْقِفُ

الْأَعْمَالِ الْمُتَعَبَةِ وَالْخَوَالَاتِ الشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ الصَّدَقَاتِ وَيُخَفِّفُونَ فِي السُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذَلِكَ نَفُوسُهُمْ وَيَضْعَفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْشُرَ قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ الطَّائِفَةِ لَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ أَهْلِ الزَّاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ الْقَدْحُ عَامًّا وَالْإِخْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةٌ إِلَّا عِتَابَ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِرِوَايَةِ الْهَدْيِ وَدُعَاءِ النَّاسِ إِلَى الْخَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ التَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى الْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ اعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ التَّهَوُّنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي الْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسَلَةً يُتَلَهَّى بِمُحْضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ الْخَلَاعَاتِ وَالْعُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشرشبي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ الْخُطْبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَالْفَرَسِ . فَمَا أَلْهَنَدُ فَلَنَّمَا لَمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتِبَتْ مُحَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتِبَتْ مُتَوَارِثَةٌ وَأَدَابٌ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فِلَسْفَةٌ وَصِنَاعَةٌ مِنْطِقٌ وَكَانَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ نَفْسَهُ عِيَالِيَّ السَّانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِالْيَمَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَنْبِيْزِ الْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِحَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ أَنْطَقَ النَّاسَ وَلَمْ يَذْكُرْهُ بِالْخُطَابَةِ وَلَا بِهَذَا الْجِنْسِ مِنْ

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُودِ الطَّبَاعِ وَاسْتَحْكَامِ
 الْفَلَكَةِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِي وَتَعَقُّلِ
 ضَرُورَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي أَحْكَامِ أَسْبَابِ التَّعَارُفِ وَالتَّوَاصُلِ
 وَمُحَاوَرَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ الْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ
 أَحَادِهَا وَابْتِهَاجَهُمْ بِالتَّصَافِ وَرِافِضَالِ الْأَقْوِيَاءِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ
 عِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَقَّوْنَ إِلَّا وَصُدُّوهُمْ مُنْشِرِحَةً وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةً
 وَتُغُورُهُمْ بِأَسِمَةٍ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ آمَنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ
 بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا السَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ السُّوءِ وَالتَّحَاكُرِ بِاسْتِلَابِ
 الْأَمْوَالِ وَقَهْرِ النَّفُوسِ وَتَنْخِيرِ الْأَقْوِيَاءِ الضُّعَفَاءِ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ
 مِنَ اللَّذَاتِ وَيَحْفَظُونَ عَلَيْهِ بِجُذْرَانِ الصُّخُورِ وَأَبْوَابِ الْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ
 ذَلِكَ مُوَلَّدًا فِي النَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ الطَّبَاعِ الَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا
 نَحْوَ الْأَكْثِسَابِ بِجَهَةِ السَّرِقَةِ وَالسُّوَالِ بِالضَّرَاعَةِ وَالدَّرَامِيِّ عَلَى
 اِعْتَابِ الْكَثَرِينَ . وَأَنْتَ لِذَلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَظَرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ
 الطَّوَائِفَ الْكَاسِبَةَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ الرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخْسَهَا
 عَمَلًا وَبَفَضْهَا مُتَرَدِّدًا هُوَ لَاءُ الَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عَقُولِهِمُ الْخَلْقِيَّةِ وَاحْتَدُوا
 هَبَ قِوَاهُمْ الطَّبِيعِيَّةَ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ
 أَشْرِبَةِ خُرَاقَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ الْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ
 نَوْعِ الْإِنْسَانِ يَوُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْإِخْتِيَاجِ وَطَلَبِ الْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ
 وَأَبْدَانِ اتَّقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنْ الْفَرَاغِ أَيَّ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانِ
 تَسْلِيهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ الْمَكَاسِبِ بِطَرُقِ

أَعْدَاوَةٍ مُسْتَمِرًّا يُخْفِيهِ الضَّعْفُ وَتُظْهِرُهُ الْقُوَّةُ كَمَا تَرَى . فَهَلْ يَسُوعُ
لَكَ بَعْدَ مَعْرِفَةٍ هَذَا أَنْ تَقُولَ إِنَّهَا أَلْعَمَاءُ . وَإِنْ قُلْتَ إِنَّهَا أَلْوَعَاظُ
قُلْتَ هَذَا أَقْرَبُ فَإِنَّ أَلْوَعَاظَهُ كَانَتْ حِرْقَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً
كَانَ أَهْلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخَذَ عَلَيْهَا أَلرَّوَاتِبَ مِنْ يُبُوتِ
أَلْأَمْوَالِ وَأَكْثَرُهُمْ كَانَ يَلُمُّ بِهَا أَلْقِطْعَ مِنَ أَلْعَامَةِ أَلَّذِينَ يَخْضُرُونَ
مَجَالِسَهُمْ . فَكَانَ أَلْوَعَاظُ إِذَا فَرَعَ مِنْ كَلَامِهِ أَلَّذِي أَعَدَّهُ لِذَلِكَ
أَلْجَلِيسَ بَسَطَ مِنْدِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلُّ مَا سَمَحَتْ بِهِ نَفْسُهُ

وَصَيِّقَتْ لِأَجْلِ أَلْوَعَاظِهِ كُتِبَ لِقَبُولِهَا بِالْجَلِيسِ كَشْتَمِلُ عَلَى
تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ أَلتَّرْغِيبِ وَأَلتَّرْهِيْبِ وَبَعْضُ أَحَادِيثِ صَحِيحَةٍ
وَبَعْضُ أَمْثَالٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْوَادِي . وَنَمُودَجُ ذَلِكَ مَا تَرَاهُ فِي
أَلْمَسْجِدِ أَلْحُسَيْنِيِّ بَعْدَ أَلْعَصْرِ فِي رَمَضَانَ . وَإِلَى جُمْلَةٍ فَحْصُولُ تِلْكَ
أَلْكُتُبِ هُوَ فَحْصُولُ خُطَبِ أَلْمَنَابِرِ . وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَهْلِ تِلْكَ
أَلصَّاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنْ أَلْفِطْنَةِ وَأَلذِّكَاءِ وَبَرَاةِ أَلْمَنْطِقِ
وَبَلَاغَةِ أَلْعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ . فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَلْقَصَاصُ أَلْجَهْلَةِ أَلَّذِينَ
غَايَةُ أَمْرِ أَلْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَلْفَقَ أَحَادِيثَ يَضَعُهَا أَوْ وَضَعَهَا غَيْرُهُ
يُفْرِحُ بِهَا نَفُوسَ أَلْعَامَةِ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثَرَةِ أَلثَّوَابِ مَعَ قَلَّةِ أَلْعَمَلِ
وَمَا يَهْوُونَ مِنْ أَمْرِ أَلْمَعْصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ بِمِثْلَةِ أَلتَّخْرِيصِ عَلَى
أَرْكَابِ أَلشَّهَوَاتِ وَأَلْأَسْتِزْسَالِ مَعَ أَلْأَهْوَاءِ وَطَرَحِ أَلْمُبَالَاةِ
أَعْتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نَفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثَرَةِ
أَسْبَابِ أَلْمَغْفَرَةِ وَسَعَةِ أَلرَّحْمَةِ وَعَظَمِ أَلْعَفْوِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . لَا

إِلَى سَبَابٍ وَمُشَاتَّةٍ وَاخْتِقَارِ قَوْمٍ قَوْمًا وَرَجَعَ بِهِمْ إِلَى الْقَدَحِ فِي
السَّلَفِ وَصَادَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ مُنْشَأً لِعِدَاوَةٍ إِنْ لَمْ
تَكُنْ فَوْقَ الْعِدَاوَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْأَذْيَانِ فَلَيْسَتْ دُونَهَا. فَكَثِيرًا مَا
كَانَتْ سَبَبًا لِيَجْرِي السُّيُوفُ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى دَخَلَ بَيْنَهُمْ
الْحُكَامُ لِإِصْلَاحِهِمْ وَكَانُوا هُمْ الْأَوَّلَى بِذَلِكَ. وَهُوَ حَقُّهُمُ الَّذِي
مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُمْكِنُوا مِنْهُ غَيْرُهُمْ وَصَادُوا أَخْرَابًا يَنْحَازُ كُلُّ
حِزْبٍ إِلَى مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ التَّوَّاحِي وَصَارَتْ الْمَدَائِنُ بِمِثْلَةِ الْمَعَالِقِ
وَالْخُصُونِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُهَا تَحْتَ نَظَرِ السِّيَاسَةِ وَقَهَرَهَا وَبُدِلَتْ سِيُوفُ
الْمَنَابِرِ بِقِطْعِ خَشَبٍ فِي صُورَتِهَا يَتَكَبَّرُ عَلَيْهَا الْخُطْبَاءُ حَالَ صُعُودِهِمْ
وَهُبُوطِهِمْ. وَآلُ أَمْرِ الْعُلَمَاءِ إِلَى كَوْنِهِمْ طَائِفَةً مِنَ الطَّوَائِفِ الْمَرْبُوبَةِ
الْمُسَوَّسَةِ تَحْظُرُ حَرَكَاتِهِمْ أَرْصَادُ الْحُكُومَةِ وَتَأْخُذُهُمْ عِيُونُهَا مَنَعًا لَتَعْدِي
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَخَسَمًا لِمَادَّةِ الشَّرِّ بَيْنَهُمْ. وَلَعِبَتْ بِهِمْ أَهْوَاءُ الْمُلُوكِ
الْخَائِرَةِ الْجَهْلَةِ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالذِّلَّةِ وَغَيْرِهِمْ. وَنَشَأَ مِنْ ذَلِكَ مَفَايِدُ
عَظِيمَةٌ مِنْهَا تَمَكُّنُ كَثِيرٍ مِنَ الْجَهْلَةِ الَّذِينَ أَمْضَوْا صُدُورَ أَعْمَارِهِمْ
فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ دُونَ فِكْرَةٍ فِي تَحْصِيلِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ
حَتَّى دَهَمَهُمْ وَقْتُ الْإِحْتِيَاجِ لِذَلِكَ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ
فَصَنَّفُوا كُتُبًا مَلَأُوهَا أَحَادِيثَ كَاذِبَةً وَحِكَايَاتٍ غَيْرَ مَعْقُولَةٍ
وَرَوَّجُوهَا عَلَى الْعَامَّةِ وَاسْكُوبُوا بِهَا الْخُبْرَ وَخَلَطُوا مَا لَيْسَ مِنَ الدِّينِ بِهِ.
فَأَيُّ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ إِلَّا أَفْرَاقُ الْعُلَمَاءِ
وَأَهْمَالُهُمْ أَمْرُ الرِّعَايَةِ. وَلَمْ يَزَلِ الْإِخْتِلَافُ الَّذِي هُوَ مُنْشَأُ تِلْكَ

كِفَايَةَ ذَلِكَ لِكثَرَةِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَلِكَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا
 كَانَ الْحَالُ فِي الْخُطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحْقِيقِ الدَّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ
 وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ الْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً
 بِخُطْبَاءِ الْمَنَائِرِ. وَإِنْ قُلْتُ: إِنَّهَا الْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هَذَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ
 تَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ جَزَاءُ اللَّهِ عَنْ الدِّينِ وَالْأُمَّةِ خَيْرًا
 فَكَانَ اسْتِغْنَاهُمْ بِجَمْعِ الْأَصُولِ وَتَقَيُّمِهَا مِنَ الدَّخِيلِ الَّذِي بَادَرَ
 بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ التَّفَاقُّ وَالزُّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا التَّشْكِيكُ فِي
 الدِّينِ. وَمِنْهَا التَّمَايُسُ مَا عِنْدَ الْمُلُوكِ وَمِنْهَا آيِنَاءُ مَثَلَةٍ فِي قُلُوبِ
 الْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ التَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا.
 وَاجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ الْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ
 الْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفَرِّضُ وَيُقَدِّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ
 الْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْقَاضِ أَعْمَالِهِمْ
 مَا نَبَغَ لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُبَالُ
 الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجَنَسِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَقَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالَهُمْ عَلَى دَوَائِرِ
 مَشِيتِهِمْ يَهْدِي بُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيلَهَا وَيَوْضَحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوَضُّعِ
 مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَحْرِيجًا عَلَى أَصُولِهِمُ الَّتِي قَرَّرُوهَا
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ نَاطِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ
 حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتُ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ النَّاسِ
 وَدُعَائِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ الْأُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ
 هَؤُلَاءِ خَلْفٌ اتَّخَذُوا الْجِدَلَ شِرْعَةً وَالْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذَلِكَ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ اتِّبَاعَ السَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ الْخُطْبَةَ مِرَارًا
 عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ النُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ
 مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَضْحِيحِ الْحَدِيثِ أَخْذًا مَّا اسْكَلَامِ النَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ
 عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصَاعَةِ الْخَوْرِ فَيُضِلَّانِ جَمِيعًا. إِذْ لَا عَمَلَ لِصَاعَةِ الْخَوْرِ
 إِلَّا بَعْدَ فَهْمِ الْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَضْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ.
 مَا أَطْنُ أَنْكَ تَسْتَحْزِرُ أَنْ تَقُولَ أَرَدْتُ هُوَ لَا. فَإِنْ قُلْتَ إِنَّمَا
 أَرَدْتُ خُطْبَاءَ الْأَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزَ عَصْرَ النَّبِيِّ وَعَصَرَ أَصْحَابِهِ
 ثُمَّ أَقْرَأَ خُطْبَ الْأَخْلَفَاءِ وَنَوَائِبِهِمْ فِي النَّوَاحِي ثُمَّ أَمَضَ فِي ذَلِكَ
 طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِكَ هَذَا
 تَحْذِرُ أَنْ جَمِيعَ الْخُطْبِ يَدُورُ أَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَالْفَاقِطِ مُعَيَّنَةٍ
 لَا تَجَاوِزُهَا. وَهِيَ التَّرْهِيدُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّرْغِيبُ فِي الْآخِرَةِ وَتَبَشِيرُ
 الْمَطِيعِ وَانْذَارُ الْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذَلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ
 يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَالتَّحْقُّقُ بِالْأُمُورِ الْمُتَعَادَةِ. إِنَّمَا يَسْمَعُ النَّاسُ أَصَوَاتًا
 ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ إِقَامَةً لِذَلِكَ الرَّسْمِ حَسَبًا يَصِلُ إِلَيْهِ فَهُمْ
 أَلْعَامَةُ مِنْ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ إِقَامَةُ الدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطْبَاءِ
 الْعَصْرِ الثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَدَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَفَاقِيحٌ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا تَعْلُ
 وَالتَّعْلُ بِقُحْرِ أَوَّلِهِ أَوْضَعِهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةً فِي أَطْبَاءِ
 النَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشَبِّهُ حَلْمَةَ الثَّوْدِيِّ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي الْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا
 تَطْنُ آتِي اتِّقِصُ بِذَلِكَ خُطْبَاءَ الْعُصُورِ الْأُولَى فَلَهُمْ كَانُوا يَرُونَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَحِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ . فَتَى سُرِقَ مَالُهُ أَوْ اغْتَصَبَ
مِنْهُ وَجَدَ بِذَلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضَيْقًا وَتَشْوِشَ فِكْرُهُ
وَأَخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ . وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ . بَلْ يُرِيدُ أَنْ
يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبِ النَّفْسِ مُسْتَقِيمَ الْأَخْوَالِ . فَهُوَ يَحْكُمُ
بِفَتْحِ ذَلِكَ وَحُسْنِ هَذَا . وَإِنْ كَانَ لَا يُعْبِرُ عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِهِ
عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَلْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ . وَإِلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى الْإِشَارَةُ
بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيْنٌ وَالْحَرَامُ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ . وَعَلَى هَذِهِ
الْأَمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ الْمُتَجِدِّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً
لِلْأَخْوَالِ الْحَاضِرَةِ . قَرُبَ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرِ قَيْصَرٍ شَرًّا
فِي غَيْرِهِ . وَهَلْ هَذِهِ الْأَمَّةُ كَانَتْ أَوْ كَانَتْ . لَا أَثْبَتُ ذَلِكَ وَلَا
أَنْفِيهِ حَتَّى أَفَاضَكَ الْحَدِيثَ فِيهِ . إِنْ قُلْتَ هَذِهِ الْأَمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي
خُطْبَاءِ الْمَنَابِرِ . قُلْتُ لَكَ : أَتُرِيدُ بِهِمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ
وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ
قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطِّ . فَقَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ
دِيَوَانَ خُطْبٍ صَفَّةً بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَحِيلُ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ .
فَيَحْفَظُ مَا تَعْنِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الْأَلْفَاظِ . أَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ
خُطْبَةٍ لِيَحْفَظَ حَمَلَهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خُطِيبًا . يَسْرُدُ الْأَفْظَا حِفْظَهَا أَوْ
نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا . كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ
الْدِّيَوَانُ مَشْكُورًا وَلَمْ يَقْرَأِ الْخُطْبَةُ عَلَى ذِي دِرَايَةٍ سَعِغَتْ مِنْهُ
الْمُحِبُّ وَالْمُطْرِبُ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاحِشِ وَالتَّضْحِيفِ الْقَبِيحِ . فَإِنَّ مِنْهُمْ

وَالْفَوْزُ بِحَقِيقَةِ السَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا
يَعْمُ الصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَضْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ
فِيهَا بِعِبَادَةِ التَّخْصِصِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُكِنُّ تَأْدِيَةَ تِلْكَ
الْوُظَيْفَةِ وَالْقِيَامُ بِهَا حَقَّ الْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نَفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ
طِبَاعُهُمْ وَتَهَدَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ
وَرَجَحَتْ أَخْلَاقَهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ
الْخَيْرِ وَاحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوا مِنْ أَصْصِ الشَّرِّ قُرْبًا أَشْتَبَهَ الْحَالُ
وَتَمَثَّلَ كُلُّ فِي صُورَةٍ الْآخِرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ الْخَيْرِ مِنْ
الشَّرِّ أَمْرًا عَسِيرًا إِذْ كَانَ الْأَسَاسُ الضَّرَرُ وَالنَّفْعُ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا
يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍ فِي الْحَالِ نَافِعٍ فِي الْمَالِ فَيَكُونُ خَيْرًا
وَرُبَّ نَافِعٍ فِي الْحَالِ ضَارٌّ فِي الْمَالِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا اجْتَمَعَتْ
الْمُضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ وَأَسْتَوَتْ أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هَذَا ثَبَتَ
الْإِحْتِيَاجُ لَوْجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِاسْتِغْنَاءِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ
أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ النَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوهُمْ إِلَى الْخَيْرِ
وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا
تَنْصَحُهُمْ بِالْإِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدْلُهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَكَثُرَ الْمَنَافِعُ
وَالْمُضَارُّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِالنَّاسِ عَلَيْهِ حَتَّى قِيلَ إِنَّ الدِّينَ
أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ الطَّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ الْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِنَفْسِهِ
هُوَاهُ قَدْ يُبِيعُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ
اسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى السَّارِقِ وَالْفَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَحْجِزُ أَنْ يَفْعَلَ

البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم للثبان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ وَحَقْلًا لِلذُّهُولِ
وَالْعَفْلَةِ لَمَّا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْنِفُهُ مِنَ الْآهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي بِاتِّبَاعِهَا
وَالْإِنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ الْإِخْتِلَالُ عَلَى النِّظَامِ الْكُلِّيِّ وَالْمُضْلِحَةِ
الْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ السَّرْعَةِ إِلَى النِّظَامَاتِ الْخُزْيِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ
الْخَاصَّةِ فَيَضِجُ الْغَيْثُ الْقَلْبِيَّ وَالْقَادِرُ عَاجِزًا وَالشَّجَاعُ جَبَانًا وَالذَّكِيُّ
غِييًّا وَالْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ اسْمُ الْبَهَائِمِ أَوَّلَى بِهِمْ مِنْ اسْمِ
الْإِنْسَانِيِّ بَلْ كَانَتْ الْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا
مَوْضِعَ قَوْلِهِ : إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ
أَنْ يَضْحَكَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَعِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ السَّبِيلِ
وَجَادَّةِ الْحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ الْخَيَالَاتُ الْفَاسِدَةُ وَالْوَسَاوِسُ
الرَّدِيَّةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذَلِكَ وَرَدِّ الْأَنْرِ فِي قَوْلِهِ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنَّ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ
تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دَعَاءُ النَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفُهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ الشَّرِّ وَأَمْرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمَقْدَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِذَا وَجِدَتْ
وَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِالْإِفْلَاحِ

حَقَّرَ لَهَا مَاءَ يُرِيهَا بَدَاءَةً وَأَضْمَنَ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تُثَقَّرْ
 وَارْبَأُ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ وَأَغْنَمَ إِذَا سَامَتْكَ شَهْوَةٌ مُشْتَرِي
 قَالُوا أَلْوَعُظُ يَضْرِبُ وَجْهَ النَّفْسِ عَنِ التَّبْطُّ فِي سِطَا اللِّذَاتِ
 وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ الْخَطُورِ فِي مَلْعَبِ الْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا الصَّبْرَ عِيَانًا
 وَيُبَيِّنُ الْعَوَاقِبَ الْمُتَحَبِّةَ بَيَانًا وَيُنْشِئُ سَحَابَ الْحُزَنِ فِي أَجَوَافِ أَجْزَائِهَا
 وَيَذَكِّرُهَا بِمَا لَهَا وَأَتْبَاهِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بَنَائِهَا
 وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ تَوَلُّوهِ هَادِمِ اللِّذَاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى بِحُكْمِ الْأَضْطِرَّارِ أَفْكَارُهَا وَتَحْشَعُ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَأَلْوَعُظُ يَكُونُ لِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَيْنِ لِسَانِ حَالِ
 وَلِسَانِ مَقَالِ وَرَبِّمَا كَانَ لِسَانُ الْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يَسْمَعُ مِنْ
 الْقُبُورِ الْمُوَحِّشَةِ وَالْقُصُورِ الْحَالِيَةِ وَالْعِظَامِ الْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتُ
 وَأَخْبَارُ. وَلِسَانُ مَقَالِ كَقَوْلِهِ سُجَّانُهُ وَتَعَالَى وَسَكَنُكُمْ فِي مَسَاكِينِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ
 الْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي بَعَثَ بِهَا النَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا
 الْكِتَابَ الْأَمِينِ وَالْأَسْوَطَ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَى الْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ
 الْمَلْطَطَّهِرِينَ إِلَى غَدِيرِ التَّوْبَةِ وَتَحْنُ لَجَعْلُهُ هَيْئَةً بَيْنَ يَدَيِ الْفِرَاسَةِ
 لِتَذَكِّيَةِ النُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ الْفِرَاسَةِ مِنْ ذَلِكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا صَدَرَ
 عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَأَعْظِ



البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب (الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ فِي الرَّوَضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ الْعَزِيمَةِ
 وَهِيَ الْيَقِظَةُ مَا نَصَّهُ قُلْتُ وَالْمُحَرِّكَاتُ الْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ الْيَقِظَةِ
 كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْوَعْظُ السَّائِقُ بِمَقْوَدِ الشَّارِدِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى مَرَبِطِ
 التَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ الْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نَوْمِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَقَدْ ضُرِبَ
 نَوْمُ الْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرَكِّبُهُمْ
 ظَهَرَ الرِّيَاضَةِ حَتَّى تُلْحِقَهُمْ بِالْمُجْدُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ
 الدُّنْيَا هُوَ الْمَانِعُ عَنِ الشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ الْعَمَلِ وَالْقَاطِعُ بِهِ لَمَّا بَعْدَهُ لَمْ
 يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ الْهَوَى وَجُنُونَ الْكَسَلِ انْجَمَ مِنْ وَفَى الْعَذْلِ وَالتَّائِبِ
 وَتَقَبَّحَ الْمُتَجَبُّوبِ سِيماً إِذَا أَرْتَجَجْتَ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَيَّاتِ ضُلُوعِ
 الصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْقَلْبِ دَخَلَ الْقَلْبَ
 أَوْقَدِ النَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَأَحْذَرِ السَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي
 وَلَا تَغْدِلِ الْوَعْظَ الْبَلِيغَ بِاللِّسَانِ الْقَصِيحِ وَالْقَلْبِ الْقَرِيبِ فَإِذَا
 رَأَيْتَ الْأَرْضَ قَدْ أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَهَضَابَ الْقُلُوبِ الْقَالِسِيَّةِ قَدْ
 تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغُرَاسِ وَالزَّرْعِ عَنِ الذِّرَاعِ وَأَعْتِمِ السَّرْعَ وَالْأَسْرَعَ
 إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكْ فَاعْتِمِهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونًا
 وَكَقَوْلِ الْآخِرِ :

إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ: أَلَسُنَّ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ.
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: لَوْ أُرْنَا بِالْجُرْعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلُ الْمَوْعِظَةِ
عَلَى السَّمْعِ وَجَنُوحِ النَّفْسِ إِلَى مُحَالَفَتِهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (أَحَبُّ شَيْءٍ
إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا). وَقَوْلُهُمْ: وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُنْتَعَمُ
وَالْمَوْعِظَةُ مَا نِعَتْ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا
أَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَنَتْهُ الْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ
وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ
التَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْإِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمُكَارِهِ
وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ أُحْتِمَالُ
الْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقُ إِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ
الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ)
الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ
مِنْ اللِّسَانِ لَمْ تَجَاوِزِ الْأَذَانَ. وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ النَّجَاحَ. وَهُوَ عَلَى
رَأْسِ الْمَلِكِ أَحْسَنُ. وَمَا أَحْسَنَ الدَّرَّ. وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا
أَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ. وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ التَّقِيَّ أَحْسَنُ. (وَقَالَ زِيَادٌ)
أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَنْتَعِمُ سَوْءٌ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَنْتَعِمُوا بِأَحْسَنِ مَا
تَسْمَعُونَ مِنَّا. قَالَ الشَّاعِرُ:

إِعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصُرْتُ فِي عَمَلِي

يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

الْمُكَلِّفِينَ وَتَخْفِيفَ الْمَوْتَةِ عَلَى الْمُسْتَمِيعِينَ وَتَرْيِينَ تِلْكَ الْمَعَانِي فِي قُلُوبِ الْمُرِيدِينَ بِالْأَلْفَاظِ الْحَسَنَةِ فِي الْأَذَانِ الْمُبْتُولَةِ عِنْدَ الْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إجابَتِهِمْ وَنَفْيِ الشَّوَاعِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كُنْتُ قَدْ أُوتِيتَ الْحِكْمَةَ وَفَضَلَ الْخُطَابِ وَاسْتَوْجِبْتُ مِنَ اللَّهِ جَزِيلَ الثَّوَابِ

قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكُمُ الْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ اللَّهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ الْأَبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ الْحُكَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ الْعِبَادِ بَيْنَ أَيْدِي الْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي الزُّهْدِ وَرِجَالِهِ الْغُرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ الشُّهُودِينَ مِنَ الْمُتَنَبِّسِينَ إِلَيْهِ وَالْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى السَّمْعِ مُسْتَحْرِجَةٌ عَلَى النَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ الْقَبُولِ لِإِعْتَاضِهَا الشَّهْوَةِ وَمُضَادَّتِهَا الْهَوَى الَّذِي هُوَ رَبِيعُ الْقَلْبِ وَمُرَادُ الرُّوحِ وَمَرْبَعُ اللَّهِوِ وَمَسْرَحُ الْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَارْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجَرُّبَتُهُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ النَّفْسُ عَنْ غَيْبِهَا حَتَّى يَرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ
(وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ) السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بَغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ
وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلَكِنْ مَنْ رَأَى الْعَبْرَ فِي غَيْرِهِ فَأَتَعَظَّ بِهَا فِي نَفْسِهِ
وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ الْحَسَنُ: اقْرَعُوا هَذِهِ النَّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلَعَتْ وَحَادِثُهَا
بِالذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ وَأَعَصَوْهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي
الشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ انْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَحَمَّ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ
مَوْعِظَةٍ لَوْ عِمَادَتْ مِنْ أَلْقُلُوبِ حَيَاةٍ. وَكَانَ ابْنُ السَّمَّالِ يَقُولُ

الْحَيَرَةُ وَخِيَّةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ الْجَهَالَةِ وَمُسْتَحَرَجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ الصَّلَاةِ
وَالْعِلْمُ دَوَاءٌ لِلْقُلُوبِ الْعَلِيلَةِ وَمُسْتَحَدٌّ لِلْأَذْهَانِ الْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي
الظُّلْمَةِ وَآنَسٌ فِي الْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي الْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي الْخَلْوَةِ
وَوُضْعَةٌ فِي الْجَلْسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيَةِ الْمَزْرِيَةِ
بِأَهْلِ الْأَحْسَابِ الْمُقَصِّرِ بِذَوِي الْأَلْبَابِ أَنْطَقَ اللَّهُ سُجَانَهُ أَهْلَهُ
بِأَلْيَانِ الَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَزْيِيلِهِ وَآيَدُهُ رُسُلُهُ إِضَاحًا
لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَضْلًا بَيْنَ الشُّبُهَاتِ شَرَفَ بِهِ الْوُضِيعَ وَأَعَزَّ بِهِ
الدَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ الْمُسَوَّدَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعْطَلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ
فَهُوَ مُغْفَلٌ لَا تُبْلِيهِ الْأَيَّامُ وَلَا تَحْتَرِمُهُ الدُّهُورُ يَجِدُّ عَلَى الْإِتِّدَالِ
وَيَذْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ لِلَّهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ قِيلَ
لِعِمْرُو بْنِ عُبَيْدٍ مَا الْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَغَكَ أَجْنَةُ وَعَدَلْ بِكَ عَنِ النَّارِ
وَبَصَرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ السَّائِلُ لَيْسَ هَذَا
أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ
يُحْسِنْ الْإِسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنْ الْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ قَالَ : قَالَ
النَّبِيُّ إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ فِينَا تَلَكَّا أَيْ قَلَّةُ الْكَلَامِ وَكَانُوا
يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مِنْطِقُ الرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ السَّائِلُ لَيْسَ هَذَا
أُرِيدُ. قَالَ : كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ الْكَلَامِ
مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ السُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ الصَّمْتِ. قَالَ : لَيْسَ هَذَا
أُرِيدُ. قَالَ عَمْرُو : يَا هَذَا فَكَأَنَّا نَكُثُرُ يُدْ تَحْيِيرُ اللَّفْظِ فِي حُسْنِ الْإِفْهَامِ.
قَالَ : نَعَمْ. قَالَ : إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَفْهِيمَ حُجَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

أَلْفَنَ كُتُبًا تَشْتَمِلُ عَلَى أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَكَانَ السَّلَفُ يَقْتَنِعُونَ مِنْ
 الْمَوَاعِظِ بِالْيَسِيرِ مِنْ غَيْرِ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ زَخْرَفَةٍ نُطْقٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ
 مَوَاعِظَ الْخُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَمَّشَتْ إِلَيْهِ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ أَلْفُقَهَاءُ
 فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ يَتَنَاطَرُونَ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ فِي تَسْمِيَةِ قِيَاسٍ عَلَيْهِ
 أَوْ قِيَاسٍ شَبَّهِهُ وَتَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَا أَخَذْتُ مِنَ الْأَلْفَظِ وَالْأَسَامِي
 لَا يَخْرُجُ عَنْ مَرْضَاةِ الْأَوَائِلِ وَلِذَلِكَ مَا أَخَذْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَذْكُورِينَ
 مِنْ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ تَسْجِيعٍ وَنَعِظٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قَانُونِ الْجَوَادِ وَمَا
 ذَاكَ إِلَّا بِمَثَابَةِ جَمْعِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَبْتَدَأَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَثَنِي بِهِ عُثْمَانُ
 فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَأَذِنَ لِتَسْمِيَةِ الدَّارِيِّ أَنْ يَقْصَّ وَمِثْلُ هَذِهِ لَا
 تُدْمُ لِكُونِهَا أَبْتَدِعَتْ إِذْ لَيْسَتْ تُخَارِجُ عَنِ الْأَصْلِ الْمَشْرُوعِ وَقَالَ
 الْحَسَنُ الْقَاصِصُ بِدَعَاةٍ كَمْ مِنْ أَخٍ يُسْتَفَادُ وَدَعْوَةٍ تُسْتَجَابُ
 قَالَ بَعْضُ الْقَدَمَاءِ إِنْ أَلَوْعَظَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ وَعَهْدُهُ الْمَعْهُودُ
 وَظِلُّهُ الْعَمِيمُ وَسِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ وَحُجَّتُهُ الْكُبْرَى وَمَحَبَّتُهُ الْوُسْطَى وَهُوَ
 الْوَاضِحُ سَبِيلُهُ الرَّاشِدُ دَلِيلُهُ الَّذِي مَنْ اسْتَضَاءَ بِمَصَابِيحِهِ أَبْصَرَ وَجَبَّ
 وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَهُوَ حُجَّةُ اللَّهِ وَعَهْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَوَعْدُهُ بِهِ يَعْلَمُ
 الْجَاهِلُ وَيَعْمَلُ الْعَالِمُ الْعَامِلُ وَيَنْتَبِهُ السَّاهِي وَيَتَذَكَّرُ اللَّاهِي بِشِيرِ
 الثَّوَابِ وَنَذِيرِ الْعِقَابِ وَشِفَاءِ الصَّدُورِ وَجَلَاءِ الْأُمُورِ مِنْ فَضَائِلِهِ
 أَنَّهُ يُقْرَأُ دَائِمًا وَيُكْتَبُ وَيُنَى وَلَا يَمِلُ مَا أَهْوَى الدُّنْيَا عَلَى مَنْ
 جَعَلَ الدِّينَ إِمَامَهُ وَتَصَوَّرَ أَمَاتَهُ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ
 الْحِكْمَةُ مُوقِفَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ سِتَةِ الْغَفْلَةِ وَمُنْقِذَةٌ لِلْبَصَائِرِ مِنْ سَكْرَةِ

فَقَالَ: تَلْخِصُ الْمَعَانِي رِفْقًا وَاسْتِعَانَةً بِالْغَرِيبِ عَجْزًا وَالتَّشَادُقُ فِي غَيْرِ
 أَهْلِ الْبَادِيَةِ نَقْصٌ وَالنَّظَرُ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عِيٌّ وَمَسُّ الْحَيَّةِ هُلْكٌ
 وَالخُرُوجُ بِمَا بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ إِسْهَابٌ (فَقَالَ) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ رَأْسُ
 الْخِطَابَةِ الطَّبَعُ وَعَمُودُهَا الدَّرَبَةُ وَحَلِيهَا الْإِعْرَابُ وَبَهَاؤُهَا تَحْيِيرُ اللَّفْظِ
 وَالْحِجَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقَلَّةِ الْأَسْتِكْرَاهِ وَأَنْشَدَنِي بَيْنًا فِي خُطْبَةٍ إِيَادِ
 يُؤْمُونَ بِاللَّفْظِ الْحَقِيِّ وَتَادَةً رَمِي الْمَلَا حِظَ خَيْفَةِ الرُّقْبَاءِ
 (وَقَالَ) ابْنُ الْإِعْرَابِيِّ قُلْتُ لِلْفَضْلِ مَا الْإِيحَازُ عِنْدَكَ قَالَ
 حَذْفُ الْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ الْبَعِيدِ (وَتَكَلَّمَ) ابْنُ السَّمَاكِ يَوْمًا وَجَارِيَةٌ
 أَسْمَى تَسْمَعُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهَا كَيْفَ سَمِعْتَ كَلَامِي قَالَتْ إِلَى أَنْ
 تَفْهَمَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمَهُ مَلَهُ مَنْ فَهَمَهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب (المعد الفريد

وزهر الاداب للعصري بتصرف)

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْمُنْتَجَبِ: لَمَّا كَانَتْ الْمَوَاعِظُ مَنْدُوبًا
 إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: فَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوْلِهِ لِعَمَالِهِ
 تَعَاهَدُوا النَّاسَ بِالتَّذْكِرَةِ. وَلِأَنَّ أَذْوَاءَ الْقُلُوبِ تَقْتَرُّ إِلَى
 أَذْوِيَةٍ كَمَا تَحْتَاجُ أَمْرَاضُ الْبَدَنِ إِلَى مُعَالَجَةٍ أَلْفَتْ فِي هَذَا

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمْ الْدُولُ بِالشَّهَادَةِ عَلَى اسْتِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ
الْمَنْظُومَ إِنَّ سَاعَتِهِ. وَالْبَدِيَّةُ أَنْ يَثْرَلَ عَلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَلِيلًا
وَيُفَكِّرَ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو الْبَدِيَّةِ الْفِكْرَةَ
أَنْعَكَسَتْ الْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ الْبَدِيَّةِ إِلَى حَدِّ الرَّوِيَّةِ
وَعِنْدَ ذَلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ الْأَقْدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذَلِكَ الْإِضْطِرَارِ إِذَا الْمُرْتَجِلُ
وَالْبَادِئُ يَنْقَعُ مِنْهُمَا بِالرَّدِيِّ الْيَسِيرِ وَلَا يَنْقَعُ مِنَ الْمُرَوِّي إِلَّا بِالْجِدِّ
الْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَرِ:

وَأَفْكَرُ قَبْلَ الْقَوْلِ يَوْمَنْ زَيْغُهُ شَتَانُ بَيْنِ رَوِيَّةٍ وَبَدِيَّةٍ
وَقَوْلُ ابْنِ جَرِيحٍ:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقَى نُضِجَةً وَلِلْبَدِيَّةِ نَارٌ ذَاتُ تَلَوِيحٍ
وَقَدْ يُفْصَلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لَكِنَّمَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ
وَحَسْبُكَ يَهْرَبُ إِمَامُ الشُّعْرَاءِ وَقَاتِكِهِمْ مِنَ الْبَدِيَّةِ فَمَا ظَنُّكَ
بِالْأَرْتَجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِيَّ رَئِيسُ الْخَوَارِجِ
فِي يَوْمِ التَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ الْبَدَوِيُّ الْقَصِيحُ وَالْأَعْرَبِيُّ الصَّرِيحُ
إِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ وَالْكَلَامَ الْقَضِيبَ يَقُولُ هَذَا فِي مُطْلَقِ
الْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ الظَّنُّ بِالْمُقَيَّدِ
بِهِمَا لَعَمْرِي أَنَّهُ لَمَقَامٌ يَحْبُنُ فِيهِ الشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ الْفِكْرِ
فِي طَلَبِ الْإِتِّبَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَامَةً
قَالَ: سَيَفُتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ الْخُطْبِ وَتُمَيِّزُ الْكَلَامِ.

البحث الثالث

في الارتجال والبدية وإشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البداهة والعقد الفريد)

قِيلَ إِنَّ الْإِرْتِجَالَ فِي اللُّغَةِ مَأْخُودٌ مِنَ الْإِنْصَابِ وَالسُّهُولَةِ وَمِنْهُ
 قِيلَ : شَعْرُ رَجُلٍ إِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْنَرًّا سِلًّا غَيْرَ مُنْقَضٍ .
 وَقِيلَ مِنْ أَرْتَجَلَ الْبُئْرَ وَهُوَ أَنْ يَتْرُهَا الرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلِ
 فَكَانَهُمْ شَبَّهُوا اقْتِدَارَ الشَّاعِرِ عَلَى الْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا أَهْبَةٍ
 بِاقْتِدَارِ نَازِلِ الْبُئْرِ عَلَى التُّرُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلِ وَلَا آتَةٍ . وَالْبَدِيَّةُ
 مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدُهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا الْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا
 كَمَا قَالُوا : لَهْنَكَ بِمَعْنَى لَا نَكَ وَكَمَا أَبْدَلُوا الْحَاءَ آيضًا بِأَلْهَاءِ لِقُرْبِهَا
 مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ . وَاشْتِقَاقًا الْإِرْتِجَالُ وَالْبَدِيَّةُ وَإِنْ كَانَ
 مُتَقَارِبَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ
 الْآخَرِ يَمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ :

الْإِرْتِجَالُ هُوَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي أَوْحَى مِنْ خَطْفِ
 الْبَارِقِ وَاخْتِطَافِ السَّارِقِ وَأَسْرَعِ مِنَ التَّيْمَحِ الْوَامِقِ وَنُقُودِ
 السَّهْمِ الْمَارِقِ حَتَّى يُجَالَ مَا يُعْمَلُ مُحْفُوظًا أَوْ مَرِيئًا مُحْفُوظًا مِنْ غَيْرِ
 حَاجَةٍ إِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعْلَلٍ بِتَقْيَةٍ وَتَتَفَرَّدُ عِنْدَ ذَلِكَ قَضِيَّةُ الْحَالِ
 بِاخْتِرَاعِ الْوَزْنِ وَالْعَافِيَةِ وَهُمْ الشُّهُودُ الْعُدُولُ الَّذِينَ يَجِبُ الرُّجُوعُ

وَالثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ الْمَقْلَدِ وَذَكَرَ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الرُّتَبَةَ وَيُنَاسِبُ
حَالَهُ مِنْ عَدْلِ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ
كَانَ نَائِبًا وَوَضَفِ الْعَدْلَ وَالرَّأْيَ وَحُسْنَ التَّدْبِيرِ وَالْمَعْرِفَةَ بِوُجُوهِ
الْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ الْبِلَادِ وَصَلَاحِ الْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ إِنْ
كَانَ وَزِيرًا وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ رُتَبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَالرَّابِعُ فِي الْوَصَايَا وَهَذِهِ
هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى الْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ
فَلَا يُعْطَى أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرِ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ
وَيُرَاعَى أَيْضًا مِقْدَارُ النِّعْمَةِ وَالرُّتَبَةِ فَيَكُونُ وَضَفُ الْمُنَّةِ بِهَا عَلَى
مِقْدَارِ ذَلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ الْمُتَوَلَّى بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَغْرِيزٌ
بِالْمَعْدُولِ وَتَقْيِصٌ لَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْغِرُ الصُّدُورَ وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ
فِي الْقُلُوبِ وَيُدِلُّ عَلَى ضَعْفِ الْأَرَءَاءِ فِي اخْتِيَارِ الْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ
يَصِفَ الثَّانِي بِمَا يَحْضُرُ بِهِ الْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَغْرِيزٍ بِالْأَوَّلِ وَمِنْهَا
أَنْ يَتَحَيَّرَ الْكَلَامَ وَالْمَعَانِي فَإِنَّهُ مِمَّا يُشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْدَرُ الْمَقْصَرُ
فِي ذَلِكَ بِحِجَلَةٍ وَلَا ضَيْقٍ فَإِنَّ مَجَالَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَالْبَلَاغَةُ
تَظْهَرُ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَالْأَمْرُ الْجَارِي فِي ذَلِكَ عَلَى الْعَادَةِ
مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي النَّاسِ مِمَّا كَتَبْتُ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَكِنْ تَقَعُ
أَشْيَاءٌ خَارِجَةٌ عَنِ الْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى
مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ



الْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتَّبٌ عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْ نِسْبَةِ النَّصْرِ إِلَى
وَاهِيهِ وَالْجَلْدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَالثَّبَاتِ إِلَى الْمُؤَقِّقِ لَهُ ثُمَّ كَلَّمَا اتَّسَعَ
تَجَالُ الْكَلَامِ فِي ذِكْرِ الْمَوَافَقَةِ وَوَضْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَادَلَّ عَلَى
الْبَلَاغَةِ وَادْعَى لِسُرُورِ الْمَذُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ النِّعْمَةِ عِنْدَهُ
وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِعَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَالِ عَلَى
جَلِيلَتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ الْعَدُوِّ وَوَضْفِ جُمُعِهِ وَإِقْدَائِهِ فَإِنَّ
فِي تَضْعِيفِ أَمْرِهِ تَحْقِيقَ الظُّفْرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

الْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ الْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ
الرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ
الرُّتَبَةِ أَوْ الْحَالِ وَقَدَرِ النِّعْمَةِ أَوْ لَقْبِ صَاحِبِ التَّقْلِيدِ أَوْ أَسْمِهِ
لَا يَكُونُ أَنْ تُطْلَعَ أَجَنِيًّا مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا
مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَضِحُّ مَا يُنَاسِبُ الْقَرَضَ وَيُؤَافِقُ الْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ
الْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي التَّقْلِيدِ
عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةٍ الْمَقَادِيرِ فَالرُّبْعُ الْأَوَّلُ الْخُطْبَةُ وَالثَّانِي
ذِكْرُ مَوْقِعِ الْإِنْعَامِ فِي حَقِّ الْقَلْدِ وَذِكْرُ الرُّتَبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَالذَّمَّ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُقَايَسَةِ بَيْنَ سَلَفٍ مِنَ الْمُحْمُودِينَ
وَالْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَالذَّامِّ أَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ
الْمَدْحُ أَوِ الذَّمُّ أَغْنِي أَنْ يَدَّحَ بِحَضْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ الْأَعْدَاءِ
كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا الْمَدْحُ وَالذَّمُّ وَهِيَ
الَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ الْفَضَائِلُ وَقَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا
وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ مِمَّا دَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تُعَرَفُ حُدُودُ
أَضْدَادِهَا إِذَا كَانَ الضِّدُّ يُعَرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهاني

(من كتاب صناعة الترسل)

إِنَّ التَّهْنِائِيَّ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ الْكَلَامِ وَالْإِظْنَابُ فِي
شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ وَالتَّبَرُّؤِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا
أَعْطَى مِنَ النَّصْرِ وَنَجٍّ مِنَ الثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسَّرُّ مِنَ الْقَتْلِ ثُمَّ
مَا وَصِفَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِهِ وَإِقْدَامِهِ وَصَبْرِهِ وَجَلَدِهِ عَنِ الْمَلِكِ وَعَنْ
جَيْشِهِ حَسَنَ وَغَمَّةٍ فَلَاقَ ذِكْرَهُ وَرَأَقَ التَّوَسُّيعِ وَعَذَبَ بَسْطُ

عَلَى اخْلَاقِ نَفْسِهِ . بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَإِنْ وَجَدَ
 فِيهِ فَضِيلَةً آثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا .
 وَالْمُقَاسِمَةُ النَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْفَضَائِلِ . إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ
 يَكُونَ بِالْمَدْحِ وَحِينَ جَدًّا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ
 أَعْيُنِ الَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوِّ دَائِمٍ . أَنَّ الَّذِينَ أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ
 فِي أَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ
 الْجُمْهُورِ . وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ تَعْظِيمَ الشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي الْمَدْحِ . فَإِنَّ التَّعْظِيمَ
 لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَالتَّشْرِيفُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا . وَيَنْبَغِي
 إِذَا أُرِيدَ التَّعْظِيمُ بِالشَّيْءِ أَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُحْمُودِينَ فَإِنَّ
 فِي هَذَا الْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَدْحِ . وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ . وَجَمْعُهُ
 الْقَوْلُ فِي الْأَنْوَاعِ الْمُشْتَرَكَةِ لِأَجْنَاسِ الْأَقَاوِيلِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ
 التَّعْظِيمَ وَإِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِأَجْنَاسِ الْأَقَاوِيلِ الْخَطِيئَةِ الثَّلَاثَةِ
 فَهُوَ أَخْصُ بِالْمَدْحِ وَالذَّمِّ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُمْدَحُ الْإِنْسَانُ أَوْ يُذَمُّ
 بِالْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ الْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا . وَتَعْظِيمُ الشَّيْءِ أَخْصُ
 بِالْمَوْجُودِ مِنْهُ بِالْمَعْدُومِ . وَلِذَاكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَدْحِ أَنْ يَصِفَ جَلَالََةَ
 الشَّيْءِ وَبِهَاءَهُ وَزِينَتَهُ . وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ الْعَلَلَاتِ وَالْمِثَالَاتِ فَهُوَ
 أَخْصُ بِالْمَشُورَةِ لِأَنَّ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَصَرِّمَةِ الَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُحْدَسُ
 عَلَى الَّتِي سَتَكُونُ وَاعْطَاءُ السَّبَبِ وَالْعِلَّةِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ
 سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ أَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِانْتِقَاضِهِ وَتَصَرُّمِهِ . وَأَمَّا
 مَعْرِفَةُ الْعَدْلِ وَالْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِالْمُشَاجَرَةِ . وَبِالْجَمْلَةِ فَجَمِيعُ الْمَدْحِ

إِنْسَانًا. ثُمَّ إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْفَاعِلُ مِمَّنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ
 مَرَارًا كَثِيرَةً فَإِنَّ فِعْلَهُ عَظِيمٌ كَمَا قِيلَ: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ أُمَّةٌ
 يُقْتَدَى بِكُمْ. وَالْأَفْعَالُ الَّتِي يُقْتَدَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ
 بِالْإِتِّفَاقِ بَلِ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الْمَشَّةِ وَالرَّوِيَّةِ. وَهَذِهِ
 الْأَشْيَاءُ قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ تَدْخُلَ فِي الْمَشُورَةِ أَغْيَا الْأَشْيَاءِ الَّتِي
 تُعْظَمُ الشَّيْءُ مِثْلُ أَنْ يُشَارَ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَّشَبَهَ بِالْمَدْحِ الْأَوَّلِ
 فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ أَوْ يَتَّشَبَهَ بِهِ فِي الْمَدْحِ أَوْ يُشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ
 مِنْ جُمْلَةِ الْمَدْحِيِّينَ الَّذِينَ لَا يُنَازَعُ أَحَدٌ فِي حَمْدِهِمْ. مِثْلُ الَّذِينَ
 يُدْعَوْنَ فِي الْأَسْوَاقِ أَوْ يَتَّشَبَهَ بِهِمْ فِي الْمَدْحِ. وَبِمَا يُعْظَمُ
 الْمَدْحِيُّينَ أَنْ يُقَاسُوا بِالَّذِينَ يَفْعَلُونَ أَضْدَادَ أَعْمَالِهِمْ وَذَلِكَ عِنْدَ
 ذِكْرِ أَعْمَالِهِمْ الْفَاضِلَةِ.

(قَالَ) وَالَّذِينَ شَانُهُمْ أَنْ يَتَّشَبَهُوا بِالْمَدْحِيِّينَ الَّذِينَ فِي
 الْغَايَةِ وَيُقَاسُوا أَنْفُسَهُمْ مَعَهُمْ دَائِمًا فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يُشَبَّهُوا بِأُولَئِكَ
 وَأَنْ يُجْرَوْا مُجْرَاهُمْ فِي الْمَدْحِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا وَصَلُوا مَرَاتِبَهُمْ. فَإِنَّ
 فَضَائِلَهُمْ فِي نُمُوِّ دَائِمٍ. وَمُقَابِلَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مَعَ غَيْرِهِ لَا
 تَصِحُّ إِلَّا مِنَ الرَّجُلِ الْفَاضِلِ لِلْوَضْعِ حُبِّ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ فَهُوَ
 يَرَى نَقَائِصَهُ أَقَلَّ مِنْ نَقَائِصِ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَتْ أَعْظَمَ. وَيَرَى
 فَضَائِلَهُ أَكْثَرَ وَإِنْ كَانَتْ أَضْعَفَ وَلِذَلِكَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ
 الْمُقَابِلَةَ وَإِنَّمَا يَسْتَطِيعُهَا الْفُضَّلَاءُ مِنَ النَّاسِ مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو
 عَنْ سُقْرَاطَ أَنَّهُ كَانَ يُقَاسُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَيُجْرَى الْأَحْكَامَ

إِنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُوجَبَ الْعِظَمُ وَالْفَضْلُ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ
 لِلْإِنْسَانِ بِالْعَرَضِ بَلْ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوْيَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ .
 فَإِذَا زِيدَ إِلَى هَذَا . فَلِذَلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُمدَّحَ الَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ
 بِالْجَنَّةِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُمدَّحَ الَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوْيَةٍ وَاخْتِيَارٍ
 كَقُلَانِ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ الْمَدْحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هَذَا فَلِذَلِكَ لَا
 يَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ عَنْ الْإِتِّفَاقِ بَلْ الْأَشْيَاءُ
 الَّتِي تَكُونُ عَنْ الرِّوْيَةِ دَخَلَ فِي الْمَشُورَةِ . وَالْأَشْيَاءُ الْإِتِّفَاقِيَّةُ قَدْ
 يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي الْمَدِيحِ نَارَةً وَفِي الذَّمِّ أُخْرَى . فَإِنْ ظَنُّونَ
 النَّاسَ فِيهَا مُخْتَلَفَةً فَإِنَّ قَوْمًا يَرَوْنَ أَنَّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَكُونُ
 بِالْإِتِّفَاقِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُمدَّحَ بِهَا إِذْ كَانَتْ شَيْئًا غَيْرَ مُحْصَلٍ وَلَا
 مُكْتَسَبٍ لِلْإِنْسَانِ . وَقَوْمٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُمدَّحَ بِهَا وَأَنَّهَا
 تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ إِلَهِيَّةٍ بِالَّذِي تَعْرِضُ لَهُ وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي عَنْ
 الْإِخْتِيَارِ فَالْمَدْحُ مِنْهَا يُمدَّحُ بِهِ أَبَدًا وَالذَّمُّ مِنْهَا يُذَمُّ بِهِ أَبَدًا
 (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْمَدْحِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ
 بِهَا تَعْظِيمُ الشَّيْءِ وَتَشْيِئُهُ وَهُوَ أَنْ يُحْيَلَ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ بِالْقُوَّةِ أَشْيَاءُ
 كَثِيرَةٌ . وَذَلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ
 هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحْدَهُ فَعَلَ هَذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ
 يَسِيرٍ مَا شَاءَ أَنْ يُفَعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعْلًا كَبِيرًا .
 فَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ الْفِعْلِ . وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ أَنَّهُ فَعَلَ
 فِي زَمَانٍ يَعْسُرُ فِعْلُهُ . وَذَلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنْسَانًا

عَلَى أَنَّهَا حَدَّثَتْ عَنِ الرَّوِيَّةِ . وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي بِالْإِتِّفَاقِ مِنْهَا أَشْيَاءُ
لَيْسَ الْإِنْسَانُ سَبَبُهَا لَا بِالذَّاتِ وَلَا بِالْعَرَضِ مِثْلُ الْحَسَبِ وَالْمَنْشَأِ
الْفَاضِلِ وَمِنْهَا أَشْيَاءُ تَعْرِضُ عَنِ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ عَنِ الرَّوِيَّةِ .
فَمَا إِلَّا تَفَاقَاتُ الْحَيَّةِ الَّتِي تَعْرِضُ عَنِ الْأَفْعَالِ فَتُؤَخِّدُ عَلَامَةً عَلَى
الْفَضَائِلِ . وَأَمَّا إِلَّا تَفَاقَاتُ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فَتُؤَخِّدُ فِي تَقْرِيرِ
الْفَضِيلَةِ وَتَشْبِيهِهَا مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي الْمَذْحِ : إِنَّ الْخِيَارَ يُؤَادُّ فِي
الْخِيَارِ . وَفِي الذَّمِّ : إِنَّ الْحَيَّةَ تَلِدُ الْحَيَّةَ . وَالْأَفْعَالُ بِالْجُمْلَةِ هِيَ الَّتِي
عَلَيْهَا يُحْمَدُ الْفَاعِلُ . وَأَمَّا آثَارُ الْأَفْعَالِ فَهِيَ دَلَالٌ عَلَى الْفِعْلِ وَإِنَّمَا
يُمَدِّحُ بِهَا إِذَا اثْبَتْنَا مِنْهَا الْفِعْلَ

(قَالَ) وَجُودَةُ انْتَجَبَتِ الَّتِي قِيلَ فِيمَا تَقَدَّمَ إِنَّهَا السَّعَادَةُ عَلَى
مَا يَرَاهُ الْجَاهِلُونَ هِيَ وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ إِلَّا تَفَاقِيَةُ الَّتِي يُمَدِّحُ بِهَا
وَاحِدَةً فِي الْجِنْسِ وَلَيْسَتْ هِيَ وَالْفَضَائِلُ وَاحِدَةً بِالْجِنْسِ بَلْ كَمَا
أَنَّ صَلَاحَ الْحَالِ جِنْسٌ لِلْفَضِيلَةِ أَعْنِي مُحِيطًا بِهَا كَذَلِكَ مَا يَجْدُثُ
بِالْإِتِّفَاقِ جِنْسٌ مُحِيطٌ بِالسَّعَادَةِ . وَهَذَانِ الْجِنْسَانِ أَعْنِي الْفَضَائِلُ وَمَا
بِالْإِتِّفَاقِ يَدْخُلَانِ جَمِيعًا فِي بَابِ الْمَذْحِ وَفِي بَابِ الْمَشُورَةِ لَكِنْ مِنْ
جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ . وَإِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي
يَحِبُّ أَنْ تُفْعَلَ فَقَدْ عَرَفْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ مُدِحٌ بِهَا الْإِنْسَانُ .
وَلِذَلِكَ إِذَا ذَكَرْتَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ذِكْرًا مُطْلَقًا أَمَكْنَ أَنْ تَدْخُلَ فِي
الْمَشُورَةِ وَفِي الْمَذْحِ وَذَلِكَ بِزِيَادَةِ الْجِهَةِ الَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي الْمَشُورَةِ
أَوْ الْجِهَةِ الَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي الْمَذْحِ . وَذَلِكَ مِثْلُ مَا يَقُولُ الْقَائِلُ

حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمُرْتَبَةِ فَلَمَّا يُمدَحُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ
بِأَبَائِهِ فَقَطُّ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَاهُنَا أَنَّ الْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ الْأَبَاءِ لَيْسَ
يُتَّبَعِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمدَحَ بِفَضِيلَةٍ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
لَسْنَا وَإِنْ كَرَّمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَسْكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعُلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
وَأَنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِالْمَدْحِ عَلَى الْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ الْأَبَاءِ كَمَا قَالَ:
نَفْسُ عَصَامٍ سَوَدَتْ عَصَامًا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَدْحُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ عَنْ
الْمَشِئَةِ وَالْإِخْتِيَارِ فَإِنَّ الْفِعْلَ الَّذِي يَكُونُ بِالْمَشِئَةِ وَالْإِخْتِيَارِ
هُوَ الْفِعْلُ الْفَاضِلُ. وَالَّذِي يُمدَحُ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ بِالِاتِّفَاقِ
أَوْ بِالْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا أَقْتَرَنْتِ بِالْفَضَائِلِ تَرْيِينًا لَهَا
وَتَفْخِيمًا بِمِثْلَةِ الْحَسَبِ الْمُفْتَرَيْنِ إِلَى الْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ الْخُجْتِ الْمُفْتَرَيْنِ
بِأَفْعَالِ الْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي الْمَدْحِ الْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ
بِاتِّفَاقٍ وَالْأَعْرَاضُ الَّتِي تَقْتَرِنُ بِالْعَرَضِ مَعَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ
بِالْمَشِئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ
أَنَّهَا بِالذَّاتِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذَلِكَ ظَنَّ بِهَا أَنَّهَا عِلَامَةٌ
لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِالِاتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ
يُمدَحُ الْجَعْلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي الْمَدْحِ لِأَنَّ
الْمَدْحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ الْفَضِيلَةِ وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا
الْفَضِيلَةُ. وَإِذَا اسْتَعْمِلْتَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي الْمَدْحِ فَيُتَّبَعِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

الْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُؤْهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شَجَاعٌ وَالسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا
يُؤْهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِصَةٍ مَا يَغْرِضُ الْكَبِيرُ إِلَهْمَةً مِنْ
أَنْ يَتَجَافَى عَنِ الْأُمُورِ الْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيُخْذِعُ.
وَالْكَبِيرُ إِلَهْمَةً إِنَّمَا يَضَعُ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الْيَسِيرَةِ الَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ
مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌّ شَدِيدٌ وَذَلِكَ أَيْضًا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي
يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُؤْهِمُ أَيْضًا هَذَا الْمَوْضِعُ عَكْسَ هَذَا.
وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي الْمُخْذِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ إِلَهْمَةٍ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ
يَكُونَ الْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا
يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يُظَنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ السَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ أَمْوَالٍ لِلْكُلِّ
(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَدْحُ بِمَحْضَرَةِ الَّذِينَ يُجِبُونَ الْمَدْحَ
كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ آيْثِيَةِ بِآيْثِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ
يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ
كَانَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنْ الْمَدْحِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجِ مَدْحِ الْأَبَاءِ
وَذِكْرِ مَآثِرِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ الْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنْ
الْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَالرَّجُلُ الْكَبِيرُ
إِلَهْمَةً الَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ الْمَرَاتِبِ يُمدَحُ
بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجِ أَغْنَى بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤْمَلُ أَنْ يَسْمُو
نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ آيِ مَآثِرٍ أَبْتَدَأَ مِنْ قَبْلِ آبَائِهِ وَإِلَى آيِ مَآثِرٍ
يَنْتَهِي مِنْ قَبْلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا الَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نِيلِ أَكْثَرِ مَا

الْفَضِيلَةَ وَمِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا
مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ النَّاسِ. وَمِنْ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْهَيْئَاتُ
الْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ الَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي الشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ
الشُّعُورِ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الشَّرَفِ إِذَا كَانَ لَيْسَ كُلُّ
أَحَدٍ يَسْهَلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعْرِهِ لِأَنَّ الْمَوْفُورِي الشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ
مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ الشَّعْرِ وَلَا يُتَمَتُّونَ بِأَيِّ رَهْنَةٍ اتَّفَقَتْ. وَالْأَزْيَاءُ
الَّتِي كَانَتْ تَتَّخِذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هَذَا النَّوعِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو
(قَالَ) وَمِنْ الشَّرَفِ أَلَّا يَحْتَاجَ الْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ
يَكُونُ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَبْغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْأُمُورِ
الْقَرِيبَةِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالنَّقَائِصِ وَهِيَ النَّقَائِصُ الَّتِي قَدْ تُوْجِدُ عَنْهَا
أَفْعَالُ الْفَضِيلَةِ أَوْ الْفَضَائِلُ الَّتِي قَدْ تُوْجِدُ عَنْهَا أَفْعَالُ النَّقَائِصِ.
فَيُمْدَحُ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي تُوْجِدُ عَنْهَا أَفْعَالُ الْفَضِيلَةِ بِأَنْ يُوْهِمَ أَنَّهَا
فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالُ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ الْفَضَائِلِ. وَكَذَلِكَ
يُوْهِمُ فِي الْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ وَجِدَ عَنْهَا
أَفْعَالُ النَّقَائِصِ. فَمِمَّا لُفِّيَتْ عَنْهَا أَفْعَالُ الْفَضَائِلِ
فَيُوْهِمُ أَنَّهَا فَضَائِلُ الْعِي الَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ الْحَلِيمِ فَيُوْهِمُ
بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَالْبَلَّةُ الَّذِي قَدْ تُوْجِدُ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي السَّمْتِ
فَيُوْهِمُ بِذَلِكَ أَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذَلِكَ الْعَدِيمُ الْحَسِّ قَدْ يُوْهِمُ فِيهِ
أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذَا كَانَ قَدْ يُوْجِدُ لَهُ فِعْلُ الْعَفِيفِ بِالْعَرَضِ. وَكَذَلِكَ

أَيْضًا لِقَوْلِ ذَلِكَ وَلَا لَتَغْرِضَهُ لِعَلِمِهِمْ أَنَّ مِثْلَهَا لَا يُتَّهَمُ بِمِثْلِ
هَذَا

(قَالَ) وَلِذَلِكَ كَانَ التَّعَصُّبُ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تُكْسِبُ الْعَجْدَ
وَالْحُمَامَةَ عَنْهَا قَدْ تَجَمَّلُ الْمُتَعَصِّبُ لَهَا وَالْحَامِي عَنْهَا مِنْ أَهْلِ
الْفَضَائِلِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِجَاهِدَةٍ كَبِيرَةٍ لِلطَّبِيعَةِ مِثْلِ
الْعَاقِفِ وَالشَّجَاعَةِ وَغَيْرِهِمَا. وَذَلِكَ إِذَا صَارَتْ لَهُ مَلَكَهٌ بِتَرَدَادٍ
فَعَلَهَا وَالتَّعَصُّبُ لَهَا وَالْحُمَامَةُ عَنْهَا كَمَا عَرَضَ لَهُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي
اقتَصَصْنَا ذِكْرَهَا مَعَ ذَلِكَ الرَّجُلِ. وَذَلِكَ أَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ
الْأَفْعَالِ قَدْ يَصِيرُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ الَّتِي لَا
تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِجَاهِدَةٍ كَبِيرَةٍ

(قَالَ) وَالْإِنْعَامُ عَلَى الْغَيْرِ إِذَا لَمْ يَسْتَفِدِ الْمُنْعَمُ مِنْهُ شَيْئًا
هُوَ بِمَا يُدْخِلُ بِهِ وَلِذَلِكَ مَا كَانَ الْعَدْلُ وَالْبِرُّ يُدْخِلُ بِهِمَا الْإِنْسَانُ
مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُمَا نَافِعَانِ كَمَا يُدْخِلُ بِهِمَا مِنْ جِهَةٍ مَا هُمَا جَمِيلَانِ .
وَالْإِنْتِقَامُ أَيْضًا مِنَ الْأَعْدَاءِ وَالْأَيُّضُ عَنْهُمْ فِي حَالٍ بِمَا يُدْخِلُ بِهِ .
فَإِنَّ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ هُوَ جَزَاءٌ وَاجِبٌ وَالْعَدْلُ جَمِيلٌ . وَحُبُّ
الْغَلْبَةِ أَيْضًا وَحُبُّ الْكَرَامَةِ بِمَا يُدْخِلُ بِهِمَا لِأَنَّهُمَا عَلَامَتَانِ تَدُلُّانِ
عَلَى إِثَارِ الْفَضَائِلِ لَا لِأَنَّ كُنْتَ سَابِ مَالٍ بِهِمَا . أَمَّا حُبُّ الْغَلْبَةِ
فَتَدُلُّ عَلَى إِثَارِ الشَّجَاعَةِ . وَأَمَّا حُبُّ الْكَرَامَةِ فَعَلَى إِثَارِ جَمِيعِ
الْفَضَائِلِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْفَضَائِلُ الْإِثَرَةُ الْمُخْتَارَةُ هِيَ الَّتِي لَيْسَ
يَقْصِدُ بِهَا مُقْتَنِيهَا إِلَى كُنْتَ سَابِ مَالٍ . لِأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ

وَالْأَفْعَالُ الَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ الْأَمْوَاتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ
الَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا الْمَرْءُ أَكْثَرَ ذَلِكَ مَنْفَعَةٌ
نَفْسِهِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعْلٍ كَانَ الْمَقْصُودُ بِهِ الْغَيْرُ وَلَمْ يَكُنْ
يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يُلْحِظُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ . وَالْفِعْلُ
الَّذِي يَكُونُ إِلَى الْمُحْسِنِينَ إِلَى النَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هَذَا
هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ
الْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ . وَكَذَلِكَ نُضَرَّةُ ذَوِي
الْفَضَائِلِ وَمُحَمَّدَتُهُمْ مِمَّا يُدْحُ بِهِ . وَالنَّجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ مِمَّا
قَدْ يَدُلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ الْحَيَاءَ يَنْعُهُ عَنْ إِيْتَانِ تِلْكَ
الرَّذِيلَةِ . وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ الْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ الْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُدْحُ
بِهَا . وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا كَيْسَتْهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ
إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمَعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا . مِثْلُ مَا حَكَى
أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لَامْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِالْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا
مَشْهُورًا عَرَضَ لَهَا بِالْقَبِيحِ بِأَنْ قَالَ لَهَا : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا
يَمَعْنِي عَنْهُ أَحْيَاءُ فَحُلِمَتْ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ وَلَمْ يُدِرْكَهَا مِنْ
ذَلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا انْفِعَالٌ لِأَنَّهُمَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ
أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لِابْتِهَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كُتِبِي (وَهُمَا صِنْفَا
التَّعْرِيزِ) . لَكِنَّهَا فِي تِلْكَ الْحَالِ جَعَلَتْ تَمَسُّ الْقَضَائِلَ وَتَمْدَحُ
أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ . وَكَانَ أَيْضًا مِنْ مَعَهَا لَمْ يَأْنَفُوا

الْفَضَائِلُ فَهِيَ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا الْآنَ وَهِيَ عَلَامَاتُ الْفَضَائِلِ
 وَأَعْرَاضُهَا اللَّاحِقَةُ لَهَا. وَأَفْعَالُهَا إِنَّمَا يُنْدَحُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً
 مَحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَفْعَالِ الْفَضَائِلِ قَدْ لَا يُنْدَحُ بِهَا وَكَذَلِكَ
 كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ. فَمِثَالُ الْأَفْعَالِ وَالْأَعْرَاضِ الَّتِي هِيَ مَحْمُودَةٌ
 أَفْعَالُ الشُّجْعَانِ فِي الْحَرْبِ أَوْ مَنْ فَعَلَ فِي الْحَرْبِ فِعْلَهُمْ وَإِنْ لَمْ
 تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَ الشُّجَاعَةِ. وَكَذَلِكَ الْأَعْرَاضُ الَّتِي تَلْحَقُ الشُّجْعَانَ بِمَا
 يُنْدَحُ بِهَا. وَمِثَالُ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَا يُنْدَحُ بِهَا فِي وَقْتٍ مَا بَذَلَ
 الْمَالُ فَإِنَّهُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ السَّخَاءِ لَكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ
 عَلَى جِهَةِ التَّبَذِيرِ. وَمِثَالُ الْأَعْرَاضِ الَّتِي لَا يُنْدَحُ بِهَا أَنْفِعَالُ
 الْمَرْءِ عَنِ الْعَدْلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ الْعَدْلِ مَمْدُوحٌ وَأَمَّا
 الْأَنْفِعَالُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِمَمْدُوحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَمٌّ. وَبِالْجُمْلَةِ
 فَأَفْعَالُ الْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمْدُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقْدِيرَ
 الْعَدْلِ وَمِمَّا يُنْدَحُ بِهَا الْأَفْعَالُ الْعَظِيمَةُ الشَّاقَّةُ الَّتِي جَزَاؤُهَا
 الْكَرَامَةُ فَقَطْ. فَإِنَّ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا الْكَرَامَةُ خَيْرٌ
 مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَزَاؤُهَا الْمَالُ. وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ فِعْلٌ يُجَازَى
 عَلَيْهِ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَقَعْلَةٌ فَاعِلٌ مِنْ أَجْلِ الْكَرَامَةِ فَقَطْ مُدِحٌ
 بِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْمَرْءُ مِنَ الْفَضَائِلِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ مُدِحٌ بِهِ.
 وَفِعْلُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ خَيْرَاتٌ بِإِطْلَاقٍ كَذَلِكَ مِمَّا يُنْدَحُ بِهِ.
 وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي فِي طَبِيعِهَا خَيْرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَادَّةً لِلْفَاعِلِ يُنْدَحُ
 بِهَا أَيْضًا. مِثْلُ فِعْلِ الْعَدْلِ فَإِنَّ الْعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَسْتَضِرُّ بِهِ.

جَمِيعًا. وَفَضِيلَةُ السَّخَاءِ وَالْمُرُوءَةِ عِنْدَ الْحَاوِيحِ آثَرُ وَنَهَا عِنْدَ غَيْرِ الْحَاوِيحِ.
 وَإِذَا تَنَفَّصُ فَضِيلَةُ الْمُرُوءَةِ مِنَ السَّخَاءِ بِالْأَقَلِّ وَالْأَكْثَرِ لِأَنَّ
 فِعْلَ كِلَيْتِهِمَا هُوَ فِي أَمَالٍ لَكِنَّ الْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ
 السَّخَاءِ. فَأَمَّا الْبَرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي الْفَاضِلُ بِهَا لِكُلِّ أَمْرٍ
 مِنَ النَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذَلِكَ بِقَدَرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ. وَالتَّجَوُّزُ هُوَ الْخُلُقُ
 الَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمَرْءُ الْأَشْيَاءَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي
 السُّنَّةِ. وَأَمَّا الشُّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ الْمَرْءُ بِهَا فَعَالًا لِلْأَفْعَالِ الصَّالِحَةِ
 الدَّافِعَةِ فِي الْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذَلِكَ
 خَادِمًا لِلْسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْجَبِينُ فَضِدُّ هَذَا. وَأَمَّا الْعَقَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا الْمَرْءُ
 فِي شَهَوَاتِ الْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ السُّنَّةُ. وَالتَّجَوُّزُ ضِدُّ هَذَا.
 وَأَمَّا السَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ الْجَمِيلَ الْمَشْهُورَ فِي أَمَالٍ. وَالِدَّاءَةُ ضِدُّ
 هَذَا. وَأَمَّا كِبَرُ الْهَمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ الْأَفْعَالِ الْعَظِيمَةِ
 وَصِغَرُ النَّفْسِ. وَالذَّذَالَةُ ضِدُّهَا. وَأَمَّا اللَّبُّ فَفَضِيلَةُ الْعَقْلِ الَّذِي يَكُونُ
 بِهِ حُسْنُ الْمَشُورَةِ وَالرُّوِيَّةِ مَعَ وُجُودِ الْفَضَائِلِ الْخَلْقِيَّةِ لَهُ الَّتِي هِيَ مِنْ
 صَلَاحِ الْحَالِ. فَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدَرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ
 فِي هَذِهِ الصِّعَاعَةِ. وَأَمَّا سَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُدْخِلُ بِهَا عَدَا الْفَضِيلَةِ
 فَلَيْسَ يَفْسِرُ الْوُقُوفُ عَلَيْهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ الْفَضَائِلِ
 وَمِثْلَ التَّادِبِ وَالْأَرْتِيَاضِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا تَحْصُلُ الْفَضَائِلُ هِيَ أُمُورٌ
 حَسَنٌ وَمَمْدُوحٌ بِهَا. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجَدُ فِي الْفَضَائِلِ أَنْفُسُهَا
 أَعْنِي الْأَعْرَاضَ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا. وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةٌ

وَهِيَ الْأُمُورُ الرَّاجِعَةُ إِلَى الْإِخْتِيَارِ
(قَالَ) وَمَنْ أَجَلَ أَنَّهُ يَغْرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمَدِّحَ النَّاسُ
وَالرُّوحَانِيُونَ بِالْفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ الْفَضِيلَةِ وَلَيْسَ يَغْرِضُ هَذَا فِي
مَدْحٍ هَؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَفِّسَةِ وَغَيْرِ الْمُتَنَفِّسَةِ .
أَعْنِي أَنَّهُ يُمَدِّحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةً عَنِ الْفَضِيلَةِ . فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ
هَاهُنَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا الْمُقَدَّمَاتُ فِي الْمَدْحِ بِالْفَضَائِلِ
وَيَغْيَرُ الْفَضَائِلِ لِيَكُونَ الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ عَامًّا فَقُولُ : إِنَّ الْجَمِيلَ هُوَ
الَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَهُوَ مَمْدُوحٌ وَخَيْرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ
خَيْرٌ . وَإِذَا كَانَ الْجَمِيلُ هَذَا فَبَيِّنْ أَنَّ الْفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مُحَالَةَ
لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ . وَالْفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَتُهُ مُقَدَّرَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ
هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ ذَلِكَ التَّقْدِيرِ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَعْنِي الْحَافِظَةَ
لِهَذَا التَّقْدِيرِ وَالْفَاعِلَةَ لَهُ . وَإِذَلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ
بِهِ نَحْوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ الْقَدْرِ عَظِيمِ الشَّانِ فِي حُصُولِ تِلْكَ الْغَايَةِ
عَنْهُ . فَمَا أَجْزَاءُ الْفَضِيلَةِ فَالْبَرُّ أَيْ الْعَدْلُ الْعَامُّ وَالشُّجَاعَةُ وَالْأُرْوَةُ
وَالْعِفَّةُ وَكِبَرُ الْهِمَّةِ وَالْحِلْمُ وَالسَّخَاءُ وَاللُّبُّ وَالْحِكْمَةُ . وَهَذِهِ
الْفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ الْفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ
مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُفْعَلُ فِي أَنْاسٍ آخَرِينَ وَهَذِهِ الَّتِي تُفْعَلُ فِي
أَنْاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعْظَمَ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْهَا عِنْدَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ
دُونَ حَالٍ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ الشُّجَاعَةِ أَثَرُ فِي وَقْتِ الْحَرْبِ
مِنْهَا فِي وَقْتِ السَّلَامِ . وَأَمَّا فَضِيلَةُ الْعَدْلِ فَوَثْرَةٌ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ

النَّافِعَةِ فِي الْغَايَةِ لِنَهَا إِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ التَّحْلِيلِ مِنَ النَّظَرِ
إِلَى الْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوْجَدُ الْمُفْنِعَاتُ فِي
النَّافِعِ مِنَ الشَّئْنِ فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ وَكَمْ اتَّخَذَ السِّيَاسَاتِ وَالشَّئْنِ
الَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْكَافِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ. وَأَمَّا الْقَوْلُ
فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى التَّحْقِيقِ فَقِي الْأَقَاوِيلِ الْمَدْنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفه في النوع الثبتي . وفي الفضيلة
والنقيصة والمدح والذم وتصرف الخطيب فيهما

وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا فَتَحْنُ قَائِلُونَ فِي الْفَضِيلَةِ وَالنَّقِصَةِ
وَالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ
تَعْرِيفِنَا هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنْ نَعْرِفَ الْأُمُورَ الَّتِي بِهَا يُثَبَّتُ الْمَرْءُ فَضِيلَةً
نَفْسِهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقَ الثَّانِي مِنَ الطَّرِيقِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَقَعُ
بِهَا الْإِقْتِنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْمَدْحِ أَغْنِي
أَنْ يَكُونَ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحٍ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا
أَنْفُسَهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمدَحُ بِهَا الْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِالْفَضِيلَةِ فَقَطْ

السِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لَأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا الْغَايَةَ عَلِمْنَا الْأَشْيَاءَ
الْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ الْغَايَةِ فَغَايَةُ السِّيَاسَةِ الْجَمَاعِيَّةِ الْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ
خِصَّةِ الرِّئَاسَةِ الثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ السُّلْطَانِ الْفَضِيلَةُ وَالتَّمَسُّكُ
بِالسُّنَّةِ. وَغَايَةُ الْوَحْدَانِيَّةِ الْكَرَامَةُ وَالسِّيَاسَاتُ الَّتِي لَيْسَ يُوَضَّعُ
فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ التَّحْفُظُ وَالْإِحْرَاسُ مِنْ
الْحُلُولِ الْوَاقِعِ فِي السُّنَنِ بِتَبَدُّلِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمَكَةِ. وَيَتَّبَعِي أَن
تَعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ السِّيَاسَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُنْفَى بِسَيْطَةٍ
وَأِنَّمَا تُنْفَى أَكْثَرُ ذَلِكَ مُرَكَّبَةٌ كَالْحَالِ فِي السِّيَاسَةِ الْمَوْجُودَةِ
الْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تَوَمَّلْتَ تَجِدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ
وَتَغْلِبُ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ السِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ
بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ الْأَخْلَاقَ وَالسُّنَنَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ
كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ السِّيَاسَاتِ أَعْنِي النِّفَاعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي
أَنْفُسِنَا الْخَلْقَ بِتِلْكَ الْأَخْلَاقِ وَالتَّمَسُّكِ بِالصَّنَفِ مِنَ السُّنَنِ الَّتِي
نُزِمُ الْإِقْتِنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي يُحْتَضَرُ بِهَا عَلَى
السُّنَنِ مُقْنَعَةً إِذَا كَانَ الْمَشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى
تَكُونُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمَذْكُورَةُ هَاهُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا.
فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا الْخَلْقُ الَّذِي نَحْتَضِرُ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي الْحَثِّ
عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي إِلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ
نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوْجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى السُّنَنِ

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ الْأَدَبِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ السُّنَّةُ فَإِنَّ الَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ السُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ التَّلَاسُطِ. وَهَذَا هُوَ التَّلَاسُطُ الَّذِي يَخْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالسَّعَادَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذَلِكَ كَانَ هُوَ لَا أَهْلَ فَضَائِلَ وَأَقْتِدَارٍ عَلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي تُضْلِحُ الْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحْزُرٍ بِمَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ الْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ بِهَذَا الْأِسْمِ. وَهَذَا التَّلَاسُطُ الَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِثَاسَةُ الْمَلِكِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي تَكُونُ أَرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ الْعُلُومُ النَّظَرِيَّةُ. وَالثَّانِيَةُ رِثَاسَةُ الْأَخْيَارِ وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهَذِهِ تُعْرَفُ بِالْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْفُرْسِ الْأَوَّلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَضْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ التَّلَاسُطِ فَهِيَ الرِّثَاسَةُ الَّتِي يُحِبُّ الْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ الرِّثَاسِيَّةِ وَالْأَلَا يَنْقُصُهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ الْأَخْيَارِ. وَهَذِهِ الْمَدِينُ رُبَّمَا كَانَتْ السُّنَنُ الْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةٌ غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي الدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي سُنَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنِ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوِّضُ الْأَمْرُ فِيهَا إِلَى الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ الرُّومِ الْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هَذِهِ

يَكُونُ خَلاصُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَقَوَامُهَا. وَالسَّنُ الثَّانِيَةُ الْخَطِيرَةُ هِيَ السَّنُ
الْعَادِلَةُ أَعْنِي الْمَوْضُوعَةُ فِي الْعَدْلِ الَّتِي رَسَمَهَا الرَّئِيسُ الْأَوَّلُ فِي
تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَوْ أَلْسَلَطُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ الرَّئِيسِ الْأَوَّلِ. وَهَذِهِ السَّنُ
الثَّانِيَةُ أَعْنِي السَّنُ الْعَادِلَةُ تَخْتَلِفُ فِي السِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ
غَايَتِهَا. وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ السِّيَاسَاتِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ فِي
سِيَاسَةِ التَّغْلِبِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى الرَّئِيسِ إِذَا لَطَمَ الْمَرْؤُسَ. وَفِي
سِيَاسَةِ الْحُرِّيَةِ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُلَطَمَ الرَّئِيسُ مِثْلَ اللَّطْمَةِ الَّتِي
لَطَمَهَا. وَالسِّيَاسَاتُ بِالْجُمْلَةِ أَرْبَعُ السِّيَاسَةِ الْجَمَاعِيَّةِ وَسِيَاسَةُ الْحِسَّةِ
وسِيَاسَةُ جُودَةِ التَّسَلُّطِ وَسِيَاسَةُ الْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ الْكَرَامِيَّةُ. وَهَذِهِ
السِّيَاسَاتُ كُلُّهَا الْمَقْصُودُ بِالسَّنِ الْمَوْضُوعَةِ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ الْمَدِينَةُ
وَالْكُلُّ لَا الشَّخْصُ. فَأَمَّا الْمَدِينَةُ الْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي نَكُونُ الرِّئَاسَةَ
فِيهَا بِالْإِتِّفَاقِ وَالنَّجْتِ لَا عَنْ اسْتِثْهَالٍ إِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هَذِهِ
الْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ. وَأَمَّا حِسَّةُ الرِّئَاسَةِ فَهِيَ الَّتِي يَتَسَلَّطُ
فِيهَا التَّسَلُّطُونَ عَلَى الْمَدِينِينَ بِأَدَاءِ الْإِتَاوَةِ وَالتَّغْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةٍ
أَنْ تَكُونَ نَفَقَةً لِلْحِمَاةِ وَالْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةً لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ
الْأَمْرُ فِي السِّيَاسَاتِ الْأُخْرَى بَلْ عَلَى جِهَةٍ أَنْ تَحْصُلَ الثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ
الْأَوَّلِ. فَإِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةُ الثَّرْوَةِ.
وَأِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةُ التَّغْلِبِ وَكَانُوا
بِمَنْزِلَةِ الْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ الْأَوَّلِ. وَكَانَتْ مُحَامَاةً عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ
مُحَامَاةِ الْإِنْسَانِ عَنْ عَيْدِهِ. وَأَمَّا جُودَةُ التَّسَلُّطِ فَهُوَ التَّسَلُّطُ الَّذِي

(قَالَ) وَالْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَاهُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ
التَّصْحِيحِ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيهَا بِالْقَدَرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَطِيبُ مِنْ
ذَلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا هَتَّى آتَى بِالنَّتَائِجِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ
الْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِأَمْثَلَاتٍ أَلْمَأْخُودَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ فَعَلُوا
تِلْكَ الْأَفَاعِيلَ فَحَقَّقَهُمُ النَّفْعُ أَوْ الضَّرَرُ فَلِذَلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ
أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقَصَصِ وَالْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُثَبَّتُ بِهَا أَنْ الشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ
أَضَرُّ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هَذَا
بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لَكِنْ أَهْمُ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي
بِهَا يَقْدَرُ عَلَى جُودَةِ الْإِقْتِنَاعِ فِي السُّنَنِ وَالْإِشَارَةِ بِالسُّنَنِ الَّتِي لَا يُوجَدُ
أَنْفَعُ مِنْهَا. وَلِذَلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ الْقَوْلَ فِيهَا هَاهُنَا فَقَوْلُ:
إِنَّ الْإِثْمَارَةَ بِالسُّنَنِ النَّافِعَةِ وَالْإِقْتِنَاعَ النَّامَّ فِيهَا يَتَأْتَى بِمَعْرِفَةِ اصْنَافِ
السِّيَاسَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَحُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذَلِكَ أَنَّ
فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ السُّنَنُ الَّتِي بِهَا

حَصَلَ فَقَدْ اسْتَفَادَ الْخَيْرَ مِنْهُ الْقَائِلُ لَهُ . وَآيْضًا مَا أُثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ
 وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرِيًّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ مَا يُعْلَمُ كَالْحَالِ
 فِي الصِّحَّةِ وَالْجَمَالِ . فَإِنَّ الصِّحَّةَ مُؤَثَرَةٌ بِذَاتِهَا وَالْجَمَالَ مُؤَثَرٌ لِلغَيْرِ .
 وَآيْضًا فَإِنَّ النَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَالنَّافِعَةِ فِي طُولِ
 الْعُمُرِ وَفِي حُسْنِ الْعَيْشِ أَعْنِي الْعَيْشَ الرَّغْدَ وَفِي اللَّذَاتِ وَفِي
 اضْطِاعِ الْخَيْرَاتِ . وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِالصِّحَّةِ وَالْيَسَارِ أَنَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا
 يَجْمَعَانِ الْخُلُوءَ مِنَ الْحُزَنِ وَالْفِعْلَ بِلَذَّةٍ أَعْنِي أَنَّ الصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ
 الْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَالْيَسَارُ سَبَبُ الْخُلُوءِ مِنَ الْأَحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ
 هَذَيْنِ عَلَى الْإِنْفِرَادِ قَاضِلٌ وَخُتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي الْخُلُوءُ مِنَ الْأَحْزَانِ
 وَالْأَفْعَالِ اللَّذِيذَةِ فَإِذَا اجْتَمَعَا لَا مَرِيٍّ جَعَلَاهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ
 شَيْءٍ سِوَاهُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهْلُهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هَذِهِ
 خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِالْحَقِيقَةِ لَا مِنْ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْمَذْحُ .
 وَلِكُونَ الْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ الْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ السَّعَادَةُ قَوْمٌ
 وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذَلِكَ
 وَاجِبٌ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُ آخَرَى أَنْ تَكُونَ السَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَا مَوْنَةً
 الزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ الضَّرَرُ اللَّاحِقُ لَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَقَدْ اخْتَلَفَا كَمَنْ لَهُ
 عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَقَدَهَا لِأَنَّ الَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبُّ مِمَّا سُلِبَ
 مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَتْ السَّعَادَةُ فِي أَلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ
 لَمْ يَكُنِ الضَّرَرُ اللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ أَلْمَالِ كَالضَّرَرِ اللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ
 إِنْ كَانَ هُوَ السَّعَادَةُ وَحْدَهُ

الصَّحِيحِ . وَكُلُّ هَذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ الْأَمْرَ الَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَقَرَّبًا . وَآيضًا فَلَنْ أَجْزَأَ الْعَظِيمَ مِنَ الشَّيْءِ هُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ الْقَلْبِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْدِّمَاغِ أَوِ الرَّيْبِ . مِنَ السَّنَةِ وَالشَّبَابِ مِنَ الْمَدِينَةِ . وَآيضًا فَإِنَّ النَّافِعَ فِيمَا الْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَالضَّارُّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ الصِّحَّةِ فِي السَّيْخُوخَةِ وَالْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ الصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ الصِّحَّةِ فِي الصِّبَا وَالْمَرَضِ فِيهَا أَضَرُّ . وَآيضًا مَا كَانَ مِنَ الْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى الْعَالِيَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَآيضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ الْعُمُرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلُ الْحِكْمَةِ وَالْجَلْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ الْعُمُرِ . وَآيضًا الْأَشْيَاءُ الَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قِيلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةً تَمَامًا . وَارْسَطُو يُسَمِّي الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي الْآخَرَ الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْمَذْحُ أَعْنِي الَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا (قَالَ) وَحَدُّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْمَذْحُ أَنَّهَا الَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بَغَلَطٍ لَمْ تُنْمَدْخْ أَضَلًا وَالَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا الْحَقِيقَةُ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى التَّمَامِ .

(قَالَ) وَلِذَلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ الشَّيْءِ الْجَمِيلِ آثَرُ مِنْ فِعْلِ الشَّيْءِ الْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ الْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلَ وَلَا مُدِيحٌ فَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ الْإِنْفَعَالِ وَالْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

الْكَبِيرُ مِنْ قَبْلِ الْفَضَائِلِ أَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِالْفَضْلِ
هُمْ أَيْضًا أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ . فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَصْنَافُ النَّاسِ الَّذِينَ إِذَا
اخْتَارُوا شَيْئًا وَاخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هَؤُلَاءِ أَفْضَلَ
وَأَثَرُ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ الشَّيْءِ إِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُحِيلُ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ
وَلِذَلِكَ لَمَّا أَرَادَ أُوْمَيْرُوشُ الشَّاعِرُ أَنْ يُعْظِمَ الشَّرَّ الَّذِي لَحِقَ الْمَدِينَةَ
أَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ الْأَوْلَادِ وَالنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ الْمَدِينَةِ
بِالنَّارِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الشَّرُّورِ الْمَلْحَقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذَلِكَ التَّرْكِيْبُ قَدْ يُحِيلُ فِي الشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَهُوَ
عَكْسُ . هَذَا أَعْنِي أَنْ يُؤْخَذَ بَدَلُ الْجُزْئِيَّاتِ الْكُلِّيِّ الَّذِي يَعْمُهَا
وَالسَّبَبُ فِي الْإِقْتِنَاعِ فِي هَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ هُوَ التَّغْيِيرُ وَالْإِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الْأَعْسَرُ وَجُودًا فِي نَفْسِهَا
وَالْأَقْلُ وَجُودًا يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا أَفْضَلُ كَانَتْ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيرَةُ
الْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَالسَّهْلَةُ الْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً إِذَا وُجِدَتْ فِي
الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وَجُودُهَا أَوْ فِي الْأَزْمِنَةِ الَّتِي يَقِلُّ وَجُودُهَا
فِيهَا أَيْضًا أَوْ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ النَّاسِ الَّتِي يَقِلُّ وَجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ
وُجُودِ الْإِنْسَانِ حَظِيْبًا فِي سِنِّ الصَّبَا أَوْ فِي الْمُدَدِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ
ثَمَنِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهِ . مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَاءَهُ أَنْ يَفْعَلَ فِي زَمَانٍ
طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ أَوْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنْ الْقُوَى الَّتِي يَقِلُّ
صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلُ أَنْ يَفْعَلَ الضَّعِيفُ فِعْلَ الْقَوِيِّ وَالْمَرِيضُ فِعْلَ

وَقَلَّةَ قَبُولِ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُحْيِلُ الْأَمْرُ بِعَكْسِ هَذَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارُ الْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي الْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ الْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ. وَذَلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هَؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجَهَةِ أُخْرَى وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمَرْضِيُّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَالْأَقْلَرُ مِنَ الْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو التَّمْيِيزِ. وَآيضًا فَإِنَّ الْفَاضِلِينَ الَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرُ وَهُمْ أَقْلٌ وَجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَالرِّثَاسَاتِ الَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتْ الْمَرْءُ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ اللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ الْمَقْصُودَةُ عِنْدَهُ بِالْفَضَائِلِ. فَمِنْ هَاهُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هَذَا الصَّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ الْمُضَادِّ لِهَذَا مَقْبُولَةً وَهُمْ الَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمْ الْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ الصَّنْفِ الْمَقْبُولِ الْقَوْلُ مِنَ النَّاسِ جِدًّا جِدًّا الصَّنْفُ الَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَأَةً الْفَضِيلَةِ كَانَ الْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ فَضِيلَتُهُ. وَالصَّنْفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ نَالَتْهُمْ الْمَضَرَّةُ الْعَظِيمَةُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ لِمَكَانِ الْفَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُ الْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمِثْرَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَالصَّنْفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَرَى فِيهِ هَذَانِ الصَّنِفَانِ مِنَ النَّاسِ أَعْنِي الَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَالَّذِينَ نَالَهُمُ الضَّرَرُ

الجمهور وما اختاره أيضاً كثير من الناس أثر مما يختاره القليل من
الناس فإن الخير كما قيل هو الذي يشاق إليه الكل . وما
اختاره أيضاً الحكماء الأول أعني الذين لا يأخذون بالأحكام
من غيرهم وهم الشرايع أفضل مما لم يختاروه . وما اختاره أيضاً
الذين يتلقون الأحكام من هؤلاء أفضل مما ليس يختاره هؤلاء .
والذين يتلقون الأحكام من الحكماء الأول وهم الذين تؤخذ عنهم
أصول الأحكام صنفان إما سامع فقط مبلغ وإما سامع عالم
أي قادر على أن يستنبط من تلك الأصول أحكاماً ما لم
يصرح بها الحكماء الأول . وهؤلاء صنفان إما مسلطون من قبل
الحكماء الأول وهم القضاة وما أشبههم وإما غير مسططين وهم
الفقهاء . ومن هذه الأشياء ما لجميع أصناف المتلقين من الحكماء
الأول أن يقولوا فيها . وهو ما سمعوه أو ما شاهدوه من الحاكم
الأول ومنها ما يختص بذوي العلم منهم وهو القول في الأشياء التي
تستنبط عن الأحكام الأول التي صرح بها الحاكم الأول وليس
للسامعين دون علم أن يقولوا في هذه الأشياء . وإما الذي يخص
الحكماء الأول القول فيه فهي الأصول التي تتدرج منزلة
المبادئ لسائر ما يحكم به السامعون ذوو العلم أعني المسططين
والفقهاء وهي التي يسميها أرسطو الأمور العظمى . والفضلاء الأبرار
الذين جرت العادة أن يأخذ عنهم الجميع أو الأكثر فحكمهم
أفضل فإن عدم الأخذ قد يُحِيلُ هواناً ونقصاً في المرء الفاضل البر

كَانَ يَهْدِيهِ الصِّفَةُ آغْنِي مُتَشَوِّقًا لِلْكَلِّ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ الْخَيْرُ وَالْغَايَةُ
 قَالَتُ الدَّيْءُ إِذَنْ خَيْرٌ وَالْأَزِيدُ لَذَّةٌ هِيَ الْمِلْدَاتُ الَّتِي هِيَ أَمْرٌ مِنَ الْأَذَى
 وَالْحُزْنُ وَأَدْوَمُ بَقَاءً. وَاللَّذَّةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي مِنَ اللَّذَّةِ الْقَبِيحَةِ لِأَنَّ الْجَمِيلَ
 بِمَا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُخْتَارُ
 الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ لِكُونِهِ إِمَّا لِنَفْسِهِ وَإِمَّا لَصَدِيقِهِ. وَبِالْجَمَلَةِ فَكُلُّ
 مَا كَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمِلْدَةِ أَفْضَلَ فَهُوَ الَّذِي بِمَا هُوَ أَحْسَنُ وَكُلُّ مَا هُوَ
 مِنْهَا أَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ الَّذِي مِنَ الَّتِي هِيَ مِنْهَا أَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ
 مِنَ الْخَيْرَاتِ أَثْبَتَ فِيمَا فَهُوَ الَّذِي بِمَا هُوَ أَقْلُ ثَبَاتًا وَذَلِكَ أَنَّ الصِّحَّةَ
 لَمَّا كَانَتْ أَرْسَخَ فِينَا مِنَ الْجَمَالِ كَانَ وَجُودُ الصِّحَّةِ لَنَا الَّذِي مِنْ
 وَجُودِ الْجَمَالِ. وَالْأَشْيَاءُ اللَّذِيذَةُ أَوْ الْأَكْثَرُ لَذَّةً إِنَّمَا السَّبَبُ
 فِي وَجُودِهَا لَمَّا يَهْدِيهِ الصِّفَةُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ إِمَّا طُولُ اعْتِيَادِ الشَّيْءِ حَتَّى
 يَصِيرَ لَنَا الْإِلْتِدَادُ بِهِ مِنْ قَبْلِ الْعَادَةِ كَالْحَالِ فِي اللَّذَّةِ الْخَاصَّةِ عَنْ
 الْعِلْمِ. وَإِمَّا مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا لَذِيذَةٌ جَدًّا عِنْدَنَا بِالطَّبْعِ. وَاهْوَى قَالُوا أَشْيَاءَ
 إِذَنْ إِنَّمَا تَصِيرُ أَكْثَرُ لَذَّةً إِمَّا مِنْ قَبْلِ طُولِ الزَّمَانِ وَإِمَّا مِنْ
 قَبْلِ اهْوَى وَالْمُوَافَقَةِ الَّتِي بِالطَّبْعِ. وَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُتَلَاثِمُ هَوَانًا
 مُلَائِمَةً أَكْثَرُ فَإِنَّ مَنَفْعَتَهَا لَنَا إِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوحِهَا وَثُبُوتِهَا.
 وَقَدْ تُؤَخَّذُ مُقَدَّمَاتُ الْإِنْفَعِ وَالْأَفْضَلُ مِنْ مَوَاضِعِ النَّظَائِرِ
 وَالتَّصَارِيفِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَتْ الشُّجَاعَةُ آثَرُ مِنَ الْعَفَافِ فَالْرَّجُلُ
 الشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَفِيفِ
 (قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ الْكُلُّ آثَرًا لِمَا لَا يُخْتَارُهُ الْكُلُّ مِنْ

الصَّائِعُ الْعَلِيَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِيَّةِ وَإِنَّمَا كَانَا هَذَانِ الْمَوْضِعَانِ
مُتَلَاذِمَيْنِ لِأَنَّ نِسْبَةَ الصَّنَاعَةِ إِلَى الصَّنَاعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعْلِهَا إِلَى فِعْلِهَا
(قَالَ) وَالَّذِي يَحْكُمُ بِهِ الْكُلُّ مِنَ الْجُمْهُورِ أَوْ الْأَكْثَرُ
أَوْ ذَوُو الْأَلْبَابِ وَالْأَخْيَارُ الصَّالِحُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ فَهُوَ أَفْضَلُ
بِاطْلَاقٍ وَفِي نَفْسِهِ إِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ
وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْأَرَءَاءِ مِنْ خَارِجٍ . فَإِنَّ
ذَوِي الْأَلْبَابِ مِنَ النَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ
مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ أَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ
بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقِفُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ فِي الْعُلُومِ وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ
الْخَيْرِ مِنْ أَنَّهُ الَّذِي يَتَشَوَّقُهُ الْكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذَلِكَ الْخَيْرُ الَّذِي
يَتَشَوَّقُهُ الْكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ الطَّبِيعِيَّةِ أَعْنِي اللَّيْبِيَّةَ فَإِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ
الْفِطَرُ اللَّيْبِيَّةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَيْبِيَّةٌ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ أَوْ خَيْرٌ أَفْضَلُ مِنْ
خَيْرٍ مِثْلُ عَلَيْهِمُ أَنْ الشَّجَاعَةَ وَالْأَدَبَ وَالْجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوَّقُهُمْ
إِيَّاهَا . وَمَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى إِنْسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يَرَى
مِنَ النَّاسِ الْفَاضِلِينَ أَنَّهُ أَنْ يُجَارَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُجَوَّرَ هُوَ فَإِنَّ
هَذَا الْخَيْرَ لَا يُدْرِكُهُ النَّاسُ بِحَسَبِ طَبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يَرَى هَذَا الرَّأْيُ
الَّذِي هُوَ مِنَ النَّاسِ فِي غَايَةِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ . وَإَيْضًا مَا كَانَ مِنَ
الْخَيْرَاتِ مَعَهُ أَكْثَرُ لَذَّةٍ فَهُوَ أَثَرٌ . وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ
الْكُلَّ مِنَ الْجُمْهُورِ يَتَسَدِّدُونَ إِلَى اللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلِبُهُمُ اللَّذَّةُ
هُوَ مِنْ أَجْلِ اللَّذَّةِ نَفْسِهَا لَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِهَا . وَمَا

أَرِيدُ. وَأَيْضًا فَإِنَّ مَا كَانَ مِنَ أَلَكَاتِ وَالْفَضَائِلِ وَبِالْجُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ
 الْقَاعِلَةِ أَعْظَمُ فَإِنَّ أَعْمَالَهَا الصَّادِرَةَ عَنْهَا تَكُونُ أَعْظَمَ لِأَنَّ نِسْبَةَ
 الْأَفْعَالِ إِلَى مَبَادِيهَا هِيَ نِسْبَةُ الْمَبَادِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ. فَإِنَّهُ
 إِنْ كَانَ الْبَصَرُ أَثَرٌ مِنَ الشَّمِّ فَإِنَّ الْبَصَارَ أَثَرٌ مِنَ الشَّمِّ
 وَهَكَذَا يُوجَدُ الْأَمْرُ فِي جَمِيعِ الْأَفْعَالِ مَعَ أَسْبَابِهَا الْقَاعِلَةِ لَيْسَ
 فِي الذَّاتِيَّةِ فَقَطْ بَلْ وَفِيهَا يَعْزِضُ عَنِ الشَّيْءِ بِالِاتِّفَاقِ فَإِنَّ الْعَظِيمَ
 يَكُونُ الْإِتِّفَاقُ الَّذِي يَعْزِضُ لَهُ عَظِيمًا وَفِي الْأَعْرَاضِ الْمَوْجُودَةِ فِي
 الشَّيْءِ أَعْنِي أَنَّ الشَّيْءَ الْأَعْظَمَ الْعَرَضُ الْمَوْجُودُ فِيهِ أَعْظَمُ. وَأَيْضًا
 أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ صَاحِبَ أَمْوَالٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُحِبَّ أَمْوَالُ لِيَنَّ
 حُبَّ الْإِنْسَانِ أَفْضَلَ مِنْ حُبِّ أَمْوَالٍ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْفَضَائِلَ أَفْضَلَ
 مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي شَهْوَتُهَا فَاضِلَةٌ أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي
 شَهْوَتُهَا غَيْرُ فَاضِلَةٍ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ شَهْوَةَ الْعُلُومِ فَاضِلَةٌ وَشَهْوَةُ
 الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ غَيْرُ فَاضِلَةٍ فَالْعُلُومُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَكْلِ
 وَالشُّرْبِ. وَأَيْضًا عَكْسُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ مَا هُوَ أَفْضَلُ فَشَهْوَتُهُ أَفْضَلُ
 مِثْلَ أَنَّ الْحِكْمَةَ أَفْضَلُ مِنَ الصِّحَّةِ فَشَهْوَتُهَا أَفْضَلُ مِنْ شَهْوَةِ
 الصِّحَّةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعُلُومَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فَأَعْمَالُهَا خَيْرٌ
 وَأَفْضَلُ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْعُلُومُ الْعِلْمِيَّةُ أَفْضَلَ مِنَ
 الْعَمَلِيَّةِ كَانَ فِعْلُهَا الَّذِي هُوَ الصِّدْقُ أَفْضَلَ مِنَ الَّتِي فِعْلُهَا الْعَمَلُ.
 وَعَكْسُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ الَّتِي فِعْلُهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعُلُومِ فَهِيَ أَفْضَلُ
 وَذَلِكَ أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى الْحَقِّ لَمَّا كَانَ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ كَانَتْ

فُلَانًا أَوَّلَى بِأَن يُنْسَبَ إِلَى الْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ. الَّذِي
أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ إِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ
هُوَ ذَلِكَ الْفِعْلُ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ الضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ الْفَاعِلُ فِيهِ
أَعْظَمَ مِنَ الْغَايَةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: فُلَانٌ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ
مِنْ فُلَانٍ لِأَن فُلَانًا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الْفِعْلِ وَلَوْلَا
إِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِفِعْلٍ ذَلِكَ الْفِعْلُ النِّحْمُودُ وَفِي كِلَا الْمَوْضِعَيْنِ
مَا قَبْلَ الْغَايَةِ إِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ الْغَايَةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الَّذِي وَجُودُهُ
أَقْلُّ فَهُوَ أَفْضَلُ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْحَدِيدِ غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الذَّهَبُ
أَقْلَّ وَجُودًا مِنَ الْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ أَنْفَعُ. وَأَيْضًا مُقَابِلُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ
مَا كَثُرَ وَجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وَجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا
يُقَالُ إِنَّ أَلْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وَجُودِهِ وَتَعَمُّومِ مَنَافِعِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ مَا
هُوَ أَعْسَرُ وَجُودًا فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّ مَا عَسَرَ وَجُودُهُ قَلَّ وَجُودُهُ
وَمَا قَلَّ وَجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيَتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ مَا
سَهَلَ وَجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حَيْثُ يُشَوِّقُ إِلَيْهِ.
وَأَيْضًا الشَّيْءُ الَّذِي ضِدُّهُ أَعْظَمُ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَيْضًا الَّذِي عَدَمُهُ
أَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ الْأَعْظَمِ
وَالْأَقْلِ عِظَمُ الْمَقَاسَةِ فِي الْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي الشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا
خَيْرُ وَلَا شَرٌّ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْغَايَاتِ وَالْأَشْيَاءَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا تُفْعَلُ
الْأَفْعَالُ إِذَا كَانَتْ الْغَايَاتُ بَعْضُهَا أَزِيدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ أَوْ أَزِيدَ
شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ الْغَايَاتِ الْأَزِيدِ هِيَ

حَاجَةً إِلَى أَصْدَقَانِهِ أَوْ إِلَى الْإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَجْعَلُهُ
 أَكْثَرَ حَاجَةً. فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَاسْتِعْنَاءً عَنِ النَّاسِ هُوَ الَّذِي
 يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءٍ قَلِيلَةٍ أَلْعَدِّ سَهْلٍ وَجُودَهَا. وَآيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ
 أَحَدُهُمَا يُخَوِّجُ اقْتِنَاؤَهُ إِلَى الثَّانِي وَالثَّانِي لَا يُخَوِّجُ اقْتِنَاؤَهُ إِلَى
 الْآخَرِ فَإِنَّ الَّذِي لَا يُخَوِّجُ اقْتِنَاؤَهُ إِلَى الْآخَرِ هُوَ آثَرُ. وَمِثَالُ ذَلِكَ
 الْبَسَارُ وَالْبُنُونُ فَإِنَّ الْبَنِينَ يُخَوِّجُونَ إِلَى اقْتِنَاءِ أَلْمَالِ وَالْبَسَارُ لَيْسَ
 يُخَوِّجُ إِلَى اقْتِنَاءِ الْبَنِينَ فَالْبَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَسْتَبِينَ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمُ
 مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذَلِكَ أَنَّ الْإِرَادَةَ مَبْدَأُ الْخَيْرِ وَفِعْلُ
 الْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنَ إِرَادَةِ الْخَيْرِ. وَكَذَلِكَ التَّعَلُّمُ وَالْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ
 لَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ النَّافِعُ دُونَ مَبْدَأٍ. وَإِذَا كَانَ
 شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ الْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ الثَّانِي فَإِنَّ الَّذِي
 يَكُونُ عَنِ الْمَبْدَأِ الْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَعَكْسُ هَذَا آيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ
 شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَاحِدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الثَّانِي
 فَإِنَّ الَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَأَانِ عَلَى
 أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ الْمَبْدَأُ الْفَاعِلُ إِلَى الْغَايَةِ أَمْكَنُ أَنْ يُتَوَهَّمُ
 أَنَّ الْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ الْغَايَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْفَاعِلَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ
 الْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدْ الْغَايَةُ وَأَمْكَنُ أَنْ يُتَوَهَّمُ آيْضًا أَنَّ الْغَايَةَ
 أَعْظَمُ مِنَ الْمَبْدَأِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا الْغَايَةُ لَكَانَ الْفَاعِلُ فَضْلًا. فَثَبَاتُ
 مَا تَجْعَلُ الْغَايَةَ فِيهِ أَعْظَمُ مِنَ الْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي الذَّمِّ: إِنَّ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ اللَّازِمُ تَابِعًا
بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ الْعِلْمِ عَنِ التَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي
الْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ الْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَغْنِي
أَلَّا يَفْعَلَ الْآخَرُ فِعْلَ الْأَوَّلِ. مِثَالُ ذَلِكَ الْفَقْرُ وَالْجُلُ فَإِنَّ الْفَقْرَ
يَلْزِمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ فِعْلَ الْجُلِّ وَلَيْسَ يَلْزِمُ عَنِ الْجُلِّ فِعْلُ
الْفَقْرِ فَإِنَّ الْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ اسْتِعْمَالِ الْمَالِ
الَّذِي هُوَ الْجُلُّ وَآيضًا الَّذِي يَفْعَلُ الْخَيْرَ الْأَنْفَعُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ
النَّافِعِ. مِثَالُ ذَلِكَ الْجِلْدُ وَالْجَمَالُ فَإِنَّ كُلَّيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَالْجِلْدُ
يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يَفْعَلُ بِالْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذَلِكَ
الصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ اللَّذَّةِ لِأَنَّ الصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ
أَكْثَرُ مِمَّا يَفْعَلُ بِاللَّذَاتِ. وَآيضًا فَإِنَّ الَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا
مِنَ الَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذَلِكَ الْخِتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ
الْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ الصِّحَّةِ وَالصِّحَّةَ يُخْتَارُ دُونَ الْجَمَالِ فَالصِّحَّةُ
أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ الْجَمَالِ. وَآيضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالًا
وَالْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى الْكَمَالِ فَالَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ الصِّحَّةِ
وَاللَّذَّةِ فَإِنَّ الصِّحَّةَ كَمَالٌ وَاللَّذَّةُ كَوْنٌ وَالْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى الْكَمَالِ.
وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَالْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ
فَالَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ
غَيْرِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ الْحِكْمَةُ وَالْيَسَارُ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ يُخْتَارُ لِذَاتِهَا
وَالْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَآيضًا فَإِنَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْمَرْءَ إِذَا اقْتَنَاهُ أَقْلًا

جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنْفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ
 مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ . وَكُلُّ
 مَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَوَجَّدَ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ
 فَهُوَ أَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ الصِّفَةُ الْوَاحِدَةُ أَنْفَعَ مِنْ اثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ
 ثَلَاثٍ . وَآيَضًا فَمَا كَانَ الْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الْعَظِيمِ فِي
 جِنْسٍ آخَرَ فَالْجِنْسُ الَّذِي فِيهِ الْعَظِيمُ الْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ
 الْجِنْسِ الْآخَرِ وَمَا كَانَ الْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلُ مِنَ الْجِنْسِ الْأَفْضَلِ
 فَالْعَظِيمُ مِنَ الْجِنْسِ الْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ الْعَظِيمِ مِنَ الْجِنْسِ الْآخَرِ
 وَهُوَ عَكْسُ الْأَوَّلِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الذُّكْرَانُ أَفْضَلُ
 مِنَ الْإِنَاثِ فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ أَفْضَلُ
 مِنَ الْمَرْأَةِ فَالذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنَاثِ . وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ
 كَذَلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ الْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كِنِسْبَةِ الْعَظِيمِ الْآخَرِ إِلَى
 جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ الْجِنْسِ إِلَى الْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ الْعَظِيمِ إِلَى
 الْعَظِيمِ . ثُمَّ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ لَا زِمًا لِشَيْءٍ مَا وَالْآخَرُ غَيْرُ لَا زِمٍ لَهُ
 فَإِنَّ الَّذِي يَلْزِمُ عَنْهُ الشَّيْءُ آثَرُ مِنَ الَّذِي لَا يَلْزِمُ عَنْهُ الشَّيْءُ .
 مِثَالُ ذَلِكَ السُّلْطَانُ وَالثَّرْوَةُ فَإِنَّ الثَّرْوَةَ تَلْزِمُ السُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزِمُ
 السُّلْطَانُ الثَّرْوَةَ . فَلِذَلِكَ السُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ الثَّرْوَةِ وَكَذَلِكَ الْحَالُ
 فِي الْمَضَارِّ فَإِنَّ الْفَقْرَ يَلْزِمُ عَنْهُ الْجُلُ وَلَيْسَ يَلْزِمُ عَنْ الْجُلِ الْفَقْرُ .
 فَالْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ الْجُلِّ وَاللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا
 أَنْ يُوْجَدَ مَعَ أَغْنِيِ الْإِلَازِمِ وَالْمَلْزُومِ مِثْلُ وَجُودِ الْأَبْيَضِ وَالْبَيَاضِ

البحث التاسع

في ابثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض

والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَمِنْ هَذِهِ أَلْوَجُوهُ يَأْخُذُ الْخَطِيبُ الْمُقَدَّمَاتِ الَّتِي مِنْهَا يُنْفَعُ أَنْ الشَّيْءَ نَافِعٌ أَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَنْ الْخَطِيبَ قَدْ يَفْتَرِفُ أَحْيَانًا بِأَنَّ الْأَمْرَ نَافِعٌ وَلَكِنْ يَدَّعِي أَنَّ هَاهُا شَيْئًا هُوَ أَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا أَنَّ الْأَمْرَ أَنْفَعُ وَأَفْضَلُ. فَمِنْهَا أَنْ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ الْأَشْيَاءِ فَهُوَ أَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ. وَالَّذِي هُوَ أَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الَّذِي هُوَ أَقْصَرُ نَفْعًا. وَالَّذِي هُوَ أَكْبَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الْأَصْغَرِ. وَالَّذِي هُوَ أَكْثَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ الْأَقَلِّ. وَالَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ أَكْثَرَ أَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَصِفَاتُ الْخَيْرِ التَّامُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مُحْتَارًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَشَوِّقًا عِنْدَ الْكُلِّ وَأَنْ يَكُونَ ذَوُو الْفَضْلِ وَاللَّبِّ يَحْتَارُونَهُ وَالَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَهُوَ الْخَيْرُ وَالنَّافِعُ الَّذِي فِي الْعَالِيَةِ وَهُوَ الْعَالِيَةُ لِسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُوصَفُ بِالْخَيْرِ. وَالْأَشْيَاءُ الْمُتَصِفَةُ بِالْخَيْرِ الْمُتَعَلِّقَةُ بِهَذَا الْخَيْرِ الَّذِي

أَزِيدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَأَتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ أَوْ بِمَا
 هُوَ شَيْءٌ فِيهِ أَلْمُكَافَأَةُ الْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَأَتَهُ بِالْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ
 مِنْهُ بِاخْتِيَارٍ لِذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذَلِكَ فَإِذَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ
 مَعَ هَذَا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ الْأَصْدِقَاءُ أَعْنِي أَصْدِقَاءُ
 أَلْمُكَافِئِ بِالْفِعْلِ وَيُسُوهُ أَعْدَاءُهُ وَيَكُونُ مَعَ هَذَا مُتَحَبِّبًا مِنْهُ
 عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمُ مَوْقِعِهِ مِنْ
 الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ الصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ الْمُضْطَنَعِ
 إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِيَ أَوْ يَبْدَأَ حُبَّ الْكَرَامَةِ بِالْكَرَامَةِ وَحُبَّ
 أَلْمَالِ بِالْمَالِ وَحُبَّ الْعَلْبَةِ بِالْعَلْبَةِ فَإِنَّ هَذِهِ الصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ
 لَدِيدَةُ فَقَطْ عِنْدَ الَّذِي تُضْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ
 فَاضِلَةٌ وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ الْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ
 أَفْعَالُ الصَّائِعِ وَالْمُكَافَأَةُ عَلَى أَلْمُبْتَدِئِ وَالْمُكَافِئِ أَفْعَالًا سَهْلَةً
 يُمَكِّنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِاسْتِعْدَادِهِمُ الطَّبِيعِيِّ مُهَيَّيْنِ
 لِتِلْكَ الْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ الْمَلَكَةُ الَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ
 نَزْلُكَ الْأَفْعَالِ وَمِنْ الصَّائِعِ الْبَسِيرَةِ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقُصُ
 الْمُضْطَنَعُ شَيْئًا إِلَّا ضْطِنَاعَ بِالتَّأْدِيبِ وَالْمَوْظَظَةِ



أَلْأَفْعَالُ الَّتِي تَكُونُ مِنْ أَجْلِ خَوْفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا
 يَسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا الزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَأَنْقَطَعَتْ وَإِذَا أَنْقَطَعَتْ
 كَانَ مِنْ ذَلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ الْمُضْطَنِّعِ إِلَيْهِ لِلْمُضْطَنِّعِ . فَلِذَلِكَ
 يُشْتَرَطُ فِي هَذَا الْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى الْفَاعِلِ فَهَذِهِ هِيَ
 شُرُوطُ الْإِتِّدَاءِ بِالضَّائِعِ الَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا . وَأَمَّا
 الْمُكَافَاةُ الَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ الْمُكَافَاةُ الَّتِي لَا تَكُونُ
 بِحَسَبِ مَا يَهْوَى الْمُكَافِي بِالطَّبْعِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ وَهُوَ أَنْ
 تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ الصَّنِيعَةِ الَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ
 وَإِمَّا فِي التَّنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضُلَتْ عِنْدَ الْمُكَافِي وَلَيْسَ يَحْتَاجُ
 إِلَيْهَا وَهِيَ الْمُكَافَاةُ الَّتِي يُغَالِطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ الْمُكَافِي بِالطَّبْعِ
 الَّذِي يَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاةً بِأَحَدِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ
 لِأَنَّ الْمُكَافِيءَ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى الْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَّا
 أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
 النَّقْصُ أَقَلَّ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْمُكَافَاةُ
 بِهَذِهِ الصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي الْجِنْسِ مِثْلَ أَنْ
 تَكُونَ الْمُكَافَاةُ عَلَى الدَّنَائِيرِ بِدَرَاهِمٍ وَإِمَّا فِي الْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ
 تَكُونَ الْمُكَافَاةُ عَلَى أَلْمَالٍ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذَلِكَ أَلْمَالِ
 فَهِيَ الْمُكَافَاةُ الْعَادِلَةُ لِكِنِّهَا سُوقِيَّةٌ . فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْمُكَافَاةُ لَا
 سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَنٌّ بَلْ كَانَ الْمُكَافِي يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ
 اخْتِيَارُهُ فِي الْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَضُ أَكْثَرَ مِنْ اخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

ذَاكَ فَشَكَرْهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَهْلِ
 مَدْيَنَ تَبَهُ. فَلَوْلَا مَا تَزَلَّ بِهِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ لَمَا شَكَرْهُمْ عَلَى هَذَا
 الشَّيْءِ الْبَسِيفِ الَّذِي سَحَّوْا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذَلِكَ أُوْمَيْرُوشُ الشَّاعِرُ
 (قَالَ) وَمِنْ الْأَضْطِغَاتِ النَّافِعَةِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا
 عِنْدَ الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ الْمُضْطَنَعُ إِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنْ
 الْمُضْطَنَعِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا عَظِيمَ الْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا
 مِنَ النَّاسِ لَهُ أَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمٌ الْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ النَّاسِ
 فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الشَّرَّ وَبِأَصْدِقَائِهِ الْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ
 لِأُوْمَيْرُوشَ مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَعْدَائِهِمْ فَإِنَّهُ قَصَدَ إِلَى عَظِيمٍ
 مِنْ عُظَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِالْمَدْحِ وَأَصْدِقَاءَهُ مِنْ
 الْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِالْهَجْرِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُعَادِينَ
 لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبُّ النِّعَمَةِ الْعَظِيمَةِ
 بِذَلِكَ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ حَتَّى اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ
 رَجُلًا إِلَهِيًّا وَأَنَّهُ كَانَ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ لِجَمِيعِ الْيُونَانِيِّينَ. وَبِالْجُمْلَةِ
 فَفَعَلَ الشَّرَّ بِالْأَعْدَاءِ وَالْخَيْرَ بِالْأَصْدِقَاءِ مِنَ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ.
 وَمِنْ شَرْطِ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ أَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ
 بِهِ يُرَى أَنَّهُ لَمْ يُمْكِنْ الْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ الْفِعْلُ
 كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ يَسِيرًا وَأَنْ يَظُنَّ أَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانٍ
 خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِأَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ إِلَى ذَلِكَ فَإِنْ
 بِهَذَا يَكُونُ الْفِعْلُ مُدَاوِمًا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَهُوَ السَّهْلُ عَلَيْهِ لِأَنَّ

نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ أَيْضًا . وَأَمَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لِكِلَيْهِمَا فَكَثِيرًا مَا يُوجِبُ
 صَدَاقَةَ الْعَدُوِّ . وَذَلِكَ إِذَا كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي تَرْوِلِ الشَّرِّ الْوَارِدِ
 بِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْضَلَ أَحَدُهُمَا فِي ذَلِكَ صَاحِبَهُ . وَكَثِيرٌ مِنْ
 الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ كَانَ اتِّفَاقُهُمْ بِهَذَا السَّبَبِ وَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّ الشَّرَّ قَدْ
 يَجْمَعُ النَّاسَ فَهَذَا أَيْضًا أَحَدُ مَا يَكُونُ بِهِ الشَّرُّ نَافِعًا أَعْنِي أَنْ
 يَكُونَ الضَّرُّ النَّازِلُ بِالْإِنْسَانِ نَازِلًا بِعَدُوِّهِ . فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ
 صَدَاقَةَ الْعَدُوِّ وَجَيْنِئِذٍ يَهْوِي الْعَدُوُّ الْوَارِدُ ضِدَّ مَا يَهْوَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ
 مِنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ اللَّذَيْنِ وَرَدَّ عَلَيْهِمَا الْعَدُوُّ مِنْ خَارِجٍ . وَذَلِكَ أَنْ
 كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ يَهْوِي صَدَاقَةَ صَاحِبِهِ لِمَكَانِ تَعَاوُنِهِمَا عَلَى
 الْعَدُوِّ الْوَارِدِ عَلَيْهِمَا مِنْ خَارِجٍ . وَالْعَدُوُّ الْوَارِدُ يَهْوِي بَقَاءَ عِدَاوَتِهِمَا
 عَلَى حَالِهَا أَوْ تَأْكُودَهَا . وَارْسَطُو يَقُولُ : وَلِذَلِكَ كَثِيرًا مَا تُنْفَقُ
 النَّفَقَاتُ الْعَظِيمَةُ وَتُفْعَلُ الْأَفْعَالُ الْكَثِيرَةُ فِي مِثْلِ هَذَا الْخَيْرِ
 الَّذِي يُدْفَعُ بِهِ الشَّرُّ الْعَظِيمُ وَإِنَّمَا تَطِيبُ النَّفْسُ بِالنَّفَقَاتِ فِي مِثْلِ
 هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لِظُهُورِ مَا يَلْزِمُ عَنْهَا مِنَ الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ وَقُرْبِهَا حَتَّى
 كَانَهَا إِذَا وَجِدَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَجِدَتْ الْغَايَةَ . وَقَدْ يَكُونُ الشَّرُّ
 الْمَفْرُطُ النَّازِلُ بِالْعَدُوِّ أَيْضًا سَبَبًا لِلْاعْتِرَافِ بِالْخَيْرِ الْيَسِيرِ الَّذِي
 نَالَهُ مِنْ عَدُوِّهِ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ يَعْتَرَفْ بِهِ الْعَدُوُّ . مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو
 أَنَّهُ عَرَضَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءَ الْيُونَانِيِّينَ أَنَّهُ اشْتَدَّتْ
 مُحَارَبَتُهُمْ لَهُ وَحَضَرَهُمْ إِيَّاهُ سِنِينَ كَثِيرَةً وَقَتَلُوا فِي ذَلِكَ الْحِصَارِ
 أَبْنَهُ فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ جُثَّتَهُ لِيَحْرِقَهَا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي مَوْتَانِهِمْ فَفَعَلُوا

الصَّاعَةِ عَلَى طَرِيقِ الْمِرَاءِ أَعْنِي بَيَانِ سُوفِطَائِي. وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرَّ
 إِنَّمَا يَنْفَعُ بِالْعَرَضِ مِثْلَ أَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ مَا أَنَّ
 أَجْلِبْنَ لَهُمْ خَيْرًا لَّانَّهُمْ إِنْ شَجَعُوا خَرَجُوا عَنِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ مِنْهُمْ
 الْعَدُوُّ وَلَكِنْ أَجْلِبْنَ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا
 بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هَذَا. وَأَمَّا النَّافِعُ فِي
 الْأَكْثَرِ وَبِالذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ الْخَيْرُ كَمَا أَنَّ الشَّرَّ الْمَضَادُّ لِلْخَيْرِ
 هُوَ نَافِعٌ لِلْأَعْدَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ أَجْلِبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ
 بِالْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ. وَالشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِالذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ
 كَانَتْ ضَارَّةً بِالْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ
 أَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ
 مِثْلُ أَجْلِبْنَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ الْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ
 لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي
 كُلِّ وَقْتِ النَّافِعِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كَلِمَةً
 أَعْنِي الْقَائِلَةَ أَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ الْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلُّ مَا يَنْفَعُ
 الْعَدُوَّ وَيُسِرُّهُ ضَارٌّ فَإِنْ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الْأَمْرُ الْوَاحِدُ ضَارًّا
 لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكِلِيهِمَا
 وَيُسِرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَارَفَةُ الْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ
 شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةُ أَشَقَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الْعَطَبِ مِنْهَا
 مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا اقْتَرَقَا فِي إِثْرِ هَذِهِ
 الْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْأَفْتِرَاقِ وَلِذَلِكَ قَدْ يَكُونُ النَّافِعُ

فَاعْلَاتُ أَشْيَاءٍ أُخَرَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ مِثْلُ فَاعْلَاتِ اللَّذَّةِ وَفَاعْلَاتِ
السَّيْرِ الْحَسَنَةِ . وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِالْيَسَارِ أَنَّهُ خَيْرٌ إِذَا كَانَ سَبَبًا
لِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ أَحَدُهُمَا اللَّذَّةُ وَالْآخَرُ حُسْنُ السَّيْرِ
وَصَلَاحُ الْحَالِ بِكَثْرَةِ الْأَخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِأَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ مِنْ
الْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ الصَّدَاقَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ الْحَبَّةِ
نَفْسِهَا لَا أَنْ تَكُونَ الْحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَإِنَّ
الْأَخْوَانَ الَّذِينَ بِهَذِهِ الصِّقَّةِ هُمْ يَفْعَلُونَ الْكَرَامَةَ وَالْتَّجِيدَ وَغَيْرَ
ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِالْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ فَإِنَّ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ الَّتِي تُفْعَلُ بِهَا الْكَرَامَةُ وَالْتَّجِيدُ
وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ

(قَالَ) وَمِنْ النَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا الْمَلَكَاتُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ
الْإِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِأَشْيَاءٍ حَسَنَةٍ مِثْلِ الذِّكَاءِ وَالْحِفْظِ وَالتَّعَلُّمِ
وَحِفْظِ الْحِرَكَاتِ . وَكَذَلِكَ الْكَمَالَاتُ مِثْلُ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَكَذَلِكَ
السَّيْرُ الْمَحْمُودَةُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَعَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي
نَفْسِهَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْقَرِدَةٌ بِأَنْفُسِهَا
مُحْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَأَلْبَرُءُ أَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ
وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهَا خَيْرٌ فَذَلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ
الْإِلْرَاءِ وَالْمُغَالَطَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . وَأَمَّا إِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ
مِنْ أَضْدَادِ هَذِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ وَفِيهَا أَنَّهَا شَرٌّ فَذَلِكَ يَكُونُ فِي هَذِهِ

طَرَحَ أَمْتَقِيهِمْ شَرٌّ لَكِنْ تُسْتَفَادُ مِنْهُ السَّلَامَةُ مِنْ شَرِّ هُوَ أَعْظَمُ
وَهُوَ أَعْطَبُ. وَالْخَيْرَاتُ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ الْخَيْرَاتِ يُسَمِّيَهَا أَرِسْطُو
فَوَائِدَ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا تِلْكَ فَيُسَمِّيَهَا أَنْتِقَالًا وَيَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهَا أَنْتَقَالَ
مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ أَخَفُّ شَرًّا مِنْهُ أَوْ أَنْتَقَالَ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ
خَيْرٌ

(قَالَ) وَالْفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فِيهِ أَيْضًا خَيْرَاتٍ فِي
أَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٍ فِي الْخَيْرِ فَإِنَّ الْمُقْتَسِمِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُوا الْأَحْوَالَ
وَهِيَ مَعَ هَذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَبُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُخْبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ وَكَيْفَ
هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنَفِصَلُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.
وَاللَّذَاتُ أَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ الْحَيَوَانِ يَشْتَقُّ إِلَيْهَا.
وَالْأُورُودُ اللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا إِذَا كَانَ بِهَا الْمُلتَذُّ حَسَنَ الْحَالِ
وَقَدْ يَسْتَسِينُ مِنَ التَّصَفُّحِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي الْخَيْرِ
وَأَجْزَاءُ صَلَاحِ الْحَالِ. وَبِالْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتُ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ
تَعَدَّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيْضًا فِي الْغَايَاتِ. وَذَلِكَ أَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا
عِنْدَ بَعْضٍ أَعْنِي أَنَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لَوْجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ
ذَلِكَ أَنَّ السَّجَاعَةَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعَفَافَ وَكِبَرَ النَّفْسِ وَالْثَّبَلَ وَمَا
أَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ قَدْ تَخْتَارُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مِنْ أَجْزَاءِ صَلَاحِ
الْحَالِ مِنْ أَجْلِهَا. وَكَذَلِكَ الصِّحَّةُ وَالْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ الْجَسَدِ قَدْ تَخْتَارُ
أَشْيَاءَ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذَلِكَ تَخْتَارُ

يَعْتَقِدُ فِيهِ الْإِنْسَانُ هَذَا الْأَعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدْ اكْتَفَى بِهِ وَنَالَ
 حَاجَتَهُ وَلَمْ يَتَّقْ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ أَصْلًا. وَالْأَشْيَاءُ النَّافِعَةُ فِي هَذَا
 الْخَيْرِ هِيَ بِالْجُمْلَةِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ الْأَشْيَاءُ الْفَاعِلَةُ وَالْأَشْيَاءُ الْحَافِظَةُ
 لَهُ وَمَا يَلْزَمُ الْفَاعِلَةَ وَذَلِكَ أَنَّ لَزِمَ الشَّيْءُ يُعَدُّ مَعَ الشَّيْءِ وَكَذَلِكَ
 أَيْضًا لَزِمَ الْمُفْسِدُ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ الْمُفْسِدِ. وَلَازِمٌ ضِدُّ الْفَاعِلِ مَعَ
 ضِدِّ الْفَاعِلِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْهَى عَنْهَا وَلَزُومُ الْغَايَةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا
 كَانَ مَعًا مِثْلُ مَا يَلْزَمُ الْمَدْحَ أَقْبَاءُ الْأَشْيَاءِ الْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ
 مُتَاَخِرًا مِثْلُ الْعِلْمِ الَّذِي يَتَّبِعُ التَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَالْأَشْيَاءُ الْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةٌ
 أَصْنَافٍ إِمَّا بِالذَّاتِ وَإِمَّا بِالْعَرَضِ. وَالَّذِي بِالذَّاتِ أَثْنَانِ إِمَّا
 قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ الْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثْلُ الطَّيِّبِ. وَالَّذِي
 بِالْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ التَّعَبِ فِي الرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا أَنْ
 تَكُونَ أَصْنَافُ الْأَشْيَاءِ الْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هَذِهِ الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ
 فَبِاضْطِرَارٍ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ النَّافِعَةُ فِي الْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا
 مِثْلُ نَفْعِ الْغِذَاءِ فِي الصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مَا يَجَسِبُ
 نَفْعُهَا فِي الْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَالشُّرُورُ الَّتِي تَنْفَعُ فِي
 الْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَفَادَ مِنْهَا خَيْرٌ هُوَ أَعْظَمُ
 مِنَ الشَّرِّ اللَّاحِقِ مِنْ اسْتِعْمَالِهَا مِثْلُ اسْتِفَادَةِ الصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ
 الدَّوَاءِ وَمِثْلُ الْمَشَقَّةِ الْيَسِيرَةِ فِي اسْتِفَادَةِ الْمَالِ الْكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا
 تُنَالُ بِهِ السَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يُنَالُ مِنْهَا
 مِثْلُ مَا يُنَالُ رُكَّابَ الْبَحْرِ مِنَ السَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا أَمَتَهُمْ فَإِنَّ

البحث الثامن

في انه ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة
وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتْ أَلْفَايَاتُ أَلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُشِيرُ الْمُسِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ
أَضْدَادُهَا أَلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يَنْعُ الْمُسِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا أَقَاوِيلُ
الْمَنْعِ إِذْ كَانَ عَدْدُهَا هُوَ ذَلِكَ الْعَدَدَ بَعَيْنِهِ وَوَضَعُهَا مِنَ الْأَقَاوِيلِ
الْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذَلِكَ الْوَضْعُ بَعَيْنِهِ. وَمِنْ أَجْلِ أَنْ الْمُسِيرَ إِنَّمَا غَرَضُهُ
الْمُقَدِّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ أَنْ يُشِيرَ بِالشَّيْءِ النَّافِعِ الَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ
وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ أَلْفَايَاتٍ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ أَلْفَايَاتٍ هِيَ أَوَّلُ الْفِكْرَةِ
وَأَخِرُ الْعَمَلِ وَالْأَشْيَاءُ النَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ الْفِكْرَةِ وَأَوَّلُ الْعَمَلِ
وَأَعْنِي بِأَوَّلِ الْفِكْرِ النَّتِيجَةُ وَبِآخِرِ الْفِكْرِ الْمَقْدَمَاتُ

فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ أَصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا الْأَشْيَاءَ
النَّافِعَةَ فِي أَلْفَايَاتٍ وَهِيَ الْعَوَاقِبُ إِذْ كَانَتْ هِيَ أَوَّلَ الْعَمَلِ
وَالنَّافِعَاتُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِأَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى
الْخَيْرِ بِإِطْلَاقٍ. فَالْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ هُوَ الَّذِي يُجْتَرَدُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَيُجْتَرَدُ
غَيْرُهُ مِنْ أَجْلِهِ وَهُوَ الَّذِي يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ الْكُلُّ. وَأَعْنِي هَاهُنَا
بِالْكُلِّ ذَوِي الْقَلْبِ الْحَسَنِ مِنَ النَّاسِ وَالذَّكَاءِ. وَذَلِكَ قَدْ
يَكُونُ خَيْرًا فِي الْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي الظَّنِّ وَذَلِكَ بِحَسَبِ
اعْتِقَادِ إِنْسَانٍ إِنْسَانٍ فِي هَذَا الْخَيْرِ. وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي

وَأَحَبُّ الْأَقْبَاسِ مِنْهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي مِنْ وَصَلَ إِلَيْهَا فَقَدْ
وَصَلَ إِلَى آخِرِ السَّعَادَاتِ وَأَقْصَاهَا وَهُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ
الْأَخْبَابِ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ التَّسَعُّمِ فِيهَا
وَهُوَ الَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي عَدَدَهَا فِي
السَّعَادَاتِ الَّتِي فِي بَدَنِهِ وَالْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلِّهَا كَلَّا عَلَيْهِ إِلَّا فِي
ضُرُورَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِبَدَنِ الَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ
الْإِتِّحَالَ عَنْهُ إِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ الَّذِي يَشْتَاقُ إِلَى صُحْبَةِ
أَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ الْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَالْمَلَائِكَةِ
الْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا
مَا قُرِبَ إِلَيْهِ وَلَا يُجَالِفُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ الرَّدِيئَةِ وَلَا يَخْتَدِعُ
بِحِدَائِعِ الطَّيِّعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ الَّذِي
لَا يَجْزُنُ عَلَى فَقْدِ مُحَبُّوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فُوتِ مَطْلُوبٍ . إِلَّا أَنَّ
الْمَرْتَبَةَ الْآخِرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا أَعْنِي أَنَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ
النَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ الْمَرْتَبَتَانِ هُمَا
الَّتَانِ سَاقَ الْحَكِيمِ الْكَلَامِ إِلَيْهِمَا وَاخْتَارَ الْمَرْتَبَةَ الْآخِرَةَ مِنْهُمَا .
(وَإِذَا قَدْ لَحَضْنَا أَمْرَهُاتَيْنِ الْمُرْتَبَتَيْنِ مِنَ السَّعَادَةِ الْقُضْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ
يَمَانًا كَافِيًا أَنَّ أَحَدَهُمَا بِالْإِضَافَةِ إِلَيْنَا أُولَى وَالْآخَرَى ثَانِيَةٌ وَمِنْ
الْحَالِ أَنَّ نَسْلُكَ إِلَى الثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَمُرَّ بِالْأُولَى . ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ
مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ الْقَرَى الَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ أَوْ تَعَمَّدَ لِإِصْلَاحِهَا
فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْضَلْ لَهُ السَّعَادَةُ الثَّامَّةُ . . .

الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَتِلْكَ مُحَصَّلَةُ لِكَمَا لَاتِيهَا الَّتِي تَحْصُهَا. فَإِذَا الْأَنْعَامُ إِذَا
 مُنِعَتْ الْخِزَارَاتِ الْإِنْسِيَّةِ حُرِمَتْ جَوَارِ الْأَرْوَاحِ الطَّيْبَةِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ
 الَّتِي وَعَدَ بِهَا الْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْدُورَةٌ وَالْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْدُورٍ. وَمَثَلُ
 الْأَوَّلِ مَثَلُ الْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ الطَّرِيقِ قَتَرَدَى فِي بَئْرِ فَهُوَ مَرْحُومٌ
 غَيْرُ مَلُومٍ. وَمَثَلُ الثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي
 الْبُئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذَا قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ السَّعِيدَ لَا حِمَاةَ فِي إِحْدَى
 الْمَرْتَبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصَّرٌ
 عَنِ الْآخَرِ وَأَنَّ الْأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُوْ وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ الْآلَامِ.
 وَالْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ الطَّيْبَةِ وَالزَّخَارِفِ الْحَسِيَّةِ الَّتِي تَعْتَزُّهُ
 فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعْرِقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْأَرْقَى فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي
 وَتَسْغُلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْجِسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ غَيْرُ
 كَامِلٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٌ تَامٌ. وَأَنَّ صَاحِبَ الْمَرْتَبَةِ الْآخَرَى
 هُوَ السَّعِيدُ التَّامُّ وَهُوَ الَّذِي تَوَفَّرَ حَظُّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ
 بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ الْحِكْمَةِ وَيَسْتَبْدِرُ
 بِالنُّورِ الْإِلَهِيِّ وَيَسْتَرِيدُ مِنْ قَضَائِهِ بِحَسَبِ عِمَائِهِ بِهَا وَقَلَّةِ عَوَائِقِهِ
 عَنْهَا وَلِذَلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ الْآلَامِ وَالْحَسَرَاتِ الَّتِي لَا يَخْلُو
 صَاحِبُ الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُقْتَبِطًا
 بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْضُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ قَيْضِ نُورِ الْأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسِرُّ إِلَّا بِتِلْكَ
 الْأَحْوَالِ وَلَا يَقْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ الْحَقَائِصِ وَلَا يَهْشُ إِلَّا لِإِظْهَارِ
 تِلْكَ الْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

أَعْلَى وَإِنْ كَانَ مَعْقُولًا فِي الْمَكَانِ الْأَسْفَلِ . وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ
 لَيْسَ يَحْتَاجُ فِي صِحَّةِ الْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ الْمُسْتَغْنِيَةِ عَنِ الْأَبْدَانِ إِلَى
 شَيْءٍ مِنَ السَّعَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى سَعَادَةِ النَّفْسِ فَقَطْ
 أَغْنَى الْمَعْقُولَاتِ الْآبَدِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْحِكْمَةُ فَقَطْ . فَإِذَا مَا دَامَ
 الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا فَلَيْسَ تَتِمُّ لَهُ السَّعَادَةُ إِلَّا بِتَحْصِيلِ الْحَالَيْنِ جَمِيعًا
 وَلَيْسَ يَخْضُلَانِ عَلَى التَّكَامُلِ إِلَّا بِالْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ فِي الْوُصُولِ إِلَى
 الْحِكْمَةِ الْآبَدِيَّةِ . فَالْسَّعِيدُ إِذَا مِنْ النَّاسِ يَكُونُ فِي إِحْدَى
 مَرْتَبَتَيْنِ أَمَّا فِي مَرْتَبَةِ الْأَشْيَاءِ الْجَسَدَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِأَحْوَالِهَا السُّفْلَى
 سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَالِعُ الْأُمُورَ الشَّرِيفَةَ بَاحِثًا عَنْهَا مُشْتَقًا
 إِلَيْهَا مُتَحَرِّكًا نَحْوَهَا مُغْتَبِطًا بِهَا . وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي رُتْبَةِ الْأَشْيَاءِ
 الرُّوحَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِأَحْوَالِهَا الْعُلْيَا سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُطَالِعُ
 الْأُمُورَ الْبَدَنِيَّةَ مُعْتَبِرًا بِهَا نَظْرًا فِي عِلَامَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ
 وَدَلَائِلِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ مُقْتَدِيًا بِهَا نَظْمًا لَهَا مُفِيضًا لِلْخَيْرَاتِ عَلَيْهَا
 سَابِقًا لَهَا نَحْوَ الْأَفْضَلِ فَإِلَّا فَضْلٌ بِحَسَبِ قَبُولِهَا وَعَلَى نَحْوِ اسْتِطَاعَتِهَا .
 وَآيُ أَمْرٍ لَمْ يَحْصُلْ فِي إِحْدَى هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ فَهُوَ فِي رُتْبَةِ
 الْأَنْعَامِ . بَلْ هُوَ أَضَلُّ وَإِنَّمَا صَارَ أَضَلَّ لِأَنَّ تِلْكَ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لَهُذِهِ
 الْخَيْرَاتِ وَلَا أُعْطِيَتْ اسْتِطَاعَةً تَتَحَرَّكُ بِهَا نَحْوُ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ
 وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِقُوَّاهَا نَحْوَ كَمَالَاتِهَا الْخَاصَّةِ بِهَا وَالْإِنْسَانُ مُعَرَّضٌ لَهَا
 مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا مُزَاحُ الْعِلَّةِ فِيهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ مُحْصِلٍ لَهَا وَلَا سَاعٍ
 نَحْوَهَا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَثَّرٌ لِضِدِّهَا يَسْتَعْمِلُ قُوَّاهُ الشَّرِيفَةَ فِي

فِي الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ وَالْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي الصِّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ وَالذَّلِيلَ
يَرَى أَنَّهَا فِي الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ وَالْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي التَّمَكِّنِ مِنَ
الشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا وَالْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي الظَّفَرِ بِالْمَعْشُوقِ
وَالْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ الْمَعْرُوفِ عَلَى الْمُسْتَحِقِّينَ وَالْفَيْلَسُوفَ
يَرَى أَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا إِذَا كَانَتْ مُرْتَبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ الْعَدْلِ أَغْنَى عَنْهُ
الْحَاجَةُ وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَحِبُّ وَكَمَا يَحِبُّ وَعِنْدَ مَنْ يَحِبُّ فَهِيَ
سَعَادَاتُ كُلِّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لَشَيْءٍ آخَرَ فَذَلِكَ الشَّيْءُ أَحَقُّ
بِاسْمِ السَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا
وَجَبَ أَنْ تُثَبَّتَ فِي ذَلِكَ مَا تَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَقَوْلُ:
إِنَّ الْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا الْأَرْوَاحَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي
تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا الْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ
مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِالْخَيْرِ الْجِسْمَانِيِّ الَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ الْأَنْعَامَ مُقِيمٌ
فِي هَذَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْبُرَهُ وَيُنْظِمَهُ وَيُرَبِّتَهُ حَتَّى إِذَا
ظَفَرَ بِهَذِهِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى الْكَمَالِ انْتَقَلَ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ وَأَقَامَ
فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَيَبْغِي أَنْ
يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ وَالْعَالَمِ الْعُلَوِيِّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ
قَانًا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِالْعُلَوِيِّ الْمَكَانَ الْأَعْلَى فِي الْجِلْسِ
وَلَا بِالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ الْمَكَانَ الْأَسْفَلَ فِي الْجِلْسِ بَلْ كُلُّ مُحْسُوسٍ
فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مُحْسُوسًا فِي الْمَكَانِ الْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

وَبَحَاسَاتِ الْبَدَنِ وَضُرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ الْإِنْسَانِ بِهِ وَافْتِقَادَاتِهِ إِلَى
 الْأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَآيضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا
 تَكْمُلُ لَوْجُودِ الْأَشْيَاءِ الْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَبْرِ عَنْهَا بِظُلْمَةِ الْهَيُولَى
 أَغْنَى قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هَذِهِ الْكُدُورَةَ فَارَقَتْ
 أَجْهَالَاتٍ وَصَفَتْ وَخَلَصَتْ وَقِيلَتْ الْإِصَاءَةُ وَالنُّورُ الْإِلَهِيُّ أَغْنَى الْعَقْلَ
 التَّامَّ . وَيَجِبُ عَلَى رَأْيٍ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْعُدُ السَّعَادَةَ التَّامَّةَ
 إِلَّا فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ . وَأَمَّا الْفِرْقَةُ الْآخَرَى فَانْهَاقَتْ أَنَّ
 مِنَ الْقَبِيحِ الشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ
 الصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ الْآرَاءَ الصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا لِنَفْسِهِ
 أَوَّلًا ثُمَّ لِأَنْبَاءِ حُسْنِهِ ثَانِيًا وَيَخْلِفُ رَبَّ الْعِزَّةِ تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ فِي
 خَلْقِهِ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ
 وَعَدِمَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَ السَّعَادَةِ وَارِسَ طَائِلِيسُ يَتَحَقَّقُ
 بِهَذَا الرَّأْيِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي السَّعَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانُ هُوَ
 الْمُرْكَبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنِ وَنَفْسٍ وَلِذَلِكَ حَدَّ الْإِنْسَانِ بِالنَّاطِقِ
 الْمَلَكِيِّ وَبِالنَّاطِقِ الْمَلَكِيِّ بِرَجُلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْفِرْقَةُ وَهِيَ
 الَّتِي رَأَيْسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ السَّعَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ
 لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعَبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا . وَلَمَّا رَأَى
 الْحَكِيمُ ذَلِكَ وَأَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هَذِهِ السَّعَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا
 قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا أَحْتَاجَ أَنْ يَتَعَبَ فِي الْإِبَانَةِ
 عَنْهَا وَإِطَالَةِ الْكَلَامِ فِيهَا . وَذَلِكَ أَنَّ الْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ السَّعَادَةَ الْعَظْمَى

وَلَا مَا هُوَ خَارِجُ الْبَدَنِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَصَلَ تِلْكَ الْفَضَائِلُ لَمْ
يُضِرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ الْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ
أَمْرَاضِ الْبَدَنِ اَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُلْحَقَ النَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ
أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ الْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ الذَّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا الْفَقْرُ
وَالْحُمُولُ وَسُقُوطُ أَحَالٍ وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ
بِقَادِحَةٍ فِي السَّعَادَةِ الْبَتَّةَ. وَأَمَّا الرَّاغِبُونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الطَّبِيعِيِّينَ
فَانْتَهَمُوا جَعَلُوا الْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ الْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ
فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَلِكَ اضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا السَّعَادَةَ الَّتِي فِي النَّفْسِ
غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَفْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةَ الْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ الْبَدَنِ
أَيْضًا أَعْيَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ بِالْبُحْتِ وَالْجَدِّ. وَالْمُحَقِّقُونَ مِنْ
الْفَلَاسِفَةِ يَحْفَرُونَ أَمْرَ الْبُحْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤْهِلُونَ
تِلْكَ الْأَشْيَاءَ لِأَنَّهُمُ السَّعَادَةَ لِأَنَّ السَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ
وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ الْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ
لِأَحْسَنِ الْأَشْيَاءِ وَهُوَ الَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا
فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلِ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهَذَا النَّظَرِ اخْتَلَفَ الْقَدَمَاءُ فِي السَّعَادَةِ الْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ
أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَدَنِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا.
وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ السَّعَادَةَ الْعُظْمَى هِيَ فِي
النَّفْسِ وَخَدَهَا وَسَمَوُا الْإِنْسَانَ ذَلِكَ الْجَوْهَرَ وَخَدَهُ دُونَ الْبَدَنِ
وَلِذَلِكَ حَكَمُوا أَنَّهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةٌ بِالطَّبِيعَةِ وَكَدَرَهَا

أَقْسَامُ : (أَحَدُهَا) فِي صِحَّةِ الْبَدَنِ وَلُطْفِ الْخَوَاسِ وَيَكُونُ ذَلِكَ
 مِنْ أَعْتِدَالِ الزَّاجِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ جَيِّدَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالشَّمِّ
 وَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ . (وَالثَّانِي) فِي الثَّرْوَةِ وَالْأَعْوَانِ وَاشْبَاهِهِمَا حَتَّى
 يَتَسَّعَ لِأَنْ يَضَعَ أَلْمَالَ فِي مَوْضِعِهِ وَيَعْمَلَ بِهِ سَائِرَ الْخَيْرَاتِ وَيُوَاسِي
 مِنْهُ أَهْلَ الْخَيْرَاتِ خَاصَّةً وَالْمُسْتَخْقِينَ عَامَّةً وَيَعْمَلَ بِهِ كُلَّ مَا يَزِيدُ
 فِي فَضَائِلِهِ وَيَسْتَحِقُّ الثَّنَاءَ وَالْمَدْحَ عَلَيْهِ . (وَالثَّلَاثُ) أَنْ تَحْسُنَ أُحْدُوثُهُ
 فِي النَّاسِ وَيُنْشَرِ ذِكْرُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْفَضْلِ فَيَكُونَ مَمْدُومًا بَيْنَهُمْ
 يُكْثَرُونَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ لِمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْمَعْرُوفِ .
 (وَالرَّابِعُ) أَنْ يَكُونَ مُنْجَحًا فِي الْأُمُورِ وَذَلِكَ إِذَا اسْتَمَّتْ كُلُّ
 مَا رَوَى فِيهِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى مَا يَأْمُلُهُ مِنْهُ . (وَالْخَامِسُ)
 أَنْ يَكُونَ جَيِّدَ الرَّأْيِ صَحِيحَ الْفِكْرِ سَلِيمَ الْأَعْتِقَادَاتِ فِي دِينِهِ
 بَرِيئًا مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ جَيِّدَ الْمَشُورَةِ فِي الْأَرَاءِ . فَمَنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ
 هَذِهِ الْأَقْسَامُ كُلُّهَا فَهُوَ السَّعِيدُ الْكَامِلُ عَلَى مَذْهَبِ هَذَا الرَّجُلِ
 الْفَاضِلِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ بَعْضُهَا كَانَ حَظُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ بِحَسَبِ ذَلِكَ .
 (وَأَمَّا الْحُكَمَاءُ) قَبْلَ هَذَا الرَّجُلِ مِثْلُ فِيثَاغُورَسَ وَبُقْرَاطَ
 وَأَفْلَاطُونَ وَاشْبَاهِهِمْ فَلَنْتَهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْفَضَائِلَ وَالسَّعَادَةَ
 كُلُّهَا فِي النَّفْسِ وَخَدَهَا وَلِذَلِكَ لَمَّا قَسَمُوا السَّعَادَةَ جَعَلُوهَا كُلُّهَا فِي
 قُوَى النَّفْسِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ (وَهِيَ الْحِكْمَةُ
 وَالشَّجَاعَةُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَدَالَةُ) . وَاجْمَعُوا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ هِيَ
 كَافِيَةٌ فِي السَّعَادَةِ وَلَا يُحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنْ فَضَائِلِ الْبَدَنِ

كَأَلَا حَوَالٍ وَمِنْهَا كَالْأَفْعَالِ وَمِنْهَا كَالْفَعَالِيَّاتِ وَمِنْهَا كَالْمَوَادِّ وَمِنْهَا
كَأَلَا لَاتٍ. وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هَذَا
الْمِثَالِ أَمَّا فِي الْجَوْهَرِ أَعْنِي مَا لَيْسَ بِعَرَضٍ فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
هُوَ الْخَيْرُ الْأَوَّلُ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ تَحْوَهُ بِالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَلِأَنَّ
مَالَ الْخَيْرَاتِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرمَدِيَّةِ وَالْتَّامِّ مِنْهُ. وَأَمَّا فِي
الْكَمِّيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَأَمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ
فَكَاللَّذَاتِ. وَأَمَّا فِي الْإِصَافَةِ فَكَالصَّدَقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ. وَأَمَّا فِي
الْأَيْنِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْإِنْتِقِ الْبَهِجِ. وَأَمَّا فِي
الْوَضْعِ فَكَالْمَقْعُودِ وَالْإِضْطِحَاعِ وَالْإِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ. وَأَمَّا فِي الْمَلِكِ
فَكَأَلَا مَوَالٍ وَالْمَنَافِعِ. وَأَمَّا فِي الْإِنْفِعَالِ فَكَالسَّمْعِ الطَّيِّبِ
وَسَائِرِ الْمُحْسُوسَاتِ الْمُوَثَّرَةِ. وَأَمَّا فِي الْفِعْلِ فَيُفْشَلُ نَفَازُ الْأَمْرِ وَرَوَاجُ
الْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنْهَا مُحْسُوسَاتٌ
(وَأَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا إِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَامُّ الْخَيْرَاتِ
وَعَايَاتُهَا وَالْتَّامُّ هُوَ الَّذِي إِذَا بَلَّغْنَا إِلَيْهِ لَمْ نَخْتِجْ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ
آخَرَ فَلِذَلِكَ نَقُولُ إِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلَكِنَّا نَحْتَاجُ
فِي هَذَا التَّامِّ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُضْوَى إِلَى سَعَادَاتٍ أُخْرَى وَهِيَ
الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ. (وَأَرِسْطَاطِلِسُ) يَقُولُ إِنَّهُ
يُفْسَرُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ
اتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ النَّجْتِ
(وَأَمَّا أَقْسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هَذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةٌ

ممدوحةٌ ومنها ما هي بالقوة كذلك وما هي نافعةٌ فيها . فالشريعةُ
منها هي التي شرفها من ذاتها وتَجَمَّلُ من اقتناها شريفاً . وهي
الحكمةُ والعقلُ . والممدوحةٌ منها مثل الفضائل والأفعال الجميلة
الارادية . والتي هي بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الأشياء
التي تقدمت . والمنفعةُ هي جميعُ الأشياء التي تطلبُ لذاتها بل
ليتموَّصلَ بها إلى الخيرات . (وعلى جهةٍ أخرى) الخيراتُ ومنها ما هي
غاياتٌ ومنها ما هي ليست بغايات . والغاياتُ منها ما هي تامةٌ ومنها
ما هي غيرُ تامةٍ . فالتامةُ هي تامةٌ كالسعادةِ وذلك أنا إذا وصلنا
إليها لم نتخجج أن نستزيدَ إليها شيئاً آخر . والتي هي غيرُ تامةٍ
فكالصحة واليسار من قبل أنا إذا وصلنا إليها احتججنا أن نستزيدَ
فنفقتني أشياء أخرى . وأما التي ليست بغايةً البتة فكالعلاج والتعلم
والرياضة . (وعلى جهةٍ أخرى) الخيراتُ منها ما هو مؤثرٌ لاجلِ ذاته
ومنها ما هو مؤثرٌ لاجلِ غيره . ومنها ما هو مؤثرٌ للآخرين جميعاً ومنها
ما هو خارجٌ عنها . (وعلى جهةٍ أخرى) الخيراتُ منها ما هو خيرٌ
على الإطلاق ومنها ما هو خيرٌ عند الضرورةِ والإتفاقاتِ التي تتفقُ
لبعض الناسِ وفي وقتٍ دونَ وقتٍ وأيضاً منها ما هو خيرٌ لجميعِ
الناسِ ومن جميعِ الوجوهِ وفي جميعِ الأوقاتِ ومنها ما ليس بخيرٍ
لجميعِ الناسِ ولا من جميعِ الوجوهِ . (وعلى جهةٍ أخرى) الخيراتُ
منها ما هو في الجواهرِ ومنها ما هو في الكميةِ ومنها ما هو في
الكيفيةِ وفي سائرِ المَقُولَاتِ ففنها كالثقوى والمَلَكَاتِ ومنها

بِالنَّاطِقِينَ بِالْإِرَادَةِ . قَامًا مَا يَتَأْتِي لِلْخِيَوَانَاتِ فِي مَاصِيهَا
وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بِخَيْرٍ أَوْ اتِّفَاقًا وَلَا يُوهَلُ لِاسْمِ
السَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي الْإِنْسَانِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا اسْتَحْسِنَ الْحَدَّ الَّذِي
ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ الْمَطْلُوقِ لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُطَاقُ السَّغْيُ وَالْحَرَكَةُ إِلَى لَا
نِهَآيَةٍ وَهَذَا أَوَّلُ فِي الْعَقْلِ . وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الصَّاعَاتِ وَالْهِمَمِ
وَالْتَّدَابِيرَ الْأَخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مِمَّا لَمْ يُقْصَدَ بِهِ خَيْرٌ
مَا فَهُوَ عِبْتُ وَالْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَتَمَتَّعُ مِنْهُ وَبِالْوَاجِبِ صَارَ الْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ
هُوَ الْمَقْصُودُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ النَّاسِ . وَلَكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا
الْغَايَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْهُ الَّتِي هِيَ غَايَةُ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَرْتَقِي الْخَيْرَاتُ
كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى تَجْعَلَهُ غَرْضًا وَتَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا تَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا
تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً
بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا تَغْلُطُ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَظُنُّهُ خَيْرًا
ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَالتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنَبَيْنُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

الْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيْسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ
وَعَنْهُ هَكَذَا قَالَ : الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

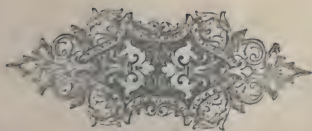
البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبْدُا بِمَعُونَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِذِكْرِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَيْرِ
وَالسَّعَادَةِ بَعْدَ أَنْ نَذْكُرَ الْفَاطَ أَرِسْطَاطَالِيْسَ اقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيْقَهُ
حَقُّهُ فَنَقُولُ: إِنَّ الْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَاسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ
الْمَقْصُودُ مِنَ الْكُلِّ وَهِيَ الْغَايَةُ الْآخِرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى الشَّيْءُ النَّافِعُ
فِي هَذِهِ الْغَايَةِ خَيْرًا فَأَمَّا السَّعَادَةُ فَهِيَ الْخَيْرُ بِالإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهَا
وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَالسَّعَادَةُ إِذَا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ
غَيْرَ سَعَادَةِ الْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ الَّذِي يَخْصُهُ .
فَأَمَّا الْخَيْرُ الَّذِي يَقْصِدُهُ الْكُلُّ بِالشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا
ذَاتٌ وَهُوَ الْخَيْرُ الْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِإِجْمَاعِهِمْ
مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَأَمَّا السَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ
فَهِيَ إِذَا بِالإِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِالإِضَافَةِ إِلَى
قَاصِدِيْهَا. فَلِذَلِكَ يَكُونُ الْخَيْرُ الْمَطْلُوقُ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ
بِالسَّعَادَةِ أَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ النَّاطِقِينَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا هِيَ
اِسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا
إِرَادَةٍ وَتِلْكَ الْاِسْتِعْدَادَاتُ هِيَ الشَّوْقُ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى الشَّوْقِ

أَجْدُ عِلَّةٍ لِحَزَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِالْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ
 بِالْإِضَافَةِ وَالْمُقَاسَةِ إِلَى الْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ الْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ
 خَيْرًا مَّا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحُ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقَعَا مِنْ
 الْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحَدُهُمَا السَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ الثَّانِي
 فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ
 كَثِيرٌ. وَبِجِهَةِ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ
 يَشْهَدَ الْحُرُوبَ كَثِيرًا وَالْآخِرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ الْحَرْبَ
 وَكَذَلِكَ إِذَا وَجَدَ الْكَثْرَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ
 بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ الْكَثْرُ يَسِيرًا فَمِنْ هَذَا
 وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ الْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ الْجِدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ الْفَضِيلَةِ فَأَوَّلَى
 الْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. لِأَنَّ
 الْفَضِيلَةَ خَاصَّةً بِالْمَادِحِ وَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمَادِحُ هُوَ الَّذِي
 يَعْرِفُ بِاسْتِقْصَاءِ الْفَضِيلَةِ وَالْفَضَائِلِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبَلٌ وَحَاضِرٌ
 فَأَمَّا دَحُّ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةٍ سَاهِي حَاضِرَةٌ وَالْمَشِيرُ مِنْ جِهَةٍ
 أَمَّا مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



أَعْمَارُهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ مُسْتَقَامُونَ . وَتَضَحُّجُ هَذَا هُوَ لِلْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ
فِي تَضَحُّجِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ مَنَفَعَةٌ وَالْخَطِيبُ إِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذَلِكَ
بِالشَّيْءِ الظَّاهِرِ

(قَالَ) وَأَمَّا كَثْرَةُ الْحِلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ الْإِنْسَانِ بِالْإِخْوَانِ
فَذَلِكَ أَيْضًا غَيْرُ خَفِيِّ إِذَا حَدَّثَ مَا هُوَ الْخَلِيلُ وَالصَّاحِبُ . وَهُوَ أَنْ
يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِ
الْآخَرُ لَا الْخَيْرَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطُّ . وَإِذَا كَانَتِ الْحِلَّةُ
وَالشُّخْبَةُ هِيَ هَذِهِ فَبَيِّنَ أَنَّ الْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ الْحَالِ بِالْإِخْوَانِ
الْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا صِلَاحُ الْجَدِّ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّفَاقُ لِإِنْسَانٍ مَا
عِلَّةٌ لَوْجُودِ الْخَيْرِ لَهُ . وَذَلِكَ إِمَّا مِنْ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَإِمَّا
مِنْ الْخَيْرَاتِ الْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجِهِ . وَعِلَّةُ الْإِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ
الصَّنَاعَةُ وَقَدْ تَكُونُ الطَّبِيعَةُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ . فَمَثَلُ مَا يَكُونُ عَنْ
الْإِتِّفَاقِ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُولَدَ الْإِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَغْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ
الْأُمُورَ الْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَحِيحًا
فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْإِتِّفَاقُ الطَّبِيعِيِّ مِثْلَ أَنْ يُولَدَ صَحِيحًا . وَقَدْ يَكُونُ
الْإِتِّفَاقُ الصَّنَاعِيُّ مِثْلَ أَنْ يُسْتَقَى سَمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ .
وَأَمَّا الْجَمَالُ وَالصَّخَاةُ فَعِلَّتُهُمَا الْإِتِّفَاقُ الصَّنَاعِيُّ وَالطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ
الْأَنْسَاءِ أَنَّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي سَبَبُهَا الْجَدُّ الَّذِي هُوَ حُسْنُ الْإِتِّفَاقِ هِيَ
الْخَيْرَاتُ الَّتِي يَكُونُ الْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا . وَقَدْ يَكُونُ

وَلَا أَمْرًا مُكَتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا الْهَيْئَةُ الَّتِي تُسَمَّى الْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ الصَّخَامَةِ وَالْجَلْدِ وَالْحِفَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَنَتِ الْحِفَّةُ مَعَ الْقُوَّةِ امْكُنَ أَنْ يَبْلُغَ بِالسَّيْرِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلْدٍ لَمْ يَبْلُغَ بِالسَّيْرِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي جَمَعَ الصَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَالَّذِي جَمَعَ الصَّخَامَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْحِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ الصَّرَاعَ وَالْحِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِاسْمِ مُشْتَقٍّ مِنْ الْجَذْقِ بِاسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ وَالْحِفَّةِ وَأَمَّا الَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الْجِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا الْخَمْسِ اللَّعْبِ

(قَالَ) وَأَمَّا الشَّيْخُوخَةُ الصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ الْكِبَرِ مَعَ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْحُزَنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ الْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى الشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ الْآخْزَانِ وَلَا أَنْ أَهْلَ إِلَى مُنْتَهَى الشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحْزَنِ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ الْآخْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ الْجِدِّ وَقَضَائِلِ الْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَرَضًا أَوْ كَانَ أَجْدُ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدْ أَعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحٍ الشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ مَرَضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ الْعُمُرِ مَعَ الْأَمْرَاضِ لَكِنْ يُشَبَّهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ الْعُمُرِ غَيْرَ قُوَّةِ الصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

الْمُزَاوَلَاتِ وَاللَّعِبَاتِ حَسَنًا جِدًّا وَنَعْنِي بِالْخَنَسِ الْمُزَاوَلَاتِ وَاللَّعِبَاتِ
الْأَشْيَاءُ الَّتِي كَانَ الْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ الْعَدُوُّ
وَالرُّكُوبُ وَالْمُتَأَقِّفَةُ وَالصِّرَاعُ وَالْمَلَاكِرَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ النَّاسُ يُرَوِّنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً لِنَحْوِ هَذِهِ
الْأَفْعَالِ الْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا لِنَحْوِ الْحَقَّةِ وَالْقَلْبَةِ وَإِذَا
شَبَّ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْعِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي الْبَصَرِ عِنْدَ الْعَمَلِ فِي
الْحَرْبِ وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْهَيْئَةِ الَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا لِنَحْوِ الْحَرْبِ. وَأَمَّا
الشُّيُوخُ فَجَمَاهُمْ هُوَ اسْتِلْذَاضُ أَفْعَالِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ جَدُّ وَهِيَ
الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ الصِّبْيَانُ عَلَى هَذِهِ اللَّعِبَاتِ الْخَمْسِ وَهِيَ
الْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذَلِكَ يُرَوِّنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ .
وَذَلِكَ أَنَّ الْحُزْنَ وَالْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِالشُّيُخِ ذُنَّ بِهِ أَنَّ ذَلِكَ الطَّارِئُ
الَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ الْفَقْرِ وَالْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ
ذَلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا الْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةُ يُحْرِكُ الْمَرْءَ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ
شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ غَطَّاهُ
وَكَانَ هَذَا الْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو
بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ الصَّخَّامَةِ فَهُوَ أَنْ يَهْوَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ
وَيُجَارِرَهُمْ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ وَالْعُمُقِ وَتَكُونُ مَعَ صَخَّامَتِهِ حَرَكَاتُهُ
غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ جُلُودَةٍ هَذِهِ الْفَضِيلَةُ وَتَكُونُ صَخَّامَتُهُ لَيْسَ سَبِيلُهَا سِمَانًا

إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ أَوْ أَحَالٍ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْكَرَامَةُ
فَإِنَّهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ الْأَتَمِّ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ. فَالْخَاصَّةُ مِثْلُ الذَّبَائِحِ
وَالْقَرَابِينِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْيُونَانِيِّينَ أَنْ يُكْرَمُوا بِهَا
الْأَمْوَاتُ. وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ الْمَرَاتِبُ فِي الْعَجَالِيسِ وَالْمُسَارَعَةُ إِلَى
أَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَالْهَدَايَا الَّتِي تُوجِبُ الْحُبَّةَ وَالْقُرْبَ. فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ
جَمَعَتْ أَمْرَيْنِ بَذَلِ الْمَالِ وَالْكَرَامَةِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ
النَّاسِ وَكُلِّ إِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُ لَهُ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةٌ
أَصْنَافٍ إِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ الْكَرَامَةَ وَإِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ الْمَالَ وَإِمَّا
صِنْفٌ يَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ. وَالْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوِّقَ هَذِهِ الْأَصْنَافِ
الْثَلَاثَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ الْجَسَدِ فَالْصِّحَّةُ وَذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا عَرِيضِينَ
مِنَ الْأَسْقَامِ الْبَتَّةِ وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا أَبْدَانَهُمْ لِأَنَّ مِنْ لَا يَسْتَعْمِلُ
صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَغْبِطُ نَفْسُهُ بِالْصِّحَّةِ أَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنُ أَحْوَالٍ بِهَا وَهُوَ
بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَوْ مِنْ أَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَأَمَّا الْخُسْنُ فَإِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ أَصْنَافِ الْأَسْنَانِ
فَحَسَنُ الْعِلْمَانِ وَجَاهِلُهُمْ هُوَ أَنْ تَكُونَ أَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ
يُفَسِّرُ بِهَا قَبُولَهُمْ إِلَّا لَامٌ وَالْإِنْفِعَالُ أَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ
لِلَّذِي وَأَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْجُرْيِ
وَالْعَلَّةِ

(قَالَ) وَلِذَلِكَ مَا يَرَى النَّاسُ الْعِلْمَانَ الَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ الْخُسْنِ

فَهُوَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ التَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا اشْتَرَطَ فِي الْغِنَى هَذَا
الشَّرْطَ لِأَنَّهُ أَنْ يَكُونَ الْغِنَى فِي اسْتِعْمَالِ الْمَالِ آخَرَى مِنْهُ أَنْ
يَكُونَ فِي اقْتِنَائِهِ لِأَنَّ الْاِقْتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ الْغِنَى وَأَمَّا الْاِسْتِعْمَالُ
فَهُوَ الْغِنَى بَعِيْنِهِ وَأَمَّا حُسْنُ الْفِعْلِ عَلَى الرَّأْيِ الصَّوَابِ فَهُوَ الَّذِي
يُظَنُّهُ الْكُلُّ قَاضِيًا وَهُوَ الَّذِي يَقْتَنِي الشَّيْءَ الَّذِي يَتَشَوُّقُهُ الْكَثَرُ
لَا مُحَالَةً أَوْ الْاِخْيَارَ مِنَ النَّاسِ وَذَوُو الْكَيْسِ وَالْفِطْنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا الْكَرَامَةُ فَانْهَآ فِي زَمَانِنَا هَذَا لِلْمُعْتَنِي بِحُسْنِ
الْفِعْلِ وَارْكَامِ النَّاسِ الَّذِينَ لَهُمْ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَأَةٌ
عَلَى طَرِيقِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافَأُهَا
الدَّانِيَةُ وَالْأَدْرَاهِمُ . وَلَيْسَ يُكْرَمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ بِالنَّاسِ
فَقَطُّ بَلْ وَالَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْعِنَايَةُ الْحَسَنَةُ أَعْنِي
الَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فِي حَالِ الْإِرْكَامِ
وَالْعِنَايَةِ بِالنَّاسِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْكَرَامَةَ هِيَ الْعِنَايَةُ تَخْلِصُهُمْ مِنْ
الْشُّرُورِ الَّتِي لَيْسَ التَّخْلِيسُ مِنْهَا يَهَيِّئُ أَوْ إِفَادَتُهُمْ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لَيْسَ
إِفَادَتُهَا بِالسَّهْلِ . وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ الْجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ الْغِنَى أَوْ
السُّلْطَانِ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ بِمَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى
أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ
يَسِيرَةٍ لَكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ وَإِلَى
تِلْكَ الْحَالِ . فَكَانَ الْكَرَامَةُ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْيَسِيرَةِ هِيَ بِالْعَرَضِ
أَيُّ مِنْ جِهَةٍ مَا عَرَضَ لَتِلْكَ الْأَشْيَاءِ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِالإِضَافَةِ

وَكثْرَةُ اللَّحْمِ الطَّيِّبِ لَا اللَّوْنُ وَالْجَمَالُ. وَأَمَّا فِي النَّفْسِ فَثَلَاثُ
 الْعُقَافُ وَحُبُّ الْأَلْفَةِ وَحُبُّ الْكَدِّ فَإِنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ يَكْمُلُ
 الْمَنْزِلُ وَهَذِهِ الْفَضَائِلُ الَّتِي قُلْنَا سَبِيلَهَا أَنْ تُوجَدَ فِي النِّسَاءِ كُلِّهِنَّ
 اللَّائِي مِنْ نَسَبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ عَلَى الْعُمُومِ وَفِي الرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى
 الْعُمُومِ وَفِي أَوْلَادِهِ الذُّكُورِ خَاصَّةً إِذْ كَانَ أَوَّلُودُهُ بِهِ الصَّقَ .
 وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخُطِيبِ أَنْ يَنْظُرَ هَلِ الْفَضَائِلُ الَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هَذِهِ
 الْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي فِي أَوْلَادِهِمْ أَمْ لَيْسَ هِيَ هَذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا
 مِنَ الْأَنْحَمِ يُرْبُونَ أَوْلَادَهُمْ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ بِالزَّيْنَةِ وَالسِّمَنِ
 وَهُوَ لَا يَقُولُ فِيهِمْ أَرَسَطُوا إِنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ التَّصْفُ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ
 بِالْأَبْنَاءِ . قَامًا أَجْزَاءُ الْيَسَارِ فِكثَرَةُ الدَّنَائِيرِ وَالْأَرْضِينَ وَالْعُقَارِ
 وَالْإِنَاثِ وَالْأَمْتَةِ وَالْمَوَاشِي وَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي النَّوعِ
 وَالْجِنْسِ . وَكُلُّ ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ
 وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا أَيْ مُلْتَدًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ أَوْ مُنْهِيًا
 (قَالَ) وَمِنْ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ فِي الْيَسَارِ وَالنَّافِعَةِ لَهُ الْأَشْجَارُ
 الْمُشْمِرَةُ وَالْعَلَاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَاللَّذِيذُ مِنْ هَذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى
 بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ الْحِفْظِ وَالْإِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ أَنْ يَكُونَ
 فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُتَعَدَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِالْحَالِ الَّتِي
 يُعْمَلُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ أَنْ إِذَا كَانَتْ أَرْضًا أَلَّا تَكُونَ سَبْجَةً وَإِنْ
 كَانَ فَرَسًا أَلَّا يَكُونَ جُحُومًا . وَحَدُّ الْحُرِّيَّةِ فِي الْمَالِ أَنْ يَكُونَ
 إِلَيْهِ التَّصَرُّفُ فِي الْمَالِ بِالْإِعْطَاءِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَأَمَّا التَّنْعُمُ بِالْمَالِ

يَكُونُوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاءَ . فَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنْ
الرَّجَالِ فَقَطُّ أَوْ مِنَ النِّسَاءِ فَالظَّاهِرُ مِنْ ذَلِكَ وَالْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ
الْجَمِيعِ أَنَّهُ يَكُونُ أَتَمَّ إِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمَلَ
الْخَطِيبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَشْهُورَ فِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ . وَمِنْ شُرُوطِ الْحَسَبِ أَنْ
يَكُونَ الرُّؤَسَاءُ وَالْآخِرَاءُ مِنْ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ شُهِرُوا بِالْفَضِيلَةِ
وَالنِّسَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي الْقَوْمِ
الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ إِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوْجَدُ فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ أَبَدًا
أَشْيَاخُ بِهِدِهِ الصِّفَةُ يَحْتَفِلُهُمْ غِلْمَانُ فِي تِلْكَ الْخِصَالِ . فَإِنَّهُ إِنْ أُنْقَطِعَ
الشَّرَفُ فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسَبِيًّا وَإِنْ لَمْ
يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِبٌ وَإِنْ أُنْقَطِعَ فِيمَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ . وَأَمَّا حُسْنُ
الْحَالِ بِالْأَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ الْحَالِ بِالْأَوْلَادِ
الْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ النِّسْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ الْجَسَدِ
وَفَضَائِلِ النَّفْسِ . أَمَّا فِي فَضَائِلِ الْجَسَدِ فَبَارِعٌ أَحَدَاهَا الْجُرَالَةُ وَهِيَ
أَنْ تَكُونَ خُلُقُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ .
وَالثَّانِيَةُ الْجَمَالُ . وَالثَّلَاثَةُ الشَّدَّةُ . وَالرَّابِعَةُ الْبَطْشُ فَبِهِذِهِ الْأَرْبَعِ
يَكُونُ الْعِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ أَجْسَادِهِمْ . وَأَمَّا فِي فَضَائِلِ
النَّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِأَثْنَتَيْنِ بِالْعَفَافِ وَالشَّجَاعَةِ . وَأَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ
صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ النَّاسِ فَكَثْرَةُ الْأَوْلَادِ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ .
وَصَلَاحُ الْحَالِ بِالْإِنَاثِ أَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي الْجَسَدِ وَالنَّفْسِ .
أَمَّا فِي الْجَسَدِ فَاثْنَتَانِ الْعِبَالَةُ وَهُوَ عَظَمُ الْأَعْضَاءِ الْعَظَمِ الطَّبِيعِيِّ

عِنْدَ النَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ الْأَشْيَاءِ الْحَافِظَةَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَالْفَاعِلَةَ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ أَحَالِ الْمَشْهُورِ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ
يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ أَحَالِ هُوَ هَذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا وَإِذَا كَانَ
صَلَاحُ أَحَالِ هُوَ هَذَا فَاجْزَأُوهُ هِيَ كَرَمُ الْحَسَبِ وَكَثْرَةُ الْإِخْوَانِ
وَالْأَوْلَادِ وَالْيَسَادِ وَحُسْنُ الْفِعْلِ وَالسَّيُّوْخَةُ الصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ الْجَسَدِ
وَمِثْلُ الصِّحَّةِ وَالْجَمَالِ وَالْجَلْدِ وَالْجَزَالَةِ وَالْبَطْشِ وَالْعَجْدِ وَالْجَلَالَةِ
وَالسَّعَادَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَاجْزَأُوهَا مِثْلُ الْعَقْلِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْعَقَافِ وَالْعَدَالَةِ
وَالْبِرِّ فَإِنَّهُ هَكَذَا أُخْرَى أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مَكْفِيًا
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ الْخَيْرَاتُ الْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَالْخَيْرَاتُ
الْمَوْجُودَةُ فِيهِ النَّفْسَانِيَّةُ وَالْجَسَدَانِيَّةُ وَالَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ الْحَسَبُ
وَالْإِخْوَانُ وَالْمَالُ وَالْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هَذِهِ نِفُودُ
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِتِّفَاقَاتُ الْجَمِيلَةُ وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ عِنْدَ النَّاسِ سَعَادَةً
فَإِنَّ يَهْدِيهِ الْأَشْيَاءُ تَكُونُ حَيَاةُ الْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةً مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرُهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ
هَذَا هَكَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
النَّظَرِ الْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ النَّظَرُ الْمَشْهُورُ . فَأَمَّا الْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ
الْقَوْمُ الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ تَرَى الْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ
الْأَزْوَاجِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هَذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ دَوِيٍّ ذَكَرٍ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةِ عُدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هَذَا أَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سَبَاءٌ أَوْ
يَكُونُوا مِنْ تَالِ الْأُمُورِ الْجَمِيلَةِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَإِنْ لَمْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ إِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَجُودُهُ فَقَطْ. وَإِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ
 وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اسْمُهُ أَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ الْجَوَابِ
 الَّذِي يُجِيبُ فِيهِ الْآخَرُ. وَإِنَّمَا يُؤَثِّرُهُ الْجَمِيعُ. لِمَكَانِ هَذَا إِلَّا نَفْعَالُ
 الْمَوْجُودِ لَهُ بِالطَّبَعِ عِنْدَ الْجَمِيعِ. وَهَذَا الْخَيْرُ فِي الْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ
 الْحَالِ وَأَجْزَاءُ صَلَاحِ الْحَالِ. وَلِذَلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُفَصِّلَ أَوَّلًا مَا
 هُوَ صَلَاحُ الْحَالِ بِقَوْلٍ عَامٍ ثُمَّ نُفَصِّلَ أَجْزَاءَهُ وَنُخَبِّرَ عَنْ أَضْدَادِهَا
 وَعَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْأَذْنُ وَالْمَنْعُ وَهِيَ النَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ
 الْحَالِ أَوْ الْأَنْفَعُ فِيهِ أَوْ الضَّارَّةُ فِيهِ أَوْ الْأَضَرُّ فِيهِ فَإِنَّ بِهَذَا يَتِمُّ
 لَنَا الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا تَلْتَمِ الْأَقَاوِيلُ الْمَشُورِيَّةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ
 مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ

(قَالَ) وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا
 مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا فِيمَا يَجْزِي مَجْرَى الْأُمُورِ الْكَلِّيَّةِ مِثْلَ
 أَنَّهُمْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعْظِمَ الشَّيْءَ الصَّغِيرَ إِذَا أَرَادَ
 تَفْخِيمَهُ وَيُصَغِّرَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ إِذَا أَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا
 يَأْذَنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ الْحَالِ وَفِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي
 تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ الْحَالِ أَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ الْحَالِ إِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا
 مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا يُعْظَمُ الشَّيْءُ أَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ الْأَشْيَاءُ
 الَّتِي تُوجِبُ اخْتِلَالَ صَلَاحِ الْحَالِ أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تَتَجَاوَزُهُ إِلَى ضِدِّهِ
 (قَالَ) قَدْ مِمَّا صَلَاحُ الْحَالِ فَهُوَ حُسْنُ الْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنْ
 الْعُمُرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ السَّلَامَةِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَالِ وَحُسْنِ الْحَالِ

وَقَدْ كَتَبَ النَّاسُ فِي الْأَوْجُهِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ الْأَعْدَاءِ
وَالْأَوْجُهِ الَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَأْخُذُ الْمُقَدَّمَاتِ
الَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى أَهْلِ مَدِينَتِهِ بِالْتَّحْفِظِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي
وَضْعِ السُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ لَا مِنْ
عِلْمِ الْخَطَايَةِ. وَإِنَّمَا يُذَكَّرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من أجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع
وفي ماهية السعادة وأنواع الخيور التي من مجموعها

تولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ الْأُمُورُ الْعُظْمَى الَّتِي بِهَا يُشِيرُ الْمُسِيرُونَ
عَلَى أَهْلِ الْمَدْنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ
وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ الْآنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا يَكُونُ
الْإِذْنُ وَالنَّعْيُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ أَوَّلًا بِالْإِخْبَارِ
عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُشِيرُ الْمُسِيرُونَ فَيَاذُنُونَ فِيهَا أَوْ يَنْعُونَ
مِنْ أَضْدَادِهَا. وَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْفِعَالٌ
مَا وَتَشَوُّقٌ بِالطَّبْعِ لِلْخَيْرِ الَّذِي يَتَشَوَّقُهُ الْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى
غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذَلِكَ الْخَيْرُ فَيَحْتَارُونَ
وَيُؤَيِّرُونَ عَلَى غَيْرِهِ. أَوْ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ أَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِيٍّ عَنْ

الْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ السُّنَّةُ مُفْرَطَةً الضَّعْفِ وَاللَّيْنِ أَوْ
مُفْرَطَةً الشَّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ
وَذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي تُسَمَّى الْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا
تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قَبْلِ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ الْخِصَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ
الشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ أَلْمَالِ وَالَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ
ذَوِي السِّيَاسَاتِ الَّتِي وَصَلْنَا أَخْبَارَهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يُوَلُّ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ
الْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ الْأَخْصَاءِ مِنْ قَبْلِ اسْتِرْخَاءِ السُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ
كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْأَكْثَرُ بَلْ وَمِنْ قَبْلِ الْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ
الْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطُلَ وَجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وَجُودُهَا مِنْ قَبْلِ
الضَّعْفِ وَالْتِفْصِيرِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْفَطْسَ إِذَا أُفْرِطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ
قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ
قُرْبَ مِنَ الْإِعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ السُّنَنَ الَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ فَانْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَشْهُورَةِ
وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَغْمِلَ مِنْهَا النَّافِعَ الَّذِي يُخْصُهُ وَالْأُمَّةُ الَّتِي تَخْصُهُ .
وَلِذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ السُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ النَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ
وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ السُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَضَعَ السُّنَنَ النَّافِعَةَ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ الطَّبَائِعِ. وَأَمَّا الْفَسَادُ
الِدَّاحِلُ عَلَى الْمُلْدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ الْأَعْدَاءِ فَأَمْرُهُ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

أَعْنِي الَّتِي الْمُنْفَعَةُ بِحِفْظِهَا أَكْثَرُ . فَمَنْ عَرَفَ هَذَا فَقَدْ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُشِيرَ بِالْحِفْظِ وَأَنْ يَكُونَ خَيْرًا بِالْبِلَادِ الَّتِي يُشِيرُ بِحِفْظِهَا . وَأَمَّا الْإِشَارَةُ بِالْقُوَّةِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُهَا الْمَدِينَةُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ الْمَشِيرَ فِيهِ أَنْ يَعْرِفَ مَقْدَارَهَا وَكَمْ يَكْفِي الْمَدِينَةَ مِنْهَا وَكَمْ الْحَاضِرُ الْمَوْجُودُ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ وَهَلْ أُدْخِلَ الْكَافِي مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ وَأُخْرِزَ أَمْ لَمْ يُدْخَلْ . وَمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُوَ الْقَاضِلُ عَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَمَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَدْخُلَ وَهُوَ مَا قَصَرَ عَنِ الضَّرُورِيِّ لِتَكُونَ شُورَتُهُ وَمَا يُعْهَدُ بِهِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ الْمَرْءُ أَنْ يَحْفَظَ أَهْلَ مَدِينَتِهِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا لِمَكَانِ ذَوِي الْقَضَائِلِ وَالثَّانِي لِمَكَانِ ذَوِي أَلْمَالِ الَّذِينَ مِنْ أَجْلِ ذَوِي الْقَضَائِلِ . وَالْحَافِظُ لِلْمَدُنِ يَحْتَاجُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ عِنْدَ حِفْظِهَا

(قَالَ) وَأَمَّا النَّظَرُ فِي وَضْعِ السُّنَنِ وَالْإِشَارَةُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَسِيرٍ فِي أَمْرِ الْمَدُنِ فَإِنَّ الْمَدُنَ إِنَّمَا تَسْلَمُ وَيَلْتَمُ وجودُهَا بِالسُّنَنِ وَلِذَلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِوَاضِعِ السُّنَنِ أَنْ يَعْرِفَ كَمْ أَصْنَافُ السِّيَاسَاتِ وَآيُ سُنَّةٍ تَنْفَعُ فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ وَآيُ سُنَّةٍ لَا تَنْفَعُ وَآيُ نَاسٍ تَضُرُّ بِهِمْ سُنَّةٌ وَسُنَّةٌ وَسِيَاسَةٌ سِيَاسَةٌ وَآيُ نَاسٍ لَا تَضُرُّ بِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ يَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يَخَافُ أَنْ يَدْخُلَ مِنْهَا الْفَسَادُ عَلَى الْمَدِينَةِ . وَذَلِكَ إِمَّا مِنْ الْأَضْدَادِ مِنْ خَارِجٍ وَإِمَّا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَإِنَّ سَائِرَ الْمَدُنِ مَا عَدَا الْمَدِينَةَ الْقَاضِيَةَ قَدْ تَفْسُدُ مِنْ قَبْلِ السُّنَنِ

حَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطَّ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي ثُجُومِهِ وَثَغَرِهِ أَعْنِي كَيْفَ
 حَالَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحَالَهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي الظَّفَرِ بِهِ أَوْ الْعِزْرِ
 عَنْهُ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةٍ فِي الْإِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِالْحَرْبِ
 أَوْ السَّلَامِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هَذَا أَنْ يَعْلَمَ الْحُرُوبَ الْجَمِيلَةَ مِنَ الْحُرُوبِ
 الْجَائِزَةِ وَأَنْ يَعْلَمَ حَالَ الْأَجَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي الْقُوَّةِ
 وَالشَّجَاعَةِ وَالرَّأْيِ وَاجَادَةِ مَا فُوضَ إِلَى صَنْفٍ صَنْفٍ مِنْهُمْ مِنْ
 الْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْحَرْبِ. أَعْنِي أَنْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ
 مُتَشَابِهِينَ فَإِنَّهُ دُبًّا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَضِلُّ
 لِلْحَرْبِ أَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ الْحَرْبِ الَّذِي فُوضَ إِلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي
 مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ نَاطِرًا لَيْسَ فِيهَا أَفْضَتْ إِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيهَا
 أَفْضَتْ إِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ النَّاسِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَإِنَّ
 الشَّيْءَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى الشَّيْءِ. أَعْنِي أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَفْضَتْ الْحُرُوبُ
 الشَّيْءَ بِحَرْبِهِمْ إِلَى مَكْرُوهِ أَنْ يُشِيرَ بِالسَّلَامِ وَإِنْ كَانَتْ أَفْضَتْ
 إِلَى الظَّفَرِ أَنْ يُشِيرَ بِالْحَرْبِ. وَأَمَّا حِفْظُ أَلْبِلَادِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ الْمَشِيرَ
 بِالْحِفْظِ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تَحْفَظُ أَلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ الْحِفْظِ الْمُحْتَاجِ
 إِلَيْهِ فِي طَارِيءٍ طَارِيءٍ وَكَمْ أَنْوَاعُ الْحِفْظِ. وَيَعْرِفُ مَعَ هَذَا
 الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِالرِّجَالِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَسَالِحَ. فَإِنْ
 كَانَ الْحِفْظُ لِتِلْكَ الْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا
 يَضِلُّ لِلْحِفْظِ لِحَاثِهِ مَنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ الْحَكَامَةِ عَنِ الْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ
 قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْفَظَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوَاضِعِ الْحَقِيقَةِ

وَهُوَ الَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ أَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ الَّذِي لَا صِاعَةَ لَهُ أَشَارَ
بِتَحَيُّتِهِ مِنَ الْبَلَدِ. وَإِنْ كَانَ هُمَاكَ عَظِيمُ التَّفَقَّاتِ فِي غَيْرِ الْجَمِيلِ أَوْ
غَيْرِ الضَّرُورِيِّ أَشَارَ بِأَخْذِ ذَلِكَ الْفَضْلِ مِنْ أَمَالٍ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ
يَكُونُ الْغِنَاءُ بِالزِّيَادَةِ فِي أَمَالٍ بَلْ وَبِالنَّقْصَانِ مِنَ التَّفَقُّعِ وَلِذَلِكَ
قِيلَ : قِلَّةُ أَلْيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينَ

(قَالَ) وَمِنْ الضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا يَقِفُ الْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ أَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ
وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ الْإِشَارَةِ بِالزِّيَادَةِ فِي
النبَاتِ أَنْ يَكُونَ فَلَاحًا وَلَا فِي الْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لَكِنْ
يَكْفِيهِ فِي ذَلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا لَكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هَذَا
أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالسَّيْرِ الْمَتَقَدِّمَةِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ النَّاسِ
فِيهَا. وَأَمَّا الْمَشِيرُ بِالْحَرْبِ أَوْ السَّلْمِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ
يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ الْأَمْرِ الَّذِي يُنَالُ بِالْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ
يَسِيرٌ أَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ الْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَصَفِّ أَهْلِهَا
وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ الْمَدِينَةِ أَوْ فِي عِظَمِهَا أَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ
مَنْ يَسْتَطِيعُ الْمُحَارَبَةَ أَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذَلِكَ الْمِقْدَارُ. وَهَلْ هُمْ
بَصِيقَةٌ مِنْ تَمَكُّنِهِمُ الْمُحَارَبَةَ أَمْ لَيْسَ هُمْ. وَأَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا
مِنَ الْحُرُوبِ الْمَتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ
بِالْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ أَمْرَ الْحَرْبِ. أَوْ يَعْرِفَهُمْ بَمَا فِي الْحَرْبِ مِنْ
مَكْرُوهِه إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

لِلْعِلْمِ السِّيَاسِيِّ مِنْهَا. وَالْأُمُورُ الَّتِي يُشِيرُ بِهَا الْخَطِيبُ مِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ
عَلَى أَهْلِ مَدِينَةٍ بِأَسْرِهِمْ وَمِنْهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ
تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري
وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) : فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْمَشُورَةُ فِي
الْأُمُورِ الْعِظَامِ مِنْ أُمُورِ الْمَدْنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ
خَمْسَةً . أَحَدُهَا الْإِشَارَةُ بِالْعُدَّةِ الْمُدَّخَرَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ لِلْمَدِينَةِ .
وَالثَّانِي الْإِشَارَةُ بِالْحَرْبِ أَوْ السَّلَامِ . وَالثَّلَاثُ الْإِشَارَةُ بِحِفْظِ الْبَلَدِ
مِمَّا يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . وَالرَّابِعُ الْإِشَارَةُ بِمَا يَدْخُلُ فِي الْبَلَدِ
وَيَخْرُجُ عَنْهُ . وَالْخَامِسُ الْإِشَارَةُ بِالْإِتِمَامِ السَّنَنِ . فَالَّذِي يُشِيرُ بِالْعُدَّةِ
يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ أَحَدُهَا أَنْ يَعْرِفَ غَلَاتِ الْمَدِينَةِ مَا
هِيَ أَعْيَى هَلْ هِيَ نَبَاتٌ أَوْ حَيَوَانٌ أَوْ مَعْدِنٌ أَوْ جَمِيعُ هَذِهِ أَوْ اثْنَانِ
مِنْهَا كَيْفَا إِنْ تَقَصَّ مِنَ الْفَاضِلِ مِنْهَا لِلْعُدَّةِ شَيْءٌ أَشَارَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا .
وَالثَّانِي أَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذَلِكَ نَفَقَاتِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا . وَالثَّلَاثُ أَنْ
يَعْرِفَ أَصْنَافَ النَّاسِ الَّذِينَ فِي الْمَدِينَةِ فَإِنْ كَانَ فِيهَا إِنْسَانٌ بَطَالٌ

الْمُنْطِقِ وَمِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ الْخَلْقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً
بِالْأَشْيَاءِ الْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِالسُّوفِسْطَائِيَّةِ .
وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي فِي صَنَائِعٍ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءَ لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ
مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِالْجِهَةِ وَالْحَالِ الَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ
الْكثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضٍ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ
مِنْهَا الْأَحْوَالُ الَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَغْنَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةٌ
فِي غَرَضٍ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ الْوَاحِدَةِ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَا أَشْيَاءَ
الْخَلْقِيَّةَ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ
نَحْوَ الْكَلَامِ وَالْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ السِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ
الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا . وَالْأَشْيَاءُ الْجَدَلِيَّةُ
وَالسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ
الَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هَذِهِ الصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ الْمَعْرِفَةِ الْأُولَى لِلْإِنْسَانِ
لَأَمَّا هُوَ بَعِيدٌ عَنِ مَعْرِفَةِ الْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْ أَلْقِيَاسِ
أَلْقِيَاسِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَهُوَ التَّمْثِيلُ وَالضَّمِيرُ وَكَذَلِكَ الْحَالُ
فِي الْأُمُورِ السُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهِ
عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمَلُهُ
طَبَاعُهُمُ الْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالَفُ هَذِهِ بِمِقْدَارِ النَّظَرِ وَقَدْ تُخَالَفُ
أَيْضًا بِمِقْدَارِ النَّظَرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ النَّظَرِ الَّذِي
لِلْعِلْمِ السِّيَاسِيِّ فِيهَا أَغْنَى أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْظَرُ فِي الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ النَّظَرِ
الَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ الْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدْعُ تَقْصِي النَّظَرِ فِي ذَلِكَ

الَّتِي بَدَأَ كَوْنَهَا مِنْ قَبْلِ الْأَخْتِيَارِ وَالْإِرَادَةِ . وَمِنْ هَذِهِ فِيمَا كَانَ
وُجُودُهُ أَوْ لَا وَجُودُهُ تَابِعًا لِرَوَيْتِنَا وَأَفْعَالِنَا عَلَى الْأَكْثَرِ وَأَمَّا مَا
كَانَ مِنْهَا يَعْزُضُ عَنِ الرَّوْيَةِ بِالْإِتْفَاقِ وَأَقْلَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي
الْأَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا إِلَّا حَيْثُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ الْجِنْسُ الْآخَرُ
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ
إِنَّمَا يَنْظُرُ أَوْ لَا هَلِ الْأَمْرُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُمَكِّنٌ ثُمَّ إِنْ
كَانَ مُمَكِّنًا بِأَيِّ شَيْءٍ يُمَكِّنُ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ شَرَعَ فِي السَّعْيِ
فِيهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُمَكِّنٍ حَلَّى عَنْهُ . وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا نُشِيرُ
هِيَ الَّتِي فِيهَا نُزَوِي . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مَا هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي نُشِيرُ
بِهِ وَفِي آيِ الْأَشْيَاءِ يَكُونُ وَالْأُمُورُ الْإِرَادِيَّةُ الَّتِي مَبْدَأُ وَجُودِهَا مِمَّا
لَا الْأُمُورُ الْإِضْطِرَّارِيَّةُ الَّتِي لَيْسَ إِلَيْنَا وَجُودُهَا وَإِعْطَاءُ الْفَرْقِ التَّامِ
بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ الْإِرَادِيَّةِ وَتَضَحُّيْ عَدَدِ أَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ
مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى أَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا أَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ
شَأْنِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ الْإِرَادِيَّةِ وَلَكِنْ
ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ الْفَلَسَفَةِ الَّتِي لَهَا الْفَضْلُ عَلَى هَذِهِ فِي التَّصَوُّرِ
وَالْتَّصَدِيقِ وَالْمُقَدَّمَاتِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِيهَا أَصْدَقُ وَأَصَحُّ مِنْ هَذِهِ .
وَذَلِكَ أَنَّ هُمَا لَسْنَا تَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْآخَوَالِ
الذَّائِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ لَهَا بَلِ الْأُمُورِ الْمَشْهُورَةِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ
الْأَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ مَا
قُلْنَاهُ فِي أَجْزَاءِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ أَغْنِي أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

شَرِيفٌ أَوْ خَسِيسٌ وَلَا يَلِيقُ أَوْ غَيْرُ لَا يَلِيقُ وَذَلِكَ إِمَّا عَلَى الْأِطْلَاقِ
وَأَمَّا بِالْمُقَاسَةِ أَعْنِي أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَشْرَفُ أَوْ بِالضِدِّ مُعْلُومٌ أَنَّهُ يَنْبَغِي
أَنْ تَكُونَ عِنْدَ الْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُشْتَوْنَ بِهَا أَنْ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ
عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ أَوْ شَرِيفٌ وَلَا يَلِيقُ بِالْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ أَوْ غَيْرُ
لَا يَلِيقُ فَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمُقَدَّمَاتِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هَذِهِ الصَّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ قِيَلَنِي أَنْ بَتَّبِدِي بَتَّعِيدِ الْمُقَدَّمَاتِ الَّتِي تَخْصُ
غَرَضًا غَرَضًا مِنْ الْأَغْرَاضِ الثَّلَاثَةِ وَتَجْعَلُ الْكَلَامَ أَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ
الْمُقَدَّمَاتِ الْمَشُورَةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي التَّشْبِيهِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي الْمَشَاجِرَةِ
فَأَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ
بِهَا مَا هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي يُشَارُ بِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَكُونَ الْمَشُورَةُ فِي كُلِّ
خَيْرٍ لَكِنْ فِي الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ
فَأَمَّا الْخَيْرَاتُ الَّتِي كَوْنُهَا أَوْ لَا كَوْنُهَا مِنْ الْأَضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونَ
فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا أَيْضًا الْمَشُورَةُ تَكُونَ فِي جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ الْمُمْكِنَةِ
فَإِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمَكِّنَةٌ وَجُودُهَا عَنْ الطَّبِيعَةِ بَلْ فِي الْخَيْرَاتِ
الْمُمْكِنَةِ الَّتِي إِلَيْنَا أَنْ تَكُونَ أَوْ أَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ الْأَشْيَاءُ

الْمَغَالِطَةُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لَكِنْ لَا يُقَرُّ أَنَّهَا رَذِيئَةٌ بَلْ يَدْعِي
 فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ النَّفْعِ الَّذِي فِيهَا فَإِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ
 هَذِهِ الْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِالْعَرَضِ وَلِذَلِكَ لَا
 تُشَاسِكُ فِيهَا وَتُشَاسِكُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا اسْتَعْمَلْتَ الْوَاحِدَةَ
 غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ الْمَغَالِطَةِ . (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ
 قِيَاسِيَّةً فَعُلُومٌ أَنَّهُ يُجِبُّ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدَّمَاتُهَا هِيَ
 الثَّلَاثُ الَّتِي وَصَفْنَا: الْحُمُودَاتُ وَالْدَّلَائِلُ وَالْعَلَامَاتُ. وَذَلِكَ أَنَّ
 الْقِيَاسَ الْمَطْلُوقَ يَكُونُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ الْمَطْلُوقَةِ وَالْقِيَاسَ الْخَاصَّ
 بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذَلِكَ كَانَ الضَّمِيرُ
 قِيَاسًا يَأْتِلِفُ مِنْ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي
 يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمَكِّنٌ لِأَنَّ الْأُمُورَ
 الْغَيْرَ الْمُمَكِّنَةَ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي الْخَاضِرِ وَلَا فِي
 الْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ فِي الْجِلْسَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ مِنْ اجْتِنَاسِ هَذِهِ
 الصِّنَاعَةِ أَغْنِي أَنْ تُفْهَمَ أَوَّلًا أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَغْنِي الْجِلْسَ
 التَّيْسِيَّ وَالْجِلْسَ الْمُسَاجِرِيَّ. فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنْ
 تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُفْقَعُ بِهَا فِي أَنْ الْأَمْرَ مُمَكِّنٌ أَوْ غَيْرَ مُمَكِّنٍ
 وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ
 الْغَايَاتِ الثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ الْخُطْبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى
 الْمَذْحِ وَالذَّمِّ وَالْإِذْنِ وَالنَّهْيِ وَالشِّكَايَةِ وَالْإِعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ
 مَعَ هَذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

الْثَلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ الْفُصُولُ الْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قَبْلِ هَذِهِ أَلْفَايَاتٍ .
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ أَلْفَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ
هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
فِي غَايَةِ الْجِنْسِ الْآخِرِ رَبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَنْظَرِ فِي ذَلِكَ مُعَاسَرَةٌ
وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذَلِكَ وَلَكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ
ذَلِكَ الْقَوْلِ الَّتِي تَخْصُهُ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُدَّعِي إِذَا ادَّعَى أَنَّ فُلَانًا
أَخَذَ أَمْوَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذَلِكَ لَا شَكَّ ضَرُّ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ الْخُصْمُ
أَنَّ ذَلِكَ كَانَ وَلَكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخَذَهُ أَمْوَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ
الْجَوْرِ . وَكَذَلِكَ الْمُسِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ الْفِعْلَ الْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا
يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانٍ تَدْخُلُ هَذِهِ أَلْفَايَاتِ يَفْرَضُ لِلْمُسِيرِينَ
كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ الْمَغَالِطَةِ مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا
عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلَكِنْ لَا يَقْرُونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رَبَّمَا
أَحْتَالُوا فِي دَعْوَى وَجُودِ النَّفْعِ فِيهَا . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ
بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ وَالْأَيُّفُونَ لِيَكُونَ الْفِرَارُ جَوْرًا فِي
الشَّرِيعَةِ . وَكَذَلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رَبَّمَا أَشَارَ
الْمُسِيرُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَتَمَتَّعُوا بِذَلِكَ الْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرَبَّمَا أَوْهَمَ
فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ . وَكَذَلِكَ الْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ الشَّيْءَ ضَارٌّ وَلَكِنْ
يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ الْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ
يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ . فَأَلَمَوْتُ يُسَلِّمُ الْخُصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ
وَلَكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ . وَكَذَلِكَ رَبَّمَا مَدَحَ بِالرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْحِيلَةِ فِي اسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ الْمَدْحِ
وَمَذَامِهِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَوَقَّعُ حَدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرَجَى حَدُوثُهَا مِنْهُ
فَيَحْطِطُونَ مَعَ الْمَدْحِ إِلَى الْإِشَارَةِ عَلَى الْمَدْحِ بِفِعْلِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا الْغَايَاتُ مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهَذِهِ
الثَّلَاثَةِ الْأَقَاوِيلِ أَمَّا الْقَوْلُ الْمُسِيرُ فَقَايَتُهُ النَّافِعُ وَالضَّارُّ. فَإِنَّ الَّذِي
يُسِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي النَّافِعِ أَوْ فِي الَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ الضَّارِّ
أَوْ مِنَ الَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمُسَاجِرِيُّ فَقَايَتُهُ الْعَدْلُ وَالْجَوْرُ.
وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمُنْبِتُ فَقَايَتُهُ الْفُضِيلَةُ وَالرَّذِيلَةُ وَإِنْ اسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ
هَذِهِ غَايَةٍ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى الْقَصْدِ الْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ الْغَايَةِ
الْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُسِيرَ قَدْ يُنْبَغُ أَنْ هَذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ
لِيُسِيرَ بِالْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ الْعَدْلِ مِنَ الْمُنْفَعَةِ وَبِالْمَنْعِ عَنْ مَا
يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ الْجَوْرِ لِمَا فِي الْجَوْرِ مِنَ الْمَضَرَّةِ الَّتِي تُسَوِّقُ.
وَكَذَلِكَ قَدْ اسْتَعْمَلَ الْفُضِيلَةُ وَالرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةٍ مَا يُلْحَقُهَا مِنَ
النَّافِعِ وَالضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْغَايَاتُ الثَّلَاثُ تُحْصَى كُلُّ وَاحِدَةٍ
مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةٍ مَا هِيَ غَايَاتُ عَلَى
الْقَصْدِ الْأَوَّلِ فَالْحُدُودُ الْمُمِيزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ

الرَّئِيسُ وَالْحَاكِمُ فِي الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ هُوَ الَّذِي يَنْصِبُهُ الرَّئِيسُ (مِثْلُ
الْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هَذِهِ وَهِيَ مُدُنُ الْإِسْلَامِ). وَأَمَّا الْمُنَاطِرُ فَإِنَّمَا
يُنَاطِرُ بِقُوَّةِ الْمَلَكَةِ الْخَطِيئَةِ فَإِنَّ أَجْبَاسَ الْقَوْلِ الْخَطِيئَةِ ثَلَاثَةٌ
مَشُورِيٌّ وَمُشَاجِرِيٌّ وَتَثْبِيئِيٌّ

فَأَمَّا الضَّيِّيرُ الْمَشُورِيُّ فَيَنْهَ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنَعٌ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ
يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِمَا يُحْصُهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ
الْمَدِينَةِ بِمَا يَعْمَهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنَعٌ. وَأَمَّا
الْقَوْلُ الْمُشَاجِرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَّصُلُّ مِنَ الشِّكَايَةِ.
وَأَمَّا الْقَوْلُ التَّثْبِيئِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَالزَّمَانُ
الْخَاصُّ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يُسَادِرُهَا هُوَ الزَّمَانُ الْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ
إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءٍ مَعْدُومَةٍ. وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ بِالْأَشْيَاءِ
الْمُشَاجِرِيَّةِ هُوَ الزَّمَانُ الْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشَكَّى مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ الْمُسْتَكْبَلِ بِهِ فَإِنَّمَا
تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِشَارَةِ بِالنَّافِعِ فِي ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ قَدْ
يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ الْمَشُورَةُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ كَانَتْ لَكِنْ مِنْ
جِهَةٍ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَتَمَّتِ كَانَتْ الشُّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ
أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي الشَّيْءِ الَّذِي قَدْ وَقَعَ. وَأَمَّا
الْأَشْيَاءُ التَّثْبِيئِيَّةُ فَإِنَّ أَوَّلَى الْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ الزَّمَانُ الْحَاضِرُ أَغْنِي
الْقَرِيبَ مِنَ الْآنِ فَإِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُمَدِّحُونَ وَيَذْمُونَ بِالْأَشْيَاءِ
الْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ الْمَدْحِ وَحِينِ الذَّمِّ فِي الْمَدْحِ وَالْمَذْمُومِ وَرَبَّمَا

الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوْجَدُ اَجْنَاسُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا الْخُطَابَةُ مِنْ الْأُمُورِ
الْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ أَصْنَافِ السَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ الْخُطْبِيِّ
ثَلَاثَةً. وَذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ الْخُطِيبُ
وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ الَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ الْقَوْلُ وَمِنْ الَّذِينَ يُوجَّهُ
إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ وَهُمْ السَّامِعُونَ. وَالْغَايَةُ بِالْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ
هُوَ لَا السَّامِعِينَ. وَالسَّامِعُونَ لَا مُحَالَةَ إِمَّا مُنَاطِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا
الْمَقْصُودُ إِقْنَاعُهُ. وَالْحَاكِمُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ
وَهِيَ النَّافِعَةُ وَالضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي الْأُمُورِ الَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَالْأُمُورُ
الَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوْجَدُ فِي الْإِنْسَانِ بِاخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ
الْقَضَائِلُ وَالرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوْجَدُ فِي الْإِنْسَانِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ
إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ الْجَوْرُ وَالْعَدْلُ. وَالْحَاكِمُ فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

خَيْبَةً أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنْ اِغْتِفَارِ ذَلِكِ أَوْ قُتُورًا عَنْ لَمْ شَعَثِ وَإِصْلَاحِ
 خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ الَّذِي رَحِمَ الْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ
 اِفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدُهُمْ إِلَى اَلْمَكَارِهِ
 الَّتِي اسْتَفْقَدَهُمْ مِنْهَا يَسِيدُكَ . وَقَالَ أَحْسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي
 رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهْبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ .
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : اَلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشَيَّ اَلْمَلَكَةُ . وَنَظَرَ إِلَى
 خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُوا هَذَا عَنْ مَرْتَبَةِ اَلدِّيَّوَانِ
 فَإِنَّهُ عَلِيلُ اَلْخَطِّ وَلَا تَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
 اَلْعَبَّاسِ الصَّوْرِيِّ : اَلْخَطُّ لِسَانُ اَلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ
 اَلْعَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ اَلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ
 اَلنَّبْلِ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ
 مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَسْتَنْبِلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الْعَيْشَ يَكْدُرُ. الْكُرْبُ خُفِيفٌ. الْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كَلِمَةٌ. صَدِيقُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ الشَّيْخُ) وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُ
أَرِسْطَاطَالِسٍ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونُ : إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا
فَأَخْتِ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنْ الْفُضُولِ الْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ : قَلْبِي لِحَيِّ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي
خَادِمُ سُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ : فَلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدٍ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ
لَهُ. وَقَالَ آخَرُ : الْأَسِطَاةُ لِسَانُ الْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ :
أَعْلَمْ أَنَّ النَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ وَنَسَكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ الْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وَلَدِهِ بَلِغٌ : إِنِّي
لَأَكْرَهُ أَنْ يُطَوَّلَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ : فَضْلُ الْفِعَالِ عَلَى الْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ
وَفَضْلُ الْمَقَالِ عَلَى الْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : تَرَكْتُ الشُّكْرَ
كَفَرْتُ الْبَغْمَةَ. وَقَالَ آخَرُ : الشُّكْرُ نَسِيمُ الْبَغْمَةِ. أَلْمِيَّةُ خَبِيْثَةٌ وَالْحَيَاءُ
جَرَمَانٌ. الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ
أَلْحَسَنِ إِنِّي لِأَجِبُكَ. فَقَالَ : رَأَيْدُ ذَلِكَ مَعِيَ. قَرَأْتُ فِي فَضْلِ
لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ : نَحْنُ فِي زَمَانٍ الْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلُّهُ وَالصَّوَابُ فِيهِ
خَطْلٌ وَالْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : قَدْ رَخَّصَتِ الضَّرُورَةُ
فِي الْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ النَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ الْإِتِّظَارَ. وَقَالَ
أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى : لِسَانُ الْخَالِ أَفْقَحُ مِنْ لِسَانِ الشُّكْوَى. وَكَتَبَ
آخَرُ : أَشْكُرُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ شُكْرِكَ. وَكَتَبَ
مَآخِرُ : إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتِي مِنْ ضَعْفٍ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

الرَّابِعَةُ: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَهُ. أَخْلَامَسَةُ: لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا
يُطَاعُ. السَّادِسَةُ: أَلْمَرُّ حُبُّهُ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُمُ الشَّعْرُ مِيزَانُ
الْقَوْمِ وَالْعَرُوضُ مِيزَانُ الشَّعْرِ. وَقَوْلُ عُمَرَ: هَاجِرُوا وَلَا تَهْجِرُوا
وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمُ: السَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ. وَقَوْلُهُمُ:
إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُمُ: رَبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ. رَبَّ مَلُومٍ
غَيْرُ مُلِيمٍ. رَبَّمَا قَتَلَ الْبَلِيعَ لِسَانُهُ. الْعيُونُ عُنُونُ الْقُلُوبِ. الْقُلُوبُ
أَبْصَرُ مِنَ الْعَيُونِ. مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اتَّسَعَ لِسَانُهُ. وَقَوْلُ الْأَعْرَابِيِّ
وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ قَرْسِهِ فَقَالَ: يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا.
وَقَالَ آخَرُ: يَسْبِقُ الطَّرْفَ وَيَسْتَفِرُّ الْوَصْفَ. عُوْجُ اللَّبَانِ طَوْعُ
الْعَنَانِ كَأَنَّهُ مُوجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُودٍ. وَقَوْلُهُمُ: الْفِكْرَةُ مُحُ
الْعَمَلِ. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ الْكُدِّيَّةَ. فَقَالَ: ذَاكَ عُنُونُ
نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي. وَقَوْلُهُمُ: حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ اسْتِمَاعُهُ. دَلَّ الشَّرُّ عَلَى
نَفْسِهِ. الْبَادِي أَظْلَمُ. حِفْظُ الْمَوْجُودِ آيَسَرُ مِنْ طَلَبِ الْمَفْقُودِ.
مَنْ عَزَّ بَزَّ. سَرَّكَ مِنْ دَمِكَ غَمٌّ سَلِمٌ. سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ الْبَحْرَ
عَنْ أَعْجَبَ مَا رَأَى فَقَالَ: سَلَامَتِي. أَلَمَلَقَ شُكْرُ الضَّعِيفِ. الصَّدِيقُ
يَصْدُقُ وَالْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ. اقْضِ دِيُونَ الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِاللِّسَانِ قَبْلَ
فُقْدِ الْإِمْكَانِ. مَنْ وَاسَكَكَ فِي الرُّخَاءِ خَذَلَكَ فِي الْبَلَاءِ. عَجَبًا لِلْخَيْرِ
الْمَمْدُوحِ الْمَتْرُوكِ وَالشَّرِّ الْمَذْمُومِ الْمَفْعُولِ. مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ
مَنْ أَسَاءَ اسْتَوْحَشَ. سَاعَاتُ اللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ الْغَفْلَةِ. (قَالَ
السَّيْنِيُّ) هَذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. عِنْدَ صَفْوِ

لَا عَرَابِي: مَا الْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: أَلَا يَحْزَنُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَالْإِطْلَابُ فِي غَيْرِ
خَطْلٍ. وَوَصَفَ الْجَاهِظُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا
يَسْتَدْعِي مَعْنَى مِنْ بَعْدٍ. قَالُوا: وَالْبَلِيغُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي تَكُونُ
الْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَالْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا:
وَمَحْصُورُ الْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي
الْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً
مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ الْبَلَاغَةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِأَسْمِهَا.
وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي اسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا الْمُسَاوَاةُ وَهِيَ
أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ كَالْقَلْبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ.
وَالثَّانِي الْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى الْمَعْنَى بِاللَّحْظَةِ
الدَّالَّةِ. وَالثَّلَاثُ التَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَلْفَاظِ الْمُرَادِقَةِ عَلَى الْمَعْنَى
الْوَاحِدِ بَعِيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهَمَهُ.
وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيْقُ بِهِ وَوَقْتُ لَا يَضِلُّ
فِيهِ غَيْرُهُ وَسَازِدُورٌ هَهُنَا صَدَدًا مِنَ الْفُضُولِ الْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ
الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ الْفِقْرَ الْمُخْتَارَةَ وَالْمَعَانِي الْجُمُوعَةَ بِاللَّفْظِ
فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ تَوْزَنَ كُلُّ
كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنْ
الْأَدْبَاءِ وَهِيَ: الْأَوَّلَى قَوْلُهُ: قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ. الثَّانِيَةُ:
النَّاسُ أَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. الثَّلَاثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدَتْهُ.

إِلَى صَاحِبِ بَيْتِ أَلَمَالٍ : إِذَا قُحِطَ الْمَطَرُ جَادَتْ سَحَابُ الْمَلِكِ . فَفَرَّقَ
 فِيهِمْ مَا قَاتَهُمْ وَمَاتَهُمْ . وَشَكِي مِثْلُ ذَلِكَ إِلَى قُبَادُ بْنُ كِسْرَى
 فَوَقَعَ لِيَكُنْ بِنَا أَلْبُ لِلرَّعِيَّةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ . فَأَيَّتِي وَآيَاهُمْ فِي
 نَفْعِ ذَلِكَ مُسْتَوُونَ . وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنْ الْخَاصَّةِ كِسْرَى بْنَ قُبَادَ
 بِمَدْحٍ أَطْنَبَ فِيهِ وَأَسْهَبَ وَذَهَبَ كُلُّ مَذْهَبٍ وَكَانَ الْمَدْحُ فِي
 رُقْعَةٍ . فَوَقَعَ فِيهَا كِسْرَى إِلَى الْمَدْحِ مُسْتَضْعِرٌ لِعَلِمِي بِأَشْيَاءٍ قَدْ
 مُدِحَتْ وَكَانَتْ بَانَ تَذَمُّ مُحَقَّقَةٌ . وَوَقَعَ أَنْوَشِرَوَانُ فِي رُقْعَةٍ
 مُتَّصِحٍ : ثَمَرَاتُ النَّصَائِحِ شُكْرُ الْجَوَارِحِ . وَخَرَجَ التَّوْقِيعُ إِلَى وَزِيرٍ
 لَهُ أَمَرَ لَهُ بِجَازِزَةٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : قَدْ جَعَلْنَا إِلَى شُكْرِ اللِّسَانِ
 شُكْرَ أَلَيْدٍ وَهُوَ الْبَذْلُ . وَوَقَعَ كِسْرَى فِي رُقْعَةٍ رَجُلٍ سَأَلَهُ فِيهَا
 الثَّقَلَةَ عَنْ صِنَاعَتِهِ إِلَى صِنَاعَةٍ غَيْرِهَا وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ خَسِيسَةً فَأَخْتَارَ
 صِنَاعَةً رَفِيعَةً فَوَقَعَ فِي رُقْعَتِهِ : أَنَا حَامِلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَلَى لُزُومٍ مَثَرَتِهِمْ
 وَصَبَائِعِهِمْ وَلِنَفْسِي عَلَى مَا يُحْمَلُ عَلَى اللُّزُومِ لَهَا

وَمِنْ حَدِّ الْبَلَاغَةِ جَمْعُ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ
 فَقَدْ سُئِلَ خَلْفُ الْأَحْمَرِ فَقِيلَ لَهُ : مَا لَنَا نَرَى فِي الْكَلَامِ الْقَلِيلِ عِدَّةَ
 مَعَانٍ . فَقَالَ : إِنَّ كَلَامَ الْعَرَبِ أَوْعِيَّةٌ وَالْمَعَانِي أَمْتِعَةٌ فَرُبَّمَا
 جُعِلَتْ ضُرُوبٌ مِنَ الْأَمْتِعَةِ فِي وَعَاءٍ وَاحِدٍ . . . وَحُكِيَ عَنْ جَعْفَرِ
 ابْنِ يَحْيَى وَكَانَ قَرِيبَ دَهْرِهِ بَلَاغَةً فِي الْمَكَاتِبَةِ وَجُودَةً لِسَانٍ فِي
 التَّخَاطُبَةِ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ الْإِيجَازُ كَافِيًا كَانَ التَّطْوِيلُ عِيًّا وَإِنْ كَانَ
 التَّطْوِيلُ وَاجِبًا كَانَ التَّقْصِيرُ عَجْزًا . وَحَكَى الْمُفَضَّلُ قَالَ : قُلْتُ

لَقَدْ ضَاعَ مَسْنُ عَقْلِي

(قَالَ الشَّيْخُ) وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ الْعَجَمِ

وَلَا سِيَّاهُ فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ الَّذِينَ أَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ التَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُحْكَى أَنَّ أُنُوسِرَوَانَ وَقَعَ فِي وَلَايَةِ الْخَرَجِ: الْخَرَجُ عَمُودُ الْمَلِكِ وَمَا اسْتَنْزَرَ بِمِثْلِ الْجُوزِ وَلَا اسْتَعَزَّ بِمِثْلِ الْعَدْلِ. وَوَقَعَ أَيْضًا فِي رُقْعَةٍ رَجُلٌ وَكَيْلٌ لَهُ أَمْرُهُ بِنَاءِ قَصْرِ فَأَخْرَجَهُ: أَنْتَ مَا شِئْتَ وَالْأَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَالْعَمَلُ بَاعٌ وَالْعِنَايَةُ قِتْرٌ. (قَالَ الشَّيْخُ) وَأَيَّاتُ الشَّعْرِ كَثُرَتْ أَمْثَالُ الْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى أَمْثَالِ سَائِرِ الْأُمَمِ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ الْعَرَبِ الشَّعْرُ أَيْضًا عَلَى قَدِيمِ الْوَقْتِ فَلِلْفَرَسِ أَشْعَارٌ لَا تُضَبُّ كَثَرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ أَشْعَارٌ دُونَ الْفَرَسِ. وَكَانَ أَفْلَاطُونُ بَعْضَ مَنْ يَقُولُ الشَّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذِمَّةٍ: إِنَّ الشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَالْمَرْوِقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَأَمَّا الْفَرَسُ فَفِي مَثُورِ أَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ أَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُحَدِّدُ فِي الْخَرَائِنِ الَّتِي كَانَتْ يُبَوِّتُ الْحِكْمَةُ ثُمَّ دَرَسَ أَكْثَرُهَا مَعَ دَرَسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ السَّوَائِرِ مِنَ الْأَمْثَالِ تَجَرِّي عَلَى أَفْوَاهِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ الْبَاهِلِيِّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْلِ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي الْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي الْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي الْقِرْطَاسِ فَقَرَدَتْ الْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ بِكَثَرَةِ الْأَمْثَالِ... وَمِنْ تَوَقِيعَاتِ الْعَجَمِ تَوَقِيعُ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابِكَ وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ قَطُّطُوا فَرَفَعُوا إِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونُ ذَلِكَ فَوْقَ

فِكْرَكَ وَارْشَدَكَ عَقْلَكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعَكَ وَغَشَّكَ نُحْبِرَكَ وَإِنَّ
الْإِنْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بَغْشِ الْخُبْرَيْنِ وَيَسُومُهُمْ
فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيَمِيزُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَا وَيُرْشِدُهُ إِلَى
الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْخَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَلِّبُ الْعَرَائِي لِلْإِسْكَندَرِ :
أَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَأَحْكَامُكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ
لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَانْظُرْ أَلَا نَكُونُ
مَعْنَى حَسَنٍ تَحْتَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي أَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ
إِلَى صَدَاقَتِهِ وَأَنَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَأَنَّ
عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي الدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِأَنِّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي
مُسْتَقْبَلِ الْعُصُورِ. وَهَذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بَلَّغَتْهُ كَانَ
أَفْضَحَ وَأَحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ أَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفُرْسِ فِي أَمْرِهِ
قَالَ لَهُ : قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهَلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمَلُ. فَجَمَعَ لَهُ
بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ أَكْثَرَ مَعَانِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرَوَى أَنَّ
بَعْضَهُمْ رَأَى شَابًّا لَا أَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمٌ ذَهَبِي فَقَالَ : حَمَارٌ عَلَيْهِ
لِجَامٌ ذَهَبِي. وَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ أَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ. فَقَالَ : هَذَا حَجَرٌ
قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ أَرِسْطَاطَالِسُ : الْحَاجَةُ إِلَى الْعَقْلِ أَقْبَحُ مِنْ
الْحَاجَةِ إِلَى أَلْمَالِ. وَقَالَ : غَيْرُ مُحِبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يُثِيبُ نَفْسَهُ
بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ : اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَأَى
سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ : هَذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعْجَلُ بَيْنَ يُعَالَجُ إِلَى
الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِيذِهِ : قَدْ مَاتَ أَسْتَاذُكَ. فَقَالَ : أَلَوْحٌ لِي

أَلَوْضِعَ صَدْرًا مِنَ الْفُصُولِ الْخُتَارَةِ مِنْ غَيْرِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ . ثُمَّ
 أَذْكَرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ الْفُصُولِ الْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَضِلُّ لِلْمَذَاكِرَةِ وَيَبْعَثُ
 عَلَى النَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِيءٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي الْإِيحَازِ وَالْحَذَفِ
 وَالْجَمْعِ لِلْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ بِالْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ :
 دَلَّ الْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفْظَاتٍ خَفَافٍ مَعَانِي كَثِيرَةً
 جَلِيلَةً الْقَدْرِ لِأَنَّ الْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَضَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا
 حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ الْبِنَاءُ عَلَى الْبَانِي وَالْكِتَابُ عَلَى الْكَاتِبِ .
 فَانْظُرْ كَمْ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سِئِلَ
 مَا الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَيُثَبِّتُ الْعِلْمَ بِالْغَيْبِ فَقَالَ : إِنْ
 أَكُلَ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحْوَطُهُ فَمَنْ كَانَ
 مُعْتَبِرًا بِالْجَلِيلِ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَعْلَمْ أَنَّ لَهَا بَارِئًا
 يُجْرِي فَلَكْهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا . وَمَنْ أَعْتَبَرَ بِالصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةٍ
 الْحَرْدَلِ فَيَعْلَمْ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرْكِبُهَا وَيَقْدِرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنْ
 الْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَيُوقِتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا . وَأَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْآيَاتِ وَمَا
 يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ اجْتِمَاعُ الْعُلَمَاءِ
 وَاجْتِهَالِ وَالْمُهْتَدِينَ وَالضَّالِّينَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَاجْتِمَاعُ
 مَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ
 ذَلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى اللَّهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ الْخَلْقَ وَدَبَّرَ هَذِهِ الْأُمُورَ .
 (قَالَ الشَّيْخُ) وَهَذَا الْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدْ انْتَضَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي
 قَوْلِ سُقْرَاطَ : دَلَّ الْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . (وَقَالَ الْأِسْكَندَرُ) وَعَظَمَكَ

التَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى الْبُعْدِ وَالتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ الْكَلَامِ وَالِدَّلَالَةُ
بِقِلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ. قَالَ الشَّيْخُ: وَكَثُرَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الْبَلَاغَةِ أَنَّهَا
الِاخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ أَلْعَانِي بِالْأَلْفَاظِ الْقِصَارِ وَالِاخْتِصَارُ عَلَى
الِإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَالِدَّلَالَةُ بِالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ. وَقَدْ سُئِلَ
بَعْضُهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: لَحْمَةُ دَلَّةٍ. وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي
الْحَذْفِ وَالِاخْتِصَارِ وَكَذَلِكَ جَعَلَ أَمْرُ الْقَيْسِ إِخْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ
حِلَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَأَنَّ الْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي التَّخَالُصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هَذَا فِي
قَوْلِهِ: (قَيْدُ الْأَوَابِدِ). وَكَذَلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ: (إِنَّ الْجَوَادَ عَلَى عِلَالَتِهِ
هَرِمٌ). فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَالَتِهِ) مَا يَنْبُؤُ عَنْ كُلِّ مَا نَعِيَ كَذَلِكَ قَوْلُ
الْأَعَشَى: فَهُمْ سَائِمُونَ وَالْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهَذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا
أوردناه بِلَاغٍ وَلِهَذَا وَقَعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كِتَابِهِ لِيَكُنْ
كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ التَّوْقِيعِ يَحْضُ بِذَلِكَ عَلَى غَايَةِ الْحَذْفِ
وَالِاخْتِصَارِ. وَمِنْ هَذَا أَنَّ الْمَأْمُونِ أَسْرَعَ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَةَ أَنْكَاتِ
أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِمَايَةٌ إِلَى بَعْضِ الْعَمَالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ
يُخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمَكْنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرِ وَاحِدٍ بِلَا
زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرُو: كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابٌ وَاقٍ بَيْنَ كُتُبِ إِلَيْهِ
مَعْنِي بَيْنَ كُتُبِ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ الثَّقَةِ وَالْعِنَايَةِ حَامِلُهُ. وَمِنْ هَذَا
مَا كَتَبَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى الْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ
عَنْ يَبْعَتِهِ: أَمَا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا
أَتَاكَ كِتَابِي فَأَعْتَمِدْ عَلَى آيَتِهِمَا شِئْتَ وَالسَّلَامُ. وَسَادَّكَرُ فِي هَذَا

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ الْأَلْسِنَةِ فَهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكُونَ
 وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ الْعَجَمِ وَكَلَامِ الْهِنْدِ
 وَغَيْرِهِمْ وَلَكِنَّهَا فِي الْعَرَبِ أَكْثَرُ لِكثَرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي التَّنْزِيلِ وَالنَّظْمِ
 وَالْخُطْبِ وَالْكِتَابِ وَالسَّجْعِ وَالْمَزْدُوجِ وَالرَّجْزِ. وَهُمْ أَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ
 فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ الْقَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ الْأَمَّةُ
 بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَالْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَغْرَابِ الْبَادِيَةِ
 دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا الصَّبِيُّ وَالْمَرْأَةُ... قَالَ الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ :
 وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبَعْدَ تَكَافِيهِ أَنْ يَأْتِيَ بِدَوِيٍّ أَوْ جَفٍّ جَلْفٍ جَافٍ
 فَيَسْتَدِيعُ بِفِكَرِهِ وَقَرِيحَتِهِ الْمَغْنَى الْبَدِيعَ وَالتَّشْبِيهَ الْمَصِيبَ وَالسُّوَالَ
 اللَّطِيفَ وَالْمَدْحَ الشَّرِيفَ وَالْفُزْلَ الرَّقِيقَ وَالْهَجَاءَ الْمَوْجِعَ وَالذَّمَّ
 الْمَلْفُوقَ يَنْظُمُ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَأَوْزَانٍ نَامَةٍ وَأَقْسَامٍ مُعَدَّةٍ
 وَالْفَاظِ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَسْتَهْجِي سَامِعُهَا أَنْ يُحْفَظَهَا ثُمَّ يَسْتَهْجِي أَنْ
 يُحَاضِرَ أَهْلَ الْمُرَوَّاتِ بِهَا مُتَبَثِّلًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مُهَيِّئًا أَوْ مُعْزِيًا
 فَلَا يَزْدَادُ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ حَلَا مِنْهَا
 نَاقِصَ الْأَدَبِ وَالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي
 وَكَقَوْلِ النَّابِغَةِ : فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ
 الْخَطِيبَةِ : لَا يَذْهَبُ الْعَرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . ثُمَّ يَجْتَهِدُ الْعَارِفُ
 الْمَصِيبُ وَالْعَالِمُ الْأَدِيبُ وَالرَّيِّضُ الْحَازِقُ أَنْ يُذْرِكَ شَأْؤُهُ فَلَا
 يُشَقُّ غُبَارُهُ . قَالَ : سُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ الْبَلَاغَةِ فَقَالَ :

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنْتُ ذَكَرْتُ لَكَ أَسْعَدَكَ اللَّهُ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي
وَصْفِ الْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِمْ أَقُولُ فِي أَقْسَامِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَأَنَّهَا أَلْفَاظُ
يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي فَفِيهَا مَا يَكُونُ فِي النَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي
النَّثْرِ وَيَكُونُ فِي الْمَكَاتِبِ وَالرَّسَائِلِ وَالْخُطَبِ وَالنَّشِيئَاتِ
وَالْأَوْصَافِ وَفِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَأَمَّا بَلَاغَةُ الشَّعْرِ
فَعُدُوْبَةٌ أَلْفَاظُ وَتَقْرِيْبُ الْمَعَانِي وَاتِّسَاقُ النَّظْمِ وَرَشَاقَةُ الْمَعْرِضِ
كَقَوْلِ الدَّابَّغَةِ :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ أَلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ
وَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَالتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ الْأَوَائِدِ).
وَقَوْلِ الْأَعَشَى : (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَالْمَتِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ
بِلِصَابَةِ الْمَعْنَى وَقَرَعِ الْحُجَّةِ وَالْأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَنَّهَا أَلْفَاظُ يُعَبَّرُ
بِهَا عَنِ الْمَعَانِي فَأَحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ الْمَعْنَى مَعَ اخْتِصَارِهِ بِأَقَلِّ
مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْعِبَارَةِ بِأَعْدَبِ الْأَلْفَاظِ وَأَحَقُّهَا عَلَى الْأَسْمَاعِ
وَأَقْرَبُهَا إِلَى الْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ الْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُودَةٌ
عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا
خَرَجَ مِنْ يَابُوعِهِ وَتَجَمَّ مِنْ مَعْدِنِهِ . وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ
يُسَلِّمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ
الْفَاقَظَكَ وَمَنْ أَدَاعَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ
الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تُصَوِّنَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا
وَيُهْجِنُهَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ أَجْلِهِ إِلَى أَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ
أَنْ تَلْتَمِسَ إِظْهَارَهَا وَتُرْهَنَ نَفْسَكَ بِمِلَابَسَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا . فَكُنْ
فِي ثَلَاثَةِ مَازِلَ فَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيمًا عَذْبًا أَوْ
فَحْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا إِمَّا عِنْدَ
الْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصْدَتَّ وَإِمَّا عِنْدَ الْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ
أَرَدْتَ . وَالْمَعْنَى لَيْسَ يَتَضَعُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي الْعَامَّةِ . وَإِنَّمَا
مَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَإِحْرَازِ الْمُنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ
الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ الْقَالَ . وَكَذَلِكَ اللَّفْظُ الْعَامِّيُّ
وَالْخَاصِّيُّ فَإِنْ أَمَكْنَكَ أَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ
وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقَدْرِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى أَنْ تُفْهَمَ الْعَامَّةُ مَعَانِي
الْخَاصَّةِ وَتَكْشُوهَا بِالْأَلْفَازِ الْمُتَوَسِّطَةِ الَّتِي لَا تَلْطَفُ عَنِ الدَّهَاءِ وَلَا
تَحْفُو عَنِ الْإِكْفَاءِ فَإِنَّتِ الْبَلِيغُ النَّامُ . فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ
جَعَلْتَ فِدَاكَ أَنَا أَخُوجُ إِلَى تَعْلِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْعِلْمَةِ

الفصل الثامن

في التعبير

البحث الأول

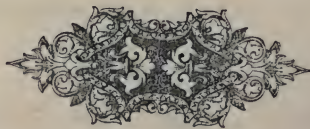
في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشَرُّ بَنِي الْمُتَعَمِّرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخُومَةَ السَّكُونِي
الْخَطِيبِ وَهُوَ يَعْلَمُ فِتْيَانَهُمُ الْخُطَابَةَ فَوَقَفَ بِشَرُّ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ
إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ النُّظَارَةِ فَقَالَ
بِشَرُّ: اضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَأَطُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ
صَحِيفَةً مِنْ تَسْمِيْقِهِ وَتَحْيِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً نَشَاطِكَ وَفَرَاغَ
بَالِكَ وَاجَابَتَهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا
وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي الْإِسْتِمَاعِ وَأَخْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ
مِنْ فَاحِشِ الْخَطَا وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنَى
بَدِيعٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمَكَ الْأَطْوَلُ
بِالْكَدِ وَالْمُطَاوَلَةِ وَالْتِمَاحِدَةِ بِالتَّكْلِيفِ وَالْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَاكَ

سُمِّيَ الْكَلَامُ مَحْلُولًا مِثَالُ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أَنْظِرْ سَدَدَ اللَّهِ
رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدَرْتُكَ عَلَى الْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ الْمَعْقُودِ فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَنَتْهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدَتْ تَضَمُّنَهُ فِي كِتَابِكَ .
وَأَعْلَمُ أَنَّ إِطَالََةَ الْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ
وَأَرْتَهَنَتْ بِهِ فِكْرَكَ . وَكَانَ شَيْبُ بْنُ شَبَّةٍ يَقُولُ لَمْ أَرُ مَتَكَلِّمًا
قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ
خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ الْمَعْقُودَ بِالْمَعَانِي يَضَعُ الْخُرُوجَ مِنْهَا إِلَى
غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِالْمَحْلُولِ وَاضْحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ السَّامِعَ لَا
يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصِدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ . وَقَالَ
بَعْضُهُمْ : لَيْسَ عَمَلٌ مِنَ الْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ السَّامِعِ لِكَلَامِهِ
فِي أَوَّلِ ابْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ الْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ
فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصِدِهِ كَمَا أَنَّ
أَخِيرَ آيَاتِ الشَّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ . وَكَانَ
شَيْبُ بْنُ شَبَّةٍ يَقُولُ : النَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ الْإِبْتِدَاءِ
وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ
وَخَيْرُ الْكَلَامِ مَا وَقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبَيَّنَ مَوْقِعَ فُضُولِهِ



الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمِيرٍ الْفَسَّائِيُّ يَقُولُ لِكَاتِبِهِ الْمُرْقَشِ : إِذَا تَرَعَ بِكَ
 الْكَلَامُ إِلَى أَيْدَاءٍ مَعْنَى غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا
 يَتَّبِعُهُ مِنَ الْأَلْفَافِ فَإِنَّكَ إِنْ مَذَقْتَ الْفَافَاطَ بغير مَا يَحْسُنُ أَنْ
 تَمَذَّقَ بِهِ نَفَرَتِ الْقُلُوبُ عَنْ وَعِيهَا وَمَلَّتْهُ الْأَسْمَاعُ وَأَسْتَعْلَتْهُ الرُّوَاةُ.
 وَكَانَ بَرُزْجَمُورٌ يَقُولُ : إِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَأَجْعَلْ بَيْنَ
 الْقَوْلَيْنِ فَضْلًا حَتَّى تَعْرِفَ الْمَدْحَ مِنَ الْهَجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ إِذَا
 اسْتَأْنَفْتَ الْقَوْلَ وَأَكْمَلْتَ مَا سَلَفَ مِنَ اللَّفْظِ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ
 سَهْلٍ لِكَاتِبِهِ الْحَرَّانِيَّ : مَا مِثْلُكَ الْكَاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قَالَ :
 أَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَكِكًا بِالْجَرَبَةِ سَالِمًا بِحَلَالِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
 وَحَرَائِمِهَا بِالْأَدْهُورِ فِي تَدَاوُلِهَا وَتَصَرُّفِهَا بِأَلْمُلُوكِ فِي سَيْرِهَا وَأَيَّامِهَا
 مَعَ بَرَاةِ اللَّفْظِ وَحُسْنِ اللَّسَنِ وَتَأْلِيفِ الْأَوْصَالِ بِشَاكِلَةٍ
 الْأَسْتِعَارَةِ وَبِشْرَحِ الْمَعْنَى حَتَّى يُنْصَبَ صُورُهَا. وَبِقَاطِعِ الْكَلَامِ
 وَمَعْرِفَةِ الْفَضْلِ مِنَ الْوَضْلِ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ
 مُجِيدٌ. وَقَالَ الْمَأْمُونُ : مَا أَحَقَّقْتُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحْقِظِي عَنِ الْفَضْلِ
 وَالْوَضْلِ فِي كِتَابِهِ وَالْتِخَاصِ مِنَ الْخُحُولِ إِلَى الْمَعْقُودِ وَإِنْ لِكُلِّ
 شَيْءٍ جَمَالًا وَجَلِيَّةً الْكِتَابِ وَجَمَالُهُ إِيْقَاعُ الْفَضْلِ وَقَعُهُ وَشَحْذُ
 الْفِكْرِ وَاجَاَلَتُهُ فِي لُطْفِ الْتَخَاصِ مِنَ الْمَعْقُودِ إِلَى الْخُحُولِ. (قُلْنَا) :
 وَمَعْنَى الْمَعْقُودِ وَالْخُحُولِ هَاهُنَا هُوَ أَنَّكَ إِذَا ابْتَدَأْتَ مُحَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ
 تَنْتَهَ إِلَى مَوْضِعِ الْتَخَاصِ فَمَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ الْكَلَامُ
 مَعْقُودًا. وَإِذَا شَرَحْتَ السُّيُورَ وَأَبْنَتَ عَنِ الْفَرَضِ الْمَذْرُوعِ إِلَيْهِ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا الْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا الْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا
هَذِهِ الْعَصَا (ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هَذَا أَوْجَدَهُ اللَّهُ بَعْدَ
عَدَمٍ وَأَنْشَأَهُ أَمْرَدَ وَشَابًا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى
هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الْكِبَرِ فَاحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هَذِهِ الْعَصَا
فَقَبَّارَكَ اللَّهُ أَلَمْ دَبَّرْ لِلْعِبَادِ . قَالَ شَيْبُ بْنُ شُبَّةٍ : فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا
عَلَى يَدَيْهِ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَلَمَّا أَقَامَ أَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ
شَيْبِ بْنِ شُبَّةٍ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ أَقْبَلَ شَيْبٌ فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ أَبِينِ يَبَانًا وَلَا أَرَبَطَ جَنَانًا وَلَا
أَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا أَبَلَ رِيْقًا وَلَا أَعْغَضَ عُرُوقًا وَلَا أَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا
أَنَّ الْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يَرْضَ فَحَمَلَتْهُ الْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُفِ الْأَكَامِ
وَحَبْطِهَا وَتَرْكِ الطَّرِيقِ الْأَحَبِّ وَإِيْمَ اللَّهِ إِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ
مَقَاطِعَ الْكَلَامِ لَكَانَ أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ . وَقَالَ الْمَأْمُونُ :
مَا أُعْجِبُ بِكِتَابِ أَحَدٍ كَالْعَجَائِي بِكِتَابِ الْقَسَمِ . بْنُ عِيسَى فَإِنَّهُ فِي غُرَّةِ
عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ الْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ الْمَقْدَرَةُ إِلَى الْإِلْطَابِ
وَلَا تَمِيلُ بِهِ الْغَرَارَةُ إِلَى الْإِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ
الْمَغْزَى فِي الْفَاطِلَةِ . وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : أَيَاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا
الْفَضْلَ وَضَلًّا فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَعْجَبُ وَأَعْيَبُ مِنَ الْخَنِّ . وَلَيْكُنْ
الْتَفَقْدُ لِمَقَاطِعِ الْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ . وَكَانَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ
إِذَا كَانَتْ مُلُوكُ أَجَاهِلِيَّةٍ تَسْتَكَتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : أَفْصَلُوا بَيْنَ
مُنْقَضَى فَضْلٍ وَصِلُوا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . وَكَانَ

بِمَرَاضِعِ الْفَضْلِ وَالْوَصْلِ . وَقَالَ الْأَخْفَ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِيعِ الْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ
إِلَّا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ الْكَلَامِ وَأَعْطَى
حَقَّ الْمَقَامِ وَغَاصَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَعَانِي بِالطَّفِّ مُخْرَجٍ حَتَّى كَانَ
يَقِفُ عِنْدَ الْمَقَاطِيعِ وَوُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ الْأَلْفَافِ
وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَأَ بَيْنَ الْمَنَابِرِ قَائِلًا أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ الْمَفَاصِلَا
وَلَا أَعْرِفُ فَضْلًا فِي كَلَامٍ مَشُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَيْبِ
أَبْنِ شُبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ الْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ
الصَّمَدِ بْنُ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَأَاهُ شَيْبٌ قَالَ : آتَاكُمْ وَاللَّهِ
كَلِيمُ النَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَيْبٌ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ . فَقَالَ :
أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا . قَالَ : نَعَمْ فَوَاللَّهِ مَا
رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ . فَقَالَ أَيُّ نَبِيٍّ
تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ . (قَالَ) وَإِذَا شِئْخٌ مَعَهُ عَصَا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَيْبٌ :
صِفْ هَذِهِ الْعَصَا . فَحَمِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ السَّمَاءَ
فَقَالَ : رَفَعَهَا اللَّهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رُجْمٍ وَنُجُومَ أَهْتِدَاءٍ وَادَّارَ
فِيهَا سِرَاجًا وَقَرَأَ مُنِيرًا لِيَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً
مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ وَادَّرَّ بِهِ الْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ الْأَرْوَاحَ
وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَضُرُّهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةُ
عُمُرٍ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يَقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ . فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفَةٌ إِذْ

الذاتية الصناعية لصناعة المغالطة. وأما الخارجيات فها يقتضي المغالطة
بالعرض كالشنيع على المخاطب وسوق كلامه إلى الكذب بزيادة
أو تأويل وإيراد ما يحذر أو يُجَنُّه من إغلاق العبارة أو المبالغة
في أن المعنى دقيق أو ما يمنع من الفهم كالخلط بالحشو والهديان
التكرار وغير ذلك مما أشتمل عليه كتاب الشفاء وغيره من
المطولات

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قال المأمون لبعضهم : من أبلغ الناس قال من قرب الأمر
البعيد والمتأول الصعب الدرك بالالفاظ اليسيرة. قال : ما عدل
سهمك عن الغرض ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار
حاجته لا يحيل الفكرة في اختلاس ما صعب من الالفاظ ولا
يكره المعاني على إثرها في غير منزلها ولا يتعمد الغريب
اللوحي ولا الساقط السوقي فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة
بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بها نظام. وقال أبو
العباس السفاح لكتابه : وقف عند مقاطيع الكلام وحدوده
وأيالك أن تخاط المرعي بالمهمل. ومن حلية البلاغة المعرفة

بِالْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ) فَمَا أَنْ تَقَعَ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئِي الْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذَلِكَ
يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ وَيُسَمَّى إِيَّاهُمَا الْعَكْسَ. وَمِنْهُ
الْحُكْمُ عَلَى الْجُلُوسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٌ تَحْتَهُ نَحْوُ: هَذَا لَوْ
وَاللَّوْنُ سَوَادٌ فَهَذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْمَطْلُوقِ بِحُكْمِ الْمُقَيَّدِ
بِحَالٍ أَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هَذِهِ رَقَبَةٌ وَالرَّقَبَةُ مُؤَمَّنَةٌ. وَإِنَّمَا أَنْ تَقَعَ فِيهَا
يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بِدَلِّ الْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا
يُشَبِّهُهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى أَخْذَ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ
مَا بِالذَّاتِ كَمَنْ رَأَى الْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ التَّوَهُُّمُ وَالتَّكْلِيفُ فَظَنَّ
أَنَّ كُلَّ مُتَوَهُِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ الْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلَكِنْ لَا عَلَى
الْوَجْهِ الَّذِي يَلْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ الْكَاتِبُ
إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ الشَّرْطِ أَوْ الْقِيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ
غَيْرَ الْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَقَدْ
حَصَلَ مِنَ الْجَمِيعِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ زَعَا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ
مِنْهَا بِالْبَسَاطَةِ هِيَ الْأَشْرَاطُ فِي جَوْهَرِ اللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ الذَّاتِيَّةِ
وَفِي أَحْوَالِهِ الْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَهِيَ الَّتِي فِي نَفْسِ
التَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ الْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ الْمُفَصَّلِ وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ
مِنْهَا بِاعْتِبَارِ الْقَضَايَا الْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ التَّأْلِيفِ وَالْمَصَادَرَةُ عَلَى
الْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ.
وِثَلَاثَةٌ بِاعْتِبَارِ الْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِيَّاهُمَا الْعَكْسُ وَأَخْذُ مَا
بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ وَسُوءُ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَهَذِهِ هِيَ الْأَجْزَاءُ

أَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَالتَّعْلَاقَةُ بِالتَّأْلِيفِ الْقِيَاسِيِّ إِمَّا أَنْ تَقَعَ فِي الْقِيَاسِ
 نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ إِلَى نَتِيجَتِهِ أَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ إِلَى نَتِيجَتِهِ .
 وَالْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ الْقِيَاسِ إِمَّا أَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ أَوْ بِصُورَتِهِ . أَمَّا
 (الْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ إِذَا رُبَّتِ الْمَعَانِي فِيهَا
 عَلَى وَجْهِ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَإِذَا رُبَّتْ عَلَى وَجْهِ
 يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا: كُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ
 هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ النَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ إِذَا مَعَ
 إِثْبَاتِ قَيْدٍ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِيبُ الصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ
 عَنْهَا تَكْذِيبُ الْكُبْرَى . وَإِنْ حُذِفَ مِنَ الصُّغْرَى وَأُثْبِتَ فِي
 الْكُبْرَى تَقَلَّبَ صُورَةُ الْقِيَاسِ لِعَدَمِ اشْتِرَاكِ الْأَوْسَطِ . وَأَمَّا (الصُّورِيَّةُ)
 فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُتَّبِعٍ تَكُونُ أَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُتَّبِعٍ
 وَهَذَا يُسَمَّى سُوءَ التَّأْلِيفِ بِاعْتِبَارِ الْبَرْهَانِ وَسُوءَ التَّرْكِيبِ بِاعْتِبَارِ
 غَيْرِهِ . وَأَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي الْقِيَاسِ بِالْقِيَاسِ إِلَى النَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ إِلَى
 مَا لَا يَكُونُ النَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِأَحَدِ أَجْزَاءِ الْقِيَاسِ فَلَا يَخْضَلُ
 بِالْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي الْمُقَدَّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى
 الْمَطْلُوبِ . وَإِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لِكُنْهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ الْمَطْلُوبُ
 مِنْ ذَلِكَ الْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ كَقَوْلِنَا: الْإِنْسَانُ
 وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ رَكْلُ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَأَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ
 بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ: زَيْدٌ وَحْدَهُ
 كَاتِبٌ فَإِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِإِفَادَتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَأَمَّا (التَّعْلَاقَةُ

أَمْرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الشَّيْءِ وَاشْبَاهِهِ ثُمَّ إِنَّمَا تَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَلْفَازِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعَانِي. (وَالْأَوَّلُ) يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَلْفَازِ لَا مِنْ حَيْثُ تَرَكُّبُهَا وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ حَيْثُ تَرَكُّبُهَا. (وَالْأَوَّلُ) لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْأَلْفَازِ أَنْفُسُهَا وَهُوَ أَنْ تَكُونَ مُخْتَلِفَةً الدَّلَالَةِ فَيَقَعُ الْإِشْبَاهُ بَيْنَ مَا هُوَ الْمُرَادُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ . وَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِشْتِرَاكُ وَاللَّشَابُهِ وَالْحِجَازُ وَالِاسْتِعَارَةُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا وَيُسَمَّى جَمِيعًا بِالْإِشْتِرَاكِ الَّلَفْظِيِّ . وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِأَحْوَالِ الْأَلْفَازِ وَهِيَ إِمَّا أَحْوَالُ ذَاتِيَّةٌ دَاخِلَةٌ فِي صَيْغِ الْأَلْفَازِ قَبْلَ تَحْصُلِهَا كَالِاشْتِبَاهِ فِي الَّلَفْظِ الْخُتَارِ بِسَبَبِ التَّضَرُّيفِ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ . وَإِمَّا أَحْوَالُ عَارِضَةٌ لَهَا بَعْدَ تَحْصُلِهَا كَالِاشْتِبَاهِ بِسَبَبِ الْإِنْجَامِ وَالْإِعْرَابِ. (وَالْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّرْكِيبِ) تَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِشْبَاهِ فِيهِ بِنَفْسِ التَّرْكِيبِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْعَاقِلُ فَهُوَ كَمَا يَتَصَوَّرُهُ . فَإِنَّ لَفْظَ (هُوَ) يَعُودُ تَارَةً إِلَى الْمَقُولِ وَتَارَةً أُخْرَى إِلَى الْعَاقِلِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِوُجُودِهِ وَعَدَمِهِ أَيْ بِوُجُودِ التَّرْكِيبِ وَعَدَمِهِ . وَهَذَا الْآخِرُ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا لَا يَكُونُ التَّرْكِيبُ فِيهِ مَوْجُودًا فَيُظَنُّ مَعْدُومًا وَيُسَمَّى تَفْصِيلَ الْمُرَكَّبِ . وَإِلَى عَكْسِهِ وَيُسَمَّى تَرْكِيبَ الْمَفْصَلِ وَإِمَّا (الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْمَعَانِي) فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِالتَّأْلِيفِ بَيْنَ الْمَعَانِي إِذَا الْإِفْرَادُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا غَلْطٌ لَوْ لَمْ يَقَعْ فِي تَأْلِيفِهَا بِخَوَرٍ مَا وَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِتَأْلِيفِ يَقَعُ بَيْنَ الْقَضَايَا أَوْ بِتَأْلِيفِ يَقَعُ فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ . وَالْوَاقِعَةُ بَيْنَ الْقَضَايَا إِمَّا قِيَاسِيَّةٌ

صَاحِبُهُ وَيَصْرَعُ مُنَازَعَهُ يَقُولُ كَيْثُلُ النَّارِ فِي الْحَطَبِ الْجَزْلِ

المبحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْمَغَالِطَةُ هِيَ قِيَاسٌ قَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ أَوْ مِنْ جِهَةِ
الْمَادَّةِ أَوْ مِنْ جِهَتَيْهِمَا مَعًا وَالْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لغيرِهِ .
وَلَوْلَا الْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا
تَمَّ لِلْمَغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةُ كَاذِبَةٍ تَنْفَعُ بِالْغَرَضِ إِذَا الْغَرَضُ مِنْ
مَعْرِفَتِهَا الْإِحْتِرَازُ عَنِ الْخَطِإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ اِمْتِحَانُهُ فِي
الْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ يِعْدَمُ ذَهَابِ الْفَلْطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِنَدَاهِ بِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ
وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا اِمْتِحَانِيًّا . وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ
يُوهِمُ الْعَوَامَّ أَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطِإِ
قِيَصْدُونِ عَنِ الْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا . قَالَ
شَارِحُ إِشْرَاقِ الْحِكْمَةِ : مَوَادُّ الْمَغَالِطَةِ الْمُنْشَهَاتُ لَفْظًا أَوْ مَعْنَى
وَلِهَذَا الصِّنَاعَةُ أَجْزَاءُ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ . وَالْأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ
بِالتَّبْكِيتِ الْمَغَالِطِيِّ .

وَعَلَى هَذَا فَتَقُولُ : إِنَّ أَسْبَابَ الْفَلْطِ عَلَى كَثَرَتِهَا تَرْجَعُ إِلَى

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ الْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ الْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا
 وَأَعْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسَدًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعْجَلُ مُنَاجَاةَ الْفِكْرَةِ
 وَاسْتِعْمَالَ الْقَرِيحَةِ يَوْمُ فِي بَدِيَّتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ الْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ
 فَهُوَ كَمَنْ أَخَذَتْ عَلَيْهِ الْفِتْجَانُ وَسُدَّتْ لَهُ الْخَارِجُ قَدْ اعْتَرَضَ الْأَسِنَّةُ
 وَاسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِيِّ لَا يَذَرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُ
 مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ عَيْنُهُ . وَلَا سِيَّأَ إِذَا كَانَ الْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ عِجَاجَ
 الْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزَمَانِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَاحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ
 وَاجْتَهَدَ وَنَزَلَ الرَّأْيُ يَغْبُ حَتَّى يَحْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا الرَّأْيَ الْفَطِيرَ كَمَا
 كَرِهُوا الْجَوَابَ الدَّيْرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ الْكَلَامِ وَاسْتِثْنَاهُ حَتَّى
 إِذَا أَطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ
 قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ . قَدَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ
 آثَانَةٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ يُطَبَّقُ الْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ الْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى الْجَنْدَلُ
 بِالْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ الْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عَرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَارِهِ
 وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتُهُ فَلَا شَيْءَ
 أَعْضَلُ بَيْنَ الْجَوَابِ الْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ الْخَصْمِ الْأَلَدِيِّ الَّذِي يَقْرَعُ

فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ . وَهَذَا الْأَحَقُّ لَا يَعْلَمُ وَيُظَنُّ أَنَّ مَا
 أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ الْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هَذَا
 الْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَأَعْتَرَاؤُهُ مِنَ الْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ
 بِجَوَابِهِ . وَالثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ
 كَلَامِ الْأَكْبَارِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونُ سُؤَالُهُ لِلِاسْتِفَادَةِ لَكِنْ
 يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ الْحَقِيقَ فَلَا يَنْبَغِي الْإِسْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي
 الْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرُ الْحُكَمَاءِ أَمْرًا أَنْ نَكَلِمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ
 وَعَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغَلَ بِهَذَا الْجِدَالِ الَّذِي ظَهَرَ
 بَعْدَ انْقِرَاضِ الْأَكْبَارِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُعِيدُ عَنِ الْفِقْهِ وَيُضِيعُ
 الْعَمْرَ وَيُورِثُ الْوَحْشَةَ وَالْعِدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَذَا
 وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَلِلَّهِ دَرُ الْقَاتِلِ :

أَرَى فَقَهَاءَ هَذَا الْعَصْرِ طُرًّا أَصَاعُوا الْعِلْمَ وَاسْتَعْلَوْا بِلَهْمٍ لَمْ
 إِذَا نَازَلَتْهُمْ لَمْ تَلَقَ مِنْهُمْ سِوَى حَرْقَيْنِ لَمْ يَلَمْ لَا نُسَلِّمُ
 وَالْإِنْصَافُ أَنَّ الْجِدْلَ لِإِظْهَارِ الصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرَبَّاهُ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي
 تَشْجِيذِ الْأَذْهَانِ . وَالْمَنْوَعُ الْجِدْلُ الَّذِي يُضِيعُ الْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ
 مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ الدِّينِ الْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ الْغِلَظَةُ فِي الْخُطَابِ .
 وَالْجَفَاءُ فِي الْمُنَاطَرَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ الْكَلَامِ وَيُسْقِطُ
 قَائِدَتَهُ . وَيُعِيدُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ الصَّغَائِنَ . وَيَحْقُقُ الْمَوَدَّاتِ . وَيَصِيرُ
 الْقَاتِلَ مُسْتَشْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى السَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُشِيرُ
 النَّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ الْأَلْسُنَ بِجُحَاشَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

فَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرِشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَهَمَّا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ الْحَسَدِ
وَالْغَضَبِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ وَالشَّهْوَةِ وَيَكُونُ طَالِبَ الطَّرِيقِ
الْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَأَعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنَّتِ وَامْتَحَنَ
وَبَحَثَ. وَهَذَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ
عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ. أَمَّا الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ أَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ
وَأَعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَالْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ لِأَنَّهُ مِنْ
الْعِلَّةِ الْمُزْمَنَةِ فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِأَحْسَنِ الْجَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ لَا
يَزِيدُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَالطَّرِيقُ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ الْعِدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِذَا لَتَهَا إِلَّا عِدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدٍ
فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرَكْهُ مَعَ مَرَضِهِ قَالَ: فَأَعْرِضْ
عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ وَالْدُنْيَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَتَرَدَّى وَالْحُسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ النَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ
كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ
الْخُطْبَ. وَاللَّيْنَانِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ الْحَمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضًا كَالْحُسُودِ
لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (١) إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ
أَحْيَاءِ الْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَاجَلَةِ الْأَحْقَقِ وَذَلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ
بِطَلَبِ الْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ
فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَقَائِقِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى الْعَالَمِ الْكَبِيرِ

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في

التقليد. ولا نعلم عمن رواه الغزالي

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب إجماع الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ أَوْ قَوْمٍ وَكَانَ إِرَادَتُكَ
 فِيهَا أَنْ تُظْهِرَ الْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَاذَكَ الْبَحْثُ. لَكِنْ لَيْتَكَ الْإِرَادَةُ
 عَلَامَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَنْ يَكْشِفَ الْحَقُّ عَلَى
 لِسَانِكَ أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيَهُمَا أَنْ يَكُونَ الْبَحْثُ فِي الْخَلَاءِ أَحَبَّ
 إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَلَأِ وَاسْمِعْ إِلَيَّ أَذْكَرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةٌ.
 أَعْلَمْ أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْمُسْكِلَاتِ عَرَضُ مَرَضِ الْقَلْبِ إِلَى الطَّبِيبِ
 وَأَجْوَابُهُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَأَعْلَمْ أَنَّ أَجَاهِلِينَ الْمَرَضَى
 قُلُوبُهُمْ وَالْعُلَمَاءُ الْأَطِبَّاءُ. وَالْعَالِمُ النَّاقِصُ لَا يُحْسِنُ الْمُعَالَجَةَ وَالْعَالِمُ
 الْكَامِلُ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ الْمُعَالَجَةِ
 وَالصَّلَاحِ وَإِذَا كَانَتْ الْعِلَّةُ مُزْمَنَةً أَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ
 الطَّبِيبِ فِيهِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ
 وَمَعَالِجَتِهِ لِأَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ الْعَمْرِ

أَعْلَمْ أَنَّ مَرَضَ الْجَهْلِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ أَحَدُهُمْ يَقْبَلُ
 الْمُعَالَجَةَ وَالْبَاقِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ. وَأَمَّا الْمَرَضُ الَّذِي يَقْبَلُ الْعِلَاجَ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَدِلِّ
وَالْحُجُبِ وَحَيْثُ يَسُوعُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلًّا وَكَيْفَ يَكُونُ
مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ اعْتِرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ
السُّكُوتُ وَلِخَصِيهِ الْكَلَامُ وَالْإِسْتِدْلَالُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ
مَعْرِفَةٌ بِالْقَوَاعِدِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْآدَابِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ
بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذَلِكَ الرَّأْيُ مِنَ الْقَبِيحِ أَوْ غَيْرِهِ.
وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ الْبُزْدَوِيِّ اَلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠ م) وَهِيَ
خَاصَّةٌ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَالْإِسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ
رُكْنِ الدِّينِ الْعَمِيدِيِّ اَلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي
كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيْ عِلْمٍ كَانَ. وَاسْتَدْلَالُهُ وَهُوَ
مِنَ الْمُنَاحِي الْحَسَنَةِ وَالْمُعَالَطَاتِ فِيهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا
اعْتَبَرْنَا النَّظَرَ الْمُنْطَقِيَّ كَانَ فِي الْغَالِبِ أَشْبَهُ بِالْقِيَاسِ الْمُنْطَقِيِّ
وَالسُّوْفِسْطَائِيِّ. إِلَّا أَنَّ صُورَ الْأَدِلَّةِ وَالْأَقْيَسَةِ فِيهِ مُحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةً
تُحَرَّى فِيهَا طُرُقُ الْإِسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهَذَا الْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ
مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ الطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ الْكِتَابَ الْمُسَمَّى
بِالْإِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسْفِيِّ
اَلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى آثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ
وَكَثُرَتْ فِي الطَّرِيقَةِ التَّأْلِيفُ وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ الْعِلْمِ
وَالْتَّعْلِيمِ فِي الْأَمْصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ

وَالْأَنْظَارِ فَلْتَفَاوَتْ مَرَاتِبُ الطَّبَائِعِ وَالْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ
الْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ الْآرَاءِ وَتَبَايُنِ الْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ الْكَلَامِ مِنْ
الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالرَّدِّ وَالْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطُ
وَبِرْعَايَةِ الْأَصُولِ مُنَوِّطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ
مِنْ قَانُونٍ يُعَرِّفُ مَرَاتِبَ النِّجَاحِ عَلَى وَجْهِ يَتَمَيَّزُ بِهِ الْقَبُولُ عَمَّا هُوَ
مَرْدُودٌ وَتِلْكَ الْقَوَائِنُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ النِّجَاحِ

أَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَنْبَغُ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامِ
وَنَقْشٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ النَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ الْخِلَافِ مَاخُذٌ مِنْ
الْجِدْلِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ الْمُنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ
فِي عِلْمِ النَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَائِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ اسْتِمْدَادٌ مِنْ
عِلْمِ الْمُنَاطَرَةِ الْمَشْهُورِ بِآدَابِ النِّجَاحِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ الطَّرِيقُ وَالْقَرَضُ
مِنْهُ تَخْصِيلُ مَلَكََةِ النَّقْشِ وَالْإِبْرَامِ وَقَائِدُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْأَحْكَامِ
الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الْإِلْزَامِ عَلَى الْمُخَافِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ
عِلْمَ الْجِدْلِ هُوَ عِلْمُ الْمُنَاطَرَةِ لِأَنَّ الْمَالَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ الْجِدْلَ
أَخْصٌ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونٍ فِي الْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ :
وَأَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَاطَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ
الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَاطَرَةِ فِي الرَّدِّ
وَالْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَاطِرِينَ فِي الْإِسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ
يُرْسَلُ عِنَانُهُ فِي الْإِخْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ
خَطَأً فَاجْتِنَاحُ الْآيَةِ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ الْمُتَنَاطِرَانِ

الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

الْمُنَازَرَةُ عِلْمٌ يَعْرِفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ الْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ أَوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ الْخُصْمِ. وَالْآدَابُ الطَّرِيقُ. وَمَوْضُوعُ هَذَا الْعِلْمِ الْإِدْلَةُ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا الْمُدَّعِي عَلَى الْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَالْفَرْضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَهَ طَرِيقِ الْمُنَازَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ الْخَطُ فِي الْبَحْثِ فَيُضَيَّعَ الصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ الْمُنَازَرَةُ أَيْضًا فِي أَصْطِلَاحِ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى النَّظَرِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ فِي النَّسَبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ أَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ الْخُصْمَيْنِ فِي النَّسَبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ أَيْ تَوَجُّهُ الْمُتَخَاصِمَيْنِ الَّلَّذَيْنِ مَطْلَبُ أَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ الْآخَرِ إِذَا تَوَجَّهَا فِي النَّسَبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ التَّوَجُّهُ فِي النَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ الْإِسْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِظْهَارُ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ. وَالْمَسَائِلُ الْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايِدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاخُطِ الْأَفْكَارِ

هَاهُنَا. وَسَبَبُ غُيُوبِهِ أَنَّ الضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ الْمَقُولَاتِ
 الْأَعْشَرِ كَمَا تَكُونُ أَلْقِيَاسَاتُ الْجَدَلِيَّةِ لَكِنَّ مِنَ الضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي
 الْمَوَادِّ الَّتِي فِي الصَّنَائِعِ. مِثْلَ الضَّمَائِرِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الْأُمُورِ
 الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ الطَّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ. وَهَذِهِ
 فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هَذِهِ الصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ اسْتِعْمَالِ الْبَرَاهِينِ فِي
 تِلْكَ الصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا الْخَطِيبُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي تَخْصُ
 الْخُطَابَةَ مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنْ خُطْبَةٍ. وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
 تَكُونُ بِهَا الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ أَتَمَّ فِعْلًا وَانْفِذُ مَا يُذَكَّرُ بَعْدُ. وَمِنْ
 الضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَخْصُ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا
 تَبَيَّنَ مِنْ مَنَافِعِهَا وَهِيَ الْأُمُورُ الْإِرَادِيَّةُ وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ
 تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةٍ مَا يَسْتَعْمِلُ الْخُطْبَاءُ الْأَقَاوِيلَ الْخُطْبِيَّةَ. وَمِنْ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي أَنْ تُعَدَّ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي هِيَ فُصُولُ
 الضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ الْمَوَادِّ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ صِنَاعَةً



لَا شَرَّ أَكْهَمَا فِي أَمْرِ كُلِّي إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الْمَنْقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا
إِلَى الْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْيِيِّ الْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْكُلِّيِّ أَوْ
يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَالْأَلَمْ تَصِحَّ الثَّقَلَةُ مِنْ جُزْيِيِّ إِلَى
جُزْيِيِّ أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ كُلِّي وَكَانَ وُجُودُ ذَلِكَ الْحُكْمِ
مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْيِيِّ الْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَغْرِضُ مِنْ هَذَا فِي الْأَسْتِقْرَاءِ
أَعْنِي إِذَا كَانَتِ الثَّقَلَةُ مِنْ جُزْيِيِّ إِلَى جُزْيِيِّ بِتَوَسُّطِ الثَّقَلَةِ إِلَى
الْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ
جُمْلَةِ النَّفْسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِخْ لَهُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ
أَنْ يَفْتِكَ بِأَمْلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ فُلَانِ الْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ
فُلَانِ الْمَلِكِ لَا قَوَامَ يُعَدِّدُهُمْ فَفَتَّكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَإِنَّ قَائِلَ هَذَا
الْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ الثَّقَلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْيِيِّ إِلَى جُزْيِيِّ بِتَوَسُّطِ الْكُلِّيِّ
الَّذِي هُوَ: إِنْ كُلٌّ مِنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْحَرْسِ مِمَّنْ كَانَ فِي
جُمْلَةِ عَدُوِّ الْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ. إِلَّا إِنْ هَذَا الْكُلِّيُّ الَّذِي
ارْتَسَمَ فِي النَّفْسِ بِالْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصْرَحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ الثَّقَلَةَ مِنْ
جُزْيِيِّ إِلَى جُزْيِيِّ إِذَا كَانَتِ الثَّقَلَةُ إِلَيْهِ فِي الذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ
الْجُزْئِيَّاتِ كَانَ اسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنْ الْأَقْلِ
كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتُ
فَقَدْ يُكْتَفَى هَاهُنَا بِهَذَا الْقَدْرِ الْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا الْقَوْلُ فِي فُضُولِ الصَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا
تَعْمَلُ فَإِنَّ الْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ الْغِنَاءِ فِيمَا نَقَصِدُهُ

وَالدَّلَائِلُ الَّتِي تَكُونُ فِي الشَّكْلِ الثَّلَاثِ وَالثَّانِي يُخَصُّ بِاسْمِ
 الْعَلَامَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي الشَّكْلِ الْأَوَّلِ يُخَصُّ بِاسْمِ الدَّلِيلِ .
 وَالَّذِي فِي الشَّكْلِ الثَّانِي هُوَ أَخَصُّ بِاسْمِ الْعَلَامَةِ مِنَ الثَّلَاثِ
 كَمَا أَنَّهُ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَمَكَةِ الْأَكْثَرِ يُخَصُّ بِاسْمِ
 الْأَشْبِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمَمَكَةِ عَلَى التَّسَاوِي خَصَّ بِاسْمِ الضَّمِيرِ
 الْمُسْتَشَبِّهِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ مَا هِيَ النُّحُودَاتُ وَالِدَّلَائِلُ
 وَالْعَلَامَاتُ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا . لَكِنْ الَّذِي تَبَيَّنَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ
 الْقِيَاسِيَّةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ فَإِنَّهُ هُنَاكَ تَبَيَّنَ مَا
 هُوَ الْقِيَاسُ وَكَمْ أَجْنَاسُ الْأَقَاوِيلِ الْقِيَاسِيَّةِ وَتَبَيَّنَ فِي جِنْسِ جِنْسٍ
 مِنْهَا مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا لَيْسَ بِقِيَاسٍ . وَأَمَّا (الْمِثَالُ) فَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ
 أَنَّهُ اسْتِقْرَاءٌ مَا لَكِنْ يُبَيِّنُ الْاسْتِقْرَاءَ بِأَنَّهُ لَيْسَ يُصَادُ فِيهِ لَا مِنْ
 الْجُزْئِيِّ إِلَى بَيَانِ الْأَمْرِ الْكُلِّيِّ كَمَا يُصَادُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ
 الْاسْتِقْرَاءِ وَلَا مِنْ الْكُلِّيِّ إِلَى الْجُزْئِيِّ كَمَا قَدْ يُصَادُ فِي
 بَعْضِ أَنْوَاعِ الْاسْتِقْرَاءِ . وَذَلِكَ إِذَا بَيَّنَّا بِالْكُلِّيِّ الَّذِي اثْبَتَاهُ
 بِالْاسْتِقْرَاءِ جُزْئِيًّا آخَرَ غَيْرَ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي اثْبَتَهَا الْكُلِّيُّ بِاسْتِقْرَاءِهَا
 وَيُؤَافِقُهُ فِي أَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي أَمْرٍ
 كُلِّيٍّ . وَذَلِكَ إِذَا جُمِعَا فِي الْاسْتِقْرَاءِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا أَعْنِي أَنْ تَصِيرَ فِيهِ
 مِنَ الْجُزْئِيِّ إِلَى الْكُلِّيِّ ثُمَّ مِنَ الْكُلِّيِّ إِلَى جُزْئِيٍّ آخَرَ فَإِنَّا
 فِي هَذَا الْفِعْلِ قَدْ صَرْنَا مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ يَتَوَسَّطُ الْكُلِّيُّ
 كَالْحَالِ فِي الْمِثَالِ فَإِنَّ الْمِثَالَ إِنَّمَا يَصِيرُ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ

الْأَصْغَرُ وَأَخْصُ مِنَ الْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتِلِفُ ضَرُورَةً فِي الشَّكْلِ
 الْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي الْمَادَّةِ الْمُمَكِّتَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ فَهُوَ الَّذِي
 يَعْرِفُهُ الْقَدَمَاءُ بِالْأَشْبِهِ. وَمِثَالُهُ فِي الْمَادَّةِ الضَّرُورِيَّةِ: هَذِهِ أَنْثَى الْحَيَوَانِ
 لَهَا لَبَنٌ فِيهَا قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي الْمُمَكِّتَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ: فُلَانٌ يُعِدُّ
 السِّلَاحَ وَيَجْمَعُ الرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعِصِيَ الْمَلِكَ.
 وَمِثَالُ الْمُمَكِّتَةِ عَلَى التَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعَبَ وَالتَّعُوبُ مُحْمُومٌ
 فَفُلَانٌ مُحْمُومٌ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعْرِفُ بِالْمُشَبَّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعْمُ
 مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتِلِفُ فِي الشَّكْلِ الثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا
 فِي بَادِي الرَّأْيِ. مِثَالُ ذَلِكَ فِي الْمَادَّةِ الْمُمَكِّتَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ
 قَوْلُ الْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَالْحَمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ
 مُحْمُومٌ. فَهَاتَانِ الْمَقْدَمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَالتَّيَجُّهُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذَا
 قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفَّسُ سُقْرَاطِ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِخْضَارِهِ.
 وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمثالٍ هَذِهِ
 الْمَقْدَمَاتِ الصَّادِقَةَ أَنَهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ انْطَوَى فِيهَا
 كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا الْمَقْدَمَاتِ فَيَعْسُرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ
 صِدْقِهَا فَيَحْجِرُونَ لِذَلِكَ. وَأَمَّا آتِي هِيَ أَخْصُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي
 الشَّكْلِ الثَّلَاثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لَكِنْ تُوَخَّذُ نَتِيجَتُهُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
 كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذَلِكَ فِي الْمَادَّةِ الضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا
 فِي كُرَّةِ الْعَالَمِ وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي الزَّمَانِ قَالَرَّ مَانَ كُرَّةُ الْعَالَمِ. وَفِي
 الْمُمَكِّتَةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: الْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

بِتِلْكَ الْحَالِ . وَذَلِكَ بَيْنَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلُّهَا
أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ الْوُجُودِ وَلَا مُتَمَتِّعَةُ الْوُجُودِ .
وَالْتَّائِجُ الضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِالذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتِ ضَرُورِيَّةٍ
وَالْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتِ مُمَكِّنَةٍ . وَالضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتِ
مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ الدَّلَائِلِ . وَأَعْنِي بِالْمُقَدَّمَاتِ الْحَمُودَةِ
الَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ الْمُنْعِمُ وَأَنْ يُسَاءَ
إِلَى الْمُسِيءِ . . وَأَعْنِي بِالِدَّلَائِلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ
لِشَيْءٍ . وَهَذَانِ الصَّنَعَانِ مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ يَوْجَدَانِ فِي الْمَوَادِّ الضَّرُورِيَّةِ
وَالْمُمْكِنَةِ أَغْنِي الْحَمُودَاتِ وَالِدَّلَائِلَ . وَلَيْسَ يَوْجَدَانِ فِي الْمُمْكِنَةِ
عَلَى الْأَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي الْمُمْكِنَةِ عَلَى التَّسَاوِي . وَهِيَ الَّتِي
نَسَبَتْهَا إِلَى الْمُقَدَّمَاتِ الْمُمْكِنَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ نِسْبَةً الَّتِي عَلَى الْأَكْثَرِ
إِلَى الضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ الْكُلِّ مِنَ الْبَعْضِ وَذَلِكَ أَنَّ الصِّدْقَ
فِي الضَّرُورِيَّةِ أَعْمُ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْمُمْكِنَةِ عَلَى الْأَكْثَرِ إِذَا
كَانَتْ الضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ الْمَوْضُوعِ وَالْمُمْكِنَةُ عَلَى الْأَكْثَرِ لَا
تُوجَدُ لِكُلِّهِ . وَكَذَلِكَ نِسْبَةُ الْمُمْكِنَةِ عَلَى التَّسَاوِي إِلَى الْمُمْكِنَةِ
عَلَى الْأَكْثَرِ هِيَ هَذِهِ النِّسْبَةُ أَعْيَنُ أَنَّ الْمُمْكِنَةَ عَلَى الْأَكْثَرِ
تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا تَصْدُقُ الْمُمْكِنَةُ عَلَى
التَّسَاوِي . وَالدَّلَائِلُ الْمَأْخُودَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعْمُ مِنَ
الطَّرَفِ الْأَصْغَرِ وَأَخْصُ مِنَ الْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعْمُ مِنَ
الطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخْصُ مِنْهُمَا . أَمَّا الَّذِي هُوَ أَعْمُ مِنَ الطَّرَفِ

الْأَشْيَاءَ مَأْخُودَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي الْقِيَاسِ
وَالِاسْتِقْرَاءِ . فَإِذَا اسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ بِالْحَالِ الَّتِي بُرِينَ فِي
كِتَابِ الْقِيَاسِ عَادَ الْمِثَالُ اسْتِقْرَاءً وَالضَّمِيرُ قِيَاسًا . وَإِذَا أُخِذَتْ
بِهَذِهِ الْحَالِ الَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ الْاسْتِقْرَاءُ مِثَالًا وَالْقِيَاسُ ضَمِيرًا .
وَتِلْكَ الْحَالُ هِيَ اخْذُ الْقِيَاسِ وَالْإِعْتِبَارُ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِدَةٍ
فَإِنَّ الْإِقْتِنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِالْمُقَدَّمَاتِ الَّتِي هِيَ فِي
غَايَةِ الظُّهُورِ وَحَذَفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَآيَضًا فَإِنَّ الْحَمْدَ فِي
هَذِهِ الصَّاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ اللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِالشَّيْءِ الَّذِي يَلْزَمُ
إِذَا أُخْبِرَ بِاللَّازِمِ وَالْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ الشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ
هَذَا فِي بَادِي الرَّأْيِ . وَعَلَى هَذَا فَلَا يُصْرَحُ بِالْحَدِّ الْاَوْسَطِ فِي
الْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي الْإِعْتِبَارِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ
الْقِيَاسُ ضَرْورَةً ضَمِيرًا أَيْ مَحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ وَهَذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا
إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ الْاسْتِقْرَاءُ ضَرْورَةً مِثَالًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطيئة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ الْقِيَاسَاتِ الْخَطِيئَةِ قَدْ تَكُونُ ضَرْورِيَّةً وَذَلِكَ
فِي الْأَقْلِ وَتَكُونُ مُمَكِّنَةً وَذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّحْصِ
الْجُمْهُورِيِّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ إِلَّا يَكُونُ

كَانَتْ تُضَعُّ فِي الْأَكْثَرِ فِي الْأُمُورِ الْمُسْكِنَةِ وَذَلِكَ بَيْنَ فِي
الْأُمُورِ الْمُسَاوِرَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يُشِيرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِأَمْرٍ ضَرْوِيٍّ
الْوُجُودِ وَلَا مُتَمَتِّعِ الْوُجُودِ وَكَانَتْ الْمَقْدَمَةُ الْكُبْرَى فِي أَمْثَالِ
هَذِهِ الْمَوَادِّ كَاذِبَةٌ بِالْجُزْءِ لَمْ يُصَرِّحُوا بِهَا فِي الْمَقَائِيسِ الَّتِي
يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لِئَلَّا يُفْظَنَ بِكَذِبِهَا . وَآيضًا فَلَمَّا كَانَتْ
الْمَقَائِيسُ الْحَيَّةُ الصَّنَعَةُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِنَّمَا هِيَ أَحَدُ صِنْفَيْنِ إِنَّمَا
الْمَقَائِيسُ الَّتِي تَوَلَّفُ مِنَ الْمَقَدَّمَاتِ الْبَيِّنَةِ إِقْنَاعُهَا بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا مِنْ
مُقَدَّمَاتٍ تَبَيَّنَ مُقَدَّمَاتُهَا بِمُقَدَّمَاتٍ أُخَرُ تَحْلُطُ بِهَا وَالْأَمْرُ لَمْ يَتَبَيَّنْ
حَمْدُهَا . فَقَدْ يَلْحَقُ ضَرْوَةٌ فِي هَذَا الصِّنْفِ الثَّانِي أَنْ يَسْرَ تَأْلِيفُ
الْمُقَدَّمَاتِ وَتَرْتِيبُهَا التَّرْتِيبَ الصَّاعِي لِمَكَانِ كَثْرَةِ الْمُقَدَّمَاتِ وَطُولِ
الزَّمَانِ الَّذِي يُصَرِّحُ فِيهِ بِجَمِيعِهَا وَتَرْتِيبُ تَرْتِيبًا صَّاعِيًا وَذَلِكَ الشَّيْءُ
لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ الْحُكَّامُ بَلْ يَحْمِلُونَ الْمُتَكَلِّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْ يَكُونَ
كَلَامُهُ بَسِيطًا غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ فِيهِ صَنْعَةٌ عَلَى الْجُمْهُورِ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ
مَتَى كَانَ الْكَلَامُ لَيْسَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ كَانَ غَيْرَ مُقْنِعٍ . وَذَلِكَ
فِي الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونُ فِيهِمَا الْإِقْنَاعُ أَعْنِي فِي أَنَّ الشَّيْءَ مَوْجُودٌ
أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَفِي أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ مُحَمَّدٌ أَوْ غَيْرُ مُحَمَّدٍ . وَكَذَلِكَ
إِذَا اسْتَعْمِلَ التَّضَدِّيقُ بِطَرِيقِ أَخْذِ الْأَشْيَاءِ فَاسْتَقْبَحِي وَجَعَلَ عَلَى
طَرِيقِ الْإِسْتِقْرَاءِ عَرَضَ الْعُسْرِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ مِنَ الطُّولِ وَالْكَثْرَةِ .
وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَادْنِ الْقِيَاسُ الْخَطِيئُ وَهُوَ الضَّيْرُ وَالْإِثْمَالُ إِنَّمَا
يَكُونَانِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْقِيَاسُ وَالْإِسْتِقْرَاءُ بِإِطْلَاقٍ وَتِلْكَ

هَذِهِ الصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُتَّاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ الْمُتَّعَمِّلِ
لَهَا وَإِذَلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ مِنَ الْمَقْدَمَاتِ الْخَمُودَةِ
أَعْنِي الْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ
الْأَرَاءُ الْخَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ الشَّوْقِ وَالْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ
الْخَمُودَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ أَوْ الْجَمِيعِ . عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ
الْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَالَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ الْقِيَاسُ
الْمُسْتَعْمِلُ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ الْبُرْهَانِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَعْمِلِ
فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنَّ الْقِيَاسَ يُرْتَّبُ التَّرْتِيبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْقَوْلُ
مُنْتِجًا بِالضَّرُورَةِ . وَأَمَّا الضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَرْتَّبُ مُقَدَّمَاتُهُ التَّرْتِيبَ الَّذِي
هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذَلِكَ هُوَ بِخِلَافِ التَّرْتِيبِ
الصَّنَاعِيِّ فَإِنَّ النَّاسَ يَسْتَرِيضُونَ بِالْقَوْلِ اللَّازِمِ عَنِ الْقَوْلِ الصَّنَاعِيِّ
وَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ الصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ فِي
نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ التَّرْتِيبَ الصَّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصْرَحَ فِيهِ بِجَمِيعِ
الْمَقْدَمَاتِ الضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذَلِكَ الْمَطْلُوبِ وَالْجُمْهُورُ لَا
يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ النَّتِيجَةِ الَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ .
وَأَيْضًا فَلَهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ النَّتِيجَةِ وَالشَّيْءِ الَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ النَّتِيجَةُ
أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصْرِحُونَ فِي الْمَقَالِيسِ بِالْمَقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ النَّتِيجَةِ
بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمَقْدَمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرَدُّفُونَهَا بِالنَّتِيجَةِ . مِثْلُ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ : هَذَا يَدُورُ بِاللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ
بِاللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ وَهِيَ الْمَقْدَمَةُ الْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ الضَّمِيرَ لَمَّا

هَذَيْنِ الْجَنَسَيْنِ مِنَ الْقَوْلِ نَوْعًا خُطْبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ الْإِسْتِقْرَاءُ وَالْقِيَاسُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعِ كَذَلِكَ يُوجَدُ فِي الْخُطَابَةِ الْمِثَالُ وَالضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعِ بِجَهَةِ الْإِسْتِعْمَالِ أَنِّي فِي صِنَاعَةِ الْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ الْجَدْلِ. وَالْقِيَاسُ فِي الْجَدْلِ أَوْثَقُ مِنَ الْإِسْتِقْرَاءِ وَالْمِثَالِ فِي الْخُطَابَةِ أَقْعُ مِنَ الضَّمِيرِ لِأَنَّ الضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ أَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى الْمِثَالِ وَسَبَبُ هَذَا سَخْطُهُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذَلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ. فَمَا أَلَانَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَحْدِدَ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ مِنَ الْإِقْنَاعِ أَنِّي الضَّمِيرَ وَالْمِثَالِ فَقُولُ :

إِنَّ الْقَوْلَ الْمُقْنِعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا لِوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِمَجْمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ النَّاسِ. وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ فِي أَمْرِ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرِ جُزْئِيٍّ. وَكِلَا هَذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيْنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بغيرِهِ. وَالَّذِي يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بغيرِهِ فِي الْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ : إِنَّ كَذَا إِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعٍ كَذَا. مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ : إِنَّ شَرَابَ السَّكَّاجِينَ يَنْفَعُ فَلَانًا لِأَنَّهُ مَحْمُومٌ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى الضَّمِيرَ. (وَالضَّرْبُ الثَّانِي) أَنْ يَقُولَ : إِنَّ كَذَا إِنَّمَا كَانَ كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا. مِثْلُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ فَلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ لَسَّكَّاجِينَ لِأَنَّ فَلَانًا اتَّفَعَ بِهِ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى الْمِثَالِ. وَالْمُقْنِعَاتُ الَّتِي هِيَ مُقْنِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمَلُهَا

أَسْتَقْرَاءَ وَالصَّنْفُ الثَّانِي الْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذَلِكَ
 الْأَقَاوِيلُ الثَّلَاثَةُ فِي الصَّنَاعَةِ وَالْمُبْطَلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهُ بِالْإِسْتِقْرَاءِ
 وَهُوَ الْمِثَالُ وَالْآخَرُ شَبِيهُ بِالْقِيَاسِ وَهُوَ الضَّمِيرُ وَالضَّمِيرُ الَّذِي
 يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشَبِّهُهُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَاكَ أَنَّهُ
 قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ . وَكَذَلِكَ الْمِثَالُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ
 وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشَبِّهُهُ الْإِسْتِقْرَاءُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ أَسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ
 بِأَسْتِقْرَاءٍ . فَالضَّمِيرُ هُوَ الْقِيَاسُ الْخَطِيئُ وَالْمِثَالُ هُوَ الْإِسْتِقْرَاءُ الْخَطِيئُ .
 وَالْخَطْبَاءُ إِذَا تَوَمَّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ التَّصْدِيقَاتِ
 الَّتِي تَكُونُ بِالْقَوْلِ بِهَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ أَعْنَى إِمَّا بِالْمِثَالِ وَإِمَّا بِالضَّمِيرِ .
 وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَوْمُونَ بِفَعْلِهِمْ هَذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْإِسْتِقْرَاءِ وَالْقِيَاسِ .
 وَالَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ
 بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ
 فَإِنَّهُ يَكُونُ بِالْقِيَاسِ وَأَنَّ الْإِسْتِقْرَاءَ وَالْمِثَالَ إِنَّمَا يُفِيدَانِ
 التَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ الْقِيَاسِ . فَأَمَّا مَا هُوَ الْقِيَاسُ وَمَا الْفَصْلُ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَرَهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَاكَ
 أَيْضًا الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِيَاسِ وَالْإِسْتِقْرَاءِ . وَالْإِسْتِقْرَاءُ وَالْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ
 فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُشْتَبَانِ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا
 مِنْ أَجْلِ وُجُودِ ذَلِكَ الشَّيْءِ أَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ . وَالضَّمِيرُ
 وَالْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ
 شَيْءٌ آخَرُ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينَةٍ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلٌ
 الْعِلْمِ. (وَالثَّانِي) الْجَدِّيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ
 يُسَلِّمُ بِهَا الْخُصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى انْكَارِهَا لِشَهَرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ
 نَحْوُ: الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ. (وَالثَّلَاثُ) الْخَطَائِيُّ وَهُوَ مَا
 رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيْبُهُ نَحْوُ:
 الصَّلَاةُ بِرٌّ فِيهِ مَجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ. وَإِنَّمَا هَا مَغْصِيَةٌ فَهُوَ مِنْكَ.
 (وَالرَّابِعُ) الشَّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ تُحْيِيَّةٌ تُؤْمَرُ
 فِي النَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةٌ كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ: الْخَمْرُ
 قِرْزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فِيهِ تُبْهِجُ النَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُوَعَةٌ فِيهِ تُرْجَعُ
 النَّفْسُ. (وَالْخَامِسُ) الْمَغَالِطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ
 شَبِيهَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْأَسَدِ: هَذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزَارُ.
 وَالْعُمْدَةُ فِي الْخَطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخَطَائِيِّ أَيُّ ذِي الْمَقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري

والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِثْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا
 إِنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدْلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْأَسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

الَّتَقْيِضُ حَقًّا لَمَّا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًّا. وَقَدْ سَمِيَ هَذَا الْقِيَاسُ
خَلْفًا لِأَنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثَبِّتَ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ أَيَّ مِنْ وَرَائِهِ .
(وَالثَّلَاثُ) قِيَاسُ الْأَسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلُ مُؤَلِّفٍ مِنْ قَضَايَا تَشْتِمِلُ
عَلَى الْحُكْمِ عَلَى الْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ الْحُكْمِ الْكُلِّيِّ . وَيُحَدِّثُ أَيْضًا
الْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لَوْجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيْضًا : هُوَ تَصْفُحُ
الْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمِ كُلِّيٍّ ثُمَّ الْأَسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى
قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ الْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى الْكُلِّ
وَهُوَ قَلِيلٌ إِلَّا سَتَعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ
أَوْ جَمَادٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيَنْتَجِجُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ
يُفِيدُ الْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِأَكْثَرِ الْجُزْئِيَّاتِ فَقَطُّ
وَيُحْكَمَ عَلَى الْكُلِّ وَهُوَ قِسْمُ الْقِيَاسِ وَلِذَا عَدَّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ
الْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ الظَّنَّ كَقَوْلُنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُهُ
الْأَسْفَلُ عِنْدَ الْمَضْغِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ وَالْقِرْسَ وَالْجِمَارَ وَالْبَقَرَ وَغَيْرَ
ذَلِكَ مِمَّا تَتَبَعْنَاهُ كَذَلِكَ . فَإِنَّهُ يُفِيدُ الظَّنَّ بِجَوَازِ التَّخَلُّفِ كَمَا فِي
الْتِمَاسِ . (وَالرَّابِعُ) قِيَاسُ التَّمْثِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ
لِثَبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِعَنَى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ
كَقَوْلِكَ : الْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحَدَّثٌ كَالْمَدِيَّةِ لِأَنَّ كُلَّيْهَا مُرَكَّبٌ
مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقَسَّمُ إِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ الْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ
قَطْعِيٍّ يُفِيدُ الظَّنَّ

أَمَّا أَنْوَاعُ الْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (أَحَدُهَا) الْقِيَاسُ الْبُرْهَانِيَّ وَهُوَ

البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسية والكلديات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلَا قِسَامَ الْقِيَاسِ مُلْحَقَاتُ أُخَرُ يُقَسَّمُ إِلَيْهَا . (أَوَّلَهَا) الْقِيَاسُ
الْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يُتَّبَعُ مُقَدَّمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةٌ
وَهِيَ مَعَ الْمَقْدَمَةِ الْأُخْرَى نَتِيجَةٌ أُخْرَى وَلَا تَزَالُ نَتَائِجُ بَعْضِهَا
مُقَدَّمَاتٌ لِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَحْصَلَ الْمَطْلُوبُ . فَإِنْ صُرِحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ
الْأَقْسِمَةِ سُمِّيَ مَوْضُولَ النِّتَائِجِ لَوْضُلِ تِلْكَ النِّتَائِجِ بِالْمُقَدَّمَاتِ
كَقَوْلِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ
حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذُو
حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ
الْأَقْسِمَةِ سُمِّيَ مَفْضُولَ النِّتَائِجِ وَمَطْوِيَّهَا كَقَوْلِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ .
وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٌ .
وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . (وَالثَّانِي) قِيَاسُ الْخَلْفِ . وَهُوَ
قِيَاسٌ اسْتِثْنَائِيٌّ يُقْصَدُ فِيهِ إِثْبَاتُ الْمَطْلُوبِ بِإِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا إِذَا
قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءٌ مِنَ النَّبَاتِ
بِجَمَادٍ . فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَطْلُوبُ حَقًّا أَيْ لَا شَيْءٌ مِنَ النَّبَاتِ
بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ أَيْ بَعْضُ النَّبَاتِ جَمَادٌ . أَلَكِنْ لَوْ كَانَ هَذَا

وَأَنْ تَكُونَ إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ كَلِمَةً وَمِنْ خَوَاصِهِ أَنْ تَتَّيَجَّهُ لَا
تَكُونَ إِلَّا جُزْئِيَّةً. وَإِنْ كَانَ أَحَدُ الْأَوَسَطِ عَكْسَ الْأَوَّلِ بَانَ
يَكُونُ مَوْضُوعًا فِي الصَّغَرَى مَحْمُولًا فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ
الرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ إِنْسَانٌ فَبَعْضُ
الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَالْقِيَاسُ يُقَسَّمُ إِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَالْقِيَاسُ الْكَامِلُ هُوَ
الْقِيَاسُ الَّذِي يَكُونُ لَزُومٌ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ
أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَالْغَيْرُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ
شَيْءٌ وَلَكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّ ذَلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ.
بَلْ إِذَا أُرِيدَ أَنْ نُبَيِّنَ ذَلِكَ بَيِّنَ شَيْءٍ آخَرَ لِكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ
جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ إِمَّا نَقِصُ مَا قِيلَ أَوْ عَكْسُهُ تَعْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ
وَأَقْتِرَاضُهُ. وَالْقِيَاسُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِصُهُ
مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ بَوَاحٍ بَلْ بِالْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اقْتِرَائِيًّا كَقَوْلِكَ:
كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحَدَّثٌ سُمِّيَ بِهِ لِاقْتِرَانِ الْخُدُودِ فِيهِ.
وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ هُوَ أَوْ نَقِصُهُ مَقُولًا فِيهِ بِالْفِعْلِ وَيُسَمَّى
قِيَاسًا اسْتِنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: إِنْ كَانَتْ النَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ
قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لَكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



عَلَيْهِ وَيُسَمَّى بِالزَّذِفِ أَيْضًا. وَمَوْضُوعُ النَّتِيجَةِ هُوَ أَحَدُ الْأَصْغَرِ
وَالْأَكْبَرِ فِيهَا هُوَ أَحَدُ الْأَكْبَرِ. وَمَا كُرِّرَ فِي الْقَضِيَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ
يُسَمَّى حَدًّا أَوْسَطَ. وَيَدْعُونَ الْقَضِيَّةَ الْمَشْتَمِلَةَ عَلَى أَحَدِ الْأَكْبَرِ
مُقَدِّمَةً كُبْرَى وَالْمَشْتَمِلَةَ عَلَى أَحَدِ الْأَصْغَرِ مُقَدِّمَةً صُغْرَى. وَمَجْمُوعُ
الْمُقَدِّمَةِ الصُّغْرَى بِالْكُبْرَى فِي الْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِالضَّرْبِ. وَنِسْبَةُ
أَحَدِ الْأَوْسَطِ إِلَى الْأَصْغَرِ وَالْأَكْبَرِ هُوَ الشَّكْلُ. وَأَشْكَالُ
الْقِيَاسِ أَرْبَعَةٌ لِأَنَّ الْأَوْسَطَ إِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى مَوْضُوعًا
فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الْأَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ
وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرْطُ إِتْسَاجِ هَذَا الشَّكْلِ إِيحَابُ الصُّغْرَى
وَكُلِّيَّةُ الْكُبْرَى وَهُوَ يَحْتَضُّ بِأَنَّهُ يُنْتِجُ الْمَوْجِبَةَ الْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي
الْأَشْكَالِ لَا يُنْتِجُ الْمَوْجِبَةَ الْكُلِّيَّةَ بَلْ إِمَّا مُوجِبَةً جُزْئِيَّةً أَوْ
سَالِيَةً. وَإِنْ كَانَ أَحَدُ الْأَوْسَطِ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ
(الشَّكْلُ الثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ
الْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءٌ مِنَ الْجَمَادِ بِإِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ الْبَعْضِ: كُلُّ
غَائِبٍ مَجْهُولُ الصِّقَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيَعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ الصِّفَةِ فَالنَّتِيجَةُ
كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيَعُهُ. وَشَرْطُ إِتْسَاجِهِ اخْتِلَافُ مُقَدِّمَتَيْهِ فِي
الْإِيحَابِ وَالسَّلْبِ وَكُلِّيَّةِ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا يُنْتِجُ إِلَّا
سَالِيَةً. وَإِنْ كَانَ الْأَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ
(الشَّكْلُ الثَّلَاثُ) نَحْوُ كُلِّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ
فَبَعْضُ الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرْطُ إِتْسَاجِهِ أَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجِبَةً

وَأَمَّا سَلْبُ فَقَطْ نَحْوُ: لَا شَيْءَ مِنْ الْإِنْسَانِ بِحَجَرٍ بِالضَّرُورَةِ. وَمِنْهَا
 (الْقَضِيَّةُ الْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَسِمَةٌ مِنْ إيجابٍ وسَلْبٍ
 مَعًا نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا. وَمِنْهَا (الْقَضِيَّةُ النَّظَرِيَّةُ)
 وَهِيَ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِالدَّلِيلِ اثْبَاتُهَا فِي الْعِلْمِ. فَهِيَ مِنْ
 حَيْثُ أَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا
 مَطْلَبًا. وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْإِبْرَاهِيمِ نَتِيجَةٌ. وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى
 عَلَيْهَا الشَّيْءُ أَصُولًا. وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ
 تَتَعَرَّفُ أَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةٌ. وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْحُجَّةُ مُقَدِّمَةٌ
 وَقَضِيَّةٌ. وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَوِي الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامه وانواعه

(من كتاب النجاة لابن سينا والكلبيات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلُ مُؤَلِّفٍ مِنْ قَضَايَا إِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا
 بِذَاتِهَا لَا بِالْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ اضْطِرَّارًا كَقَوْلِنَا: الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ
 مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَإِنَّهُ مُؤَلِّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا أَنَّ الْعَالَمَ حَادِثٌ
 وَهُوَ الْقِيَاسُ الْعَقْلِيُّ وَالْمُنْطَقِيُّ. وَالْقَوْلُ الْآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ
 إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ. وَنَتِيجَةٌ بَعْدَ تَرْكِيبِ الْقِيَاسِ لَهُ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ

الْحَكْمِيَّةُ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَالْأُسْمِيَّةُ حَكْمِيَّةً . فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا : (زَيْدٌ نَائِمٌ) . قَضِيَّةٌ حَكْمِيَّةٌ . لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ التَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى الطَّرْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْحَكْمِيَّةِ وَهُوَ الْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَالثَّانِي مَحْمُولًا . وَقَوْلَنَا : (إِنْ كَانَتْ الشَّمْسُ طَالِعَةً فَالْنَّهَارُ مُوجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ . لِأَنَّهُ إِذَا حَدَفْنَا (إِنْ وَالْفَاءُ) الْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ : (الشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَالنَّهَارُ مُوجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ . وَالْقَضِيَّةُ الْحَكْمِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْحُكْمُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ كَاتِبٌ . وَإِمَّا كَلِّيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ الْحُكْمُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ الْمَوْضُوعِ . وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجِبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً . وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ عَلَى التَّعْلِيلِ وَهُوَ وَجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وَجُودِ الْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِإِزْوَاجٍ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ الَّتِي تُوجِبُ التَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ : لَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهَ لَفَسَدَتَا . وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِإِمْتِنَاعِ اجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَكَثَرَتْ فِي الصِّدْقِ وَهِيَ الَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ : الْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ . وَيُسَمَّى الطَّرْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقَضِيَّةِ الشَّرْطِيَّةِ مُقَدِّمًا وَالثَّانِي تَالِيًا . وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ الْمَوْضُوعِ وَالْمَحْمُولِ

وَالْقَضِيَّةُ أَقْسَامٌ غَيْرُ هَذِهِ مِنْهَا (الْقَضِيَّةُ الْبَسِيطَةُ) وَهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ : كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِالضَّرُورَةِ .

إِلَى الْإِسْتِمَاعِ. وَقَدْ قِيلَ: كُلُّ كَلَامٍ لَا يُتَدَأُّ فِيهِ بِالْحَمْدَةِ فَهُوَ
 أَبْتَرُ. وَحَقِيقَةُ هَذَا أَلْبَابِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ الْكَلَامِ مِنَ الْخُطْبِ أَوْ
 الرِّسَائِلِ أَوْ الشُّعْرِ دَالًّا عَلَى الْمَغْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ. إِنْ
 فَتَحًا فَفَتْحًا وَإِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذَلِكَ يَجْرِي
 الْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي. وَقَائِدُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ الْكَلَامِ
 مَا الْمُرَادُ بِهِ وَيُسْتَفْتَحَ الْمُسْكِلُ أَبْوَابَ الْأَسْمَاعِ وَيُسْتَحْضَرَ الْأَذْهَانَ
 لِلْإِسْتِمَاعِ. وَهَذَا الشَّعْبُ عَظِيمُ النِّفَعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ إِلَّا
 لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى أَيْضًا هَذَا النَّوعُ بِرِاعَةِ الْإِسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي
 عَنْهُ الْكَلَامُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْمَجْمُوعِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَنِ
 الشُّعْرِ

المبحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكميات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ إِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ أَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ
 مَجْمُوعُ الْمَعْلُومَاتِ الْأَرْبَعَةِ وَهِيَ الْحُكْمُ عَلَيْهِ وَالْحُكْمُ بِهِ وَالنِّسْبَةُ
 الْحَكِيمِيَّةُ وَالْحُكْمُ وَإِذْرَاكَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ تَصْدِيقٌ. وَالْقَضِيَّةُ أَمَّا حَمَلِيَّةٌ
 وَأَمَّا شَرْطِيَّةٌ. قَالُوا: إِنْ كَانَ الْحُكْمُ عَلَيْهِ وَالْحُكْمُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ
 عِنْدَ التَّحْلِيلِ آيٍ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ النِّسْبَةِ

الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاول

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ : أَمْعَانِرَ الْكُتَّابِ أَحْسِنُوا الْإِبْتِدَاءَاتِ
فَإِنَّهُمْ دَلَائِلُ الْبَيَانِ . وَذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ الْخَطِيبُ فَاتِحَةً كَلَامِهِ وَأَوَّلَهُ
دَلِيلًا عَلَى الْمَقْصُودِ الَّذِي دَعَاهُ لِلِقَائِهِ فَيَنْظُرُ إِلَى الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ
فَيَجْعَلُ التَّحْمِيدَ أَوْ الدُّعَاءَ أَوْ التَّضْمِينَ مُشْعِرًا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْلَى
مَرَاتِبِ الْبَلَاغَةِ وَإِنَّمَا خُصَّتِ الْإِبْتِدَاءَاتُ بِالِاخْتِيَارِ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا
يَطْرُقُ السَّمْعُ مِنَ الْكَلَامِ فَإِذَا كَانَ الْإِبْتِدَاءُ مُوْتَقًا بِدِيْعًا رَشِيْقًا
لَانْقَاءَ بِالْمَعْنَى الْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَقَّرَتِ الدَّوَاعِي لِاسْتِمَاعِ مَا يَحْيِي بَعْدَهُ
فَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ شَيْءٌ بِدِيْعٍ لَيْسَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ فَيَرْغَبُونَ أَنْ
يَسْتَمِعُوا مَا بَعْدَهُ لِفَهْمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ الْكُتَّابُ وَالْوَاعِظُونَ أَكْثَرَ
الْإِبْتِدَاءَاتِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَشَوَّقُ لِلشَّيْءِ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

لِسَائِرِ مَعَايِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ
 مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ الْعَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ الْكَمَالِ مُسْتَلِذًا بِمُجَاسِنِ
 الْأَخْلَاقِ مُتَقَيِّظًا لِذُمُومِ الْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ
 مُسْتَكْبِرٍ لَمَّا يَفْتَنِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ الرِّذَائِلِ
 مُسْتَضْعَفًا لِلرُّتْبَةِ الْعُلْيَا مُسْتَحْفِرًا لِلْعَايَةِ الْقُصْوَى يَرَى التَّامَّ دُونَ مَحَلِّهِ
 وَالْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا
 وَتَدَبَّرَهَا وَآخَذَ نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ مَا بَيَّنَّ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ
 عَلَى التَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُتِنَ فِي أَبْوَابِهِ وَاجْتَهَدَ كُلَّ الْجَهْدِ فِي تَكْمِيلِ
 نَفْسِهِ وَأَسْتَفْرَغَ غَايَةَ الْوُسْعِ فِي طَلَبِ التَّامِّ . وَمَا أَقْبَحَ النِّقْصَ
 بِالْقَدْرِ عَلَى التَّامِّ وَالْعُجْزَ عَنِ الْمُقْتَدِرِ



بِأَعْلَى دَرَجَةٍ فَإِنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ غَرَضَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَتَوَسَّطَ فِي
الْفَضَائِلِ وَيَبْلُغَ فِيهَا رُبَّةً مُرْضِيَةً إِنْ قَاتَمَتْهُ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا وَأَمَّا إِنْ
قَنِعَ بِالتَّوَسُّطِ يَا مَنْ أَنْ يُقْصَرَ عَنْ بُلُوغِهِ فَيَبْقَى فِي أَدْنَى الْمَرَاتِبِ
وَيَقْوَةُ الْمَطْلُوبُ وَلَا يَطْمَعُ أَبَدًا فِي التَّكَامُلِ.

فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ طَرِيقُ الْإِزْتِيَاذِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَنْعِهِ
التَّلَدُّجِ فِي مَحْمُودِهَا وَكَيْفِيَّةَ تَهْذِيبِهَا فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ بِتَدْرِيبِ
نَفْسِهِ بِهِ وَكَثُرَ مِنْ مُرَاعَاتِهِ وَتَعَهُدِهِ صَارَتْ لَهُ الْفَضَائِلُ دِينًا
وَالْحَاسِنُ خُلُقًا وَطَبْعًا

هَذَا وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ أَوْصَافَ الْإِنْسَانِ التَّامِّ
الْجَامِعِ لِلْحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ... فَقُولُ إِنْ الْإِنْسَانُ التَّامُّ هُوَ الَّذِي
لَمْ تَفْتَهُ فُضِيلَةٌ مِنْ الْفَضَائِلِ وَلَمْ تَشْهُ رَذِيلَةٌ مِنَ الرَّذَائِلِ وَهَذَا
أَحَدُ قَلَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ وَإِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ اقْتِرَاضًا كَانَ
أَشْبَهَ مِنْهُ بِالنَّاسِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَضْرُوبٌ بِأَنْوَاعِ النَّقْصِ
مُسْتَوِلٍ عَلَى طَبْعِهِ ضَرْبُ الشَّرِّ وَبِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ فَقَلَمًا يَخْلُصُ مِنْ
جَمِيعِهَا حَتَّى تَسْلَمَ نَفْسُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَمَنْقَصَةٍ وَتُحِيطَ بِهِ كُلُّ
فُضِيلَةٍ وَمَنْقَبَةٍ حَسَنَةٍ فَالتَّكَامُلُ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا بَعِيدَ التَّسَاوُلِ إِلَّا أَنَّهُ
مُمْكِنٌ وَهُوَ غَايَةٌ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَإِذَا صَدَقَتْ عَزِيمَتُهُ
وَأَعْطِيَ الْأَجْتِهَادَ حَقَّهُ كَانَ مُمَكِّنًا لَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعَالِيَةِ
الْمَقْصُودَةِ الَّتِي هِيَ هِيَ هَا بَلَكَ الَّتِي تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَيْهَا

أَمَّا تَفْصِيلُ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَّفِقًا لِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ مُتَّقِظًا

وَقَدْ اسْتَعْمَلَهَا فَقَطُّ أَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٌ
لَهُ وَيُحْدِثُ عَادَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا إِلَى الدَّهْرِ مُتَدَاوِلًا فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ يُعَابُ
بِهِ وَيُزَرَّى عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ فِي شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَى الْإِتْقَامِ
وَالسَّبِّ وَالْفُحْشِ فَتَى انْخَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلْ أَمْرَهُ
فَرَأَى أَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَحْدِثْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ
مَا فَعَلَهُ وَقْتُ الْغَضَبِ نَقِصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعِيرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرَبَّمَا
ارْتَكَبَ حَالَ الْغَضَبِ جَنَايَاتٍ كَثِيرَةً يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ
أَجْلِهَا. كَذَلِكَ الْعَادَاتُ الْمَكْرُوهَةُ فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ هِيَ أَيْضًا غَيْرُ
نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْإِنْسَانِ نَفْعًا كَالْحَسَدِ مَثَلًا وَالْحَقْدِ وَالْخُبْثِ
وَأَمْثَالِ هَذِهِ إِذَا لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَإِنْ انْتَفَعَ كَانَ شَرًّا مُنْقَعَةً
وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِأَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصْدُهُ النَّاسُ بِالشَّرِّ
وَأَسْتَعْدُوا لِأَذْيَتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْإِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَأَخْتَرُوا مِنْهُ
وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وَجُوهَ الْخَيْرِ.. فَإِذَا حَاسَبَ الْإِنْسَانُ
نَفْسَهُ وَاجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمَيَّزَهُ عِلْمٌ أَنَّ الضَّرَرَ فِي مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ
أَكْثَرُ مِنَ النِّفْعِ بِهَا وَأَنَّ الَّذِي يُعْدُّ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى
الْحَقِيقَةِ وَإِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جَدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٌّ وَإِنَّ
هَذَا الْيَسِيرَ الَّذِي يُعْدُّ نَفْعًا لَا يَفِي بِالضَّرَرِ الْكَثِيرِ وَالْعَارِ الدَّائِمِ
الْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ أَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ
فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنَهْيَاتَهَا وَلَا يَقْتَعِ مِنْهَا يَمَادُونَ الْغَايَةَ وَلَا يُرْضَى إِلَّا

وَيَمَّا يُضْلِحُ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ وَيُقَوِّمُهَا أَيْضًا مُجَالَسَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ
وَمُحَاطَتَهُمْ وَالْإِقْتِدَاءَ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابَ عُلُومِ
الْحَقَائِقِ وَالْمُسْتَظْطُونَ مِنْهُمْ الْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ
عُلُومُهُمْ وَتَوْجِيهَ عُقُولِهِمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَاسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَإِطْرَاحُ
مَا قَبِجٌ فَإِنَّمَا يُمَكِّنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ النَّاطِقَةَ فَإِنَّهَا
إِذَا ارْتَأَتْ بِالْعُلُومِ الْحَقِيقَةِ وَتَيَقَّنَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَرْنَفَتْ مِنْ
الْعَادَاتِ الْمُسْتَقْبِجَةِ وَتَذَهَبَتْ عَنِ التَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهْوَنُ حَيْثُذِي عَلَى
الْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ الْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ اسْتِحْسَانُ
الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ الْجَمِيلَةِ وَالْخَلْقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ الْإِرْتِيَاضِ بِالْأَخْلَاقِ
الْحَمُودَةِ وَالْتَّصُّعِ لِاعْتِيَادِهَا وَاتِّبَاعِ الْحَمُودِ الرُّضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكِ
الْمَذْمُومِ الْمُسْتَقْبِجِ وَتَذَلِيلِ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ الْفُضِيَّةِ وَضَبْطِهَا وَقَهْرُهَا هُوَ
إِصْلَاحُ الْقُوَّةِ النَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيلُهَا بِالْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ
وَالْحَاسِنِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ آلَةُ السِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ الرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتِمَكَّنُ مِنْ اكْتِسَابِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْإِمْعَانِ فِيهَا
وَتَعَدَّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهِدَهُ فِي تَذْقِيقِ الْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ
النَّفْسِ وَيُصَوِّرِ الْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ الْقَبِيحَةِ وَالْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ إِلَيْهِمَا
أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَإِلَيْهِمَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ فَإِنَّهُ
إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهْوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ

يُسَوِّسَ بِهَا قُوَّتِهِ الْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكْفِ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ الْقَبَاحِ وَيَتَّبِعَ
أَبْدًا مُحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قُوَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ
مَغْمُورَةً خَافِيَةً

قَاوِلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هَذِهِ
الْقُوَّةَ. وَتُرَوِّضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هَذِهِ
الْعُلُومِ وَدَقَّقَ النَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا
تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَذَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَانْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَاحْتَسَتْ
بِفَضَائِلِهَا وَانْفَتَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضَعُفُ وَتَتَخَفُ
إِذَا عَدِمَتْ الْفَضَائِلَ وَالْمُنَاقِبَ وَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهَا الرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا
اِقْتَنَتِ الْفَضَائِلَ وَاسْتَسَبَّتِ الْأَدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشِيَتِهَا وَثَارَتْ
مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هَذِهِ الْقُوَّةِ هِيَ الْعُلُومُ
الْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ارْتَاضَ الْإِنْسَانُ بِهَا شَرَفَتْ نَفْسُهُ
وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ
وَقَدَّرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَأَنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهَلَ عَلَيْهِ تَهْدِيئُهُ وَأَذْنَعَتْ لَهُ
الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ وَالشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَعْمُهَا وَتَهْدِيئُهَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَّبِعَهُ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ النَّظَرُ
فِي كُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَاتِ ثُمَّ الْإِرْتِيَاضُ بِالْعُلُومِ الْحَقَائِقِ فَإِنَّ
أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِذَا رَاكُهَا حَقَائِقُ الْأُمُورِ وَأَطْلَاعُهَا عَلَى
هَيْئَاتِ الْمَوْجُودَاتِ فَتَشْرَفُ نَفْسُ الْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى
مَرَاتِبِ الْفُضْلِ

الْعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلُقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ الْغَضَبِيَّةِ أَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ السِّلَاحِ
فِي مَجَالِسِ الشَّرَابِ وَحُضُورَ مَوَاضِعِ الْفِتَنِ وَمَقَامَاتِ الْحُرُوبِ وَفِي
مُجَاسَاةِ الْأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ الشَّرْطِ فَإِنَّ هَذِهِ
الْمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ وَتُعْظِضُهُ وَتُعْدِمُهُ الرَّاقَةَ فَتَشْتَدُّ
إِذَلِكَ الْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ
مُجَاسَاةَ لِأَهْلِ الْوَقَارِ وَالشُّيُوخِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ
وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ الْمُسْكِرَ مِنَ الشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ الْقُوَّةَ
الْغَضَبِيَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ الْقُوَّةَ الشَّهْوَانِيَّةَ . . .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتِهِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا أَنْ
يَسْتَعْمَلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْفِكْرَ وَلَا يُقَدِّمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
يُرَوِّي فِيهِ ^{reflect upon} وَيَجْعَلَ الْفِكْرَةَ وَاتِّبَاعَ الرَّأْيِ دِينَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ الرَّأْيَ
وَجُودَةَ الْفِكْرِ يُقْتَبَحَانِ لَهُ السَّكَنَةُ وَسُرْعَةُ الْغَضَبِ وَالْإِنْهَمَاكَ فِي
الشَّهَوَاتِ وَاتِّبَاعِ اللَّذَاتِ . فَإِذَا اسْتَقْبَحَ ذَلِكَ أَجْمَعَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى
مَا يَقْتَضِيهِ الرَّأْيُ وَالْفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَزِدْغِ بِالْكَلِمَةِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثَّرَ
فِيهِ ذَلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ التَّسْرُعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ الْأَنْسِ فِي تَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ الْقُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ
وَالْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ هِيَ الْقُوَّةُ النَّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهِدِ الْقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ
السِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قُوَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمَكَّهُ أَنْ

إِلَى قَهْرِ الْقُوَّةِ الشَّهَوَانِيَّةِ وَتَذْلِيلِهَا وَقَعِهَا آغِي طَرِيقَ الْإِرْتِيَاضِ
بِالْعَادَاتِ الْخَمُودَةِ الْمَرْضِيَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ الدَّيْنِيَّةِ
فَأَمَّا النَّفْسُ الْغَضَبِيَّةُ فَإِنَّ طَرِيقَ قَعِهَا وَتَذْلِيلِهَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ
الْإِنْسَانَ هِمَّتَهُ إِلَى تَفْقُيدِ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ يُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْغَضَبُ فِي
أَوْقَاتِ طَلَبِهِمْ وَجِدَّتِهِمْ وَيُلَاحِظُ تَسْفُهُمْ عَلَى أَخْصَامِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ
لِحَدَمِهِمْ وَعَيْبِهِمْ فَلَنَّهُ يُشَاهِدُ إِذْ ذَاكَ مَنَظَرًا شَنِيعًا يَأْتِي مِنْهُ
الْخَاصُّ وَالْعَامُّ وَأَنْ يَتَذَكَّرَ فِي أَوْقَاتِ غَضَبِهِ وَعِنْدَ جَنَائَاتِ حَدَمِهِ
وَعَيْبِهِ وَوُثُوبِ إِخْوَانِهِ وَأَوْدَانِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا
شَاهَدَهُ مِنْ أَوْلَائِكَ. فَإِنَّهُ إِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ اسْتَحَقَّهُ مِنْهُمْ
فَتَنَكَّسَ بِذَلِكَ سَوْرَةَ غَضَبِهِ وَيُنْجِمُ عَمَّا هُمْ بِالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ مِنْ
السَّبِّ وَالْوُثُوبِ فَإِنْ لَمْ يَكْفِ بِالْكُلِّيَّةِ قَصْرَ وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى غَايَةِ
الْفَحْشِ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْهَرَ نَفْسَهُ الْغَضَبِيَّةَ أَنْ يَتَذَكَّرَ فِي
أَوْقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَنْجَنِي عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْجَانِي
مَا الَّذِي كَانَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جَنَائِيهِ فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ يَعْقِدُ
أَنْ دَرَكَ تِلْكَ الْحِجَايَةَ وَذَلِكَ الْأَذَى يَسِيرٌ جِدًّا فَإِذَا اعْتَقَدَ ذَلِكَ
كَانَتْ مُقَابَلَتُهُ لِلْجَانِي الْمُوْذِي بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَجِنْدًا لَا
يُسْرِفُ فِي الْإِتِّقَامِ وَلَا يُفْحَشُ فِي الْغَضَبِ فَتَى فَعَلَ ذَلِكَ دَائِمًا
وَجَعَلَهُ دِينًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ السُّفَهَاءِ وَمَنْ يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْغَضَبُ لَمْ
يَعُدْ أَنْ تَنكسرَ نَفْسُهُ الْغَضَبِيَّةُ وَتَتَقَادَ إِلَيْهِ وَإِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا

يَجِبُ لَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ السُّكْرَ فَلأنَّهُ مِمَّا يُثِيرُ نَفْسَهُ الشَّهْوَانِيَّةَ وَيَقْوِيهَا
وَيُخَيِّلُهَا عَلَى التَّهْتِكِ وَارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَأَنْجَاهَرَةِ بِهَا... وَيَبْغِي لِمَنْ
أَرَادَ قَمَعَ نَفْسِهِ الشَّهْوَانِيَّةَ أَنْ يُقِلَّ مِنَ اسْتِمَاعِ الْغِنَاءِ وَخَاصَّةً مِنَ
النِّسَاءِ الْمُتَصَنِّعَاتِ وَالشَّبَّانِ الظُّرَفَاءِ فَإِنَّ السَّمْعَ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي إِثَارَةِ
الشَّهْوَةِ... أَمَّا الطَّعَامُ فَيَبْغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ غَايَتَهُ هُوَ الشَّبَعُ لِدَفْعِ أَلَمِ
الْجُوعِ. وَفَاحِرُ الطَّعَامِ وَدَيْنُهُ جَمِيعُهُمَا مُشْعَانِ فَلَيْسَ لِلْمُبَالِغَةِ فِي
تَجْوِيدِ الطَّعَامِ الْكَثِيرِ حَظٌّ وَلَا فَايِدَةٌ. وَالْأَوَّلَى هُوَ التَّوَسُّطُ فِي
أَنْوَاعِ الْمَأْكَلِ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الْخُلُصِ الَّذِي نَشَأَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ
وَأَعْتَادَهُ وَالْفَقَّةُ... وَطَرِيقُ التَّدَرُّجِ إِلَى الْإِقْتِصَارِ فِي الطَّعَامِ هُوَ أَنْ
يُبَادِرَ ذُو الشَّهْوَةِ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ وَجَدَهُ مِنَ الْمَأْكَلِ فَإِنْ كَانَ
الْمُسْتَهْيِ الَّذِي تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ حُلُومًا فَلَا أَيْ حَلَاوَةٍ وَجَدَهَا
وَأِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا مَا يَشْتَهُ مِنْ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ إِذَا تَنَاوَلَ
الْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ تَكَرَّارًا وَشَبَعَ مِنْهُ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ وَكَفَّتْ
نَفْسُهُ بَعْدَ ذَلِكَ

وَيَبْغِي لِمَنْ أَحَبَّ الْفَقَّةَ أَنْ يَكُونَ أَبَدًا مُتَقِظًا ذَاكِرًا لِمَا يَلْحَقُ
الْفَاجِرَ وَالنَّهْمَ وَالشَّرَّهَ وَالْمُتَهْتِكَ مِنَ الْقَبَاحَةِ وَالْعَارِ فِي الدُّنْيَا جَاعِلًا
ذَلِكَ دَيْنَهُ وَشَعَارَهُ وَمُدَاوِمًا عَلَى ذِكْرِهِ. فَإِنَّ نَفْسَهُ حِينَئِذٍ تُبْغِضُ
الشَّهَوَاتِ الرَّدِيئَةَ وَتَشْتَقُ إِلَى التَّعَقُّفِ وَالْقَنَاعَةِ وَتَطْرَبُ عِنْدَ الْعُدُولِ
عَنِ الْفَوَاحِشِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَتَرْتَاحُ لِمَا يُنْشَرُ عَنْهَا وَمَا يَبْلُغُهَا عَنْ
النَّاسِ مِنَ الشَّاءِ الْجَمِيلِ عَلَى صَاحِبِهَا. فَهَذَا هُوَ طَرِيقُ رِيَاضَةِ النَّفْسِ

عَادَاتِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَأَسْتِعْمَالِ الْحَمْدِ مِنْ أَعْمَالِهَا. فَطَرِيقُ التَّدْرُجِ
لَا سَتِعْمَالِ الْعَادَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْعُدُولُ عَنِ الْعَادَاتِ الْقَبِيحَةِ هُوَ التَّدْرُجُ
فِي تَذَلِيلِ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ

أَمَّا النَّفْسُ الشَّهَوَانِيَّةُ فَالطَّرِيقُ إِلَى قَهْمِهَا أَنْ يَتَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي أَوْقَاتِ
شَهَوَاتِهِ وَعِنْدَ شِدَّةِ الْعِزْمِ إِلَى لَذَاتِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ تَذَلِيلَ نَفْسِهِ الشَّهَوَانِيَّةِ
فَيَعْدِلُ عَمَّا تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّهْوَةِ الرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ
مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الشَّهْوَةِ وَمُتَّفِقٌ عَلَى ارْتِضَائِهِ وَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ. فَإِنْ لَمْ
تَنْكَسِرْ شَهَوَاتُهُ يُعْلِمُهَا وَيَعِدُّهَا فَإِنْ سَكَنَتْ انْتَصَرَ وَالْأَعَادُ الْفِعْلُ
مِنْ أَلْوَجِهِ الْمُسْتَحْسَنِ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ النَّفْسُ وَإِذَا
اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا الْحَالِ أَلْقَتْ هَذِهِ الْعَادَةَ وَتَأَنَسَتْ بِهَا وَاسْتَوْحِشَتْ
بِمَا سِوَاهَا. وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ قَهْمَ نَفْسِهِ الشَّهَوَانِيَّةِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ
مُجَالَسَةِ الرُّهَادِ وَالرُّهْبَانِ وَالنُّسَاكِ وَأَهْلِ الْأُرْعِ وَالْوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ
مَجَالِسَ الرُّؤَسَاءِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ الدِّينِ
يُعْظِمُونَ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالْعِنَّةِ وَيَسْتَزِرُّونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مِنْهُمْ كَمَا
فَعَجَّلَتْهُ وَمُلَازِمَتُهُ لِهَذِهِ الْمَجَالِسِ تَضْطَرُّهُ إِلَى التَّصَوُّنِ وَالْتَعَفُّفِ
وَالْتَجَمُّلِ لِدَوَقِهِمْ لِئَلَّا يَسْتَزِرُّوهُ وَيَغْضَبُوا مِنْهُ وَيُلْحَقَ بِرُبْنِهِ مَنْ
يُعْظَمُ فِي الْحَافِلِ وَالْمَجَالِسِ. وَيَنْبَغِي لَهُ أَيْضًا أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِي
كُتُبِ الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَاسَةِ وَأَخْبَارِ الرُّهَادِ وَالرُّهْبَانِ وَالنُّسَاكِ وَأَهْلِ
الْأُرْعِ وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ الْخُلَعَاءِ وَالسُّفَهَاءِ وَالْمُنْهَكِينَ وَمَنْ يُكْثِرُ
الْهَزْلَ وَاللَّعِبَ وَجِنْدِ يُلْحَقُ بِتَبَنِيهِ وَيُعْظَمُ فِي الْحَافِلِ. وَكَثُرَ مَا

البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لذكرى بن عدي) Book N1207

وَبِمَا أَنَّ الرَّائِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ أَلْوَثٌ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ إِذَا
 نُتِيَ عَلَى خُلُقٍ مَذْمُومٍ وَجِدَ فِيهِ وَاحِبٌ اجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعِبَ عَلَيْهِ
 الْأَثَقَالُ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَنْلِ التَّخْلُصَ مِنْهُ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ
 طَبْعُهُ أَوْ رُبَّمَا اسْتَحْسَنَ أَيْضًا خُلُقًا مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَآثَرَ التَّحَقُّقَ
 بِهِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مُرَادِهِ. لِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ تَرْسُمَ
 لِلرَّائِبِينَ فِي السِّيَاسَةِ النُّحُودَةَ طُرُقًا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا
 حَتَّى يَتَمَتَّعُوا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنْ اِعْتِيَادِ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ وَالْإِنْطِبَاعِ عَلَيْهَا
 وَتَجَنُّبِ الْأَخْلَاقِ الْقَبِيحَةِ وَالتَّفَرُّغِ مِنْهَا وَلِهَذَا نَذَكُرُ طَرِيقَ الْاِرْتِيَاضِ
 بِالْأَخْلَاقِ النُّحُودَةِ وَالتَّعَمُّلِ لِإِعْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمَكِّنَ لِلرَّائِبِ
 أَنْ يَحْتَلِقَ بِهَا فَنَقُولُ:

إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَنَّ سَبَبَ اخْتِلَافِ الْأَخْلَاقِ فِي النَّاسِ هُوَ
 اخْتِلَافُ قُوَى النَّفْسِ الثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ الشَّهَوَانِيَّةُ وَالنَّغْصِيَّةُ وَالنَّاطِقَةُ
 وَأَنَّ إِصْلَاحَ الْأَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ الشَّهَوَانِيَّةِ مِنْهَا وَالنَّغْصِيَّةِ وَتَمْيِيزُ

(*) اعلم ان ما يقوله هنا لذكرى بن عدي في سياسة الانسان نفسه يصلح
 للخطيب لسياسة غيره . لانه موكل بتحسين طابع الجمهور مفوض اليه حملهم
 على الخير وصرهم عن مضار الاهواء المخرفة

وَالْحَظُورَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الرَّدِيَّةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِالْأَمْوَالِ
فَالْفَقِيرُ الْمَغْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا
كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبِنَاءِ عَلَيْهِ
يَكُونُ الْغِنَى مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَالْفَقْرُ فَضَائِلَ
وَمَحَاسِنَ . فَيَنْتِجُ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَنَّ النَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةُ بِالْأَمْوَالِ
وَالذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْآدَابِ وَالْحَاسِنِ الذَّائِتَةِ . فَالْخَلِيقُ
بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِالْآدَابِ الْمُنْتَحَسَةِ وَيَسْأَلَ بِهَا
الطَّرِيقَ الْحَمْدُودَةَ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ النَّاسِ مَقْبُولًا
لَدَيْهِمْ مُعْظَمًا فِي نَفْسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوقَرًّا عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ
وَالْمُلُوكِ مَقْبُولَ الْقَوْلِ عَظِيمِ الْجَاهِ

فَهَذِهِ حَالَةُ الْعَظَمَةِ الْحَقِيقَةِ الْمَكْتَسَبَةِ بِالْأَمْوَالِ لِأَنَّ أَمَلًا
قَدْ تَلَحُّقَهُ الْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَرْئِيَّتُهُ مِنْ نَفْسِ النَّاسِ
وَسَاوَى الْعَامَّةِ وَالسُّوقَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَظِيمَ لَهُ كَانَ مَالُهُ لَا نَفْسَهُ
قَمَى . زَالَ ذَلِكَ أَمَلًا لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعْظَمُ مِنْ أَجْلِهِ . وَلَيْسَ
كَذَلِكَ الْعَالَمُ النَّفِيسُ الْفَاضِلُ الْمُهَذَّبُ الْإِخْلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ
بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعْظَمٌ مِنْ أَجْلِ
ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



لَا كَمَا يَتَّقِدُ الْجَاهِلُ وَالْعَامَّةُ أَنَّهُمْ يَتَفَاضِلُونَ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
وَكَثْرَةِ ذَخَائِرِهِمْ. وَاتَّقَارُ أَكْثَرُ النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ وَالذَّخَائِرِ وَالْآلَاتِ
وَتَعْظِيمُهُمُ الْآغْنِيَاءَ وَذَوِي آجَاهٍ لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ كَثْرَةَ
أَلْمَالِ إِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِهَا أَحْوَالُ النَّاسِ وَأَمَّا نُفُوسُهُمْ فَلَا تَكُونُ
أَفْضَلَ مِنْ نُفُوسٍ غَيْرِهِمْ بِكَثْرَةِ أَلْمَالِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَاجِرَ السَّفِيهَ
الْجَاهِلَ الشَّرِيرَ وَإِنْ حَوَى أَمْوَالًا عَظِيمَةً فَلَا تَكُونُ بِأَفْضَلَ مِنْ
الْعَفِيفِ الْحَكِيمِ الْخَيْرِ الْعَالِمِ وَلَوْ كَانَ فَقِيرًا بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ
بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ أَغْنَى مِنْهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ مُعْسِرًا فَقِيرًا وَأَمَّا التَّفْضِيلُ
فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَضَائِلِ فَقَطْ. وَلَكِنْ إِنْ اجْتَمَعَ بِالْإِنْسَانِ
مَعَ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ وَالْعَادَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ أَيْضًا
فَلَعَمْرِي إِنَّهُ يَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ الْفَاجِلِ الْفَعْسِرِ لِأَنَّ ذَلِكَ
مِنْ جُمْلَةِ سَعَادَاتِ الْإِنْسَانِ وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ فَاضِلًا عَادِلًا عَفِيفًا
يَصْرِفُ مَالَهُ فِي وَجْهِهِ وَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ وَيَتَّقَدُّ بِهِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ
وَلَا يَتَهَامَلُ فِي مَكْرَمَةٍ تَرِيدُ فِي مُحَاسِنِهِ

أَمَّا النَّاقِصُ الْجَاهِلُ السَّيِّءُ الْعَادَاتِ فَإِنَّ الْغِنَى رُبَّمَا زَادَهُ
نَقْصًا وَعُيُوبًا وَأَضَافَ إِلَى مَعَائِبِهِ عُيُوبًا أُخْرَى. وَلَا يُعَدُّ بُخِيلًا
مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَإِنْ كَانَ الْبُخْلُ مِنْ طَبْعِهِ لِأَنَّ فَقْرَهُ يُخَفِّي ذَلِكَ
مِنْهُ وَمَتَى لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ هَذَا الْأَمْرُ فَلَا يُعَابُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ
إِنَّمَا يُعَابُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُ وَأَمَّا مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَإِسَارٍ وَلَمْ يَجِدْ بِهِ
ظَهَرَ بُخْلِهِ فَيَصِيرُ أَلْمَالُ جَالِبًا عَلَيْهِ عَارًا. وَأَيْضًا فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّفُجُورِ

وَأَيْثَارُ الْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ الرِّمَقَ وَالْأَسْتِخْفَافُ بِالْعُدُنِيَا وَمَحَاسِنُهَا وَلَذَاتُهَا
 وَقِلَّةُ الْأَكْتِرَاتِ بِالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ وَاسْتِضْغَارُ الْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ
 وَارْبَابُ الْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ الْعُلَمَاءِ
 وَرُؤَسَاءِ الدِّينِ وَالْخُطَبَاءِ وَالْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ النَّاسَ فِي الْمَعَادِ
 وَالْبَقَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ. فَأَمَّا الْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ
 مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ الزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذَا إِنَّ
 مُلْكُهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِاخْتِسَادِ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَإِذْخَارِهَا لِيُدَبَّرَ
 بِهَا مُلْكُهُ وَيُضَوَّنَ بِوَاسِطَتِهَا حَوَازَتُهُ وَيَتَقَدَّرَ بِهَا رَعِيَّتُهُ وَهَذَا مُضَادٌّ
 لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ الْإِذْخَارَ أَبْطَلَ مُلْكُهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي
 نَجْمَةِ الْمُلُوكِ الْحَائِذِينَ عَنْ طَرِيقِ السِّيَاسَةِ

فَهَذِهِ الْأَقْسَامُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ النَّاسِ .
 أَمَّا الْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا الْمَعْدُودَةُ فَضَائِلُ فَقَلَمًا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي
 إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا الْمَذْمُومَةُ مِنْهَا الْمَعْدُودَةُ فَنَقَائِصُ وَمَعَائِبُ
 فَقَلَمًا يُوْجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ
 وَخَاصَّةً مَنْ يَرُوضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِيَضْبِطَ نَفْسَهُ
 وَتَفْقِدَ عُيُوبَهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحْسَ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ
 إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوَّلَى الْأُمُورِ
 بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَتَقَدَّرَ أَخْلَاقُهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا
 وَتَنْفِيهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ الْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى
 اعْتِيَادِهَا وَالْتِمَاقِ بِهَا لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا تَفَاضَلُوا عَلَى الْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

وَالشُّيُخُ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْخُطَبَاءُ وَالْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ الدِّينِ
فَإِنَّ التَّصَنُّعَ بِالزِّيَّةِ مُسْتَشْجٌّ مِنْهُمْ وَالْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لِبَسُ
الْحُسْنِ وَكَرَاهِيَّةُ التَّنَمُّ وَارْزُومُ يُوتِ الصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا الْمَجَازَاةُ عَلَى الْمَدْحِ) وَهُوَ مَجَازَاةٌ مَنْ يَمْدَحُ الْإِنْسَانَ
وَيَشْكُرُهُ فِي الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ . وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ
وَالرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يَدْعُو الْمَادِحَ إِلَى الْإِزْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ
الْمَدْحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى إِلَى الدَّهْرِ . وَمِنْ فَضَائِلِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ
بَقَاءُ ذِكْرِهِمْ الْجَمِيلِ . وَأَمَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ الْمَدْحِ مِنَ الْمَادِحِ مُوَاجَهَةً
فَذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَقِ وَحُبُّ الْمَلَقِ مَكْرُوهٌ
لِكُونِهِ مِنْ قَبْلِ الْحَدِيثَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . فَأَمَّا إِثَارُهُمْ أَنْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ
وَمَدْحِهِمْ وَتَبَاوُلُ النَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ . وَمَجَازَاةُ الْمَادِحِ
مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَشْجٌّ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ يَدْعُو
إِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى أَيْضًا إِلَى الدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا
وَذَلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ . أَمَّا أَعَاغُرُ النَّاسِ فَحَبَّتُهُمْ جَزَاءُ
الْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِأَنَّ الْمَادِحَ إِذَا مَدَحَ الدَّيْنِيَّ مِنَ النَّاسِ
فَأَنَّمَا يَجِدُّهُ فَإِذَا أَجَاذَهُ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْهُ تِلْكَ الْجَائِزَةَ بِالْحِيلَةِ .
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا مَدَحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يَبَادِرُونَ إِلَى مَجَازَاةِ
الْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذَلِكَ
الشَّيْءَ إِلَى الصُّعْفَاءِ وَأَهْلِ الْمَسْكِنَةِ كَانَ ذَلِكَ أَجْمَلَ بِهِمْ وَأَلْيَقَ
(وَمِنْهَا الزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ الرِّغْبَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْإِذْخَارِ وَغَيْرِهَا

الَّذِي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قِيلَ ذَلِكَ
السَّرَفُ وَالتَّبَذِيرُ أَيْضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس
فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لذكرى بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ الْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَرَّ الْإِنْسَانُ بِالْتَّعْظِيمِ
وَالْتَّجَنُّيلِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْمَدْحِ وَاتِّشَاءِ الْجَمِيلِ . وَهَذَا اخْلُقُ مُحَمَّدٌ فِي
الْأَحْدَاثِ وَالصِّبْيَانِ لِأَنَّ حُبَّه أَنْ كَرَامَةً تَحْتُمُّهُمْ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي اكْتِسَابِ
الْفَضَائِلِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْاِحْدَثَ وَالصَّبِيَّ إِذَا مَدَحًا عَلَى فَضِيلَةٍ وَجَدَتْ
فِيهَا كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى الْإِزْدِيَادِ فِي الْفَضَائِلِ . وَأَمَّا الْفَاضِلُ
مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِصَةً . لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَدَحَ
عَلَى الْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَعْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ
فَلَا يَبْغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَعْرَبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ الْفَضَائِلِ . وَكَذَلِكَ
الْإِكْرَامُ وَالتَّجَنُّيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى
الْمَلَقِ وَالسُّرُورِ بِالْمَلَقِ غَيْرُ مُحَمَّدٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْحَدِيقَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ الرِّينَةِ) وَهُوَ التَّصَنُّعُ بِلُبْسِ أَلْيَابِ الْفَاخِرَةِ
وَرُكُوبِ الْخَيْلِ وَكَثْرَةِ الْخَدَمِ وَالْحَشَمِ . وَهَذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ
وَالْعُظَمَاءِ وَالْأَحْدَاثِ وَالظُّرَفَاءِ وَالنِّسَاءِ . فَأَمَّا الرُّهْبَانُ وَالزُّهَادُ

فِي حُكْمِهِمْ وَيَعْضُهُمْ إِلَى رَعِيَّتِهِمْ
(وَمِنْهَا الْجِنُّ) وَهُوَ تَوْهُمُ الْحَاوِي وَتَمَكُّنُهَا فِي الْعَقْلِ بِدُونِ
طَائِلٍ وَعَدَمُ الْإِقْدَامِ عَلَى الْأُمُورِ عِنْدَ الْزُّومِ وَالرَّغْبُ مِنْ مُوَاجَهَةِ
ذَوِي الْأَمْرِ عِنْدَ الِاقْتِضَاءِ . وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ إِلَّا أَنَّهُ بِالْجُنُودِ
وَأَصْحَابِ الْحُرُوبِ مُضَرٌّ جَدًّا

(وَمِنْهَا الْحَسَدُ) وَهُوَ التَّالُمُ مِمَّا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ لِعَیْرِهِ مِنْ الْخَيْرِ
وَيَجِدُهُ فِيهِ مِنْ الْفَضَائِلِ وَالْإِجْتِهَادُ فِي إِعْدَامِ الْعَیْرِ مَا هُوَ لَهُ . وَهَذَا
الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ

(وَمِنْهَا الْجَرَعُ عِنْدَ الشِّدَّةِ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْخُرْقِ
وَالْجِنِّ . وَهُوَ مُسْتَفْهِجٌ جَدًّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُجَدِّيًا تَفْعًا وَأَمَّا إِظْهَارُهُ
لِلْحِيلَةِ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الشِّدَّةِ أَوْ لِمُسْتَعَاثَةِ مُعِيْثٍ أَوْ اجْتِلَابِ مُعِينٍ
لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِیْصَةً

(وَمِنْهَا بَغْرُ الْهَمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَرَاتِبِ
الْعَالِيَةِ وَقُصُورُ الْأَمَلِ عَنْ بُلُوغِ الْغَايَاتِ وَاسْتِكْثَارُ الْيَسِيرِ مِنْ
الْفَضَائِلِ وَاسْتِعْظَامُ الْقَلِيلِ مِنْ الْعَطَايَا وَالْإِعْتِدَادُ بِذَلِكَ وَالرِّضَى
بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَأَصَاغِرِهَا . وَهَذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ
بِالْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ أَقْبَحُ بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحَقٍّ لِلْإِعْتِبَارِ مِنْ صَغُرَتْ هِمَّتُهُ
(وَمِنْهَا الْجَوْرُ) وَهُوَ الخُرُوجُ عَنِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ
كَاتِّخَاذِ الْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا الْحَلَالِ وَالْمُطَاوَبَةِ بِمَا لَا يَجِبُ مِنْ
الْحَقُوقِ وَفَعْلِ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى الْقَدَرِ

مَنْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَرِدْ مِنْ أَكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَرِدْ
بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ إِذْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي
إِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ يُعْضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ
تَبْعُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ أحوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَقَلَّةُ التَّبَسُّمِ وَإِظْهَارُ
الْكِرَاهِيَةِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبَرِ وَغِلَظِ الطَّبَعِ فَإِنَّ قَلَّةَ
النَّشَاطَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْإِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْإِعْجَابِ
وَالْكِبَرِ وَقَلَّةُ التَّبَسُّمِ أَيْضًا خَاصَّةٌ عِنْدَ لِقَاءِ الْإِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ
غِلَظِ الطَّبَعِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَقْبِحٌ وَخَاصَّةٌ بِالرُّؤْسَاءِ وَالْأَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ
عَلَيْهِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤْسَاءِ أَكْثَرُ قُبْحًا
لِأَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ إِضْطِرُّ الشَّرِّ لِلغَيْرِ وَإِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً
وَأَسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْكَرِّ وَالْحَدِيدَةِ فِي الْمَعَامَلَاتِ وَهَذَا الْخَلْقُ
مَكْرُوهٌ جَدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحَقْدُ) وَهُوَ إِضْطِرُّ الشَّرِّ لِلجَائِي إِذَا لَمْ
يَتِمَكَّنْ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُتَخَفَّى إِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهَذَا الْخَلْقُ
مِنْ أَخْلَاقِ الْأَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جَدًّا

(وَمِنْهَا الْجُبُلُ) وَهُوَ مَنَعُ الْمُسْتَطْعِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِعْطَائِهِ.
وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجُبُلَ يُبْغِضُ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُبْغِضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَفْخَحُ

وَمَنْفَعَةٌ. وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ أَقْبَحُ وَأَضْرُفَانٍ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ
بِالْقَدْرِ لَمْ يَزُكَّنْ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ إِنْسَانٌ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ
قَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا الْحَيَانَةُ) وَهِيَ الْإِسْتِدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْحَرَمِ وَتَمَلُّكَ مَا يُسْتَوْدَعُ وَمَجِبُ أَحَدُهُ مُودِعِهِ .
وَمِنْ الْحَيَانَةِ أَيْضًا طَيُّ الْأَخْبَارِ إِذَا نُدِبَ الْإِنْسَانُ لِتَأْدِيتِهَا وَتَحْرِيفِ
الرِّسَالِ إِذَا حَمَلَهَا وَصَرَفَهَا عَنْ وَجْهَهَا. وَهَذَا الْخُلُقُ أَغْنَى الْحَيَانَةَ
مَكْرُوهٍ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَيَثْلُمُ آجَاهُ وَيَقْطَعُ وَجْهَهُ الْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا إِفْشَاءُ السِّرِّ) وَهَذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْخُرْقِ وَالْحَيَانَةِ
فَإِنَّهُ لَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَسَّعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا
يُسْتَسَرُّ بِهِ وَالسِّرُّ أَحَدُ الْوَدَائِعِ وَإِفْشَاؤُهُ نَقِصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ
فَالْمُفْشِي بِالسِّرِّ خَائِنٌ وَهَذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بَيْنَ يَضْحَبِ
الْمُلُوكِ وَأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ . وَمِنْ قَبِيلِ إِفْشَاءِ السِّرِّ
أَيْضًا الْغِيبةُ وَالنَّمِيمةُ وَهِيَ أَنْ يُبْلَغَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا عَنْ آخَرِ قَوْلًا
مَكْرُوهًا وَهَذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ أَيْضًا بِمَا يَسْمَعُهُ أَوْ
يَبْلُغُهُ فَتَقْلَهُ إِلَى مَنْ يَكْرَهُ قَبِيحٌ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِيقَاعَ وَخْشَةٍ بَيْنَ
الْمُبْلَغِ وَالْمُبْلَغِ عَنْهُ وَذَلِكَ غَايَةُ الشَّرِّ

(وَمِنْهَا الْكِبَرُ) وَهُوَ اسْتِعْظَامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَاسْتِحْسَانُ مَا
فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْإِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ وَاسْتِصْفَادُهُمْ وَالتَّرْفَعُ عَلَى مَا
يَجِبُ التَّوَاضَعُ لَهُ. وَهَذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِأَنَّ

لِلسُّفَلَاءِ وَهَذَا الْخَلْقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ النَّاسِ
 (وَمِنْهَا السَّفَهَ) وَهُوَ ضِدُّ الْجَلَمِ وَهُوَ سِرْعَةُ الْغَضَبِ وَالطَّنِشِ
 مِنْ يَسِيرِ الْأُمُورِ وَالْمُبَادَرَةُ فِي الْبَطْشِ وَالْإِيْقَاعُ بِالْمَوْذِي وَالسَّرَفُ
 فِي الْعُقُوبَةِ وَإِنْفَارُ الْجُرْعِ مِنْ آدَنِي ضَرَرٍ وَالسَّبُّ الْقَاحِشُ. وَهَذَا الْخَلْقُ
 مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ
 (وَمِنْهَا الْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ الْكَلَامِ وَالْخُرْكَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ
 وَشِدَّةُ الصَّحِكِ وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةٍ
 الْجَوَابِ وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ
 وَذَوِي النَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ الْإِحْتِسَامِ لِمَنْ يَجِبُ اخْتِسَامُهُ
 وَالْجَاهِرَةُ بِالْأَجُوبَةِ الْغَلِيظَةِ الْفُظَّةِ الْمُسْتَشْنَعَةِ وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ
 وَخَاصَّةً بِذَوِي الْوَقَارِ

(وَمِنْهَا الْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ الْحُبِّ وَالسَّرَفُ فِيهِ. وَهَذَا الْخَلْقُ
 مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبُهُ عَلَى الْفُجُورِ وَارْتِكَابِ
 الْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ التَّبَدُّلِ وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا
 (وَمِنْهَا الْقَسَاوَةُ) وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْبَغْضِ وَالسَّجَاعَةِ
 وَهُوَ التَّهَاؤُنُ بِمَا يَلْحَقُ الْغَيْرَ مِنَ الْأَلَمِ وَالْأَذَى. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ
 مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ الْجُنْدِ وَأَصْحَابِ السِّلَاحِ وَالْمُتَوَلِّينَ
 الْحُرُوبَ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ
 (وَمِنْهَا الْقَدَرُ) وَهُوَ الرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ
 وَيَضْمَنُ الْوَفَاءَ بِهِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تذيب الاخلاق لركريابن عدي)

فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الرَّدِيَّةُ الَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَإِنَّ مِنْهَا
 الْفُجُورَ وَهُوَ الْإِنْهَاكُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالِاسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِثَارُ اللَّذَاتِ
 وَالْإِدْمَانُ عَلَيْهَا وَارْتِكَابُ الْفَوَاحِشِ وَالْمُجَاهَرَةُ بِهَا بِالْجُلْمَةِ السَّرْفُ
 فِي جَمِيعِ الشَّهَوَاتِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ أَحْيَاءَ وَيَذْهَبُ
 بِمَاءِ الْوَجْهِ وَيَحْرِقُ حِجَابَ الْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا الشَّرُّ) وَهُوَ الْخِرَاصُ عَلَى اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا
 وَطَلِبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَلَوْ قُبْحَ طَرِيقِ اكْتِسَابِهَا وَالْمُتَاوَسُّةُ عَلَيْهَا
 وَالِاسْتِكْثَارُ مِنَ الْفَنِيَّةِ وَالْإِخَارُ الْأَعْرَاضِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مَكْرُوهٌ مِنْ
 جَمِيعِ النَّاسِ إِلَّا مِنَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَهْوَالِ
 وَالْذَّخَائِرِ وَالْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتُرِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نَفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ
 وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا التَّبَذُّلُ) وَهُوَ أَطْرَاحُ الْحِشْمَةِ وَتَرْكُ الْحَقِّظِ وَالِاسْتِثَارُ
 مِنَ الْهَزْلِ وَاللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ السُّقْمَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ السَّخْفِ وَالْهَزْلِ
 وَالْفُحْشِ وَالْفُتُورِ بِالْحَنَّا وَذِكْرُ الْأَعْرَاضِ وَالزَّحِ وَالْجُلُوسُ فِي
 الْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ الطَّرِيقِ وَالتَّكْسِبُ بِالْمَعَايِشِ الزَّرِّيَّةِ وَالتَّوَاضُّعُ

مُجْدِيًّا وَالْإِجْتِهَادُ دَافِعَةٌ ضَرَرِ تِلْكَ الشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ إِذَا
عَدِمْتَ الْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ الْجَزَعَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ الْهِمَّةِ) وَهُوَ اسْتِصْفَاءُ مَا دُونَ الْتَهَائِيَةِ مِنْ مَعَالِي
الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْمَرَاتِبِ السَّامِيَةِ وَاسْتِحْقَاقُ مَا يَجُودُ بِهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَ
الْعَطِيَّةِ وَالْإِسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْغَايَاتِ وَالتَّهَاقُوتُ بِمَا
يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ أَمْتِنَانٍ وَلَا اِعْتِدَادٍ بِهِ. وَهَذَا الْخُلُقُ
مِنْ خُصُوصِيَّاتِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِالرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ
وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ. وَمَنْ عِظَمَ الْهِمَّةُ الْآنَفَةُ وَالْحِمِيَّةُ
وَالْفَيْرَةُ. فَالْآنَفَةُ هِيَ بُعْدُ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَا وَالْحِمِيَّةُ وَالْفَيْرَةُ
مَعًا وَالْعُزْبُ عِنْدَ الْإِحْسَاسِ بِالنَّقْصِ. وَتَلْحُقُ الْإِنْسَانُ الْفَيْرَةُ عَلَى
الْحَرَمِ لِأَنَّ فِي التَّعَرُّضِ لَهَا عَارًا وَمَنْقُصَةً فَإِنَّ التَّعَرُّضَ لِلْحَرَمِ
مُهْتَضَمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقِّ لَهُ وَالْإِهْتِزَامُ نَقِصَةٌ
وَمَنْ عِظَمَ الْهِمَّةُ الْآنَفَةُ مِنْهُ. وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ
النَّاسِ

(وَمِنْهَا الْعَدْلُ) وَهُوَ التَّقْسُطُ اللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَاسْتِعْمَالُ
الْأُمُورِ فِي مَوَاقِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ
وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



(وَمِنْهَا السَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ أَمْوَالٍ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ.
 وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهَ إِلَى السَّرَفِ وَالتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ
 جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا
 وَمُضِيعًا. وَالسَّخَاءُ فِي سَائِرِ النَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَأَمَّا فِي الْمُلُوكِ
 وَالْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ التَّجَلُّلَ يُؤَدِّي إِلَى الضَّرَرِ الْعَظِيمِ فِي
 الْأَحْكَامِ. وَالسَّخَاءُ وَالْبَذْلُ تُرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ الرِّعْيَةِ وَالتَّجَلُّدِ
 وَالْأَغْوَانِ فَيَعْظُمُ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا الشُّجَاعَةُ) وَهِيَ الْأَقْدَامُ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْمَهَالِكِ عِنْدَ
 الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ وَثَبَاتُ الْجَاشِ أَيِ الْقَلْبِ عِنْدَ الْخَوَافِ وَالْإِسْتِهَانَةِ
 بِالْمَوْتِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ
 وَأَعْوَانِهِمُ الْيَقُوتُ وَأَحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يُسْتَحَقُّ لِلْمَلِكِ مِنْ عَدَمِ هَذِهِ
 الْجِلَّةِ. وَكَثُرَ النَّاسُ أَخْطَارًا وَأَخَوَجَهُمْ إِلَى أَقْتِحَامِ الْقِمَرَاتِ هُمُ
 الْمُلُوكُ وَالْأَحْكَامُ فَالشُّجَاعَةُ إِذَا مِنْ أَخْلَاقِهِمْ الْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا الْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ النَّفْسِ إِلَى التَّشَبُّهِ بِالْغَيْرِ فِيمَا
 يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَالْإِجْتِهَادُ فِي التَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةِ أَعْلَى مِنْ
 دَرَجَتِهِ. وَهَذَا الْخَلْقُ مُخْمُودٌ إِذَا كَانَتْ الْمُنَافَسَةُ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمَرَاتِبِ
 الْعَالِيَةِ أَوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُودَدًا فَأَمَّا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ اتِّبَاعِ
 الشَّهَوَاتِ وَالْمُبَاهَاةِ بِاللَّذَاتِ وَالزَّيْنَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَكَرُوهٌ جِدًّا
 (وَمِنْهَا الصَّبْرُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ) وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْوَقَارِ
 وَالشُّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنْ الْجَزْعُ نَافِعًا وَالْحُزْنُ وَالْقَلَقُ

(وَمِنْهَا الْبَشَرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ الشُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ الْإِنْسَانُ مِنْ
 إِخْوَانِهِ وَأَوْدَانِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَّائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَالتَّبَسُّمُ عِنْدَ الْلِقَاءِ. وَهَذَا
 الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ
 لِأَنَّ الْبَشَرَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ الرِّعِيَّةِ وَالْأَعْوَانِ
 وَالْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ الْوُلَاةِ
 مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرِعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ
 وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ اللَّهِجَةِ) وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ
 وَهَذَا الْخَلْقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ
 بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ الْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ أَرْتَكِبَهَا فَإِنَّهُ لَا
 يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يُلْقِيهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَارِ وَاللَّنْقَصَةِ الْبَاقِيَةِ
 اللَّازِمَةِ. وَكَذَلِكَ لَيْسَ يَحْسَنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَحْيِرٍ اسْتَجَارَهُ
 فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً
 مُؤَلِّمَةً. وَالصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَهُوَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ
 أَحْسَنُ فَلَا يَسْمَعُهُمُ الْكَذِبُ مَا لَمْ يُعِدِّ الصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ النَّيَّةِ) وَهُوَ اعْتِقَادُ الْخَيْرِ بِجَمِيعِ النَّاسِ وَتَتَكَبُّ
 الْخُبْنُ وَالْعِيلَةُ وَالْكَرُ وَالْحَدِيدَةُ وَهَذَا الْخَلْقُ مُحْدُوذٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ
 إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَضُرُّ لِلْمُلُوكِ النَّحَاقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ الْحُكْمُ إِلَّا
 بِاسْتِعْمَالِ الْكَرِّ وَالْحِيلِ وَالْإِغْتِيَالِ مَعَ الْأَعْدَاءِ وَلَكِنْ لَا يَحْسَنُ
 بِهِمْ اسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخَصَائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

أَجَاهٍ إِلَّا أَنْ أَسْتَفَاعَ الْمُلُوكَ بِهَذَا الْخَلْقِ أَنْفَعُ وَحَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ أَشَدُّ
لِأَنَّهُ مَتَى عُرِفَ مِنْهُمْ قِلَّةُ الْوَفَاءِ لَمْ يُوثِقْ بِمَوَاعِيدِهِمْ وَلَمْ تَقَمَّ
أَعْرَاضُهُمْ وَلَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِمْ جُنْدُهُمْ وَأَعْوَانُهُمْ

(وَمِنْهَا آدَاءُ الْأَمَانَةِ) وَهُوَ التَّعَفُّفُ عَمَّا يَتَصَرَّفُ الْإِنْسَانُ فِيهِ
مِنْ مَالٍ غَيْرِهِ وَمَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْحَرَمِ مَعَ الْقُدْرَةِ
عَلَيْهِ وَرَدَّ مَا يُسْتَوْدَعُ إِلَى مُودِعِهِ

(وَمِنْهَا كِتْمَانُ السِّرِّ) وَهَذَا الْخَلْقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْوَقَارِ وَآدَاءِ
الْأَمَانَةِ. فَإِنَّ إِظْهَارَ السِّرِّ مِنْ فُضُولِ الْكَلَامِ. وَلَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ
تَكَلَّمَ بِالْفُضُولِ وَالْفُضُولِيُّ نَاقِصُ الشَّرَفِ. فَكَمَا أَنَّ مَنْ أَسْتَوْدَعَ
مَالًا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ مُودِعِهِ قَدْ حَقَّرَ الْأَمَانَةَ كَذَلِكَ مَنْ أَسْتَوْدَعَ
سِرًّا فَأَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ فَقَدْ حَقَّرَ الْأَمَانَةَ أَيْضًا. وَكِتْمَانُ السِّرِّ
مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً مَنْ يَضَحِبُ السُّلْطَانُ وَأَوْلِيَاءُ الْأُمُورِ
فَإِنَّ إِخْرَاجَهُ أَسْرَارَهُمْ قَبِيحٌ فِي نَفْسِهِ يُؤَدِّي إِلَى ضَرَرٍ عَظِيمٍ وَبَلَاءٍ
جَسِيمٍ

(وَمِنْهَا التَّوَاضُعُ) وَهُوَ تَرْكُ التَّرَوُّسِ وَإِظْهَارُ الْخُضُوعِ وَكَرَاهِيَّةُ
التَّعْظِيمِ وَالزِّيَادَةِ فِي الْإِكْرَامِ وَأَنْ يَتَجَنَّبَ الْإِنْسَانُ الْمُبَاهَاةَ بِمَا
فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمُفَاخَرَةِ بِالْمَالِ وَالْأَجَاهِ وَأَنْ يَتَحَرَّزَ مِنَ الْأَعْجَابِ
وَالْكِبَرِ. وَلَا يُحْمَدُ التَّوَاضُعُ إِلَّا مِنْ أَكْبَرِ النَّاسِ وَرُؤَسَائِهِمْ وَأَهْلِ
الْفُضْلِ وَالْعِلْمِ. وَأَمَّا مَا سِوَى هَؤُلَاءِ فَلَا يَكُونُونَ مُتَوَاضِعِينَ
بِالتَّوَاضُعِ لِأَنَّ الضَّعْفَ هِيَ مَحَلُّهُمْ وَمَرْتَبَتُهُمْ وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُتَضِعِينَ

الْعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ أَوْ غَجَزٍ
 (وَمِنْهَا الْوُدُّ) وَهُوَ الْحَبَّةُ الْمُغْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ إِتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ
 وَالْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالنُّبْلِ
 وَذَوِي الْوَقَارِ وَالْأَهْبَةِ وَالْمُسْتَعِزِّينَ مِنَ النَّاسِ . فَأَمَّا التَّوَدُّدُ إِلَى أَرَادِلِ
 النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَأَهْلِ الْخِلَاعَةِ وَمَا شَابَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا . وَحُسْنُ
 الْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مَنَوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ أَوْثَقُ الْوُدِّ وَاثْبَتُهُ
 فَأَمَّا مَا كَانَ أَيْتَادُهُ اجْتِمَاعًا عَلَى هَزَلٍ أَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ
 فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى الشَّرِّ .

(وَمِنْهَا الرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ الْوُدِّ وَالْجَزَعِ وَالرَّحْمَةُ لَا
 يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَةٌ مَكْرُوهَةٌ إِمَّا نَقِصَةٌ فِي
 نَفْسِهِ وَإِمَّا مَحَنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ . فَالرَّحْمَةُ هِيَ حَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنْ
 الْحَالَةِ الَّتِي رُحِمَ لِاجْلِهَا . وَهَذِهِ الْحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا
 عَنْ الْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَسِبْ بِهِ إِلَى الْجَوْرِ وَإِلَى فَسَادِ السِّيَاسَةِ . وَلَيْسَتْ
 بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ الْقَاتِلِ عِنْدَ الْقَوَدِ وَالْجَانِي عِنْدَ الْقِصَاصِ .

(وَمِنْهَا الْوَفَاءُ) وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْدُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ
 وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ الْخُرُوجِ مِمَّا يَضُمُّهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا
 يُعَدُّ وَفِيَّاءً لَمْ يَلْحَقْهُ بَوْفَاءُهُ أَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا أَضَرَّ بِهِ الدُّخُولُ
 تَحْتَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ أَبْلَغَ فِي الْوَفَاءِ . وَهَذَا الْخُلُقُ
 مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ بِالْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ
 الْقَوْلِ عِنْدَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

مِنَ الْهَزْلِ الْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطِ اللِّسَانِ عَنِ
الْفُحْشِ وَذِكْرِ الْحَنَاءِ وَالْأَرْحِ وَالسَّخِيفِ وَخَاصَّةً فِي الْحَافِلِ وَمَجَالِسِ
الْمُخْتَشِينَ إِذْ لَا أُهْمَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي الْأَرْحِ وَيُفْحِشُ فِيهِ . وَمِنْ
الْتِمَاصِ مِنَ الْقَبَاضِ عَنِ أَذْنِيَاءِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَمُضَادَقَتِهِمْ وَمُجَاسَّتِهِمْ
وَالْتَحَرُّزِ مِنَ الْعَيْشَةِ الزَّرَرِيَّةِ وَاصْتِسَابِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْوُجُوهِ
الْحَسِيسَةِ وَالْتَرَفُّعِ عَنْ طَلَبِ لِحَاجَاتِ مَنْ لِيَامِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ
وَالْتَوَاضِعِ . لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَالْإِقْلَالَ مِنْ الْأَبْرُوزِ أَغْنَى الطَّوَافِ مِنْ
غَيْرِ اضْطِرَارٍ وَالتَّبَدُّلِ بِالْجُلُوسِ فِي الْأَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ الطُّرُقِ مِنْ
غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ إِنَّ الْأَكْثَارَ مِنْ ذَلِكَ لَا يَنْجَلُونَ مِنَ الْغُيُوبِ
فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدَرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ أَسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا الْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ الْإِنْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ الْغَضَبِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى
ذَلِكَ وَهَذَا الْحَالُ مُحَمَّدٌ مَا لَمْ يُؤَدَّ إِلَى ثَلَمِ جَاهٍ أَوْ فُسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ
بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ أَحْسَنُ لَانَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ مُفْضِيهِمْ .
وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ الصَّغِيرِ عَلَى الْكَبِيرِ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ
فِي الْحَالِ فَإِنَّهُ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ فَإِنَّمَا يُعَدُّ ذَلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا
(وَمِنْهَا الْوَقَارُ) وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ الْكَلَامِ وَالْعُشْبِ

وَكَثْرَةِ الْأَشَارَةِ وَالْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَعْنَى عَنِ التَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ الْغَضَبِ
وَالْإِعْغَاءُ عِنْدَ الْإِسْتِفْهَامِ وَالتَّوَقُّفُ عِنْدَ الْجَوَابِ وَالتَّحْفُظُ عِنْدَ السَّرْعَةِ
وَالْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ . وَمِنْ قِيَلِ الْوَقَارِ أَيْضًا الْحَيَاءُ وَهُوَ
غَضُّ الطَّرْفِ وَالْإِنْقِبَاضُ مِنَ الْكَلَامِ لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهَذِهِ

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لـ زكريا بن عدي)

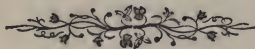
(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

أَمَّا الْأَخْلَاقُ الَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَإِنَّ مِنْهَا (الْعِفَّةُ) وَهِيَ ضَبْطُ
النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى الْإِسْتِغْنَاءِ بِمَا يُقِيمُ أَوْدَ الْجَسَدِ
وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطُّ وَاجْتِنَابُ السَّرَفِ وَالتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ اللَّذَاتِ
وَقَصْدُ الْإِعْتِدَالِ . وَأَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ عَلَى
الْوَجْهِ الْمُسْتَحَبِّ الْمُنْتَفِقِ عَلَى الْإِزْتِصَاءِ بِهِ وَفِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا
غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى الْقَدَرِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ . وَهَذِهِ الْحَالَةُ هِيَ
غَايَةُ الْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا أَيْضًا الْقَنَاعَةُ) وَهِيَ الْإِقْتِصَادُ عَلَى مَا مَسَحَّ بَيْنَ الْعَيْشِ
وَالرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ الْمَعَاشِ وَتَرُكُ الْجِرْصِ عَلَى اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ
وَطَلَبِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ مَعَ الرِّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ وَإِثَارِهِ وَالْمِيلِ إِلَيْهِ
وَقَهْرِ النَّفْسِ عَلَى ذَلِكَ وَالْقَنَعِ بِالْيُسْرِ مِنْهُ . وَهَذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ
مِنْ أَوَاسِطِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ فَأَمَّا أَلْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذَلِكَ
مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ الْقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا التَّصَوُّنُ) وَهُوَ التَّحْفُظُ مِنَ التَّبَدُّلِ . هُنَّ التَّصَوُّنُ التَّحْفُظُ

إِذَا بُنِيَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ بِنْتِجِهِ فَرَبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا
 تَنَبَّهَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ النَّقَائِصِ أَوْ بُنِيَ عَلَيْهَا وَرَامَ الْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ
 عَلَيْهِ ذَلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤَثِّرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي
 ذَلِكَ. وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ أَنْ تُرْشَدَ إِلَى طَرِيقِ التَّدْرِبِ وَالتَّعَلُّمِ
 بِالْعَادَاتِ الْحَمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْهَا عَلَى التَّدْرِيجِ. وَمَنْ النَّاسُ مَنْ
 إِذَا تَنَبَّهَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ أَوْ بُنِيَ عَلَيْهَا فَلَا يَجْنُ إِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا
 تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ الْأَضْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَائِئِهَا
 وَقُبْحِهَا وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ لَيْسَ إِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ إِلَّا بِالْقَهْرِ
 وَالْعُقُوبَةِ إِنْ لَمْ يَرُدَّعَهَا التَّخْوِيفُ وَالتَّرْهِيبُ. فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الْحَمُودَةُ
 فَانْهَاجُهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ
 فَعَلَى الْبَاقِينَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهَا بِالتَّدْرِبِ وَالرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا إِلَيْهَا
 بِالْإِعْتِيَادِ وَالتَّأَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ النَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ
 طَبْعُهُ الْعَادَاتِ الْحَسَنَةَ وَلَا الْأَخْلَاقَ الْجَمِيلَةَ وَذَلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ
 جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ لَا
 يُرْجَى صَلَاحُهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْلَاقِ
 الْحَمُودَةِ وَيَأْتِفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هَذَا شَرًّا بَلْ تَكُونُ
 رُبَّتُهُ فِي الْخَيْرِ وَالتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ



فِي ذَلِكَ كَمَا يَتَفَاضِلُونَ فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ النَّاسُ
 فِي الْأَخْلَاقِ الْحَمُودَةِ بِالتَّفَاخُلِ إِلَّا أَنَّ الْحَيَوَانَ عَلَى الْأَخْلَاقِ
 الْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَالْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا الْحَيَوَانُونَ عَلَى
 الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ فَكَثُرَ النَّاسُ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ
 الشَّرُّ. وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُتْرُسَلَ مَعَ طَبِيعِهِ وَلَمْ يَسْتَعِزِلْ
 الْفِكْرَ وَلَا التَّمْيِيزَ وَلَا الْحَيَاءَ وَلَا اسْتَحْفَظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ الْغَالِبُ
 عَلَيْهِ اخْلَاقُ الْبَهَائِمِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ الْبَهَائِمِ
 بِالْفِكْرِ وَالتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعِزِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي
 عَادَاتِهَا وَالشَّهَوَاتِ مُسْتَوِيَّةً عَلَيْهِ وَالْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَالْقَضْبُ مُسْتَقَرٌّ
 بِهِ وَالسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَالْجُرْصُ وَالْإِخْتِسَادُ ذِيْدُهُ وَالشَّرُّ
 لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ النَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الرَّدِيَّةِ
 مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ الدَّنِيَّةِ وَقَعَ الْإِفْتِقَارُ إِلَى الشَّرَائِعِ وَالسُّنَنِ
 وَالسِّيَاسَاتِ الْحَمُودَةِ وَعَظُمَ إِلَّا تَتَفَاعُ بِالْمُلُوكِ الْحَسَنِ السَّيِّقِ
 لِيَرُدُّوهُ إِلَى الظَّالِمِ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا الْقَاصِبَ عَنْ غَضَبِهِ وَيُعَاقِبُوا الْفَاجِرَ
 عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا الْجَارِحَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.
 أَمَّا الْأَخْلَاقُ الْمَكْرُوهَةُ فِي طَبَاعِ النَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا
 وَيُنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ النَّاسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ الْفِكْرِ وَقُوَّةِ
 التَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْتَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِاجْتِنَابِهَا (١) وَذَلِكَ يَكُونُ
 عَنْ طَبْعِ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لتركيب بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ الْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ أَعْمَالَهُ بِإِلَافٍ رَوِيَّةٍ وَلَا
 اخْتِبَارٍ. وَالْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ النَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ
 النَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرِّيَاضَةِ وَالْإِجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ
 مِنَ النَّاسِ بَغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَالسَّجَاعَةِ وَالْجُلْمِ وَالْعِقَّةِ وَالْعَدْلِ
 وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ
 ذَلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِالرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ
 وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا الْأَخْلَاقُ الْمَذْمُومَةُ فَلَهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ
 النَّاسِ كَالْجُلِّ وَالْجُبْنِ وَالْتَّسَرُّرِ فَإِنَّ هَذِهِ الْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ
 النَّاسِ مَا لَكَ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةً عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي النَّاسِ مَنْ
 يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الْعُيُوبِ وَلَكِنَّهُمْ يَتَفَاضُونَ

وَكَاثُرُهُمْ فِي الْأَحْوَالِ وَتَاذُوا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ الذَّنْبَ فِي ذَلِكَ لَهُمْ
وَرَجَعُوا إِلَى التَّوَّاضِعِ.

وَأَمَّا الَّذِي يَنْبَغِي لِلْخُطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ
النَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ: فَيَنْبَغِي أَنْ
يَتَعَهَّدَهُمْ بِالْمَوْاسَاةِ وَرِقَّةِ الْكَلَامِ بِعَايَةِ مَا أَمَكَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمْ الْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولَى طَبَائِعِ رَدِيَّةٍ
يَقْصِدُونَ الْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي الشُّرُورِ فَعَلَى الْخُطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ
عَلَى تَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا
يُحِبُّ وَيَجْتَهِدُ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ الطَّبَعِ لِيُحْذِرَهُمْ مِنْهُ.
وَمِنْهُمْ الْبُلْدَاءُ الَّذِينَ لَا يُرْجَى ذِكَاؤُهُمْ وَبَرَاةَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحَثِّمَهُمْ
عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُمْ الْمُتَعَلِّمُونَ دُرُورَ الْأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةِ
وَالطَّبَائِعِ الْحَيَّةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْعُلُومِ..
فَهَذِهِ أَصُولُ وَقَوَائِينُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَهَا الْخُطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ
عَلَيْهَا فِي مُتَصَرِّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ اسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَتَجَمَعَ فِي
الْقَوْمِ كَلَامُهُ



دُونَ أَخْذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَإِنَّهُمَا عَمِلَ ذَلِكَ
 يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ إِلَى مُرَادِهِ وَعَلَهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ
 الْأَضْيَاءِ لَهُ . أَمَّا الْأَكْفَاءُ الْأَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَجَدَّ لَهُمْ
 وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا
 بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَدُّرُ جُلْهَا فَمِنْهُمْ الشُّحَّاءُ الَّذِينَ
 يَتَبَرَّعُونَ بِالتَّصَدِيقَةِ قَالُوا جِبُّ أَنْ لَا يَذْكُرَ كُلُّ مَا يُنْهَى إِلَيْهِ
 وَيَعِزُّ عَلَى قَلْبِهِ أَوْلَا بِأَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَمَلَّ
 أَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ أَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَغْرَاضِهِمْ
 عَلَى حَقِيقَةِ أَقَاوِيلِهِمْ فَإِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ إِلَى
 إِنْفَازِ الْأَمْرِ . وَمِنْهُمْ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ أَنْاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِإِصْلَاحِ
 مَا بَيْنَ النَّاسِ فَجِبُّ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ يَدَحَّهُمْ أَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ
 وَأَنْ يَنْشَبَّهُ بِهِمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ فَإِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ
 كُلِّ النَّاسِ وَمِنْهُمْ مَالُ الْخَطِيبِ إِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ
 النِّيَّةِ . وَمِنْهُمْ الشُّفَهَاءُ فَجِبُّ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ لَا يُؤَايِتَهُمْ وَلَا
 يُقَالِبَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ أَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ
 وَسُكُونٍ بَلِغٍ لِيَسَاسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ
 ذَلِكَ مَتَى يَلْقَوُهُ بِالشَّامَةِ فَجِبُّ أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقَلَّةِ الْأَكْثَرَاتِ .
 وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْكِبَرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَجِبُّ أَنْ يُقَالِبَهُمْ بِمِثْلِهِ لِأَنَّهُ إِنْ
 تَوَاضَعَ لَهُمْ أَحْسَوْا مِنْهُ بِضَعْفٍ وَتَوَهَّوْا أَنْ فِعْلَهُمْ ذَلِكَ صَوَابٌ
 وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضَعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

بَعْضَ مَا يَعْزُضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَ هَذِهِ الطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ الْحَالُ بِرَأْدِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤْسَاءِ هِمًّا يَنْقَرُدُونَ بِهَا عَنْ سِوَاهُمْ مِنَ النَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَتَّقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونِهِمُ الْإِسْتِخْدَامَ وَالْإِسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمُ الْإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَخْذُ هَذَا يَهْمَتِهِمْ لِكثَرَةِ مَدْحِ النَّاسِ لَهُمْ وَإِظَارِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصَوُّبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهَذِهِ قَوَائِنُ يَنْتَفِعُ بِاسْتِعْمَالِهَا الْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ الرُّؤْسَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا الْمَرْءُ مَعَ الْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمْلًا وَنَقُولُ إِنَّ الْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَالْأَصْدِقَاءُ عِشْقَانِ أَحَدُهُمَا الْأَعْفِيَاءُ الْمُخْلِصُونَ فِي الصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْتَكَلِمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهَّدَ أَسْبَابَهُمْ وَإِعْدَاءَهُ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَسَرَّلُهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَحْيِي الْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذَلِكَ بَغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدُ فِي الْإِكْتِسَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ الْجَهْدِ فَإِنَّ الصَّدِيقَ زَيْنُ الْمَرْءِ وَعِضْدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذْبِعُ قَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَخَفِي زَلَاتِهِ وَمِمَّا كَانَ هُوَ لَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ الْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَالصَّنْفُ الْآخَرُ أَيُّ الْأَصْدِقَاءِ فِي الظَّوَاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ يَنْشَبُ وَتَصْنَعُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَايِلَهُمْ بِمَدَارَةِ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخَصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلِيَجْتَهِدَ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ وَالصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَايِلَتِهِمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ

يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُلَازِمًا لِمَا هُوَ فِي صَدَدِهِ مُوَاطِبًا عَلَى مَا فُوضَ
إِلَيْهِ وَلَا يَخْشَى الْمَلَالَ وَخُصُوصًا مِنَ الْمُلُوكِ. وَأَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا فِي
طَلَبِ وَجْهِ حَسَنِ لِكُلِّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ إِذَا لَا شَيْءَ مِنَ الْأُمُورِ
فِي الْعَالَمِ إِلَّا وَلَهُ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا حَمِيلٌ وَالْآخَرُ قَبِيحٌ فَلْيَطْلُبْ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ وَجْهًا حَمِيلًا يَصْرِفُهُ إِلَيْهِ وَيَتَكَلَّفُ لِذِكْرِهِ بِحَضْرَتِهِ
فَإِنَّ الْخَطِيبَ الْمُفَوَّضَ إِلَيْهِ تَذْيِيرُ ذَلِكَ الرَّئِيسِ كَالسَّيْلِ الْمُتَحَدِّدِ مِنَ
الرَّبْوَةِ إِنْ أَرَادَ الْمَرْءُ أَنْ يُوَاجِهَهُ أَهْلَكَ نَفْسَهُ وَآتَى عَلَيْهِ السَّيْلُ
فَاغْرَقَهُ. وَإِنْ سَعَى مَعَهُ وَعَلَى جَانِبِهِ وَتَلَطَّفَ لِيَصْرِفَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ
بِأَنْ يَطْرَحَ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ مِقْدَارًا مِنَ الشَّدِيدِ وَيَطْرُقَ لَهُ مِنْ
الْجَانِبِ الْآخَرِ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَصْرِفَهُ إِلَى حَيْثُ شَاءَ. فَيَنْبَغِي لَهُ كَذَلِكَ
أَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَ الرَّئِيسِ فِي صَرْفِ وَجْهِهِ عَمَّا يُرِيدُ صَرْفَهُ عَنْ أَمْرٍ
يُرِيدُ أَنْ يُجْرَى مَعَهُ فِيمَا هُوَ جَارِحُوهُ وَلَا يُوَاجِهَهُ وَإِنْ كَانَ فِي
غَايَةِ الْإِنْسِاطِ مَعَهُ وَلَا يُقَرَّرُ بِمَا يُلْقِي مِنْهُ إِلَى النَّاسِ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ
فَسِيَانِ بَيْنَ الْخَبَرِ وَالْإِقْرَارِ. وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَلَطَّفَ كُلُّ التَّلَطُّفِ فِي
مِثْلِ الْمَنَافِعِ مِنْ جِهَةِ الرُّؤَسَاءِ بِأَنْ لَا يُبْلِغَ فِي السُّؤَالِ وَلَا يُدِيحُهُ
وَلَا يُظْهِرَ الطَّمَعِ وَالشَّرَّهَ مِنْ نَفْسِهِ وَيَجْتَهِدُ فِي أَنْ يَطْلُبَ مِنَ
الرُّؤَسَاءِ أَسْبَابَ الْمَنَافِعِ لَا الْمَنَافِعَ أَنْفُسَهَا. وَيَجْتَهِدُ فِي أَنْ يُظْهِرَ
فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُهُ زِينَةً وَجَمَالًا لِلرَّئِيسِ لَا
لِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ الصَّلَاحِ فِي خِلَافِ مَا يَأْتِيهِ وَيَذْكُرُ لَهُ فِي
الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَاتِ عَنْ غَيْرِهِ وَالْحِيلِ اللَّطِيفَةِ

الْإِنْسَانُ قُوَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا نَاطِقَةٌ وَالْأُخْرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا
 تَزَاعٌ غَالِبٌ. فَيَزَاعُ الْقُوَّةُ الْبَهِيمِيَّةُ نَحْوَ اللَّذَاتِ الْعَاجِلَةِ الشَّهَوَانِيَّةِ مِثْلَ
 أَنْوَاعِ الْغِذَاءِ وَتَزَاعُ الْقُوَّةُ النَّاطِقِيَّةُ نَحْوَ الْأُمُورِ الْعَمُودَةِ الْعَوَاقِبِ..
 فَعَلَى كُلِّ مَنْ يَرْتُدُّ الْجُمْهُورَ وَبُخْصُهُمْ عَلَى نَيْلِ الْفَضَائِلِ أَنْ لَا
 يَتَغَافَلَ عَنْ تَحْرِيزِهِمْ عَلَى مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ قَالَهُ مَتَى
 مَا أَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ الطَّرَفِ الْآخِرِ الَّذِي هُوَ الْبَيْمِيُّ. وَإِذَا
 تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّهُوا بِبَعْضِ مَنْهُ حَتَّى إِذَا أَرَادَ رَدُّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا
 نَحْوَهُ لِحَقِّهِ مِنَ النَّصَبِ أَعْضَفَ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْمَلَهُمْ.
 وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ الْخَطِيبَ لَا يَتَّبِعُ فِي جَمِيعِ مُتَصَرِّقَاتِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَى
 الْجُمْهُورَ مَائِلًا إِلَى أَمْرِ مَحْمُودٍ أَوْ أَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
 مِنَ الْآمَرَيْنِ قَائِدَةٌ وَمَوْضِعٌ رِيَاضَةٌ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ أَنْ يُجَاوِلَ دَفْعَ
 السَّامِعِينَ إِلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَمُودِ الَّذِي يَلْقَاهُ إِنْ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى
 الدَّفْعِ إِلَيْهِ وَيَنْبَغِي عَلَيْهِمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمُ التَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى
 وَجَدَ الْفُرْصَةَ لِذَلِكَ. وَإِذَا يَلْقَاهُ الْأَمْرُ الْمَذْمُومُ فَلْيَتَّخِذْ فِي التَّخْذِيرِ
 مِنْهُ وَالْتَجَنُّبِ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا فَلْيَتَّخِذْهُمْ عَلَى
 الْإِعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارٌ مِثْلَهَا. فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ
 أَحْوَالِهِ جُلُهَا وَدَقُّهَا خَيْرُهَا وَشَرُّهَا مَوْضِعَ الرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَارْشَادِ
 الْجُمْهُورِ. وَإِذَا تَيَقَّنَ ذَلِكَ فَلْيَنْبَغِي أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى سِيَاسَةِ الْأَحْوَالِ
 بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَدْرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ أَنْ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذَلِكَ
 وَإِنْ قَلَّ يُجْزِي عَلَيْهِ نَفْعًا يُجِلُّ. وَبَدَأُ بِتَعَهُّدِ الْخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ إِنَّهُ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ إِذِ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ لَا يُنْكِدُهُ
 أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ
 السِّيَاسَاتِ. وَنَقْدِمُ لِذَلِكَ مُقَدَّمَاتٍ مِنْهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ
 مِنَ النَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَأَحْوَالَ غَيْرِهِ
 مِنْ فِتَاتِ النَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرِكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ .
 وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةٌ هُمْ أَعْلَى مَنَرَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ
 دُونَهَا طَائِفَةٌ هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. لِأَنَّ الْمَلِكَ الْأَعْظَمَ مَثَلًا
 وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَثَلَهُ
 أَعْلَى مِنْ مَثَلِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعْمًا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ
 بِنَوْعٍ مِنَ الْفَضِيلَةِ الْفَضِيلَةِ إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ مَا هُوَ
 كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ. وَكَذَلِكَ الْوَضِيعُ الْخَامِلُ الَّذِي يُجِدُ
 فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءَ لَمْ يَفْزِ بِهَا مِنْهُ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ
 الْخَطِيبُ بِاسْتِعْمَالِ السِّيَاسَاتِ مَعَ هَؤُلَاءِ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ... وَنَقُولُ
 أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ الطَّرِيقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْخَطِيبُ فِي ذَلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ
 النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرِّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا بِمَا سَمِعَهُ
 وَتَنَامَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُعَيِّنَ النَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مُحَاسِنَهَا وَمَسَاوِيَهَا
 وَبَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدَ فِي التَّمَسُّكِ بِخَاسِنِهَا وَحَضْرِ
 النَّاسِ عَلَى طَلِبِهَا لِيَأْثَرُوا مِنْ مَنَافِعِهَا وَمِثْلَ مَا نَالَهُ مِنْ تَقَدُّمِهِمْ وَيَجْتَهِدُ
 فِي التَّنْكِيبِ عَنْ مَسَاوِيهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا
 مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَشْخَاصِ

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ . فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ . ضَحِكُ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ . أَمَّا إِذَا أَلْتَقْتَ إِلَى الْأَمَامِ . وَطَمَعَ بَبَقِيَّةِ الْأَيَّامِ . حَنَّ إِلَى الْوُجُودِ . وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ . وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ . وَالْحَاضِرُ يَرُدُّهُ . وَالْمُسْتَقْبَلُ يُطْمَعُهُ . حَتَّى تَحْتَطِفَ يَمَامَةً نَفْسِهِ بُرَاةُ الْمَنِيَّةِ . وَتَسْلِبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَّةٍ . فَيَهْطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ . وَيَعُورَ فِي قَبْرِ اللَّسْيَانِ . حِينَئِذٍ تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتَهَا . وَتَسْرِدُ الْجُمُوعَاتُ مُفْرَدَاتَهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ الْخَطِيبَ إِذَا مَا أَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوْنَ أَخْلَاقَهُمْ وَتَبَايُنَ أَحْوَالِهِمْ . قَالَ أَفَلَاطُونُ : لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ . وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ . وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ . فَعَالِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالتَّمَسَّ مِنَ الْأُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرَ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهَا (١٥) . وَهَذِهِ قَوَائِنُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرِّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيحَازِ وَالْإِخْتِصَارِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغُ قَوْلُنَا هَذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

وَطَوْرًا تَكْبُ بِهِ أَحْيَاةٌ فِي حَضِيضِ الْأَتْرَاحِ وَالْحَسَرَاتِ . يَرَى
 الْعَالَمَ قَرِيبَ الْمَالِ . فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى سُتُونِ الْأَهْوَالِ . حَتَّى إِذَا
 مَا ظَفَرَ بِالْبَعْضِ طَمِعَ بِالْكُلِّ . وَإِذَا فَازَ بِالشَّحْمِ رَغِبَ فِي الْغَلِّ .
 فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ الطَّامِعِ . وَكَرَّةً تَتَلَقَّهَا الْقَوَامِعُ .
 وَذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبَطًا لِحَوَادِثِ الْجَدَثَانِ . وَمُسْتَقْطًا لِأَحَايِبِ
 الزَّمَانِ . وَلَا تَرَالُ زَهْرَةٌ هَذَا الشَّبَابِ الزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَاقْتِرَارِ .
 وَلَا يَبْرَحُ بَذْرُ هَذَا الْعَصْرِ الْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَاسْفِرَارِ . إِلَى أَنْ
 تَمُتُّ الشَّيْخُوخَةَ تَاجَ تِلْكَ الزَّهْرَةِ . وَيَضَعُ الْهَرَمَ وَجْهَ هَانِيكَ الْقَرَّةِ .
 حَيْثُمَا يَسْقُطُ الشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ . وَيَرْتَفِعُ الْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ الشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ غُرِهِ
 سَيْرَ الْمَسَافِرِ فِي الْقِفَارِ . إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ الْأَذْوَارِ . وَهُوَ دَوْرُ الدُّثَارِ .
 هَذَا إِذَا أَمَكْنَتْهُ الْخِلَاصُ مِنْ لُصُوصِ الْحَوَادِثِ . وَالْمَلَأَصُ مِنْ أَسْدِ
 الْكَوَارِثِ . وَنَهَبَةِ الْأَعْرَاضِ . وَقَتْلَةِ الْأَمْرَاضِ فَيَلْبِثُ هُنَاكَ مَنُهْوَكًا
 مِنْ تَعَبِ الْمَسِيرِ . وَمَضَضِ التَّأْيِيرِ . إِذْ يَعُودُ مُخْنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ الْحَيَاةِ
 وَآثِقَالِهَا . وَمَرْمُوضًا مِنْ عَدَمَاتِ الدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا . فَتَضَعُ ضَوْضَاءُ
 حَوَاسِهِ وَهَوَاجِسِهِ . وَيَخْرُسُ رَيْنُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ . فَيَكْفُ بَصَرُهُ .
 وَيَجْفُ فِكْرُهُ . وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ . وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ . وَيَجْبُلُ حَتَّى بِالْأَفَاسِ .
 وَيَزِيدُ جَرْعُهُ عَلَى النَّفْسِ . وَيَجُودُ بِالْأَقْلَاسِ . فَإِذَا التَّمَّتْ إِلَى وَرَائِهِ
 وَرَأَى الدُّنْيَا الَّتِي تَطْعَمَهَا . وَالطَّرِيقَ الَّتِي تَتَبَّعَهَا . ظَهَرَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ
 أَشْبَاحَ أَحْلَامِهِ . وَمَلَاعِبَ أَوْهَامِهِ . وَكُلُّهَا تَجْرِي تَحْيِيدهُ إِلَى الزُّوَالِ .

(حَالُ الْقُوَّةِ) هَذَا هُوَ الدَّوْرُ الثَّانِي لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَالْمَسَاحَةُ
 الْأُولَى لِإِنْتِشَارِ الْقُوَى الْعَقْلِيَّةِ أَوْ التَّلُّ الْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ الْأَجَلِ.
 وَمَسْلَكُ الْعَمَلِ. فَيَصْعَدُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ الْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ. فَيَرَاهُ
 مَشْهُدًا بَدِيعَ الْجَمَالِ. وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ الْأَمْالُ. وَتَرْقُصُ فِيهِ
 الْمَلَذَّاتُ وَالْأَمَانِي. وَتَحُومُ حَوْلَهُ الْبَشَائِرُ وَالْتِهَانِي. فَتَشْمَلُهُ شُمُولُ هَذَا
 الظُّهُورِ. وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حِمْيَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ. فَيَسِيْتُ سَكْرَانًا بِالْأَفْرَاحِ.
 وَمَأْخُودًا بِرَيْنِ تِلْكَ الْأَقْدَاحِ. فَيَنْسِيمُ مَدَى الْأَوْقَاتِ. وَلَا يَعْلَمُ مَا
 الْأَقَاتُ. إِذْ يَظُلُّ مُلْتَقًا بِكِسَاءِ الْأَمْالِ. وَمُخْتَفًا بِأَوْهَامِ الْأَعْمَالِ.
 فَلَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَى ذَاتِهِ. وَلَا يَخْفِلُ إِلَّا بِصِفَاتِهِ. هَائِمًا فِي مَلَاهِي
 دُنْيَاهُ. وَمُتَهَافِنًا عَلَى حَدَاثَةِ قَوَاهُ. وَهَكَذَا يَهْبِطُ فِي وَادِي هَذَا
 الْعَالَمِ الْأَلَمِ. وَيَخْبِطُ فِي ذَلِكَ النَّجْرِ الْخَضَمِ. وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبِ
 وَأَنْكَبَابِ. إِلَى أَنْ يَنْشَلُهُ الصَّوَابُ. وَيَذَرُكَ الشَّبَابُ
 (حَالُ الشُّبُوبِيَّةِ) أَمَّا الشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ الدَّوْرُ الثَّلَاثُ لِلْأَجَلِ. وَتَحُلُّ أَلَكِدِ
 وَالْعَمَلِ. وَمَوْقِعُ الْيَأْسِ وَالْأَمَلِ. حِينَ يُوجَدُ الْإِنْسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ
 الْعُمْرِ. حَائِرًا فِي تَنُوقَةِ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ. فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسْطِ
 هَذِهِ الدُّنْيَا. مُنْطَقًا بِكَافَّةِ الْأَشْيَاءِ. مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ الْعَالَمِ وَأَهْوَانِهِ.
 مَضْرُوعًا وَمَأْخُودًا بِصَجَاةِ وَضُغْنَاهِ. وَهَكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةٌ
 الْحَوَاسِ. وَتَشْبُ فِي دِمَاعِهِ نَارُ الْوَسْوَاسِ. وَتَضْفَرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ
 الْأَهْجَاسِ. فَيَنْدَفِعُ إِلَى مُزَاكَلَةِ الْأَقْدَارِ وَالْأَيَّامِ. وَمُقَاتَلَةِ الْحَقَائِقِ
 وَالْأَوْهَامِ. فَتَارَةً تَهْبُ بِهِ الْأَمْالُ إِلَى أَوْجِ الْأَفْرَاحِ وَالْمَسَرَّاتِ.

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ الطُّفُولِيَّةِ) هَذَا هُوَ الدَّوْرُ الْأَوَّلُ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ. وَالْغُلُوءُ
 الْأَوَّلَى فِي طَرِيقِ الزَّمَانِ. حَيْثُ يُقَالُ لِلدَّخْلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ.
 وَلِلخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الدَّخْلِ عَدِيمَ
 الْبَصِيرَةِ. خَالِي السَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ الْكِمَالَاتِ الْأَدَبِيَّةِ. غَيْرَ
 حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ الْوُطَائِفِ الْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا
 يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَغْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِالْثَرَابِ وَيَذَرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِالتُّبْرِ
 وَيُزْرِيه. وَيَسْحَرُ بِالْمَقْبُولَاتِ وَالْمَرْدُودَاتِ. وَتَضَحُّكَ عَلَى كُلِّ
 الْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ الْعِذَاءِ. وَلَا يَخْفَلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ
 الْأَذَى. وَإِذَا لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِحَقِّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِهٍ نَيْتِهِ. فَلَا
 يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ الْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَائِي الْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا
 يَكُونُ بَاصِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَقَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ
 جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى الدُّخُولِ فِي
 أَبْوَابِهَا. وَالْقُوصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنُهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ
 الْأَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَظِرُّهُ مِنَ الْأَتْعَابِ. هَا التَّذِي الْأَرْمَزُ الرَّدَى
 فِي طَلَبِ الْقُوتِ. وَمَا أَلْهَدُ إِلَّا إِشَارَةَ التَّابُوتِ

(وَالْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْأَمْرِ الْمُسْتَشَارُ
غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ الْأَغْرَاضَ جاذِبَةٌ وَالْهَوَى صَادٌّ
وَالرَّأْيُ إِذَا عَارَضَهُ الْهَوَى وَجَذَبَتْهُ الْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ
الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ الْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا

وَيُرْذِي الْهَوَى ذَا الرَّأْيِ وَهُوَ لَيْبٌ

وَيُحْمَدُ فِي الْأَمْرِ الْفَتَى وَهُوَ خُطْبَى

وَيُعْذَلُ فِي الْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبٌ

فَإِذَا اسْتَكْمَلْتَ هَذِهِ الْخِصَالَ الْخَمْسَ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا
لِلْإِشَادِ وَالْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلَ عَنْ اسْتِشَارَتِهِ اعْتِمَادًا
عَلَى مَا تَوَهَّمَهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشِيرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ.
فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي الْحَاجَةِ أَسْلَمَ وَهُوَ مِنَ الصَّوَابِ أَقْرَبُ خُلُوصِ
الْفِكْرِ وَخُلُوقِ الْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ الْهَوَى وَارْتِفَاعِ الشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي
الْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَمَا
اسْتَغْنَى مُسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَلَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:
الِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهُدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ
الْحَكِيمُ لِابْنِهِ شَاوِرَ: مَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا
قَامَ عَلَيْهِ بِالْعِلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ بِمَجَانًا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: نِصْفُ
رَأْيِكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمَلَ الرَّأْيُ

وَمَا كُلُّ ذِي نَفْسٍ بِمِثْلِكَ نَفْسُهُ وَلَا كُلُّ مُوتٍ نَفْسُهُ بِلَيْبٍ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبٍ
(وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَّةُ) أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ ذَا دَيْنٍ وَتُقَى قَانَ
ذَلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الدِّينُ فَهُوَ
مَأْمُونُ السَّرِيرَةِ مُوقِفُ الْعَزِيمَةِ. (وَالْخَصْلَةُ الثَّلَاثَةُ) أَنْ يَكُونَ
نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ النَّصِيحَ وَالْمُودَّةَ يُضِدُّ قَانَ الْفِكْرَةِ وَيَخَصِّصُ الرِّأْيَ.
وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا الْحَازِمَ غَيْرَ الْحُسُودِ وَاللَّيْبِ
غَيْرَ الْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى الْآفَنِ وَعَزَمَهُنَّ
إِلَى الْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدَبَاءِ مَشُورَةُ الْمُنْشِقِ الْحَازِمِ ظَفَرُ
وَمَشُورَةُ غَيْرِ الْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لَنْ تُعَاشِرُهُ وَأَنْسُكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَأَرْضَ مَنْ آرَأَى فِي مَوَدَّتِهِ بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفُ النَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا تَصَحَّ مِنْهُمْ لَهُ سَرِيرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَضَلُ أَخٍ فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ الْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ
وَعَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرُهُ شَوَائِبُ الْهَمِّ لَا يَسْلَمُ لَهُ
رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِنَرِي إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى
مَرَاذِيهِ فَاسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَرُوا بِالرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ
بَارِزَاتِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كُنْزِي نَصِيحٍ وَتَقْدِيرَ فِي مُشْكِالِ الْأَمْرِ فَأَخْذَرْتُ ذَلِكَ مُتَّصِحًا

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ الْخَطِيبَ الْحَرِيَّ بِالْإِرْشَادِ مَنْ قَدْ اسْتَكَمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ
 خِصَالٍ : (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجَرِبَةٍ سَالِقَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ
 التَّجَارِبِ تَصِحُّ الرُّوْيَةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : اسْتَشِدُّوا الْعَاقِلَ
 تُرْشِدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فْتَدُمُوا . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ لِابْنِهِ مُحَمَّدٍ :
 احْذَرُوا مَشُورَةَ الْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تُحْذَرُ عِدَاوَةُ الْعَاقِلِ
 إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُورِطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْقُ إِلَيْكَ
 مَكْرُ الْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ الْجَاهِلِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبَسَ : مَا أَكْثَرَ
 صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا
 أَلْفُ حَازِمٍ . وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةُ رَجُلَيْنِ شَابٍ مُعْجَبٍ
 بِنَفْسِهِ قَلِيلُ التَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ الدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا
 أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ . وَقِيلَ فِي مَنْشُورِ الْحُكَمِ : كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى
 الْعَقْلِ وَالْعَقْلُ يُحْتَاجُ إِلَى التَّجَارِبِ . وَلِذَلِكَ قِيلَ : أَلَا يَأْمُرُكَ لَكَ عَنْ
 الْأَسْتَارِ الْكَامِنَةِ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : التَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ
 وَالْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مَنْ اسْتَعَانَ بِذَوِي
 الْعُقُولِ فَإِنَّهُ يَدْرِكُ الْمَأْمُولَ . وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيْلِيُّ :

أَبْنُ الْحَارِثِ الْأَهَاشِي:

تَحَرَّ مِنْ الطَّرِيقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدَّ عَنِ الْمَوْضِعِ الْمُشْتَبِهَةِ
وَسَمِعَكَ صُنَّ عَنْ قَبِيحِ الْكَلَامِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكَ لِقَائِهِ فَأَنْتَبِهْ
وَمَا تَجْرِي مَجْرَى فَحْشِ الْقَوْلِ وَتُجْرِهِ فِي وَجُوبِ اجْتِنَابِهِ وَلِزُومِ
تَنَكُّهِ مَا كَانَ شَنِيعَ الْبَدِيعَةِ مُسْتَكْرَ الظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عُقْبُ
التَّأَمُّلِ سَلِيماً وَبَعْدَ الْكَشْفِ وَالرَّوْيَةِ مُسْتَقِيماً كَالَّذِي رَوَاهُ الْأَزْدِيُّ
عَنِ الصَّوْلِيِّ لِبَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ:

إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرُ كَافِرٌ بِاللَّهِ سِيرِي

أَنْتَ رَبِّي وَآلِهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيَّ لَا بَسَّ لِأَنَّ الْكُفْرَ التَّعْطِيةُ. وَلِذَلِكَ
سُمِّيَ الْكَافِرُ بِاللَّهِ كَافِراً لِأَنَّهُ قَدْ عَطَى نِعْمَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ. وَقَوْلُهُ:
(بِاللَّهِ سِيرِي) يُقْسَمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ. وَقَوْلُهُ: (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي
وَلِذَلِكَ مِنَ التَّرْتِيبَةِ. وَآلِهِي رَازِقُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ كَمَا أَنَّ رَازِقَ الْوَلَدِ
الْكَبِيرِ. فَانْظُرْ إِلَى هَذَا التَّكْلُفِ الشَّيْعِ وَالْتَمَعُ الْبَشِيعِ مَا
أَعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ الْبَدِيعَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ الْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ إِلَّا لَوْماً
إِنْ حَسُنَ فِيهِ الظَّنُّ أَوْ دُمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ الْإِزْتِيَابُ. وَقَلَمًا يَكُونُ
ذَلِكَ إِلَّا مِنْ خَاطِئٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَشَرٍ



الْقَوْلُ مَا صَدَقَهُ الْفِعْلُ وَالْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ الْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ الْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقَالُهُ مِنْ تَحْتِهِ الْأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ تَحَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ
وَإِعْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِاللَّيْنِ وَاللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا
خَلَطَهُ بِالْخُشُونَةِ وَالْعُزْفِ. فَإِنَّ لَيْنَ اللَّفْظِ فِي التَّرْهِيْبِ وَخُشُونَتُهُ فِي
التَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَقْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِمَا فَيَصِيرُ الْكَلَامُ
لَفْوًا وَالْعَرَضُ الْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيْلِيُّ لَا بَيْنَهُ
يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مِنْ هُوَ قَوْقَكَ
فَيَحْتَمِلُكَ. وَلَا بِكَلَامٍ مِنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزِدُّكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ
لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنَكِرًا وَلَا يَنْزِعَ لَهُ أَتْرَعًا مُسْتَهْجَأًا
وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنْ
نَقَصَ الطَّيْشَ أَكْثَرَ مِنْ فَضْلِ الْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ
لِأَعْرَابِيٍّ: أَخْطِيبُ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْ لَا أَنَّكَ تُكْثِرُ الرَّدَّ وَتَشِيرُ
بِالْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَانَى هَجْرَ الْقَوْلِ
وَمُسْتَقْبَحَ الْكَلَامِ وَلِيَعْدِلَ إِلَى الْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ
وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ الْعَرَضَ وَلِسَانَهُ تَرَهُ وَآدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ
يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذَلِكَ فَهَكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعُهُ فَلَا يَسْمَعُ خِيًّا وَلَا
يُضْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنْ سَمِعَ الْفُحْشَ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةً إِلَى
إِنْكَارِهِ وَإِذَا وَجَدَ عَنِ الْفُحْشِ مُغْرَضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ
أَحَدَ التَّكْرِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدَ الْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو الْحَسَنِ

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ. وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ الْكَذِبِ. عَلَى أَنَّ
السَّلَامَةَ مِنَ الْكَذِبِ فِي الدَّخْرِ وَالذَّمُّ مُتَعَدِّرَةٌ لَأَسِيًّا إِذَا مَدَحَ
تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَقُّقًا. وَحُكِيَ عَنِ الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهَرْتُ
لَيْلَتِي أَفَكَّرْتُ فِي كَلِمَةٍ أَرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي قَالَا
وَجَدْتُمَاهَا. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنْ الرَّجُلُ لِيَدْخُلَ عَلَى
السُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيُخْرِجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ.
قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ابْنُ الرُّومِيِّ رَجُلًا
يَصِفُ رَجُلًا وَيَبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ أَمْرًا لَا مَرِيءَ فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَأَقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُّ نُ فِيهِ إِلَى الْأَمَدِ الْأَبَدِ
فَيُضَالُ مِنْ حَيْثُ عَظُمَتْهُ لِفَضْلِ الْمَغِيبِ عَلَى الْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ عَلَى الْإِسْتِزْسَالِ
فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِمَا. فَإِنْ مَنْ
أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِمَانَهُ وَلَمْ يَسْتَشْقِلْ مِنْ الْقَوْلِ مَا
يَسْتَقِيلُهُ مِنَ الْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ)
إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنْ
إِزْسَالَ الْقَوْلِ اخْتِيَارًا وَالْعَمَلِ بِهِ اضْطِرَارًا وَلَكِنْ يَفْعَلُ مَا لَمْ يَشَأْ
أَحْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ
الْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِالْفِعْلِ مِنْ
الْقَوْلِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ:

الْعِلَّةِ وَالْعُلُوبَةِ. وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ
 قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ الْغَايَةِ كَمَا فِي الْبَسِيطِ. وَقَدْ تَكُونُ
 مُجْتَمِعَةً مِنَ الْأَرْبَعِ كَمَا فِي الْمُرَكَّبِ... وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالشَّرْطِ
 أَنَّ الْعِلَّةَ مُطْرَدَةٌ فَحَيْثُمَا وَجِدَتْ وَجِدَ الْحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِالذَّاتِ. أَمَّا
 الشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَأْثِيرُ الْمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيْبُوسَةِ الْحَطَبِ لِلْإِخْرَاقِ
 إِذَا النَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي الْحَطَبِ بِالْإِخْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الأول

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

أَعْلَمُ أَنَّ لِلْكَلامِ آدَابًا إِنْ أَنْفَلَهَا أَلْتَكَلِمُ أَذْهَبَ رَوَاقِ
 كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا النَّاسُ عَنْ مُحَاسِنِ فَضْلِهِ عِساوِي آدَابِهِ
 فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِيهِ. (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي
 مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتْ الزَّاهَةُ عَنِ الذَّمِّ كَرَمًا.
 وَالتَّجَاوُزُ فِي الْمَدْحِ مَلَقًا يَصُدُّ عَنْ مَهَابَةِ وَالسَّرْفُ فِي الذَّمِّ أَنْتِقَامًا

البحث السابع

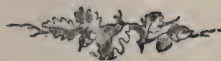
في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمن الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اعْلَمْ أَنَّ الْعِلِّيَّةَ وَالْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ الْعَوَارِضِ الشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ
 عَلَى سَبِيلِ التَّقَابُلِ كَالْإِمْكَانِ وَالْوُجُوبِ. وَتَصَوَّرُ اخْتِجَاجَ الشَّيْءِ
 إِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيًّا. فَالْمُحْتَاجُ إِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَالْمُحْتَاجُ مَعْلُولًا.
 وَالْعِلَّةُ إِمَّا جُزْءُ الشَّيْءِ أَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَالْأَوَّلُ) إِنْ كَانَ بِهِ الشَّيْءُ
 بِالْفِعْلِ كَالْهَيْئَةِ لِلْسَّرِيرِ فَهُوَ الصُّورَةُ. وَإِنْ كَانَ بِالْقُوَّةِ كَالْخَشَبِ لَهُ
 فَهُوَ الْمَادَّةُ. وَلَهَا أَسْمَاءٌ بِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ إِذَا تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا
 الصُّورُ الْمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةٍ اسْتِعْدَادِهَا لِلصُّورِ. وَعَنْصَرٌ إِذَا مِنْهَا
 يُبْتَدَأُ التَّرَكِيبُ. وَاسْطَقْسُ إِذَا إِلَيْهَا يَنْتَهِي التَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ
 لِلْمَاهِيَةِ كَمَا أَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِأَسْمِ عِلَّةِ الْمَاهِيَةِ.
 (وَالثَّانِي) إِمَّا مَا بِهِ الشَّيْءُ كَالْتَّجَارِ لِلْسَّرِيرِ وَهُوَ الْفَاعِلُ. وَإِمَّا لِأَجْلِهِ
 الشَّيْءُ كَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ الْغَايَةُ. وَهَاتَانِ مُخَصَّانِ بِأَسْمِ عِلَّةِ
 الْوُجُودِ. وَالْأَوَّلِيَّانِ لَا تَوْجِدَانِ إِلَّا لِلْمَرْكَبِ. وَالْغَايَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا
 لِفَاعِلٍ بِالْإِخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ الْمَوْجِبِ غَايَةً أَيْضًا تَشْبِيهًا.
 وَالْغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي الْخَارِجِ وَإِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي الدِّهْنِ فَلَهَا عِلَاقَةٌ

هَذَا قِيلَ اسْمُ الْجِنْسِ اسْمٌ مَوْضُوعٌ لِلْمَاهِيَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَالْجِنْسُ
 عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٌ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِالْأَغْرَاضِ دُونَ الْحَقَائِقِ .
 وَقِيلَ أَيْضًا: الْجِنْسُ هُوَ الْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ
 وَالْأَحْكَامِ . وَالتَّنَوُّعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ
 وَالْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِالْعَدَدِ فَقَطْ كَالْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ
 وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابٍ مَا هُوَ . وَرَبَّمَا أُطْلِقَ الْجِنْسُ عَلَى الْأَمْرِ
 أَلْعَامِ سِوَاهُ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ مَثَلًا
 فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ .
 ثُمَّ إِنَّ الْجِنْسَ يُقْسَمُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْ
 الْمَاهِيَةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ .
 وَيَكُونُ الْجَوَابُ ذَلِكَ الْجِنْسَ فَقَطْ كَالْحَيَوَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ
 وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْفَرَسِ وَالنَّعَمِ وَالْبَقَرِ وَنَحْوِهَا .
 وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذَلِكَ الْجِنْسِ
 مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ الْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَالْجِنْسِ النَّامِيِّ
 بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ الْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ
 مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَالنَّبَاتَاتِ . . . وَالْأَجْنَاسُ تَتَرْتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَالْأَنْوَاعُ
 مُتَنَزِّلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ
 الْعَالِي وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ الْمَفْرَدُ



الأنواع فَيَجْعَلُهُ جِنْسًا تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَخْصُرَ جَمِيعَ
أَقْسَامِهِ. وَالْمُرَادُ عَنْدهُمْ بِالنَّوعِ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا عَلَى
مُتَعَدِّدٍ ذَهْنًا كَمَا هُوَ النَّوعُ الْمُعْهَدُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَنْطِقِ أَوْ لَا يَصْدَقُ
إِلَّا عَلَى فَرْدٍ وَاحِدٍ كَالْجُزْئِيِّ الْمَعْرُوفِ عَنْدهُمْ. وَالْمُرَادُ بِالْكُلِّيِّ
الْجِنْسُ وَهُوَ مَا صَدَقَ عَلَى مُتَعَدِّدٍ اخْتَلَفَتْ حَقِيقَةُ أَفْرَادِهِ. وَمِثَالُ
ذَلِكَ عَنْدهُمْ كَقَوْلِ الْمُتَنَبِّي:

هِيَ الْفَرَضُ الْأَقْصَى وَرُؤْيُكَ أَلْمَنَى

وَمِثْلُكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ الْخَلَائِقُ

فَقَدْ قَصَدَ تَعْظِيمَ مَدْوَحِهِ فَجَعَلَ مَنْزِلَهُ الَّذِي هُوَ جُزْئِيٌّ كُليًّا وَهُوَ
الدُّنْيَا وَجَعَلَ ذَاتَهُ الَّتِي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُليَّةٌ وَمِثْلُ الْخَلَائِقِ. وَأَمَّا حَضَرُ
أَقْسَامِ الْجُزْئِيِّ فَلِأَنَّ الْعَالَمَ عِبَارَةٌ عَنْ حَيَوَانَ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ وَالْمَنْزِلُ
شَامِلٌ لَهَا

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسية والنخبة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

الْجِنْسُ فِي اللُّغَةِ الضَّرْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ أَعْمُ مِنَ النَّوعِ .
يُقَالُ: الْإِنْسَانُ نَوْعٌ وَالْحَيَوَانُ جِنْسٌ. وَيُرَادُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ
الْمَلَاهِيَةُ. وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ مَا أَشْبَهَهُ وَبِالنَّظَرِ إِلَى

الْجُزْئِيُّ وَهُوَ الْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سِوَاهُ كَانَ
 مَوْجُودًا فِي الْخَارِجِ أَوْ فِي الْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ إِمَّا
 حَقِيقِيٌّ وَهُوَ الَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَإِمَّا إِعْزَافِيٌّ وَهُوَ مَا أُنْزَجَرَجَ تَحْتَهُ
 شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَهُوَ أَخْصُ مِنَ الْكُلِّيِّ الْحَقِيقِيِّ.
 وَالْكُلِّيُّ أَيْضًا إِمَّا جِنْسٌ أَوْ نَوْعٌ أَوْ قِصْلٌ أَوْ خَاصَّةٌ أَوْ عَرَضٌ
 عَامٌّ. وَيُقَسَّمُ أَيْضًا إِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ أَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا
 يَكُونُ مَوْجُودًا فِي الْخَارِجِ أَوْ يَفْتَرِضُهُ الْعَقْلُ وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ
 آخَرَ سِوَاهُ كَانَا كِلَيْتَيْنِ أَوْ جُزْئِيَّيْنِ أَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَالْآخَرُ جُزْئِيًّا
 فَالِنِسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُتَحَصِرَةٌ فِي أَرْبَعٍ: الْمُسَاوَاةُ. وَالْعُمُومُ مُطْلَقًا.
 وَالْعُمُومُ مِنْ وَجْهِ. وَالْمُبَايَنَةُ الْكُلِّيَّةُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَّصِدَقَا عَلَى
 شَيْءٍ أَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَإِنْ تَتَّصَدَقَا فَإِنَّ تَلَازُمًا فِي
 الصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَإِلَّا فَإِنَّ اسْتَلْزَمَ صِدْقُ أَحَدِهِمَا صِدْقَ
 الْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهِ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (أَعْمُ) مِنْ
 الْآخَرِ مِنْ وَجْهِ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَأَخْصُ) مِنْهُ
 مِنْ وَجْهِ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَالْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا أَنْ يَصْدَقَ
 كُلُّ مِنْهُمَا بِالْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ الْآخَرُ سِوَاهُ وَجَبَ ذَلِكَ
 الصِّدْقُ أَوْ لَا

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الْكِتَابَةِ وَالْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ مَوْعِدًا لِلْكُلِّيِّ
 وَالْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ الْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِمَحْضَرِ الْجُزْئِيِّ وَالْخَاطِئِ
 بِالْكُلِّيِّ. فَحَضَرُ الْجُزْئِيِّ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ التَّكْلِيمُ إِلَى نَوْعٍ مِنْ

وَاضِحَ الدَّلَالَةِ فَيُقَسَّرُ بِلَفْظٍ أَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ إِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي التَّعْرِيفِ
الْأَعْمُ وَيُخْتَرَزُ عَنِ الْأَلْفَازِ الْغَرِيبَةِ الْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ الْمَشْتَرَكِ وَالْجَازِ
بِلَا قَرِينَةٍ وَبِالْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسية

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

الْكُلِّيُّ عِنْدَ الْمُنْطَقِيِّينَ هُوَ الْمَفْهُومُ الَّذِي لَا يَنْعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ
وُقُوعِ شَرْكَةٍ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمَكِّنُ تَقْسِيمَهُ إِلَى أَجْزَاءٍ. وَالْمُعْتَبَرُ
فِي الْكُلِّيِّ إِمَّا كَانَ فَرَضَ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءً كَانَ صَادِقًا أَوْ
لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءً فَرَضَ الْعَقْلُ صِدْقَهُ أَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انه يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقدمه اولى ولان الاخص
قيد له مخصص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام
محصل لجزئه الصوري حتى اذا اُخِرَ الجنس فيه كان حداً ناقصاً فليس بشيء اذ
ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنصورة في الجنس والفصل. (ويخترز)
فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها
فتطول المسافة ولذلك مما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم
مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والجاز بلا قرينة) ظاهرة
فيتردد السامع حينئذ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في الجاز الى
غيره. (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر
الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمَكْنَ رَسْمُهُ التَّامُّ وَإِلَّا فَالْناقِصُ. وَهَهُنَا نَوْعَانِ
آخَرَانِ مِنَ التَّعْرِيفِ الْأَوَّلِ بِالْمِثَالِ وَهُوَ بِالْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِالشَّابَهَةِ.
فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا
لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَالثَّانِي التَّعْرِيفُ اللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ اللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن له خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان
كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب
جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول)
التعريف (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب
او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة
تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرفة وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة
(مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرفة (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا)
داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرف (والآ) اي وان لم تكن تلك المشابهة
مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان
استنباس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المعلمين التعريفات بها.
(والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (يفسر
بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا
يراد به افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين
سائر المعاني ليلتفت اليه ويعلم انه موضوع بازائه. فآله الى التصديق وهو طريقة
اهل اللغة وخارج عن المعرفة الحقيقي واقسامه الاربعة التي ذكرت. وحقه ان
يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذكر مركب يقصد به تعيين المعنى لا
تفصيله. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد به تحصيل ما ليس بحاصل من
التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد به تصور مفهومات غير معلومة
الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا علم مثلاً مفهوم الجنس
اجمالاً واريده تصويره بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومه باجزائه كان ذلك حدًا
له اسمياً. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسمياً. والثاني ما يقصد
به تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًا او رسمًا...

وَلَا بُدَّ أَنْ يُسَاوِيَهُ فِي الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ لِيَحْضَلَ التَّمْيِيزُ إِذَا لَوْلَاهُ
لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ الْمَعْرِفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَرِّدًا . أَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ
أَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ تُمْيِيزٍ فَإِنْ كَانَ
ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَالْأَسْمَى رَسْمًا . وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَإِنْ ذُكِرَ
فِيهِ تَمَامُ الذَّاتِيَّ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أُلْسِمَى بِالْجِنْسِ الْقَرِيبِ
فَتَمَّ وَالْأَفْنَاقِصُّ . وَالْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ الْبَسِيطِ فَإِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا
غَيْرُهُمَا حَدٌّ بِهِمَا وَالْأَفْلَا . وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيْنَهُ يُرْسَمُ وَالْأَفْلَا .

اي لولا كونه مساويا (لدخل فيه غير المعرفة) على تقدير كونه اعم مطلقا او
من وجه (فلم يكن مانعا) من دخول غير المعرفة فيه (و) لا (مطردا) وهو ان
يكون بحيث كما صدق على شيء صدق عليه المعرفة ايضا . (او خرج عنه بعض افراده)
على تقدير كونه اخص اما مطلقا او من وجه (فلم يكن جامعا) للجميع افراد المعرفة
(و) لا (منعكسا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرفة .
واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليه المتأخرون اذ حينئذ يحصل
التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرفة عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها
بغيرها . . . (ولا بد فيه) اي في المعرفة (من مميز) مساو للمعرفة (فان كان) المميز
(ذاتيا سمي) المعرفة (حدّا) (والا سمي رسما) . وعلى التقديرين فان ذكر فيه تمام
الذاتي المشترك بينه وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتام (إما حد تام مركب
من الجنس والفصل القريين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب .
(والا فناقص) اما حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او
العرض العام عند من يجوز اخذه في الحد . واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس
البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذه في الرسم . (والمركب) اذا لم يكن بديهي
التصور (يحد) باجزائه حدّا تامّا وناقصا (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا
جزء له (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير
بديهي التصور (حدّا بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور
(كسبي) مركب او بسيط (له خاصة) شاملة لازمة (بينه) بحيث يكون تصورهما

تَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ : إِنَّهُ مَا شَ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ الْأَظْفَارِ بِأَدْيِ الْبَشَرَةِ
 مُسْتَقِيمُ الْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِالطَّبَعِ . وَصَرَحُوا بِأَنَّ الْمُسَاوَاةَ شَرْطُ جُلُودَةِ
 الرَّسْمِ وَجَوَزُوا الرَّسْمَ بِالْأَعْمِ وَالْأَخَصِ وَآيَدَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَعْرِفَ
 لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ التَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ الْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ
 لِلْمَعْرِفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ . فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِيهِ التَّمْيِيزَ فِي الْجُمْلَةِ .
 وَأَمَّا التَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ التَّصَوُّرَاتِ الْمُكْتَسَبَةَ
 كَمَا قَدْ تَكُونُ بَوَاجِهُ خَاصٍ بِالشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيِّ كَذَلِكَ
 تَكُونُ بَوَاجِهُ عَامٍ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيِّ . فَجَبُّ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلِّ
 مِنْهُمَا مُعْرِفًا قَائِلًا لِمُسَاوَاةِ شَرْطِ الْمَعْرِفِ التَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ
 أَوْ رَسْمًا

قَالَ الْأَيْحِيُّ : (*) الْمَعْرِفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ الْمَعْرِفِ فَيَكُونُ
 غَيْرُهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعْرِفُ بِمَا لَا يُعْرِفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

شرح مقالة الأيحي للرجاني

يقول : (المَعْرِفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ مَعْرِفَةِ (المَعْرِفِ) لان معرفته طريق الى
 معرفته وسبب لها فلا بد ان تتقدمها . (فيكون غيره) اذ لو كان عينه لم كون
 الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في
 الجلاء او كان اخفى منه لم يكن معلوماً قبله . (فلا يعرف) هذا تقريع على كونه
 اجلى اي لا يعرف الشيء (بما لا يعرف الا به) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف
 معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك : الشمس
 كوكب نخاري والنهار زمان = كون الشمس طالعة . (او أكثر) ويسمى دوراً
 مضمرأ كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج
 وقوع الشيء في زمان والزمان مقدار الحركة . (ولا بد) اشارة الى شرط آخر للمعرف
 اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) به (التميز) . (اذ لولاه)

البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للابنبي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

التعريفُ عندَ أهلِ العَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ الذَّاتِ مُشَارًا بِهَا إِلَى خَارِجٍ إِشَارَةً وَضَعِيَّةً وَيُقَالُ بِهَا التَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ الْمُنْطِقِيِّينَ هُوَ الطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْمَطْلُوبِ التَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مَعْرَفًا وَقَوْلًا شَارِحًا أَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا أَيْضًا عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ. وَذَلِكَ الْمَطْلُوبُ التَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مَعْرَفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمَعْرِفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ التَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَخْصُلُ بِطَرِيقِ الْخَدْسِ وَمَا يَخْصُلُ مِنَ الْمَلْزُومَاتِ الْبَيِّنَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّوْازِمِ فَإِنَّ الْإِكْتِسَابَ إِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ الْمُنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي الْمَعْرِفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ الْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ الْمَعْرِفُ حَدًّا وَإِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ الْمَعْرِفُ رَسْمًا. وَقَالَ الْمُتَقَدِّمُونَ: إِنْ الرِّسْمُ مِنْهُ تَأَمُّ مُمَيِّزُ الْمَرْسُومِ مِنْ كُلِّ مَا يُعَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ الْجَنْسِ الْقَرِيبِ وَالْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ الضَّاحِكِ. وَمِنْهُ تَأْقِصُ مُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُعَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَخَدَهَا أَوْ بِهَا وَبِالْجَنْسِ الْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ أَوْ بِالْجَنْمِ الضَّاحِكِ أَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ بِجَمَلَتِهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تُعْمَلُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ الَّتِي ذَكَرْنَا
بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا
الْأَنْوَاعُ فَهِيَ الْمَقَدِّمَاتُ الْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ وَنَ الصَّنَائِعِ الْخِزْيَةِ مِثْلُ
الْمَقَدِّمَاتِ الَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ
مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الْخَلْقِيَّةِ وَلَا الَّتِي فِي الْأُمُورِ الْخَلْقِيَّةِ تُعْمَلُ
مِنْهَا الْمَقَايِيسُ فِي الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَإِذَا
الْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ إِذَا مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا
هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرِ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا الْأَنْوَاعُ فَهِيَ الَّتِي
تُؤَلَّفُ مِنْهَا الْمَقَايِيسُ الَّتِي تَلْتَمِسُ مِنْهَا الصِّمَاطَةُ الَّتِي تِلْكَ الْأَنْوَاعُ
مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لَكِنَّ الْأَنْوَاعَ الَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هَذَا الْكِتَابِ عَلَى
ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدِّمَاتٌ يَقِينِيَّةٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ
لَكَانَتْ الْمَقَايِيسُ الْخَطِيئَةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ
جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطِيئَةٍ. وَالضَّمَاكُ الْعَمَلُ فِي هَذِهِ الصِّمَاطَةِ أَكْثَرُ
ذَلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ
وَمِنْ أَجْنَاسِ الْخَطَابَةِ الثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ الثَّلَاثَةِ
الَّتِي تُحَدِّدُ بَعْدُ



البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلُّ مَا كَانَ الْقَوْلُ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَكْثَرَ مُؤَانَةً
وَتَأْتِيهَا لِأَن يُسْتَعْمَلَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ أَقْلَ عُمُومًا
كَانَ آخَرَى أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ . وَلِذَلِكَ كَانَتْ
الْمَوَاضِعُ مِنَ الْقِيَاسَاتِ الْخَطِيئَةِ وَالْقِيَاسَاتِ الْجَدَلِيَّةِ . وَذَلِكَ أَنَّ
الْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعَمُّ الْأُمُورَ الْمُنْطَقِيَّةَ وَالطَّبِيعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ أَغْنَى
الْإِرَادِيَّةَ . وَذَلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ الْأَقْلِ وَالْأَكْثَرِ (*) فَإِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء

الثاني من علم الادب صفحة ٢٩)

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا
فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصورًا
سمي طريقة) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليه (معرّفًا) . (وان كان) المطلوب
(تصديقًا سمي) طريقة (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني)
الموصل الى الظن كالنعم الرطب الموصل الى ظن المطر . (والقطعي) الموصل الى الجزم
والقطع كالعلم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) .
(ويسمى الظني اشارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون)
الاستدلال فيه (من المعلول) كالحصى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا
اِتِّمًا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيه من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لِمَيَّ

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيه (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمن الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

الطَّرِيقُ هُوَ الْمَوْصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمَكِّنُ التَّوَصُّلَ
بِصَحِيحِ النَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ الْإِذْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ
تَصْدِيقًا فَكَذَا الْمَطْلُوبُ. فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقَهُ مُعَرِّفًا
وَأِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ الظَّنِّيَّ وَالْقَطْعِيَّ وَقَدْ
يُخَصُّ بِالْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى الظَّنِّيَّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنْ
الْمَعْلُولِ عَلَى الْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال : (الطريق) اي ما يقع فيه النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحده) اي تحديده وتقسيه الى اقسامه الاولى (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه الى المطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقاً بعدم التوصل بل يكفيه امكانه. وقيد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل به اليه اذ ليس في نفسه وسيلة له. واراد بالنظر فيه ما يعم النظر في نفسه والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شأنه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلاً فانه يسمى عندهم دليلاً. ويتناول ايضاً التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذ يلزم تناوله للقدماء اذ لم تؤخذ مع ترتيبها. واطلق المطلوب

يَعْرِفُ الْقِيَاسَ الَّذِي هُوَ جَنْسُهُ. وَالَّذِي يَزِيدُ عَلَى هَذَا فَيَعْلَمُ لِمَاذَا
تُعْمَلُ الصَّمَايِرُ وَالْفُصُولُ الَّتِي بَيْنَ الضَّمِيرِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْمَقَالِيصِ الَّتِي
تُسْتَعْمَلُ فِي الصَّلَاحِ الْآخَرِ فَهُوَ أَقْدَرُ مِنْ ذَلِكَ. وَالْمَعْرِفَةُ بِهَذَا كُلِّهِ
إِنَّمَا هُوَ لِصِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ. فَإِنَّ الْقُوَّةَ الْوَاحِدَةَ بَعَيْنَهَا أَعْنِي لِلصِّنَاعَةِ
الْوَاحِدَةِ بَعَيْنَهَا أَنْ تُعْرِفَ الشَّيْءَ الَّذِي هُوَ حَقٌّ وَالَّذِي هُوَ شَيْءٌ
بِالْحَقِّ وَالتَّصْدِيقَاتُ الْخَطِيئَةُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَقًّا فَهِيَ شَيْءٌ بِالْحَقِّ
وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّاسَ مُتَهَيِّئُونَ بِطَبِيعَتِهِمْ كُلِّ انْتَهِيَّةٍ نَحْوَ الْوُقُوفِ عَلَى
الْحَقِّ نَفْسِهِ. وَهُمْ أَكْثَرُ ذَلِكَ يَوْمُونَ وَيَفْعَلُونَ عَنْهُ. وَالنَّحْمُودَاتُ
وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ مِنْهَا الصَّمَايِرُ شَيْءٌ بِالْحَقِّ مِنْ قَبْلِ أَنَّهَا نَائِبَةٌ عِنْدَ
الْجُمْهُورِ مَنَابَ الْحَقِّ. وَالشَّيْءُ بِالْحَقِّ قَدْ يَنْخَلُ فِي عِلْمِ الْحَقِّ
الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْمُنْطِقِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنْ
فُصِّرَ هُوَلَاءُ فِيمَا تَكَلَّمُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْخَطَابَةِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ أَجْلِ
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ عِلْمٌ بِالْمُنْطِقِ وَأَنَّ سَائِرَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي
الْخَطَابَةِ وَمَنْ يَسْتَعْمِلُ الْأَقَاوِيلَ الْخَطِيئَةَ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ
يَتَقَدَّمُوا فَيَعْرِفُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي هِيَ عُمُودُ الْبَلَاغَةِ إِنَّهُمْ إِنَّمَا
يَتَكَلَّمُونَ فِي أَشْيَاءٍ تَجْرِي مِنَ الْبَلَاغَةِ مَجْرَى التَّزْيِينِ وَالتَّسْمِيقِ
الَّذِي يَكُونُ فِي ظَاهِرِ الشَّيْءِ وَصَفَتِهِ لَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَنْزَلُ
مِنْهَا مَثَلَةٌ مَا بِهِ قِيَامُ الشَّيْءِ وَوُجُودُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُظَنُّ بِمَا فَعَلُوا
مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا الْغَايَةَ مِنَ الْأَقَاوِيلِ الْاِقْتِنَاعِيَّةِ وَجَرَوْا فِي
ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ وَالْعَدْلِ

الفصل الثالث

في الاقاول المقتعة

البحث الاول

في ان الخطيب لا بد له للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا التَّصْدِيقُ وَالْإِعْتِرَافُ مِنَ الْمُخَاطَبِ بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ
الدَّعْوَى وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَشْيِيتِ الشَّيْءِ عِنْدَ الْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذَلِكَ
أَنَّا إِنَّمَا نَعْتَرِفُ بِالشَّيْءِ الَّذِي رَأَيْنَا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَالشَّيْءِ الَّذِي
تَثَبَّتْ بِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ الْخُطَابَةِ هُوَ الضَّمِيرُ (١) لِأَنَّ هَذَا هُوَ
أَصْلُ التَّصْدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تُوقَعُ هَذَا النَّحْوُ مِنَ التَّصْدِيقِ
أَعْنِي التَّصْدِيقَ الْبَلَاغِيَّ. وَالضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةٌ
الْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ الْمُنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ
الْمُنْطِقِ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِمَّا فِي كُلِّهَا وَإِمَّا فِي أَجْزَاءِ
مِنْهَا. وَبَيِّنُ أَنْ الَّذِي يَعْرِفُ الْقِيَاسَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَلْتَمِمْ وَيَكُونُ وَمَتَى
يَكُونُ فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ الضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ الضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ أَنْ

(١) يريد بالضَّمِيرِ القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس

الذي قدَّرت إحدى مقدِّمته إِمَّا الْكُبْرَى وَإِمَّا الصَّغْرَى

مَعْرِفَةُ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ الْأَنْفِعَالَاتِ (١)
وَذَلِكَ بِأَن يَعْرفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيْ
شَيْءٍ يَكُونُ وَسَيِّئٌ يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ
فَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ كَانَتْ مُرَكَّبَةً مِنْ صِنَاعَةِ الْكَلَامِ وَالصِّنَاعَةِ الْخَلْقِيَّةِ
أَعْنِي الْمَدْنِيَّةِ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا
إِمَّا مِنْ قَبْلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ صَنَعُوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَتَجَلَّوْا
عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ لِمَكَانِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي مِنْ خَارِجِ .
فَهَذِهِ الصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ الْنَاطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْجَدَلِ
فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ
مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْأَعَانُ بِهِ الْيَقِينُ لَكِنْ إِنَّمَا يَبْأَعَانُ مِنَ النَّظَرِ مَا
دُونَ الْيَقِينِ

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة .
وناهيك به من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرع يدعون
هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)



دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي الشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ
 لِلْحَسَنِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحْسَوْهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ.
 فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عِنْدَ الْحَسَنِ وَهِيَ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ
 عَنْهُمْ مَا أَحْسَوْا مِنْ ذَلِكَ أَوْ وَهَمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ
 مُمَكِّنًا أَنْ يَهْمَ فِيهِ الْحَسَنُ فَلَيْسَ يُصَدِّقُونَ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَدْعُونَهَا
 فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذَلِكَ الشَّيْءِ
 الْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي الْخَطَابَةِ
 فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْقَضِيَّةَ وَالْأَنَاءَةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ الْإِنْفِعَالِ
 فَقَطْ. وَأَمَّا (الصَّنْفُ الثَّانِي مِنَ التَّصْذِيقَاتِ) فَهُوَ الصَّنْفُ الَّذِي
 يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ السَّمْعُ بِالْقَوْلِ أَنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ التَّصْذِيقَ
 بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْذِيقُنَا بِالشَّيْءِ وَاقْرَارُنَا بِهِ
 وَنَحْنُ فِي حَالِ الْقَرَحِ أَوْ الْحُزْنِ تَصْذِيقًا وَاحِدًا. وَكَذَلِكَ إِذَا كُنَّا
 فِي حَالِ السُّخْطِ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ حَالِ الرِّضَا عَنْهُ. وَهَذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ
 الَّتِي تَكَلَّمُ فِيهَا أَوْلَاكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ. وَأَمَّا (الصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذِهِ التَّصْذِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ
 الشَّيْءِ بِالْكَلَامِ الْمُنْفَعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُنْفَعٌ وَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ
 الْجَزْئِيَّةِ الَّتِي تُنْفَعُ فِيهَا هَذِهِ الصَّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ التَّصْذِيقَاتُ إِنَّمَا
 تَكُونُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ الَّذِي يَقْتَضِي أَنْ
 يُنْفَعُ الْإِقْنَاعُ الْمُمْكِنُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ الَّذِي
 يَكُونُ عَلِيمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ الْأَقَاوِيلِ الْمُنْفَعَةِ. (وِثَانِيهَا)

البحث الثاني

في وسائل الاقتناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

أَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَفْعَلُ التَّصَدِيقَاتِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِغَائِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ الَّتِي وَجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوَيْتِنَا وَنَحْنُ الْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِغَائِيَّةٍ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ وَجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوَيْتِنَا مِثْلُ الشُّهُودِ وَالْتَغْذِيبِ وَالْعُقُودِ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ. وَالْأَشْيَاءُ الصِّغَائِيَّةُ الَّتِي نَحْنُ الْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا أَشْيَاءٌ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلُ الْإِخْتِجَاجِ بِالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ الَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَاشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرُهَا نَحْنُ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْإِقْتِنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَأَمَّا التَّصَدِيقَاتُ الَّتِي نَفْعُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرُهَا فِيهَا ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ : (أَحَدُهَا) إِثْبَاتُ التَّكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا أَهْلًا أَنْ يُصَدَّقَ وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَ التَّكَلِّمِ بِهِيَّةً فِي وَجْهِهِ وَأَعْضَائِهِ شَأْنَهَا أَنْ تُوقَعَ التَّصَدِيقُ بِالشَّيْءِ التَّكَلَّمَ فِيهِ مِثْلُ التَّوَدُّدِ وَالْوَقَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالْفَضِيلَةُ الَّتِي شَأْنُهَا هَذَا هِيَ الَّتِي يَعْنِي أَرِسْطُو بِالْكَفِيَّةِ. وَالْهَيْئَةُ الَّتِي شَأْنُهَا هَذَا هِيَ الَّذِي يَعْنِي بِالسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي التَّصَدِيقِ أَنَّ الصَّالِحِينَ الْفَاضِلِينَ يُصَدِّقُونَ سَرِيعًا

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَعْبُ
 فَذَكَرُ الرَّأْسِ مَعَ الصَّدَاعِ أَفْضَلُ
 وَالْمَقْصَرُ مِنَ الْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ
 وَيُخَوِّجُكَ إِلَى شَرْحِ كَيْتِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ :
 وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ النَّوْكِ مِنْ رَامِ كَدَا
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضْمَنًا) التَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ
 مُفْتَقِرًا إِلَى الْفَصْلِ الثَّانِي وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مُحْتَاجًا إِلَى الْآخِرِ كَقَوْلِ
 الشَّاعِرِ :

كَانَ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغْدَى بَلِيلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
 قَطَاةٌ غَرَهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تَجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
 فَلَمْ يَتِمَّ الْمَعْنَى إِلَّا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثْلُهُ مِنْ
 نَثْرِ الْكِتَابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذَا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ
 وَيُدْعَى بِهِ فِي الْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ الْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ الْأَعْدَادِ
 وَقَدْ تُسَمَّى اسْتِعَارَتُكَ الْأَنْصَافَ وَالْآيَاتِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ
 وَإِذَا خَالَكَ إِيَّاهُ فِي أَشْأَاءٍ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ
 يَتَضَمَّنُ صِفَةَ التَّكَلُّمِ لَا صِفَةَ الْكَلَامِ إِلَّا قَوْلُهُ : (وَيَكُونُ تَصْفِيهِ
 لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصْفِيهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى الْكَلَامِ فِي هَذَا
 وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِي



لَمَّا تَصَفَّحْتُ أَخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايَنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِنَةً عَنْ قَصْدِ
طَرِيقَتِي صَرَتْ عَلَيْهَا رِيَاضَةٌ لِنَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ لِمَسَاوِي أَخْلَاقِ
الْمُعَانِيرِينَ وَلِلْمَلِي يَكَا مِنْ الْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِينَ. وَالَّذِي رَجَوْتُ
مِنْ مَرَمَةٍ خِصَالِكَ بِمَا أَقَابُهَا بِهِ مِنَ التَّجَاوُزِ وَاسْتَحْبُّ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا
أَذْيَالِ التَّغَاظِي. وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُقَوِّمُ أَعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا
يَغْطِفُ بِكَ الرَّأْيُ عَلَى دُشْدِكَ. فَلَمَّا فَنَيْتَ حِيلَتِي فِيكَ وَأَنْقَطَعْتُ
أَسْبَابُ أَمَلِي مِنْكَ وَرَأَيْتُ الدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى التَّعْهَدِ بِالِدَوَاءِ
إِلَّا فُسَادًا وَالتَّحْرُقَ عَلَى التَّرْقِيعِ إِلَّا اتِّسَاعًا قَدَّمْتُ أَلْيَاسَ مِنْكَ عَلَى
الرَّجَاءِ فِيكَ فَاحْتَسَبْتُ أَيَّامِي السَّالِفَةَ فِي اسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ: (وَحَقُّ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْأِسْمُ طَبَقًا) أَيِ
يَكُونَ الْأِسْمُ طَبَقًا لِلْفِظِ بِقَدْرِ الْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ
عَنْهُ فَكَانَ كَالطَّبَقِ عَلَى الْإِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ
وَقَوْلُهُ: (وَلَا يَكُونَ الْأِسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصَّرًا) فَهَذَا دَاخِلٌ فِي
الْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ: وَحَقُّ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْأِسْمُ طَبَقًا. وَمِثَالُ
الْفَاضِلِ مِنَ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أَدْنَةَ:

وَأَسْقِ الْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَأَعْلَمْ لَهُ بِالْغَيْبِ أَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكُمَا
وَأَجَزِ الْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى أَنْ لَوْ لَهُ يَوْمًا بَذَلَتْ كَرَامَةٌ لِحَزَاكُمَا
وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مُحْضُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ: اجْزِ كَلَامًا
بِفِعْلِهِ. وَكَانَ السُّكُوتُ عِرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ. وَمِنْ الْكَلَامِ الْفَاضِلِ
عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ أَبِي الْعِيَالِ الْهَذَلِيِّ.

أَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَّبِعَ مَعْنَاهُ وَأَمَّا فِي نَفْسِ الْبَيْتِ
فَلَا يَتَّبِعُ مَعْرَاهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

وَقَمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ أَنْ أُوْدِعَ الْوَرَى بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تُقْلَعُ
فَقَوْلُ النَّاسِ فِي السَّحَابِ إِذَا أَلْمَعَ عَلَى وُجُوهِ فَتَنْهَمُ مَنْ يَدْحُهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْمُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَفْلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ إِقْسَاعَهُ
عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يَبَيِّنْ
يَقُولُهُ مَعْنَى يَعْتَمِدُهُ السَّامِعُ. عَلَى أَنَّ الْمُخْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : إِنَّ أَكْثَرَ
الْعَادَةِ فِي السَّحَابِ أَنْ يُحْمَدَ آثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَّا كَانَ مُبْعَدًا.
وَلَمْ أُرِدْ عَيْبَ أَبِي تَمَّامٍ بَلَا قُلْتُ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ الْإِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ
الْإِسْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ
مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ. وَمِنْ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

وَحَبْنُ مَا يُحْبَنُ مِنْ آخِرٍ مِنْهُ وَالطَّائِنِ آمَهَارُ (١)

الْأَمْهَارُ هَاهُنَا جَمْعُ مَهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَهْرٌ يَمُورُ مَهْرًا. وَالْمَصَادِرُ لَا
تُجْتَمِعُ وَلَا يَشْكُ سَامِعُ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مَهْرٍ فَيُشْكِلُ
الْمَعْنَى عَلَيْهِ. وَخَطَبَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى :
لَا يُقَاسُ بِالْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِالْأَلْسَانِ. أَرَادَ جَمْعَ أَلْسِنٍ فَاصَابَ
السَّجْعَ وَآخِطَا الْمَعْنَى. وَأَمَّا مَا بَيَّنَّاهُمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ. وَمِنْ
الْكَلَامِ الْخَالِي مِنَ الْإِسْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِإِخٍ لَهُ أَرَادَ فِرَاقَهُ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ فِي دِيوَانِ أَبِي نُوَّاسٍ :

وَحَبْنُ مَا يُحْبَنُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْهُ وَالطَّائِنِ آمَهَارُ

فَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ الْأَلْفَاظِ قَائِدَةٌ فَذَلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ
التَّذْيِيلِ. وَقَوْلُهُ: (وَمُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ) فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ الْإِبَانَةَ
عَنْ مَعْنَى فَيَأْتِي بِالْأَلْفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ
أُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ السَّمَاعُ أَيَّهَا أَرَادَ. وَرَبَّمَا اسْتَبْهَمَ الْكَلَامَ فِي نَوْعٍ
مِنْ هَذَا الْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقِفَ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِالتَّوَهُّمِ. فَمِنْ الْجِنْسِ
الْأَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ:

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِي يَوْمَ الرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلْ
فَوَجَّهَ الْأَشْتِرَاكَ فِي هَذَا أَنَّ السَّمَاعَ لَا يَذَرِي إِلَى أَيِّ شَيْءٍ
أَشَارَ مِنْ أَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ: (فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلْ) أَرَادَ أَنْ يَنْكِحَ
إِذَا رَحَلُوا أَوْ يَهَيِّمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْغَنَمِ الَّذِي لِحَقَّهُ أَوْ يَتَّبِعُهُمْ فِي
الْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ الرَّحِيلِ أَوْ يَأْخُذُ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ أَوْ يَدْفَعُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهُ الْخَلِيلُ عِنْدَ
فِرَاقِ أَحَبَّتِهِ. فَلَمْ يُبَيِّنْ عَنْ غَرَضِهِ وَأَخْوَجَ إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا أَرَادَ
فَعَلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ. وَلَيْسَ هَذَا كَقَوْلِهِمْ: (لَوْ رَأَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ الصَّقَيْنِ).
لِأَنَّ دَلِيلَ الْبَسَاطَةِ وَالْتِكَايَةِ فِي هَذَا الْكَلَامِ بَيْنٌ وَآمَارَةٌ
الْتِقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ مَنْ يَسْمَعُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ
الْبَلَاغَةِ يَسْتَبْزِدُهُ وَيَسْتَعِثُّهُ وَيَسْتَرْجِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَحْيِدُهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ
سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ الْأَزْدِيِّ:

فَإِنَّكَ لَوْ لَأَقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ لِلَأَقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ
فَلَمْ يُبَيِّنْ عَمَّا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: (لَلَأَقَيْتَ) أَخِيرًا أَرَادَ أَمْ شَرًّا إِلَّا

تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي
الْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ الصَّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ الْأَسْطِرَافِ وَالَّتَطَرُّفِ
لَهَا، فَقَوْلُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ الْكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ
وَمُخَكِّمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ يُمْنَ عَرَفَ الْعَالِي
وَالْأَلْفَاظَ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي الْأَلْفَةِ وَالْإِعْرَابِ وَالْعَالِي عَلَى جِهَةِ
الصَّنَاعَةِ لَا كَمَنْ اسْتَطَرَفَ شَيْئًا مِنْهَا فَنَظَرَ فِيهِ نَظْرًا غَيْرَ كَامِلٍ أَوْ
أَخَذَ مِنْ أَطْرَافِهِ وَتَنَادَلَ مِنْ أَطْرَافِهِ فَتَحَلَّى بِأَسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ.
فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهُ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَفْقَهُ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هَذِهِ
صِفَتُهُ ذَهَبَتْ قَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنَفَعَةُ مَنَظِقِهِ. لِأَنَّ الْعَالِيَّ
إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ الْعَلِيَّةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ
بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ الْعَامَّةِ: بِمَ كُنْتُمْ تَتَنَقَّلُونَ الْبَارِحَةَ
(يَعْنِي عَلَى النَّيْدِ). فَقَالَ: بِالْحَمَالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (أَيْشَ كَانَ
نَقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخْرِيَّتِهِ. فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ كُلُّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ
وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ الْخ) هُوَ أَنْ
يُسْقِطَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ الْكَلَامُ مَعَ اسْقَاطِهِ تَامًا غَيْرَ
مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ قَائِدَةً. وَذَلِكَ وَمِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ
مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِصَحَابِ الْعَبْدِيِّ: مَا الْبَلَاغَةُ فَقَالَ: أَنْ تَقُولَ فَلَا
تُحْطِئْ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئْ. ثُمَّ قَالَ: أَقْلَنِي هَوَانَ (لَا تُحْطِئْ وَلَا
تُبْطِئْ). فَالْتَقَى اللَّفْظَتَيْنِ لِأَنَّ فِي الْأَوَّلِيِّ أَبْقَى غَنَى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

بَاعَدَهُ اللَّهُ مِنْ صِفَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ قَائِمَاتٌ مِنْ شِعْرِ النِّجَاحِ وَالطَّرِمَاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ الرِّصْفِ الْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرٍ مِنْ ذَلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ الْأَصْمَعِي بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضُهُ وَهَذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ الْبُلَّغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصِفِيهَا كُلَّ التَّصْفِيَةِ وَيُهْدِيهَا كُلَّ التَّهْدِيَةِ) فَتَصْفِيَّتُهُ تَعْرِيتُهُ مِنَ الْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ الشَّوَاعِلِ عَنْهُ وَتَهْدِيَّتُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ الرَّدِيِّ الْمَرْدُولِ وَالسُّوْقِيِّ الْمَرْدُودِ فَمِنْ الْكَلَامِ الْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ الْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقِّ يَجِبُ لَهُ وَقِيلَ وَاضِحَ الْعُذْرِ وَأَسْتَكْثَرَ قَلِيلَ الشُّكْرِ لَا زَالَتْ آيَادُكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَانِكَ وَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَتَيْتُ إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بَرَكَ فَلَا زَالَتْ آيَادُكَ مَمْدُودَةٌ بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تَحْقِيقُهُ حَتَّى تَتِمَّ إِلَى مِنَ الْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَبَالَ مِنْ الدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمًا يَوْمٌ لَيْتَ الْخَوَاشِي وَطِيءُ النَّوَاجِي وَهَذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَائِسٍ غَيْمِهَا وَلَامِعَ بَرَقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ السُّرُورِ وَنِظَامُ الْأُمُورِ فَلَا تَعْبَ عَنَّا فَعِلْ (١) وَلَا تُفَرِّدْنَا (٢) فَلَسْتُ وَحْشَ فَإِنَّ الْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ (١) وَلَا تَفْعَلْ ذَلِكَ حَتَّى تُضَادَفَ حِكْمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

غُرَّتْهُ الْقَمَرُ الْأَذْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَالْخَلْبِ الْأَجْرَدِ (١). فَقَالَ
 أَخْيَاطُ أَطْلَبَهَا فِي بَرٍّ لَخْلَجَ (٢). فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ قَبْجَكَ اللَّهُ
 فَمَا أَعْلَمُ رَطَانَتَكَ. فَقَالَ : لَعَنَ اللَّهُ أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَانَا مَنْطِقًا
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُدْفِقُ الْمَعَانِي كُلَّ التَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ : لِأَنَّ
 أَلْفَايَةَ فِي تَدْقِيقِ الْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْمِيَّتِهِ وَتَعْمِيَّةُ الْمَعْنَى لُكْنَةٌ إِلَّا
 إِذَا أُريدَ بِهِ الْأَلْفَاظُ وَكَانَ فِي تَعْمِيَّتِهِ قَائِدَةٌ مِثْلُ اثْبَاتِ (٣)
 الْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ الْخُحُونِ الَّتِي اسْتَعْمَلُوهَا وَكُنُوا بِهَا عَنِ الْمُرَادِ
 لِبَعْضِ الْغَرَضِ. فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ الْأَبَانَةَ فِي مَدِيحٍ أَوْ صِفَةِ شَيْءٍ
 فَاتَى بِإِعْلَاقِ ذَلِكَ عَلَى عَجْزِهِ فِي الْأَبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ الْإِنْصَاحِ.
 وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُنْتَجِجُ الْأَلْفَاظُ كُلَّ التَّنْقِيجِ) فَتَنْقِيجُ اللَّفْظِ أَنْ
 يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكُنُّ فِي الْأَسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
 أَلْوَرَاءَ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِبَانَتَكَ. فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ : عَجَلَ اللَّهُ إِمَاتَتَكَ.
 وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيجِ اللَّفْظِ اسْتِعْمَالُ وَخَشْيَتِهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ. وَقَدْ أَخَذَ
 الرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ :

تَقِي نَقِيٍّ لَمْ يُكْثِرْ غَنِيمَةً بِنَهْكَ ذِي الْقُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ
 فَاسْتَبَشَعُوا (أَحَقْلَدَ) وَهُوَ السَّيِّئُ الْخُلُقِ وَقَالُوا : لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ
 أَنْكَرٌ مِنْهُ. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ : رَأَيْتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُثْبِهِمْ هَذَا الْكَلَامَ
 فَإِنْ كَانُوا إِذَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى قَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

(١) وفي رواية : ينير في خضره كالخلب الأخرز (٢) ويروى : في تمر بلخ
 (٣) وفي رواية : آيات المعاني

بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي نُوَّاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ أَشْعَرُ لَتَصْرَفِهِ فِي
وُجُوهِ الشَّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا
يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَأَبْلَغُ مِنْ هَذِهِ الْمَثَلَةِ أَنْ يَتَفَنَّ صَانِعُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ
أَيُّ يَأْتِي مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَأُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ إِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ إِذَا
أَرَادَ. وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَأَبَا نُوَّاسٍ عَلَى
مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْأَمَّةِ بِكَلَامِ الْأُمَّةِ وَلَا أَمْلُوكَ
بِكَلَامِ السُّوقَةِ) لِأَنَّ ذَلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَضُحُّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي قَالَ: بِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.
وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ الرَّأْيِ وَقَلَّةُ الْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطَبُونَ
السُّوْقِيَّ وَالْمَمْلُوكَ الْأَعْجَمِيَّ بِالْفَاطِ أَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي أَهْلِ السَّرَاقَةِ.
كَأَيِّ عُلُقَمَةٍ إِذَا قَالَ لِحَجَّامِهِ: أَشَدُّ لِقَصَبِ الْمَلَّازِمِ وَأَرْهَفُ ظُبَاتِ
الْمَشَارِطِ وَأَمِيرَ الْمَسْمُوحِ وَأَسْخَلَ الرَّشْعِ وَخَفِيفِ الْوُطْءِ وَتَحْمِلِ الْلُزْعِ
وَلَا تُكْرِهَنَّ آيَا وَلَا تَمْنَعَنَّ آيَا. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ
بِالْحُرُوبِ. وَأَخْبَرَ أَبُو الْمَغَازِلِ الضَّيِّيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ
بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْعَرِيبِ فَخَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرِ مَعَهَا
مُهْرٌ. فَأَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا هَرَّ بِحَيَّاطٍ
فَقَالَ: يَا ذَا النَّصَاحِ وَذَاتِ السُّمِّ الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغَى لِنَعْرِ عَدَى
هَلْ رَأَيْتَ الْخِيفَانَةَ الْقَبَاءَ يَتَّبِعُهَا الْحَاسِنُ الْمُسْرَهْفُ (١) كَانَ

وَالسَّهْلَ وَالْجَرَاةَ وَالْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَعِينِي عَنْ
الْإِشَارَةِ لَكَانَتْهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَخَيِّرَ الْأَلْفَاظِ) فَلَا نَ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْيِيرِ اللَّفْظِ
وَتَحْيِيرُهُ أَضْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيْفِهِ . وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ فَضْلُ
التَّصْرِيفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ الْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى
جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَصِرُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ
أَقْسَامِهِ فَلَنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهَجَائِهِ
وَمَرَاثِيهِ وَصِفَائِهِ وَمَعَاجِرِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ . وَلَا خِلَافَ قُوَى
النَّاسِ فِي الشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ : كَانَ أَمْرُهُ الْقَيْسِ أَسْعَرَ النَّاسِ إِذَا
رَكِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ وَرُزْهَيْزٌ إِذَا رَغَبَ وَالْأَعَشَى إِذَا طَرِبَ .
وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ
وَسَهَّلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسَّرَ نَوْعٌ آخَرُ وَأَخْبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ
قَالَ : أَمَرَنِي الْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى النَّوَاحِي فِي الْأَسْتِكْثَارِ مِنْ
الْقَنَادِيلِ فِي الْمَسَاجِدِ . فَبِتُّ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَخْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي
مَائِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ عِمَارَةً لِلْمَسَاجِدِ وَأَنْسَاءً لِلْسَّابِقَةِ
وَأَضَاءَةً لِلْمُتَحَيِّدِينَ وَنَفِيًا لِمَكَائِنِ الرِّيبِ وَتَنْزِيهًا لِيُوتِ اللَّهُ جَلَّ
وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ الظُّلَمِ . فَأَنْتَبَهْتُ وَقَدْ انْفَقَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَأَبْتَدَأْتُ
بِهَذَا وَاتَّمَمْتُ عَلَيْهِ . وَالْمَقْدَمُ فِي صِنْعَةِ الْكَلَامِ هُوَ الْمُسْتَوَلِي عَلَيْهِ مِنْ
جَمِيعِ جِهَاتِهِ الَّتِي تَسْكُنُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهَذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى
الْقُرْزُدُقِ وَقَالُوا : كَانَ لَهُ فِي الشِّعْرِ ضَرْبٌ لَا يَعْرِفُهَا الْقُرْزُدُقُ . وَسُئِلَ

وَالْإِنْحَامَ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ الْمِنْبَرَ
فَارْتَجَحَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ قَبْلِي كَانُوا يُعَدَّانَ لِهَذَا الْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ
إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ آخَوْجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمْ الْخُطْبَةُ
عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ الْعَرَبِ مِنْبَرًا بِحُرَّاسَانَ فَارْتَجَحَ عَلَيْهِ فَقَالَ
حِينَ تَرَى :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنِّي بَسِيفِي إِذَا جَدَّ الْوَعْيُ خَطِيبٌ
وَمِنْ حُسْنِ الْأَعْتِدَارِ عِنْدَ الْإِرْتَاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ
عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) أَمْتَعَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ
فَقَدْ يَجِدُ الْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ الْمُوسِرُ وَيُقِلُّ الْحَرِيدُ وَيَقْطَعُ الْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا
الْكَلَامُ بَعْدَ الْإِنْحَامِ كَالْإِشْرَاقِ بَعْدَ الظَّلَامِ وَقَدْ يَغِزِبُ الْبَيَانُ وَيَغِثُّ
الصَّوَابُ وَإِنَّمَا اللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَفْئُدُ بِقُورِهِ (١) إِذَا
نَكَلَ وَيُثَوِّبُ بِأَنْسَاطِهِ إِذَا ارْتَجَلَ . آلا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ
حَصْرًا بَلْ نَسْكُتُ مُتَعَبِّرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَخُنْ بَعْدَ ذَلِكَ
أُمَرَاءَ الْقَوْلِ فِينَا وَسَجَّتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا غُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَكِنَّا تَهَدَّلَتْ
ثَمَرَتُهُ فَتَحَيَّرُ مِنْهُ مَا أَتْلُوهُ وَعَذِبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا أَتْلُوهُ وَحَبَثَ .
وَمَنْ بَعْدَ مُقَامِنَا هَذَا ثِقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ
نَفْسِ الْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوءُهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهْمَلُهُ فِي مَنْطِقِهِ .
قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يُحْيَى جَأْشُهُ هُدُوءُهُ فِي كَلَامِهِ وَتَهْمَلُهُ فِي
مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يُحْيَى أَنْطَقَ النَّاسَ قَدْ جَمَعَ أَهْدُوهُ

صِنَاعَةُ الْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاطَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ
وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخْلَ وَتَخَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَزَ وَإِذَا
حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى
أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيئُ
فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ الْمُسِيئِ الْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ الْحَسَنِ
التَّوَسُّطُ فَإِنَّ الْأَلْسِنَةَ يورثُ الْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَجُوزُ صَاحِبُهُ مِنْ
الزَّلَلِ وَالْعَيْبِ وَالْخَطْلِ . وَلَيْسَ يَتَّبِعِي لِلْحَسَنِ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْفُنُونِ
الْمُسِيئُ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيئٌ فِيهِ
فَإِنْ اضْطُرَّ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ
الِاخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ الْأَلْسِنَةِ وَالْإِهْذَارِ لِقِلَّ السَّقَطِ فِي كَلَامِهِ وَلَا
يَكْثُرُ الْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِابْنِ الْقَمَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ الْقَصَائِدَ .
قَالَ : لَوْ أَطْلَمْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ الْحَدِيثَ يَتَشَبَّهُ بِالْقَدِيمِ فِي
الْقَلِيلِ مِنَ الْكَلَامِ . فَإِذَا طَالَ اخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى
أَنَّ السَّابِقَ فِي مَيَادِينِ الْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ الْمُقْصَرُ عَنْ
غَايَتِهَا وَالْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمْدِهَا . وَمِنْ تَامِ آلَاتِ الْبَلَاغَةِ التَّوَسُّعُ فِي
مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ الْأِسْتِعْمَالِ لَهَا وَالْعِلْمُ بِفَاخِرِ الْأَلْفَاظِ
وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيِّرِهَا وَرَدِّيَّهَا وَمَعْرِفَةُ الْمَقَامَاتِ وَمَا يَضُحُّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ رَابِطَ الْجُلُوسِ سَاكِنَ النَّفْسِ)
هَذَا لِأَنَّ الْخَيْرَةَ وَالْدَّهْشَ يورثَانِ الْخُبْسَةَ وَالْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا الْإِرْتَاجِ

الصَّنَاعَةِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ الْأَعْرَاضِ (١) وَالْتَصْفُحِ وَلَا عَلَى
وَجْهِ الْأَسْطِطَافِ وَالْتَظْرَفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَأَعْلَمَ أَنَّ حَقَّ الْمَعْنَى
أَنْ يَكُونَ الْأِسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ الْحَالُ وَفَقًا وَلَا يَكُونَ الْأِسْمُ
فَاضِلًا وَلَا مُقْصَرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضْمَنًا وَيَكُونُ تَصْفُحُهُ لِمَصَادِيرِ
كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصْفُحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونُ لَفْظُهُ مُوْنَقًا وَمَعْنَاهُ نَبِيْرًا
وَإِضْحًا وَمَقْدَارُ الْأَمْرِ عَلَى إِنْفَهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَالْحَمْلِ
عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُؤَاتِيَهُ اللَّهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ
وَيَكُونُ فِي التَّهْمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ الظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنُ
الْأَمِينِ وَإِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ الْحَقِّ فِي التَّهْمَةِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلُّ
الْمُظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ
الْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ الْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ: (أَوَّلُ الْمُبَالَغَةِ اجْتِمَاعُ آلَةِ الْمُبَالَغَةِ) أَيُّ أَوَّلِ آلَاتِ الْمُبَالَغَةِ جُودَةُ
الْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ اللِّسَانِ وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى
اِكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَاجْتِلَالِهِ لَهَا . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَاعْمَلَ
فِكْرَهُ آتَى بِالْبَيَانِ الْفَحِيصِ وَالْكَلَامِ الْبَدِيعِ . اُلْمُصِيبِ وَاسْتَخْرَجَ
الْمَعْنَى الرَّاغِبَ وَجَاءَ بِاللَّفْظِ الرَّائِعِ . وَإِذَا حَاوَرَ وَنَظَرَ قَصَرَ وَتَأَخَّرَ
فَحَقُّ هَذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِارْتِجَالِ الْخُطْبِ وَلَا يُجَارِي أَصْحَابَ
الْبَدَايَةِ فِي مَيْدَانِ الْقَرِيضِ وَيَكْتَفِي بِتَنَاجُجِ فِكْرِهِ وَالنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والظرف

(٣) ويروى في اقدار

الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصنائع باختصار)

قَالَ مَعْمَرُ أَبُو الْأَشْعَثِ قُلْتُ لِهَيْلَةَ الْهِنْدِيِّ أَيَّامَ اجْتَلَبَ يَحْيَى
ابْنُ خَالِدٍ أَطِبَاءَ الْهِنْدِ : مَا الْبَلَاغَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْهِنْدِ . قَالَ بَهْلَةٌ :
عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلَكِنِّي لَا أَحْسِنُ تَرْجُمَتَهَا وَلَمْ
أَعْلَجْ هَذِهِ الصَّاعَةَ فَأَتَى مِنْ نَفْسِي بِالْقِيَامِ بِمُحَاضَرَتِهَا وَلَطِيفِ
مَعَانِيهَا . (قَالَ أَبُو الْأَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ الصَّحِيفَةَ الْمُرْجَمَةَ فَإِذَا
فِيهَا : أَوَّلُ الْبَلَاغَةِ اجْتِمَاعُ آلَةِ الْبَلَاغَةِ وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ
رَابِطَ الْجَاشِ سَاكِنِ الْجَوَارِحِ مُتَحَيِّرًا لِلْفِظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْأَمَّةِ
بِكَلَامِ الْأَمَّةِ وَالْمُلُوكِ بِكَلَامِ السُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ التَّصَرُّفُ فِي
كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يَدَقُّ الْمَعَانِي كُلَّ الدَّقِيقِ وَلَا يُتَقَحُّ الْأَلْفَاظَ كُلَّ التَّقَحُّحِ
وَيُصْفِيهَا كُلَّ التَّصْفِيَةِ وَيَهْدِيهَا كُلَّ الْهَدْيِ وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى
يَصَادَفَ حَكِيمًا وَفِيلَسُوفًا عَظِيمًا . وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ الْكَلَامِ
وَإِسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ الْأَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صَاعَةِ الْمُنَظِقِ عَلَى جَهَةِ

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

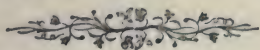
(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوِ مَا مِنْ أُنْحَاءِ الْبَلَاغَةِ
وَمُسْتَهَيًّا مِنْهَا إِلَى مَقْدَارٍ مَا وَذَلِكَ فِي صَنْفِي الْأَقَارِيلِ الَّذِينَ أَحَدُهُمَا
الْمُطَاوَرَةُ وَالثَّانِي التَّعْلِيمُ وَالْإِرْشَادُ . وَكَثُرَ ذَلِكَ فِي الْمَوْضُوعَاتِ
الْخَاصَّةِ بِهَذِهِ الصِّاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ الشِّكَايَةِ وَالْإِعْذَارِ وَسَائِرِ الْأَقَارِيلِ
الَّتِي فِي الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ
بِهَذَا الْفِعْلِ . فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِإِلَافٍ تَفَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ
بِالْإِعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الصِّاعَةَ
بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُهَا بِإِلَافٍ تَفَاقٍ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
كَذَلِكَ فَالَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِالسَّبَبِ الَّذِي بِهِ يَفْعَلُ
فِعْلَهُ يَكُونُ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ . وَهَذَا أَسْرُ يَعْرِفُهُ الْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنْ
الْخَوَاصِّ . وَلِذَلِكَ كَانَ وَاجِبًا أَنْ تُثَبَّتَ أَجْزَاءُ هَذِهِ الصِّاعَةِ فِي
كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرُ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ فَقَطُّ وَلَا بِالْإِعْتِيَادِ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ



إِذَا اسْتَعْمَلْتَ نَحْوَ هَذِهِ الْغَايَةِ . وَأَمَّا إِذَا اسْتَعْمَلْتَ عَلَى طَرِيقِ
 الْإِمْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَا . وَأَمَّا الْخُطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خُطِيبًا مِنْ أَجْلِ
 الْأُمُورِ الَّتِي مِنْ خَارِجِ مِثْلِ الْكِرَامَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ
 الْخَيْرَاتِ أَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَكَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ كَانَتْ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي
 يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْقَنَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُثْقَنَةٍ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ . لِأَنَّ
 الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ الْأَقَاوِيلِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ قَدْ يَكُونُ بَيْنَهُ مَقْصُودُ
 السُّوفِسْطَائِيِّ . وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ
 الصَّنَاعَةِ مِنَ الَّذِي يُرَادُ إِقْنَاعُهُ إِنَّمَا هُوَ الْفِعْلُ أَوْ الْإِنْفِعَالُ فَإِذَا
 حَصَلَ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ حُصُولُهُ عَنْ أَقَاوِيلٍ هِيَ
 مُثْقَنَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ عَنْ أَقَاوِيلٍ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْقَنَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُثْقَنَةٍ .
 فَإِنْ كَانَ هَذَا الْفِعْلُ الْمَقْصُودُ مِنَ التَّخَاطُبِ أَوْ الْإِنْفِعَالِ خَيْرًا مَّا
 لَهُ لَا لِلْخُطِيبِ كَانَتْ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُثْقَنَةٌ وَلَيْسَتْ
 بِمُثْقَنَةٍ دَاخِلَةً فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ بِالْجِهَةِ الَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ
 الْأَقَاوِيلُ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ إِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ السَّفْسَطَةِ .
 وَإِنْ كَانَ مَقْصَدُ الْخُطِيبِ خَيْرًا يَمُوتُ مِنْ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَقْصِدُهَا
 السُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ الْقَوْلُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُثْقَنٌ وَلَيْسَ بِمُثْقَنٍ
 مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِذْ قَدْ يُشَارِكُ
 الْخُطِيبُ السُّوفِسْطَائِيُّ فِي غَايَتِهِ . فَلِذَلِكَ قَدْ تَدْخُلُ الْأَقَاوِيلُ
 السُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ



هَذِهِ الصَّنَاعَةُ أَنْ تُقْنَعَ وَلَا بُدَّ . أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ يَتَّبِعُ فِعْلَهَا إِلَّا قَنَاعٌ
 ضَرْوَةٌ كَمَا يَتَّبِعُ فِعْلَ الْبَحَّارِ وَجُودُ الْكُرْسِيِّ ضَرْوَةٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ
 هُنَاكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ بَلْ عَمَلُهَا هُوَ أَنْ تُعْرِفَ جَمِيعَ الْمُفْنِعَاتِ فِي الشَّيْءِ
 وَتَأْتِي بِهَا فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ وَإِنْ لَمْ يَقَعِ اقْتِنَاعٌ . وَالْحَالُ فِيهَا فِي هَذَا
 الْمَعْنَى كَالْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلَ صِنَاعَةِ الطِّبِّ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهَا
 إِلَّا بَرَاءٌ وَلَا بُدَّ . بَلْ إِنَّمَا فِعْلُهَا أَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الشَّيْءِ الْمُمْكِنِ
 فِعْلُهُ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمَقْصُودِ بِالْإِبْرَاءِ . وَإِذَلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي أَعْمَالِ
 هَذِهِ الصَّنَائِعِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا مِثْلَ أَنْ يُبْرَى مَنْ لَيْسَ بِطَبِيبٍ
 وَيُقْنَعُ مَنْ لَيْسَ بِمُحَاطِبٍ لَكِنْ الْفِعْلُ الْحَقِيقِيُّ إِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ
 الصَّنَاعَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْغَايَةَ تَتَّبِعُ فِعْلَ هَذَا عَلَى الْأَكْثَرِ وَذَلِكَ عَلَى
 الْأَقَلِّ . وَكَمَا أَنَّ فِي الْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ
 وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ الْقِيَاسُ السُّوفِسْطَائِيُّ كَذَلِكَ فِي الْأَقَاوِيلِ الْمُفْنِعَةِ
 الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنَعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنَعٌ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ . لَكِنْ لَمَّا كَانَ السُّوفِسْطَائِيُّ لَيْسَ إِنَّمَا يَكُونُ
 سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ الْقُوَّةِ وَالْمَلَكَةِ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْأَقَاوِيلَ
 السُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ
 الْأَقَاوِيلِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْخَيْرَاتِ الْخَارِجَةِ وَذَلِكَ لِإِيْهَامِهِ أَنَّهُ
 حَكِيمٌ وَكَانَ أَجْدِييًّا إِنَّمَا هُوَ جَدِييٌّ بِالْمَلَكَةِ الْخَاصَّةِ لَهُ عَنِ الصَّنَاعَةِ
 فَبِالْوَاجِبِ لَمْ تَكُنْ الْأَقَاوِيلُ السُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ الْجَدَلِ
 أَعْنِي الَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقَائِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةٌ

بِالْمَحْمُودَاتِ. وَهَذِهِ الْمُنْفَعَةُ تُشَارِكُ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ فِيهَا صِنَاعَةُ الْجَدَلِ
 كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ يُمَكِّنُهَا الْإِقْتَاعُ فِي
 الْمُتَضَادِّينِ جَمِيعًا كَمَا يُمَكِّنُ ذَلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذَلِكَ أَنَّا
 قَدْ نَفَعْنَا فِي الْجَانِبِ أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسَىءْ وَلَسْتُ أَغْنِي أَنَا نَفْعُ
 الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفَعْنَا هَذَا فِي وَقْتٍ وَهَذَا فِي وَقْتٍ
 بِحَسَبِ الْإِنْفَعِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ
 وَضِدَّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَآيضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي
 تُثَبِّتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي
 الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ يَبْدُلُ امْتِكِنًا بِهِهِ الْقُوَّةَ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ.
 فَهَاتَانِ الْمُنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ عَلَى
 الْإِقْتَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ هُمَا
 مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبَعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْإِقْتَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَغْنِي أَنَّهُ
 أَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تَوْجُدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْإِقْتَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ
 مِنْهَا فِي الْآخِرِ بَلْ الْإِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْإِقْتَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ
 هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصَّنَاعَتَيْنِ أَغْنِي الْأَشْيَاءُ
 الَّتِي فِيهَا تُقْنَعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْإِقْتَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لَكِنْ
 إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْنَعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ الْأَقَاوِيلُ الْخَطِيئَةُ
 وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلُ وَآبَلُغَ... فَقَدْ اسْتَبَانَ مِنْ هَذَا
 أَنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلَكِنَّهَا تَنْظُرُ
 فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهَذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) وَلِلْخُطَابَةِ مَنَفَعَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ يَحْتَّ الْخُطِيبُ الْمَدَنِيِّينَ عَلَى
الْأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِالطَّبَعِ يَمِيلُونَ إِلَى ضِدِّ الْفَضَائِلِ
الْعَادِلَةِ فَإِذَا لَمْ يُضْطَبُّوا بِالْأَقَاوِيلِ الْخُطِيبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ أَغْدَادُ الْأَفْعَالِ
الْعَادِلَةِ . وَذَلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ التَّأْنِيبَ وَالتَّوْبِيخَ أَعْنِي
الَّذِي يَمِيلُ إِلَى ضِدِّ الْأَفْعَالِ الْعَادِلَةِ أَوِ الْمَذْذِرَ الَّذِي لَا يُضْطَبُّ
الْمَدَنِيِّينَ بِالْأَقَاوِيلِ الْخُطِيبِيَّةِ عَلَى الْفَضَائِلِ الْعَادِلَةِ الَّتِي هِيَ فَضَائِلُ
بَيْنِ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَشَارِكِ لَهُ فِي أَيْ شَيْءٍ
كَانَتْ الشَّرَكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ . (وَالْمَنَفَعَةُ الثَّانِيَةُ) أَنَّهُ لَيْسَ
كُلُّ صِنْفٍ مِنَ أَصْنَافِ النَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ الْبَرْهَانُ
فِي الْأَشْيَاءِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ مِنْهُمْ اعْتِقَادُهَا . وَذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّ
الْإِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تَخَالِفُ الْحَقَّ فَإِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ
الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهْلَ إِقْنَاعِهِ . وَإِمَّا لِأَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً
لِقَبُولِ الْبَرْهَانِ أَصْلًا . وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ
الْيَسِيرَ الَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وَقُوعُ التَّصَدِيقِ فِيهِ . فَلِهَذَا قَدْ نَضَرْتُ إِلَى أَنْ
تُحْصَلَ التَّصَدِيقُ بِالْمَقَدَّمَاتِ الْمُشْرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُخَاطَبِ أَعْنِي

وَالْجَوْرُ أُمُورٌ كُليَّةٌ. وَأَمَّا اسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ
فَلَهُ فِي ذَلِكَ تَأْيِيدٌ لِكُنْهَ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ
بِالذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُعْمِلُ الْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى
أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ الْمُنَاطِرِ بِذَلِكَ تَصْدِيقٌ
زَائِدٌ بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ السُّنَنُ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ الْأَمْرَ
جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُقَوِّضُ أَنَّ الْأَمْرَ وَجِدَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ أَوْ لَمْ
يُوجَدِ إِلَى الْحُكَّامِ. وَإِلْجُمْلَةٍ قُتُقَوِّضُ إِلَيْهِمُ الْأُمُورَ الْيَسِيرَةَ وَذَلِكَ
لِشَيْئَيْنِ : (الْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ الْأُمُورَ
عَلَى كُنْهَا فَيَضَعُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ جَوْرٌ وَهَذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي الْأَقْلِ مِنْ
الزَّمَانِ وَآكُثَرُ الْحُكَّامِ الْمَوْجُودِينَ فِي الْمَدَنِ لَيْسَ لَهُمْ هَذِهِ
الْقُدْرَةُ. (وَالثَّانِي) فَلِإِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ
يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ السُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ فِي الزَّمَانِ
الْيَسِيرِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ التَّنَاطُرُ فِي الشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ الْحُكَّامِ فَلِمَكَانٍ
هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَضَعُ أَنْ يُقَوِّضَ إِلَى الْحُكَّامِ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ عَدْلٌ
أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُقَوِّضُ إِلَيْهِمُ أَنَّ الْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ
هَذَا الشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذَلِكَ إِيْيَانِهِ وَلَا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَضَعَهُ صَاحِبُ السُّنَّةِ



تُجَدُّ جَمِيعُ الْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهَا بِخَوِّ مَا . وَإِذَا سَأَلْتَ هَاتَانِ
الصَّنَاعَتَانِ مُشْتَرَكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِيهِمَا إِصْنَاعَةً
وَاحِدَةً وَهِيَ صِنَاعَةُ الْمُنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ اسْتِعْمَالَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي
التَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ الْخُطَابَةِ هُوَ
الصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنْ اسْتَعْمَلَ أَحَدُ هَذَا الْقَانُونِ أَنْ يَكُونَ
بِاسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ لَيْبًا أَدْبِيًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
الْأُمُورَ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنَّ
الَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثَبِّتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ الْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثَبِّتَ
أَنَّ الشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنَى أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ .
وَذَلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي فِيهِ الشَّكْوَى
عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثَبِّتَ الْأَمْرَيْنِ وَذَلِكَ
إِذَا لَمْ يُحَدِّدِ الشَّرِيعَةُ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي فِيهِ الْكَلَامُ . فَاِمَّا اسْتِعْمَالَ
الْإِنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ الْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمَكِّنٍ . وَذَلِكَ
أَنَّ الْإِنْفِعَالَاتِ بِالرَّحْمَةِ أَوْ الْبُغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لَشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَالْعَدْلُ

أَبْرَهَانَ وَيُقْنَعُ فِي الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا . وَكَذَلِكَ الْهَنْدَسَةُ
إِنَّمَا تُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ الْأَبْرَهَانَ وَعَلَى طَرِيقِ الْإِقْنَاعِ فِي الْأَعْظَامِ
وَالْأَشْكَالِ الَّتِي تُوجَدُ فِي الْأَجْسَامِ . وَأَمَّا الْخُطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ
الْإِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَآيِ جِنْسٍ كَانَ وَلِذَلِكَ
لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍ

المبحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد) Bekker, p. 1

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ الْخُطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ الْجَدَلِ . وَذَلِكَ أَنَّ
كِلَيْهِمَا يَوْمَانِ غَايَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ مُحَاطَةُ الْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ
الصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا الْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَالْحَالِ فِي
صِنَاعَةِ الْأَبْرَهَانَ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ الْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوِ مِنْ
الْأَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى النَّظَرُ فِي جَمِيعِ
الْأَشْيَاءِ وَيُوجَدُ اسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ أَغْنَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ
يَسْتَعْمِلُ بِالطَّبَعِ الْأَقَاوِيلَ الْجَدَلِيَّةَ وَالْأَقَاوِيلَ الْخُطْبِيَّةَ . وَإِنَّمَا كَانَ
ذَلِكَ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصَافٌ مِنَ النَّاسِ
خَاصَّةٌ . وَلَكِنْ مِنْ جِهَةٍ أَنْ هَذَيْنِ (أَيِ الْخُطَابَةِ وَالْجَدَلِ) يَنْظُرَانِ
فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعِ الْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) الْخُطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ الْإِقْنَاعَ الْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِالْقُوَّةِ) الصَّنَاعَةُ الَّتِي تَفْعَلُ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتَّبِعُ غَايَتَهَا فَعَلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَكَلُّفٍ) أَي تَبَذُّلُ مَجْهُودَهَا فِي اسْتِقْصَاءِ فِعْلِ الْإِقْنَاعِ الْمُمْكِنِ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الْقَوْلُ وَذَلِكَ يَكُونُ بَغَايَةً مَا يُمَكِّنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ) أَي فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَفْرَدَةِ الَّتِي تَتَفَصَّلُ بِهَذِهِ الصَّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي يُظَنُّ أَنَّهَا قَدْ تُنْفَعُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَنْظَرُ فِيهَا . وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ إِنَّمَا هِيَ مُعَلَّمَةٌ أَيْ مُبْزَهَنَةٌ وَمُقَبَّعَةٌ فِي الْجِنْسِ الَّذِي تَنْظَرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الطَّبَّ إِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى المفظوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنه القول وأبرز فيه الحكم من الاجناس العالیه المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون له والموضوع)

يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالَاتِ. وَلَمَّا ظَهَرَ أَرِسْطُو فِي يُونَانَ وَهَذَبَ
مَبَاحِثَ الْمُنْطِقِ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصِّلَتْ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ
وَفَاتَحَتْهَا جَعَلَ الْخُطَابَةَ أَحَدَ أَقْسَامِهِ الثَّانِيَةِ. وَهَذِهِ الْأَقْسَامُ تَشْتَمِلُ
عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ الْقِيَاسِ وَهِيَ كُتُبُ الْقَوْلَاتِ
وَالْعَادَةِ وَالْقِيَاسِ وَالْبُرْهَانِ وَأَرْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَهِيَ كُتُبُ الْجَدَلِ
وَالسَّفْسَطَةِ وَالْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطَالِبَ التَّصْديْقِيَّةَ عَلَى
أَحْكَامٍ فِينَهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْيَقِينَ يَطْعُهُ رَهُوَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ
الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ الْأُولَى. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ الظَّنَّ وَهَذَا
تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْأَرْبَعَةُ الْآخَرَى. وَفِيهَا تَدْخُلُ الْخُطَابَةُ.
وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي أَلِفْةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَكُتِبَتْهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَا سِفَةَ الْإِسْلَامِ
بِالشَّرْحِ وَالتَّخْيِصِ كَمَا فَعَلَهُ الْفَارَابِيُّ وَأَبْنُ سِينَا ثُمَّ أَبْنُ دُشْدِ مِنْ فَلَا سِفَةَ
الْأَنْدَلُسِ. وَلِأَبْنِ سِينَا كِتَابُ الشِّفَاءِ أَسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ الْفَلَسَفَةِ
كُلُّهَا. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا أَصْطِلَاحَ الْمُنْطِقِ وَحَصَرُوا مَطَالِبَهُ فِي
كُتُبِ خَمْسَةِ الْبُرْهَانِ وَالْجَدَلِ وَالْخُطَابَةِ وَالشَّعْرِ وَالسَّفْسَطَةِ وَرَبَّمَا يَلِمُ
بَعْضُهُمْ بِأَلْسِينِ مِنْهَا إِمَامًا وَآغْفَلُوا هَا كَانَ لَمْ تَكُنْ هِيَ الْمَهْمُ الْعَتَمَدُ
فِي الْفَنِّ. وَأَمَّا الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كِتَابُ الْخُطَابَةِ فَهُوَ تَعْرِيفُ الْمَقَالِيْسِ
الْخُطَابِيَّةِ الْبَلَاغِيَّةِ النَّافِعَةِ فِي مُحَاطَبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمَشَاوِرَاتِ
وَالْمُحَاصِمَاتِ فِي الْمَشَاجِرَاتِ أَوْ الْمَذَحِ أَوْ الْأَذَمِّ أَوْ الْحِيلِ النَّافِعَةِ فِي
الْإِسْتِغْطَافِ وَالْإِسْتِمَالَةِ وَالْإِغْرَاءِ وَتَضْعِيزِ الْأَمْرِ وَتَعْظِيمِهِ وَوُجُوهِ
الْمَعَاذِيرِ وَالْمُعَاتَبَاتِ وَوُجُوهِ تَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ وَخُطْبَةٍ

مَقَالَات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

القسم الأول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عن كليات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

الخطابة في اللغة كالخطاب وهي الكلمة أو اللفظ المتواضع
عليه المقصود به افهام من هو متعهي لفهيه وهو يطلق على الكلام
النفسي الموجه نحو الغير للافهام. وعند الحكماء الخطابة هي
القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن

PJ
6161

C54
1889

v. 2



كتاب

عليه السلام

مقالات

مِلْشَا هِيرَا الْعَرَبِ

على الجزء الثاني

من

عليه السلام

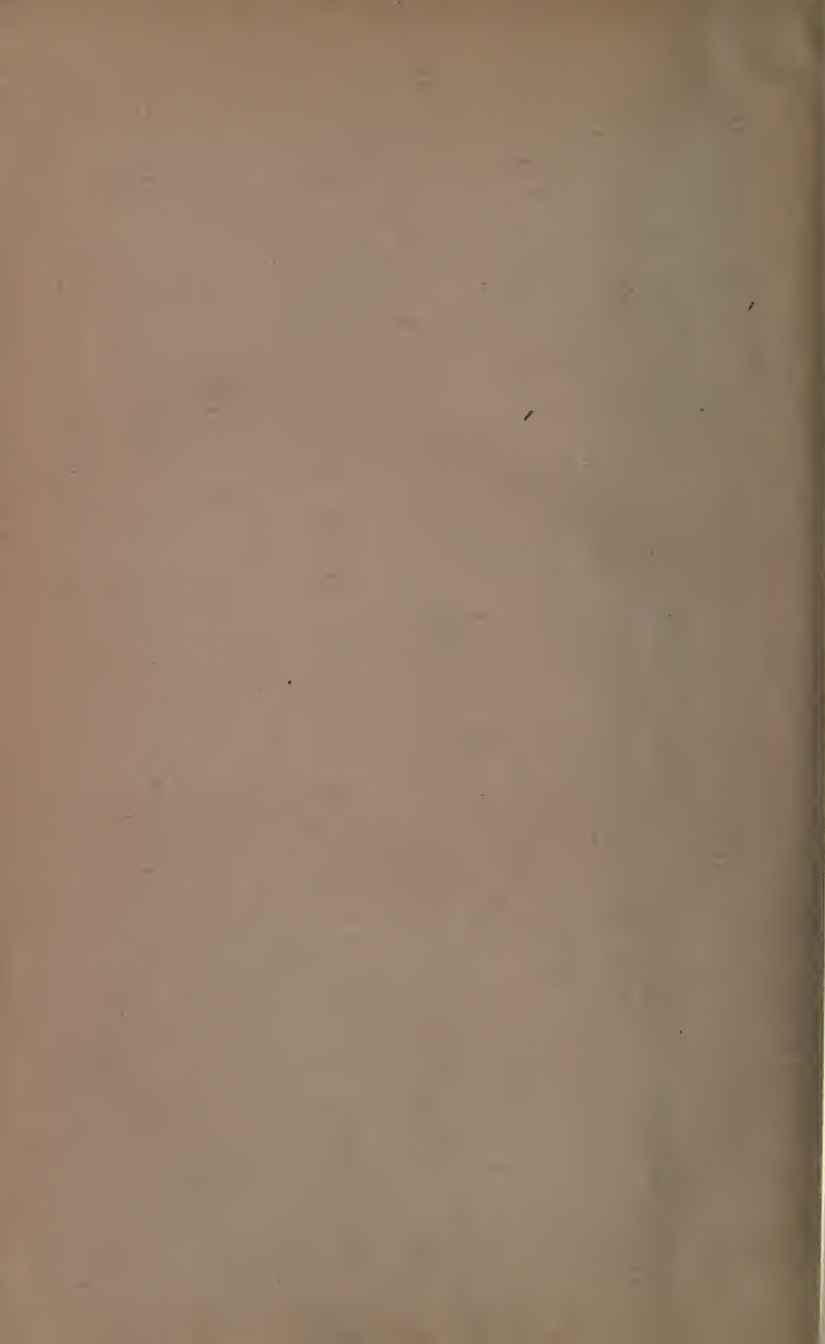
جمع الاب لويس شينجو اليسوعي



حق الطبع محفوظ للمطبعة

طبع في مطبعة الابهاء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩



PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

PJ
6161
C54
1889
v.2

Cheikho, Louis
'Ilm al-adab

كتاب

علم الأديب

مقالات

لمشاهير العرب

على أمير الثاني

من

علم الأديب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



حق الطبع محفوظ للمطبعة

طبع في مطبعة الاء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩